ألا له الخلق والأمر

مفهوم القدر والحرية
عند أوائل الصوفية

إعداد

الشيخ/ محمود بن عبد الرازق

توزيع

مكتبة الإحسان

بالجمالية ــ دقهلية

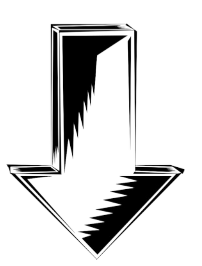
ت : 731912

* كتب للمؤلف *

1- توحيـــد العبـــادة ومفهـــوم الإيمـان - الطبعــــة الأولى نفـــدت ـــ مطبعــة التقدم - المنيرة - القاهرة .
2- تـــوحيد الصــفات بين اعتقــاد الســلف وتأويلات الخلف - الطبعــة الثانيــة دار نور الإسلام للنشر والتوزيع - المنصـورة .
3- القـــواعد السلفية فى الصـفات الربانيـة - الطبعــة الثانيــة مطبعــة دار الوفــاء - المنصورة .
4- محنة الإمـام فى صـفة الكلام - الطبعـة الأولى - توزيـع مكتبـة الإحسـان بالجماليـة دقهلية .
5- مفهوم القدر والحرية عند أوائل الصوفية - الطبعة الأولى توزيـع مكتبـة الإحسـان بالجمالية دقهلية .

رقم الإيـداع بدار الكتب 8814 / 1995

الترقيـم الدولى I . s . b. n /
977 - 272 - 794 - 5



الطبعة الأولى
سنة 1995م / 1416هـ

توزيع
مكتبة الإحسان
بالجمالية ـ دقهلية
ت : 731912

الـمقــدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

إن الحمد لله نحمـده ونسـتعينه ونسـتهديه ونستغفره ونتوب إليه ونعـوذ باللـه من شـرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا ، إنه من يهده اللـه فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى لـه ، وأشـهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك لـه وأشـهد أن محمدا عبده ورسـوله سـيد المرسـلين وخـاتم النبـيين صـلى اللـه عليـه وعلى آلـه وصـحبه أجمعين .

وبعد ... فإنه من رحمة الله سبحانه وتعالى وعظيم لطفه بخلقــه أن جعـــل الرســـالة الإسلامية خاتمة الرسالات السماوية ، وجعلهــا سبحانه وتعالى كاملة صافية نقية لا يزيغ عنهــا إلا هالك قال تعالى :

{ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا } (1) .

وكتب ـ تبارك اسمه وتعالى جده ـ السـعادة فى الدارين لأتباع هذه الرسالة الـذين قـدروها حق قدرها وقاموا بهـا على وفـق مـا أراد اللـه وعلى هدى نبى الله صـلى اللـه عليـه وسـلم ، فكان منهم خير القرون ومن جاء بعــدهم ممن زكاهم رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم فى

قولـه : **(خير النـاس قـرنى ثـــم الـذين يلونهم ثم الذين يلونهم) .**
قـال عمـران بن حصين راوى الحديث : (فلا أدرى أذكـر بعــد قرنـه قـرنين أو ثلاثة) (1) .

———

1- المائدة / 3 .

وبعد خير القرون كانت الفترة الزمنية الــتى لفتت أنظار البـاحثين بمـا حوتـه من متغـيرات فى الفكر الإسلامى وتأصيل للمناهج المختلفـة لدى الطوائـف الإسـلامية حيث تشـابكت فيهـا الأفكـار وتعـددت الطوائـف وبـدأت الشـوائب تتسرب إلى النبع الإسلامى .

فقـام كـل بـاحث يأخـذ شـريحة من هـذه الفترة يفحصها ويرد الأمور إلى نصـابها ويقـرر النتائج عنها ، ومما ميز الله بـه هـذا الـدين أن جعله محفوظا على الدوام منهجا ثابتا لا يتغــير وواقعا مرئيا تقام به الحجة على العباد ، فقـال تعالى فى حفظ منهجه :

{ إنــا نـحــن نزلنا الذكر وإنا له لحــافظــون } (2) .

وقال صلى الله عليه وسلم فى وجـوده واقعـا مستمرا إلى قيام الساعة :

———

1- أخرجه البخـارى فى كتـاب فضـائل الصـحابة ، بـاب فضـائل أصـحاب النـبى صـلى اللـه عليـه وسـلم ومن صـحب النـبى أو رآه من المسـلمين فهـو من أصـحابه حديث رقم (4650) وأخرجه مسلم فى كتاب فضـائل الصحابة ، باب فصل الصحابة ثم الـذين يلـونهم حـديث رقـم (2535) وأخرجه أبو داود فى كتاب السـنة ، بـاب فضل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حـديث رقـم (4657) والترمذى فى كتـاب الفتن ، بـاب ماجـاء فى القرن الثالث حديث رقم (2222) .
2- الحجر / 9 .

(إنــه ســيكون فى أمــتى كــذابون ثلاثون كلهم يزعم أنـه نـبى وأنـا خـاتم النبيين لانبى بعـدى ، ولا تـزال طائفـة من أمتى على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم حتى يـأتى أمـر اللـه تبـارك وتعـالى) وفى روايــة : (لا يضــرهم من خالفهم حتى تـأتيهم السـاعة وهم على ذلك) (1) .

وقـد جعـل اللـه الاختلاف مقـدرا فى سـننه الكونية ومحلا للابتلاء بين العباد فقـال تعـالى : **{ ولــو شــاء ربــك لجعــل النــاس أمــة واحــــدة ولا يزالـــون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم }** (2) .

وعلى الرغم من ذلك نهانا عنه وحذرنا منــه وأمرنـا بالاعتصـام بمنهجـه المتمثـل فى كتابـه

وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فقال جل ذكره :
{ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا } (3) **.**
وقال أيضا : **{ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة**

1- أخرجه مسلم فى كتاب الإمارة ، باب قوله صلى الله عليه وسلم : **(لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق)** حديث رقم (1924) وأبو داود فى كتاب الفتن ، باب ذكر الفتن ودلائلها برقم (4252) وابن ماجه فى كتاب الفتن ، باب ما يكون من الفتن برقم (3952) وأخرجه أحمد فى المسند حـ 5 ص 278 وأخرجه الحاكم فى المستدرك وصححه حـ 4 ص 456 ، ص 457 .
2- هود / 118 : 119 .
3- آل عمرا ن / 103 .

أو يصيبهم عذاب أليم } (1) .
فمن جانب السنن الكونية حدث الاختلاف بين الأمة ، ومن جانب التكليف والعلم كلفنا الله سبحانه وتعالى بأخذ الأسباب فى خدمة الكتاب والسنة .
وقد حاولت فى هذه البحث الذى تقدمت به لنيل درجة الماجستير أن أبين موقف أوائل الصوفية من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومدى تأثيرهم وإسهامهم سلبا

أو إيجـابا فى الحفاظ على العقيدة الإسلامية ، وذلــك من خلال مفهــومهم للقضــاء والقــدر ومدى حرية الإنسـان ومسئوليته عن أفعالـه ، كما حاولت من خلال البحث إظهار المخالفـات الـتى وقعـوا فيهـا والـتى نتجت عنهـا سـلبيات الواقع الصوفى المنتشـرة فى البلاد الإسـلامية قديما وحديثا .

* أهمية الموضوع :

من المؤســف أن الواقـــع الصـــوفى فى الماضى والحاضر قد اختلـط بالشـطح والبـدع والخرافات ودعـاء الأمـوات وتشـييد الأضـرحة والعكوف على قبـور الصـالحين وشـد الرحـال إليهم ، وانتشار الطرق الصوفية بشكل يجــر إلى البدعــة ويخــرج عن معـنى الترابـط والوحـدة فى متابعـة النـبى صـلى اللـه عليـه وسلم .

1- النور / 63 .

وقد ظهرت أمور غريبة لا تتفق وروح الإســلام امتــدت قرونــا طويلــة تحت شـعار التصــوف وانصـــــبت فى أرض الواقــــع ، فــــازدادت المخالفــات باســم التصــوف ووقــف النــاس مــواقف متعدده بين منكر ومتحامـل بـالحق أو الباطـل ، كـل ذلـك والعيـــون تـرقب الأمـــة الإسـلامية وتـتربص بهـا من الـداخل والخـارج

بغية فى تشويه فكــرها وتشـتيت شـملها ومن ثم كانت أهمية الموضـوع ممثلـة فى الجـوانب الآتية :

1- الوقـــوف على الحقـــائق الفكريـــة لمنهج الصوفية فى الفترة التى تلت خير القــرون إذ أنها تمثل منعطفا خطيرا فى تاريخ الأمة الإسلامية .
2- واقعية الموضوع وأثـره فى تصـحيح الحيـاة الصوفية المعاصرة من خلال تقديم دراسـة علميـــة نزيهـــة للمؤيـــدين أو المعارضـــين للتصـــوف بغيـــة التجـــرد للوصـــول إلى الحقيقة .
3- الوقـــوف على مكانـــة الأوائـــل وســـلوكهم ومنهجهم فى الحياة بذكر مالهم وما عليهم ليتأسى الناس بالفضيلة والأخلاق الحميدة .
4- العمـل على كشـف الشخصـيات الصـوفية الـتى أسـهمت فى إثـراء الفكـر الصـوفى بصفة خاصة والفكر الإسلامى بصورة عامة .
5- تقــديم رؤيــة إســلامية صــحيحة وواضــحة لأخطر القضايا الفكرية وهى قضية القضـاء والقــدر وعلاقتهــا بأفعــال العبــاد من خلال معالجة الصوفية الأوائل لها .
6- إخراج المعانى الصوفية التى تخدم الإسلام وخاصــة مفهــوم الحريــة بــالمنظور الــذى

يعالج ويصحح مفهوم الحرية عند الشباب المسلم فى العصر الحاضر ، فالحرية عندهم ترتبط بالعبودية إرتباطا وثيقا لا ينفصل .

7- كشف المعانى الدخيلة على التراث الإسلامى فى الفترة التى تلت خير القرون ، والوقوف على مدخل القول بالحلول والاتحاد ووحدة الوجود وغير ذلك من المعانى التى قبحها مشايخ الصوفية .

8- العمل فى سبيل الفهم الصحيح الذى يدعو إلى وحدة الصف المسلم ونبذ المغالاة ورد الشباب المسلم إلى طريق الاعتدال من خلال نظرة الأوائل للحياة وفهم الغاية منها .

* منهج البحث :

يلتزم هذا البحث منهجا تبدو معالمه فيما يلى :

[1- استقراء تراث الصوفية فى الفترة الزمنية التى تلت عصر خير القرون وهى على وجه التقريب من بداية القرن الثالث الهجرى إلى نهاية القرن الرابع ، ثم التحليل والوصف فى عرض القضايا التى تتصل بموضوع الدراسة والبحث تحليلا يشمل التركيز على محتوى النصوص التى ثبتت عنهم ليكون الحكم حكما سليما معبرا بحق

عن رأى الصوفية .
[2- الاعتماد على الشخصيات الصوفية البارزة الـتى تـركت بصـمات واضـحة فى مجـال التصـــوف ســـواء بالـــدعوة أو الكتابـــة والتصـنيف وتقريـر القضـايا المعينـة مـع الاستشهاد بأقوال الآخرين كلما أمكن .
[3- اعتبار الصـوفى الـذى أدرك جـزءا مناسـبا من القـــرنين الهجـــرين الثـــالث والرابـــع شخصـــــية مؤثـــــــرة فى البحث يمكن الاسـتعانة برأيـه وبمـا أدلى بـه فى إتمـام الموضوع .
[4- إخراج المـادة العلميـة فى كـل مبحث فى أفكار محددة جامعة للموقف الصـوفى مـع الاســتعانة ببعض الأشـــكال والرســـومات البيانية التى تجسد الفكـرة وتقـرب المـراد إلى القارئ .
[5- الرجـوع المسـتمر إلى النصـوص القرآنيـة والأحـــاديث النبويـــة والتعليقـــات الســـلفية لمقارنة الرأى الصـوفى بـالمنهج الإسـلامى الصافى ومدى قربه أو بعده منه .
[6- البعـــد عن التهويـــل والتهـــوين والإفـــراط والتفريـــط فى عـــرض القضـــايا والاقتصـــار على التجرد فى طـرح الحقـائق الموصـولة للحكم وبسط المقدمات الموصولة للنتـائج مـع الترجمـة المختصـرة والمركـزة لكـل

شخصـية صـوفية عنـد الموضـع المناسـب وتخريج الآيـات والأحـاديث على منهج أهـل الحديث .

* **خطة البحث :** وقد جاء البحث مرتبا على هذا النحو :

*** المقدمة وقد اشتملت على مايأتى :**

*** ســــــبب اختيـــــــار البحث 0**

*** أهـميـــة الموضـوع 0**

*** منهـــــــــج الـبحـــــــــث 0**

*** خطـــــة الـبحـــــث 0**

*** البــاب الأول : دراســة تمهيديــة فى واقــع الصوفية ومفهوم القدر والحرية 0**

ويشتمل على فصلين :

*** الفصل الأول : واقع التصوف والصوفية فى القرنين الثالث والرابع الهجريين 0**

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

ا ـــ المبحـــــث الأول : التصـــوف نسبتـــــه ومعنــاه 0

ب ـــ المبحث الثـانى : دراسـة العوامـل الـتى أسهمت فى ظهور التصوف 0

جـ ـــ المبحث الثـالث : موضــــــوع التصــوف وأهـم قضاياه 0

*** الفصل الثانى : دراسة فى مفهوم القـدر و الحرية وقد اشتمل على ثلاثة مباحث :**

ا ــ المبحـــث الأول : الحرية لغة وشرعا 0

ب ــ المبحث الثانى : الحرية فى تـاريخ الفكـر الإسلامى 0

جـ ــ المبحث الثـالث : الحريـة ومنهج الحيـاة الإسلامية 0

البــاب الثــانى : الحريــة مــن الجــانب الاعتقـادى

مفهـوم القضـاء والقـدر وعلاقتـه بالحرية عند أوائل الصوفية

ويشتمل على فصلين :

*** الفصل الأول : موقـف أوائـل الصـوفية من صفـات الله وعلاقته بموضوع القدر والحرية**

وقد اشتمل على أربعة مباحث :

ا ــ المبحث الأول : منهج أوائـل الصـوفية فى فهـم المسـائل الاعتقـادية 0

ب ــ المبحث الثانى : موقـف أوائـل الصـوفية من صفات الذات وصفات الفعل 0

جـ ــ المبحث الثـالث : إفـراد اللـه بالفاعليـة أساس العقيـدة عند أوائل الصوفية 0

د ــ المبحث الرابع : مـراتب الإيمــان بالقــدر عنــد أوائل الصـوفية 0

*** الفصل الثاني : الحرية وأصالتها فى الــذات الإنسانية عند أوائل الصوفية 0**

وقد اشتمل على خمسة مباحث :

ا ــ المبحث الأول : مفهــوم الـذات الإنسـانية عنــدأوائل الصــوفيـة 0

ب ــ المبحث الثـانى : الإرادة الحـرة وأصـالتها فى الذات الإنسانية 0

جــ ـــ المبحث الثــالث : دوافــــع الإرادة وبواعثهـــا عنـــد أوائل الصوفيـــة 0

د ــ المبحث الرابع : موضوع الاختيـار البشـرى ومجاله عند أوائل الصوفية 0

و ـ المبحث الخـامس : العلاقــة بين المشـيئة الإلهية والإرادة الإنسانيـة 0

*** البــاب الثـالث : الحريــة من الجـانب العملى السلوكى**

وقد اشتمل على فصلين :

*** الفصـــل الأول : الاســـتطاعة البشـــرية والفاعليــة الإلهيــة وقــد اشــتمل على أربعــة مباحث :**

ا ـــ المبحث الأول : الاسـتطاعة من مقومـات الحرية عندأوائل الصوفية 0

ب ـــ المبحث الثـانى : الاسـتطاعة وعلاقتهـا بالعلل والأسباب 0

جـ ـــ المبحث الثـالث : العلاقـة بين الفاعليـة الإلهية والفاعلية الانسانية 0

د ـ المبحث الرابع : العلـة من خلـق الأواسـط والأسباب عند أوائل الصوفية 0

*** الفصـــل الثـــانى : الحـــرية ومنهــــج العبــــودية وقد اشتمل على أربعة مباحث :**

ا ـ المبحث الأول : العقل والعلم من مقومات الحرية 0

ب ـ المبحث الثـانى : الحـــرية فى الاصـطلاح الصوفى 0

جـ ـــ المبحث الثـالث : المقامـات الصـوفية وإرادة الحرية 0

د ـ المبحث الرابع : الأحـوال الصـوفية وثمـرة الحرية 0

*** الخاتمة : وقد اشتملت على ما يأتى :**

ا ـــــــــــــــ أهم نتـــــــــــــــائج البحث 0

ب ـ التوصيات التى تتصل بموضـوع الرسـالة 0

* وختــامـــا ... أسـأل اللـه أن يجعـــل عملى خالصـا لوجهـه صـائبا وفـق كتابـه وسـنة نبيـه محمد صلى الله عليه وسلم .

وكتبه الشيخ / محمود بن عبد الرازق بن على

غرة ربيع الأول من عام 1416 هـ

الباب الأول

دراسة فى مفهوم الحرية وواقع الصوفية

ويشتمل على فصلين

الفصل الأول

واقع التصوف والصوفية فى القرنين الهجريين الثالث والرابع

الفصل الثانى

دراسة فى مفهوم الحرية

الفصل الأول

واقع التصوف والصوفية فى القرنين الهجريين الثالث والرابع

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول :
التـصـــــــــــــــــــــــــــوف نسبتـــــــه ومعنـــاه

المبحث الثـانى :
دراسـة العوامـل التى أسهمت فى ظهـــــــــــور التصوف والصوفية

المبحث الثالث :
موضـوع التصـوف وأهم قضاياه

*** المبحث الأول ***

التصوف نسبته ومعناه

من الطبيعى أن نلجـأ إلى اللغـة محـاولين معرفة معنى هذه اللفظة ونسبة اشتقاقها فقد **قيل :**

إن التصوف نسبة إلى الصوف ، وذلـك لأنـه لبـاس خشـن بعيـد عن النعومـة والليونـة وقـد كـان يلبسـه الأنبيـاء والصـالحون وهـو لبـاس الصوفية ومرتبط بالزهد فى أذهانم ، فتصـوف إذا لبس الصوف (1) .

وفى هـذا يـذكر السـهروردى البغـدادى فى عوارف المعارف أن اختيـارهم للبس الصـوف كان لتركهم زينة الدنيا وقناعتهم بسـد الجوعـة وستر العورة واستغراقهم فى أمر الآخرة وهذا الاختيار ملائم ومناسب من حيث الاشتقاق لأنه يقـال : تصـوف إذا لبس الصـوف كمـا يقـال : تقمص إذا لبس القميص .

ولأن ذلـــك أبين فى الإشـــارة إليهم وأدعى إلى حصر وصفهم إذ لبس الصوف كـان غـــالبا على الأنبياء والمتقدمين من سلفهم فحالهــم حـال المقربين (2) .

1- انظر قضية التصوف المنقذ من الضلال للدكتور عبد الحليم محمود ص 31 طبعـة دار المعـارف ، االقـاهرة سنة 1985 بتصرف .

2- عوارف المعارف للسهروردى تحقيـق الـدكتور عبـد الحليم محمود والـدكتور محمـود بن الشـريف حـ 1 ص 211 طبعة دار الكتب الحديثة القاهرة سنة 1971.

وهذه النسبة رجحها كثير من العلمـاء وهى صـحيحة من حيث اللغــة وإن كـان القــوم لم يختصوا بلبس الصوف وحدهم بل كـان يلبسـه غيرهم يقول ابن خلـدون : **(والأظهــر إن قيـل بالاشتقـاق أنـه من الصـوف وهم فى الغــالب مختصــون بليســه لمـــا كانــوا عليه مـن مخالفـــة النــــاس فى لبس فاخــر الثياب إلى لبس الصـوف)** (1) .

وقيل : إنـه نسـبة إلى أهـل الصـفة وهم جماعة من فقراء المهـاجرين الـذين كـانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليـه وسـلم وذلـك لمشاكلتهم الصوفية فى حالهم فهم الذين نزل فيهم قولـه تعـالى : **{ واصـبر نفسـك مـع الـذين يـدعون ربهم بالغـداة والعشـى يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا }** (2) .

وهذه الأوصـاف قائمـة بـالاثنين إذ أن أهـل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم كـانوا فقـراء مهـاجرين فى سـبيل اللــه عــاكفين على الزهــد والعبــادة والتقشــف والنســك ، فلمــا كــانت طائفـــة الصوفية متلبسين بأوصاف أهل الصـفة نسـبوا إليهم ، وقد انتقد القشيرى وغيره هذه النسـبة لمخالفتها مقتضى اللغة (3) .

1- مقدمــة ابن خلــدون تحقيــق د/ على عبــد الواحــد وافى ، لجنـــة البيـــان العـــربى الطبعـــة الأولى ســـنة 1960م ، حـ 3 ص 1062 .   2- الكهف / 52 .
3- انظــر الســابق حـــ3 ص 1074 ، وانظــر عــوارف المعـارف حـ 1 ص 212 والرسـالة القشـيرية حــ2 ص 555 ، اللمع لأبى نصر السراج الطوسى ص 41 .

وقيل : إنما سـموا صـوفية لأنهم بين يـدى اللــه تعـالى فى الصــف الأول وذلــك لارتفــاع هممهم وتعلقهم به وإقبال أســرارهم وقلــوبهم عليه ووقوفهم بكليتهم بين يديــه تعـالى وذلــك لأنهم لم تمتلكهم الدنيا حتى وإن ملكوهــا ، فلا يفوتهم فضل الصف الأول (1) .

وقيل : إنــه نسـبة لبـنى صـوفة قبيلـة من العرب لها صـلة وثيقـة بـالبيت الحـرام فلهـذه الرابطة الـتى تتم بين القــوم وبين بيـوت اللــه تعالى نسب الصوفية إلى بنى صوفه .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية :

وهــذا إن كــان موافقــا للنســب من جهــة اللفظ فإنه ضعيف ، لأن هؤلاء غـير مشـهورين ولا معـروفين عنـد أكـثر النسـاك ، ولـو نسـب النساك إلى هؤلاء لكان هــذا النســب فى زمن الصحابة رضى اللــه عنهم والتـابعين وتـابيعهم أولى ، ولأن غالب من تكلم باســم الصوفية لا يعـرف هــــذه القبيلــة ولا يرضــى أن يكــــون

مضافـــــا إلى قبيلــة فى الجاهليــة ولا وجــود

1- انظــر عــوارف المعــارف حـ 1 ص 218 وأصــول الملامتية وغلطـات الصـوفية مقدمـة التحقيـق للـدكتور عبد الفتاح أحمد الفاوى ص 23 طبعة مطبعـة الإرشـاد القاهرة سنة 1405 هـ 1985 م وانظر قضية التصـوف المنقـذ من الضـلال للـدكتور عبـد الحليم محمـود ص 31 .

لها فى الإسلام (1) .

وكثير من الصوفية أنفسهم نسبوا التصـوف إلى الصـفاء لآن مجاهـداتهم ورياضـاتهم إنمـا تنشد الصفاء فهم من أجل ذلك صوفية .

قال بشر بن الحارث : **الصـوفى من صـفا لله قلبه** (2) .

وسئل سهل التسترى من الصوفى ؟

فقــال : **من صــفا من الكــدر وامتلأ من الفكــر وانقطــع إلى اللــه من البشــر واستوى عنده الذهب والمدر** (3) .

وقال بعضهم (4) :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفـوا : جهـلا وظنـــوه مأخــوذا مـن الصــوف

ولســت أنحــل هذا الإسم غير فــتى : صافى فصـوفى حتى سمى الصوفى

فهم يحـاولون أن يصـفوا أنفسـهم بمرتبـة إيمانيـــة لا تضـــاهى كمـــا جـــاء فى أوصـــاف السابقين الذين قـال فيهم رسـول اللـه صـلى الله عليه وسلم :

1- الصوفية والفقراء لشيخ الإسلام ابن تيمية ص 11 .
2- انظر تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهاية القرن الثانى للدكتور عبد الرحمن بـدوى ص 123 ومـا بعدها طبعة وكالة المطبوعات الكويت سنة 1975 م .
3- عوارف المعارف حـ 1ص 207 .
4- الدر الثمين والمورد المعين للشخ محمـد بن محمـد المالكى حـ 2 ص 169 طبعة مصـطفى البـابى الحلـبى القاهرة سنة 1373 هـ 1960 م .

(يدخل مـن أمتى سبعون ألفـا بغـير حساب ثم وصـفهم وقـال : هم الـذين لا يرقون ولا يسـترقون ولا يكـوون ولا يكتون وعلى ربهم يتوكلون) (1) **.**

وأيـا كـان قـولهم إلا أن واقـع الصـوفية يختلف كثـيرا مـع دعـوتهم وحـالهم ، ولكن مـا نرجحه فى نسبة التصوف هـو مـا ذكـره شـيخ الإسلام ابن تيمية حيث قال :

(هؤلاء نسـبوا إلى اللبسـة الظـاهرة وهى لباس الصوف فقيـل فى أحـدهم صوفى وليس طـريقهم مقيـدا بلبـاس الصوف ولا هم أوجبـوا ذلـك ولا علقـوا

الأمر به لكن أضيفوا إليه لكونـه ظـاهر الحال) (2) .

أما سـبب ظهـور التصـوف وارتبـاط لفـظ التصوف بهم فهذا مبين فى المبحث الآتى .

1- أخرجـه البخـارى فى كتـاب الطب بـرقم (5270) ومسلم فى كتاب البر الصلة بـرقم (2586) والترمـذى فى كتاب صفة القيامة برقم (2446) .

2- الصوفية والفقراء ص 30 .

*** المبحث الثـانى ***

دراسة العوامل التى أسهمت فى ظهـــور التصوف والصوفيـة

اختلـف النـاس فى تـاريخ نشـأة الصـوفية فمنهم من يـذكر أن هـذا الإسـم لم يكن فى زمن رسول الله صلى الله عليه وسـلم و إنمـا كان فى زمن التابعين .

وينقل السهروردى عن الحسن البصرى أنـه قـال : **رأيت صـوفيا فى الطـواف فأعطيته شيئا فلم يأخذه وقـال : معى أربعة دوانيق يكفينى ما معى .**

وقيل :لم يعرف هذا الإسم قبل المائتين من الهجرة العربية (1) .

ويــذكر أبــو نصــر عبــد اللــه بن على الســراج الطوسى المتوفى سنة 378هـ أن هـذا الإسـم معروف من قبل ذلك بل يذهب إلى أنــه لفـظ جاهلى عرفته العرب قبل ظهور الإسلام (2) .

وأيــا كــان الخلاف فى تــاريخ النشــأة إلا أن التصوف لم يظهر فى عهد الصـحابة والتـابعين بالصــورة المتمــيزة والمســتقرة بعــد القــرن الثانى الهجرى

____

1- عوارف المعارف حـ 1 ص 208 .

2- اللمع لأبى نصـر السـراج الطوسـى تحقيـق د. عبـد الحليم محمود ، طه عبد البـاقى سـرور الطبعـة الأولى سنة 1960 دار الكتب الحديثة بمصر ص 41 .

غير أن المقـدمات الـتى أسـهمت فى ظهـوره واســتقراره كــانت مثــار جــدل واختلاف بين الباحثين ، ويمكن القول بأن الأمـور الأساسـية التى أسهمت بشكل فعال فى إظهار التصـوف وإبرازه فى هيكـل ممـيز يعـرف بـه عن سـائر الطوائف تتمثل فى الأمور الآتية :

الأمر الأول :

هو رد الفعل الطبيعى لحيــاة الـترف الـتى تأثر بها المسلمون بعد عهد الخلفاء الراشــدين من جهـــة ، والفتن والمنازعـــات السياســـية المتكررة من جهة أخرى ، فبعد مقتـل عثمـان بن عفان رضى اللـه عنـه بـدأ عصـر مشـحون بالصـــراعات والفتن الداخليـــة أســـفرت عن

موقعة الجمل ثم صفين ثم مقتل على بن أبى طالب رضى الله عنه وتولى بنى أمية للخلافـة ثم كـــانت سلســـلة الفتن والصـــراعات بين الأمـويين ومعارضـيهم من الشـيعة وأبنـاء على ثم مقتـل الحسـين بكـربلاء والأحـداث الـتى لابست خروجه لمقابلة بن زياد وقتاله .

كـــل هـــذه الأحـــداث أوجـــدت فى نفـــوس المسلمين نوعا من رد الفعل الذى كان نتيجته عـزوف بعضـهم عن المشـاركة فى مجريـات أمور الدولة واعتزال المجتمع تصـونا عمـا فيـه من الفتن وطلبا للسلامة ، فقوى اتجـاه الزهـد وظهر بكثرة فى الكوفة والبصرة (1) .

1- انظر العواصم والقواصم لابن العربى ص 80 ـ 86 بتصرف .

هذا فضلا عن أن دولة بنى العبـاس تغلغلت فيهـا روح الـترف والبـذخ فى كثـير من بيـوت الأمراء وغيرهم ، مما أتـاح للإكثـار من المتعـة والإغـــداق فى الملـــذات وإشـــباع الفضـــول الفكـــرى والأدبى من الحضـــارات الأخـــرى المسـتجلبة من تـراث الأمم الغـابرة (1) حـتى ظهرت المعتزلة بما خلفته من جـراح وأفكـار عصـفت بالأمـة الإسـلامية وقتهـا ، ومن وقـف على طبقات المعتزلة علم قدر ما كـانوا عليـه

من العــدد والمكانــة المرموقــة بين الخلفــاء العباسيين (2) .
ومن ثم كان التصـوف بخصائصـه الأخلاقيـة عـاملا من عومـل الجـذب فى الاتجـاه المضـاد للصورة السابقة .
غير أنه فى القرنين الثالث والرابع الهجريين لم يكن مقصـورا على البصـرة والكوفـة كمـا كان شأن الزهاد والعباد فى القرنين الأوليين ، وإنما تجاوز إلى أغلب بلاد الممالـك الإسـلامية كفارس والشام وجزيرة العرب فقد انتشــرت الصـــوفية فى هـــذه الأنحـــاء من العـــالم الإسلامى ، وكان لهم ـــــــــــــــــــــــ
1- انظر من قضايا التصوف فى ضـوء الكتـاب والسـنة للدكتور محمد السيد الجليند ص19 : 23 بتصرف .
2 - طبقـات المعتزلـة للقاضـى عبـد الجبـار ص 132، وفيـات الأعيـان لابن خلكـان حــ1 ص 67 ومـا بعـدها ، وتـاريخ الطــبرى حـ 8 ص 290 ومــا بعــدها ، موقــف الصوفية من العقل حـتى نهايـة القـرن الرابـع للـدكتور محمد عبد الله الشرقاوى ص 22 .

مشايخ وطوائف وطرق ينتسب إليها المريدون فى مختلف البلاد ، غـير أن مـذهبهم لم يصـب من النمو والازدهار فى أى من البلاد ما أصـاب بغداد التى كـان ينمـو فيهـا سـريعا وحظـه من الصبغة العلمية عظيما (1) .
الأمر الثانى :

السـمة الظـاهرة للمجتمـع الإسـلامى فى عصر النبوة وما بعده فقد كان الصوف منتشرا فى لبــاس المســلمين فى عصــر الصــحابة والتـابعين وكـان مرتبطـا على الأغلب بـالفقر وقلـة اليـد وقـد دلت على ذلـك مجموعـة من الأحاديث النبوية منهـــا :

ا ـــ حـديث جريـر بن عبـد اللـه البجلى رضى الله عنه إذ قال : جاء ناس من الأعراب إلى رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم عليهم الصـوف فـرأى سوء حالهم وقد أصابتهم حاجة فحث الناس على الصدقة فأبطؤا عنه حتى رؤى ذلك فى وجهة صـلى اللـه عليـه وسلم .. إلى آخر الحديث (2) .

1- الحياة الروحية فى الاسلام للدكتور مصطفى حلمى ص 124 بتصرف طبعة الهيئة المصرية العامـة للكتـاب سنة 1984 .

2- أخرجـه مسـلم فى كتـاب الزكـاة ، بـاب الحث على الصدقة وأنواعهـا وأنهـا حجـاب من النـار بـرقم (70) وفى كتاب العلم ، باب رفع العلم وقبضه وظهور الجهل والفتن برقم (1017) .

ب ــ حـديث أبى بـردة بن عبـد اللـه بن قيس عن أبيـــه قـــال : قـــال أبى : لوشهِدتنا ونحن مع نبينـا صـلى اللـه عليــه وســلم إذا أصــابتنا الســماء

حسـبت أن ريحنـا ريح الضـأن إنمـا لباسنا الصوف (1) .

جـ ــ حديث نـافع بن عقبـة رضـى اللـه عنه قال : كنا مع رسول اللـه صـلى الله عليـه وسـلم فى غـزوة ، فـأتى النبى قوم من المغرب عليهم ثيـاب الصوف فوافقـوه عنـد أكمـة فـإنهم لقيام ورسول الله صـلى اللـه عليـه وسلم قاعد (2) .

فهذه الأحاديث تـدل على أن لبس الصـوف فى عهده صلى الله عليـه وسـلم ارتبـط غالبـا بـالفقر والعجـز والضـيق ولم يكن يوجـد أو يتيسر لكل واحد منهم القطن أو غـيره ، وهـذا المعنى لاحظه الصوفية بعد زمنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ، فنسـبوا أنفسـهم إليـه بغيـة التواضع فى الخلق والتعبد والزهـد والبعـد عن ملذات الدنيا وأصبح لبس الصوف مشتهرا بين الصـوفية ومميـزا لهم ، وقـد سـاد ذلـك بين الناس إلى درجة أن الإمـام مالـك رحمـه اللـه يعتبره مظهرا للشهرة بالزهد .

1- أخرجه مسلم فى كتاب اللباس ، بـاب التواضـع فى اللباس برقم (2801) وأبـو داود كتـاب اللبـاس ، بـاب فى لبس الصـوف والشـعر رقم (4032) والترمـذى

كتاب صفة القيامة ، باب لبس الصوف برقم (3562) وأحمد حـ 4 ص 419 .
2- أخرجه مسلم فى كتاب الفتن وأشراط الساعة ، حديث رقم (2900) وأحمد فى المسند حـ 2 ص 338 .

قال ابن بطال : كره مالك لبس الصوف لمن يجد غيره لما فيه من الشهرة بالزهد لأن إخفاء العمل أولى ، ولم ينحصر التواضع في لبسه بل فى القطن وغيره مما هو دون ذلك (1) .

وهذه النسبة يؤيدها السراج الطوسى فى قوله : فكذلك الصوفية عندى نسبوا إلى ظاهر اللباس ، ولم ينسوا إلي نوع من أنواع العلوم والأحوال التى بها مترسمون ، لأن لبس الصوف كان دأب الأنبياء عليهم السلام والصديقين وشعار المساكين المتنسكين (2) .

الأمر الثالث :

الذى ساعد فى إتمام البناء الصوفى فى القرنين الهجريين الثالث والرابع هو الطابع المميز للذات الصوفية ويتجلى ذلك فيما يأتى :

ا ــ وجود مظاهر جديدة للزهد ولم تكن موجودة فى عصر الصحابة والتابعين إذ ظهرت جماعة من المسلمين لهم نمط معين من الحياة اليومية خاصة فى الكوفة والبصرة يتميزون بها عن عامة المسلمين

وربما بدأت هذه الظاهرة فى أواخـر القـرن الأول الهجرى (3) .

1- انظـر فتح البـارى بشـرح صـحيح البخـارى حـ 1 ص 269 ، وانظـر الصـوفية والفقـراء لشـيخ الإسـلام ابن تيمية ص 21 ، 31 .
2- اللمع ص 40 .
3- من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة ص 31 .

فهذا إبراهيم بن أدهم (1) الذى كان سليل الملــوك يــترك بلــده وأهلــه ويقيم فى غــار بنيسابور تسع سنوات كاملـة من عمـره بعيـدا عن النـاس ويهيم فى الصـحراء أربعـة عشـر عاما ، وهذا السلوك لا يوافق سنة النبى صـلى الله عليه وسـلم فى زهـده وتحـرره من قيـود الحياه ، بـل هـو ابتـداع ومظهـر جديـد لم يكن بين الصحابة رضوان الله عليهم .

وهذا بشرا الحافى (2) يلقب بالحافى لأنـه ذهب يوما إلى الإسكاف

1- انظر ترجمتـه فى حليـة الأوليـاء وطبقـات الأصـفياء لأبى نعيم الأصـفهانى حـ 7 ص367 مطبعـة السـعادة ، القاهرة سنة 1351 هـ ، الطبقات الكبرى للشعرانى حـ 1 ص81 طبعـة بـولاق سـنة 1914 م وانظـر الرسـالة القشـيرية لأبى القاسـم القشـيرى تحقيـق الدكتورعبـد الحليم محمــود ، محمــود بن الشــريف حـ 1 ص54 ، تهذيب الكمال فى أسماء الرجال ليوسف الدمشقى حـ

1 ص 349 طبعة دار الكتب المصرية التـاريخ الكبـير للبخــارى حـ 1 ص 200 طبعــة حيــدر أبــاد ، فــوات الوفيات للكتبى حـ1 ص3 طبعة بولاق ، تـذكرة الأوليـاء لفريد الدين العطار حـ 1 ص 44 .
2- انظر ترجمته فى حليـة الأوليـاء حـ 8 ص 336 ومـا بعدها ، وفيات الأعيان حـ1 ص112 صفة الصـفوة لابن الجوزى حــ2 ص183 ، شـذرات الـذهب فى أخبـار من ذهب لابن العمــاد الحنبلى حــــ2 ص60 طبعــة مكتبــه القدس بالقاهرة سـنة 1350 هــ تـاريخ بغـداد للخطيب البغدادى حـ 7 ص 67 مطبعة السـعادة القـاهرة سـنة 1349هـ وانظر سير أعلام النبلاء للذهبى حـ7 ص244 طبعة دار الكتب المصرية ، البداية والنهاية لابن كثير حـ 10 ص 297 المطبعة السلفية سنة 1351 هـ .

ليصـلح حـذاءه فأغلـظ الإسـكاف القـول لـه فقـذف بشـر بنعليـه وأقسـم ألا ينتعـل طـول حياته كى لا يحتاج إلى مخلوق .

وكان الأولى به أن يذهب إلى غيره أو يتـولى إصلاح الحذاء بنفسـه ولا يخـالف السـنة بـترك الانتعال طول الحياة .

كما نجد ما هو أسوأ من ذلك لأبى الحسـين النـورى حيث يصـعد قنطـرة ويـرمى ثلاثمائـة دينار فى الماء واحدا واحدا ثمن عقـار بيـع لـه وهـو يقـول : **(حبيـبى تريـد أن تخـدعنى منك بمثل هذا)** (1) .

ونلتقى أيضا بين صوفية القـرن الثـالث بمن يحرم على نفسه أكل ما أباح الله من الطعـام حتى إنه ليقول لمريد من مريديه قـد مـد يـده

إلى قشـــر البطيخ : **(أنت لا يصـــلح لـــك التصوف الزم السوق)** (2) .
وغير ذلك من الأقوال والأفعال الـتى تـدعو إلى إعجاب العامة والدهماء فى مقابـل جهلهم بالســنة ، ممــا ســاعد على شــد النــاس فى

1- اللمع ص492 ، صفة الصـفوه حــ2 ص294 ، حليـة الأولياء حـ10 ص250 تاريخ بغداد حــ5 ص130 ، سـير أعلام النبلاء حـ 9 ص156 .
2- هو أبو تراب النخشبى واسمــه عسكـــر بن حصـين من مشـايخ خرسـان تـوفى فى الباديـة ، وقيـل نهشـته السباع سنة 245 هـ ، انظـر الرســـالة القشـيرية حــ2 ص84 حليــة الأولياء حـ10 ص45 ، طبقات الشـافعية لتقى الــــدين الســـبكى حــــ2 ص55 المطبعـــــة الحسينيـــــة ، القاهـــرة سـنة 1324 هـــ ، طبقــــات الشعــــرانى حــ1 ص96 شــذرات الذهــــب حــ2 ص 108 .

التأسـى بهـا رغبـة فى التمـيز ، حـتى عـرف الصــوفية بــذلك بين العامــة وأصــبح مظهــرا مألوفا عند الناس .
ومما يدل على ذلك أيضا مـا ذكـره رويم بن أحمـد البغـدادى حيث عطش عطشـا شـديدا فاستسـقى جاريـة فقــالت : ويحــك صــوفى يشرب بالنهار فاستحى منها ونذر ألا يفطر أبدا (1) .

فما استقر فى أذهان الناس عن الصوفية وارتباطهم بالأحوال العجيبة فى الزهد دفع رويما إلى التلبس بهذه الأوصاف .

ب ـــــ وجـــود نمـــط جديـــد من الألفـــاظ والمصطلحات التى لم يؤلف استعمالها من قبل فى عهد الصحابة والتابعين أضفى على الصوفية أثرا واضحا فى تكوين جماعتهم واستقرار منهجهم (2) .

فقد رُوى عن مالك بن دينار والحسن البصرى وشقيق البلخى أنهم ذهبوا لزيارة رابعة العدوية فى مرضها .

فقال لها الحسن : ليس بصادق فى دعواه من لم يصبر على ضرب مولاه

فقالت رابعة : هذا كلام يشم فيه رائحة الأنانية .

1- رويم بن أحمد البغدادى ت سنة 303 هـ انظر فى ترجمته الرسالة حـ1 ص 27 وانظر ترجمته فى حلية الأولياء حـ10 ص296 صفة الصفوة حـ2 ص 49 ، طبقات الشعرانى حـ1 ص603 ، المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزى حـ6 ص136 ، تاريخ بغداد حـ8 ص430 ، والبداية والنهاية حـ1 ص125 .

2- من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة ص 32 .

فقال شقيق : ليس بصادق فى دعواه من لم يشكر على ضرب مولاه

فقـالت رابعـة : يجب أن يكـون أحسـن من هذا .
فقـال مالـك : ليس بصـادق فى دعـواه من لم يتلذذ بضرب مولاه .
فقـالت رابعـة : يجب أن يقـال أحسـن من هذا .
فقالوا لها : تكلمى أنت يا رابعة .
فقالـت : ليس بصـادق فـى دعـواه من لـم ينس الضرب فى مشـاهدة مـولاه (1) .

فكـانت مثـل هـذه الإشـارات والألفـاظ الغريبـة الجديـدة الـتى لم تكن من قبـل سـببا فى إثارة الصوفية بعد ذلك لأن يتكلموا بما هـو غامض وأبعد فى الوصول إلى المعـنى المـراد حتى ظهر كم كبير من المصطلحات والألفـاظ الجاريـة فى كلامهم اسـتحوزت على أبـواب وفصول لشرحها فى كتب التصـوف وغيرهـا (1) .

1- السابق ص 33 وانظر تذكرة الأولياء حـ 1 ص 71 ، 72 ، نشأة التصـوف فى الاسـلام للـدكتور قاسـم غـنى ص 48 .
2- انظر على سبيل المثال ماأفرده السـراج الطوسـى فى اللمع بشرح الألفاظ الجارية فى كلام الصـوفية من ص409 :ـ 458 والأبـواب الـتى أفردهـا الكلابـاذى فى التعرف لمذهب أهل التصوف والقشـيرى فى الرسـالة

والهجويرى فى كشف المحجـوب وغـيرهم فى شـرح هذه الكلمات الغامضة وتبسيط معناها للقارئ العادى .
ومن ثم فقد سـاعد هـذا النمـط الجديـد فى إبراز الصوفية بصورة متميزة عن الآخرين .
حـ ـــ أن التصـوف لم يتعـد المرحلـة الفرديـة الــتى كــانت فى القــرنين الهجــريين الأول والثانى فقط وإنما تجاوز إلى شئ أخر وهــو أن الصوفية أخذوا ينظمون أنفسهم طوائف وطرقــا يخضـعون فيهـا لنظم خاصـة بكـل طريقة ، وكان قوام هذه الطرق طائفــة من المريدين يلتفون حول شيخ مرشـد يـوجههم ويبصرهم على الوجـه الـذى يحقـق لهم من وجهـة نظـره كمـال العلم وكمـال العمـل ، فانتقـل التصـوف من المرحلـة الفرديـة إلى مرحلة العمل الجمـاعى المنظم ويـذكر ابن تيمية أن أول من بنى دويرة للصــوفية بعض أصحاب عبـد الواحـد بن زيـد وعبـد الواحـد من أصحاب الحسن البصرى ت (177هـ) .
ثم توالت بعد ذلك الطرق الصوفية المتعـددة ، كل طائفة تلزم شيخا تتتلمذ على يديه (1) .
وقـد صـنف الهجـويرى من هـذه الطوائـف المحاسـبية والقصـارية والطيفوريـة والجنيديـة والنورية والسهلية وغيرهم (2) .
ومن ثم كانت الطـرق الصـوفية فى القـرن الثالث الهجـرى قـد ذاع أمرهـا وكـثر طالبوهـا

ووصـــلت إلى درجـــة عاليـــة من الاســـتكمال والاستقرار ـــــــــــــــــ
1- الصوفية والفقراء ص 21 ، ميزان الاعتدال للـذهبى حـ 2 ص 672 .
2- كشف المحجوب للهجويرى ص 209 وما بعدها .
كما أن التنقل المستمر للصـوفية فى البلاد الإسـلامية المختلفـة ورحيـل المريـدين إليهم سـاعد على إيجـاد رابطـة قويـة بين مختلـف الطــرق الصوفية ولا سـيما فى إحـداث لغـــة خاصة بهم يتفـاهمون بواسـطتها ويعـبرون بهـا عــــن أحـوالهم النفسـية وأهـدافهم الروحيـة (1) .
د ـــ ومن أهم الأمـور الـتى أثـرت فى نشـأة الحيـاة الصـوفية بطابعهـا المتمـيز إنشـاء الـــتراث الصـــوفى ، فكمـــا أن المؤلفـــات ظهرت فى مختلف العلوم وكانت سببا هاما فى تأصـيلها وتميزهـا كـذلك كـانت علـوم التصـوف فنجـد الحـارث المحاسـبى يملأ الواقـع الصـوفى وقتهـا بمؤلفاتـه المتعـددة وعلى رأسها كتابه الرعاية ، وكــذلك الحكيم الترمذى وأبـا سـعيد الخـراز وسـهلا بن عبـد الله التسترى ، ثم ظهر بعـد ذلـك الكلابـاذى بكتابــه التعــرف لمــذهب أهــل التصــوف ، وقوت القلـوب لأبى طـالب المكى ، واللمـع

للسراج الطوسى ثم طبقـات الصـوفية لأبى عبد الرحمن السلمى .

وجـاء بعـد ذلـك القشـيرى وصـنف الرسـالة والهجــويرى الــذى ألــف كشــف المحجــوب وتتابعت حركة التأليف والتصنيف فكان للتراث

1- التصوف فى الإسلام وأهم الاعتراضات الواردة عليه تـأليف للـدكتور عبـد اللطيـف العبـد ص 92 الطبعـة الأولى ســنة 1986م ، دار الثقافــة العربيــة ، وانظــر الطـرق الصـوفية فى مصـر نشـأتها ونظمهـا ص 259 طبعة سنة 1978م مكتبة الأنجلو المصرية بالقاهرة .

الصوفى مكانة كبيرة بين بقية العلوم .

كل هذه الأسباب جعلت من القرنين الثـالث والرابـع عصـرا بهيـا للاسـتقرار الصـوفى فى منهجهم وطريقتهم وأحوالهم ومقامـاتهم ، وإذا كان هذان القرنان مسرحا للفوضى السياسـية والفكريــة الــتى عمت البلاد الإســلامية ، فــإن جهـد البـاحثين لا ينقطـع فى كشـف الغمـوض وتحليل الأحداث وأثرها فى بناء الأمة أو هدمها .

وقد كـان للصـوفية بـاع كبـير فى الـرد على المخالفين لأهل السـنة والجماعـة فى مسـائل الاعتقاد وغيرها ، كما أن لهم شطحات مــؤثرة فى أفكــار العامــة والــدهماء ســاعدت على انتشار البدعة والغلو فى معنى العبـادة ومثلت

النواه التى اجتمعت حولها كل أفكار الهدم فى التصوف الدخيل والمؤثرات الأجنبية .
ولعـل البحث فى مسـألة القـدر والحريـة يكشف عن طبيعة الصوفية وحقيقتهم فى هذه الحقبة من الزمن بما لهم وما عليهم .

*** المبحث الثالث ***

موضـــوع التصـوف وأهم قضـاياه

رغم أن أقـوال المشـايخ فى موضـوع التصوف لا تكاد تحصى إلا أنها متقاربة المعـنى وتـدور فى فلـك واحـد ، ويـذكر السـهروردى البغـدادى فى عوارفـه أنـه رغم الاختلاف فى تعريـف التصـوف فـإن هنـاك قاسـما مشـتركا بوجوده يكون التصـوف ، فالصـوفى عنـده هـو الـذى يطهـر القلب من شـوائب النفس على الدوام ولا يكون ذلـك عنـده إلا بـدوام افتقـاره إلى مـولاه ، فبـدوام الافتقـار كلمـا تحـركت النفس وظهـرت بصـفة من صـفاتها أدركهـا المرء ببصيرته النافذة وفر منهـا إلى ربـه فهـو قائم بربه على قلبـه وقـائم بقلبـه على نفسـه قال تعالى :

{ يا أيها الذين آمنـوا كونـوا قــوامين لله شهداء بالقسط } (1) .
وهذه القوامة لله على النفس هى التحقق فى موضوع التصوف (2) .
وأصل التصوف عنـدهم الاجتهـاد فى تحقيـق مقــام الإحســان على وجهــه الأكمــل بحيث يتحقق ما قرره رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم فيه :
(أن تعبد الله كأنك تـراه فـإن لم تكن تراه فإنه يراك) (3) .

1- المائدة / 8 .   2- عوارف المعارف حـ 1 ص 132.
3- أخرجه البخارى فى كتاب التفسير ، باب **{ إن الله عنـده علم السـاعة }** بـرقم (4777) ومسـلم فى كتـاب الإيمـان رقم (10) النسـائى فى كتـاب الإيمـان وشرائعه بـرقم (4991) وأحمـد فى االمسـند حـ 2 ص 426 .

وبيان ذلك أن الصفاء عندهم موطنــه القلب وهو نـابع منـه ولـذا انصـب موضـوع التصـوف فيــه ، بحيث يــدور على الاجتهــاد فى تحقيــق الكمال الممكن لصلاح القلب عملا بقوله صلى اللــه عليــه وســلم : **(ألا إن فى الجســد مضغة إذا صلحت صلح الجسـد كلـه وإذا فســدت فســد الجســد كلــه ألا وهى القلب)** (1) .

وإذا علم هذا فإنه من البـديهى وعلى وجـه الافـتراض أن يبـدأ الصـوفى رحلتـه بأعمـال الظاهر وأحكامهـا علمـا وعملا فمن لم يعمـل بالظاهر فلا صلة لـه بالبـاطن ، ومن ثم فـإن صـدق التوجـه مشـروط بمـا يرضـاه الحـق سبحانه وتعالى وما لايرضاه ولا يصح مشـروط بدون شرطه .

- قال رويم بن أحمد : **التصوف استرسـال النفس مع الله تعالى علـى مـــا يريد** (2) .

1- الحـديث أخرجـه البخـارى فى كتـاب الإيمـان ، بـاب فضل من استبرأ لدينه وعرضه برقم (52) ومسـلم فى كتاب المسقاه باب أخـذ الحلال وتـرك الشـبهات رقم (1598) وأبـو داود فى كتـاب الـبيوع ، بـاب فى اجتنـاب الشبهات بـرقم (3329) والترمـذى فى كتـاب الـبيوع ، بــاب تــرك الشــبهات (1205) والنســائى فى كتــاب الأشـربة بـرقم (5710) وابن ماجـه فى كتـاب الفتن ، باب الوقـوف عنـد الشـبهات (3984) وأحمـد حـ 4 ص 267 .

2- اللمع ص 45 .

- وقـال إمـام الطائفـة فى عصـره الجنيـد بن محمد : **(التصوف أن يميتك الحق عنك ويحييك به)** (1) .

 وقـال عمـرو بن عثمـان المكى : **التصوف يكون العبد فى كل وقت مشغولا بمـا هو أولى فى ذلك الوقت** (2) .

* أهم القضايا الصوفية :

وعن أهم القضــايا الــتى شــغلت أوائــل الصــــــــــوفية ودارت بينهم من خلال كتبهم ومروياتهم فيتمثل أغلبها فيما يأتى :

1- العقيدة والمنهج :

لمـا كـان جهـد الصـوفية قائمـا على إصـلاح الباطن وطهارة القلب فإن أغلب الـذين كتبـوا فى التصـوف من الصـوفية ؟ الأوائـل أفـردوا أبوابـــا وفصـــولا لـــذكر معتقـــدهم ومنهجهم وموقفهم من الوحى ومصدر الاعتقاد وعلاقـة العقل بالنقل .

فهــذا الحــارث المحاســبى يجلى بوضــوح معتقده فى الله وأنه فى السماء على العـرش ويرد على القـائلين بوحـدة الوجـود (3) ويـبين منهجـــه فى التلقى والمعرفـــة من خلال فهم ماهية العقل (4) .

1- السابق ص45 . 2- السابق ص45 .

3- انظر كتاب فهم القرآن للحارث المحاسبى ص 367 .

4- انظر ماهية العقل للحارث المحاسبى ص 237 .

وهـذا سـهل بن عبـد اللـه التسـترى يـذكر اعتقـاده على وجـه التفصـيل ويـرد على أهـل الفرق والدعاوى فى الأحوال (1) .

ويقول الشيخ الكبير أبو عبد الله بن خفيف : (هذا معتقدى ومعتقد الأئمة السادة والعلمـاء القـادة الـذين قبلى وفى زمـانى من أهـل السـنة والجماعـة ، ثم قـال : ويعتقـد أن أخبـار الآحـاد تـوجب العمـل ولا تـوجب العلم وأخبار التواتر توجب العلم والعمل ، والعقل لا يحسـن ولا يقبح والشـرع حـاكم على العقـل والنـاس على العدالـة حـتى يظهـر الجـرح ثم يفصل اعتقاد أهل السنة والجماعة) (2) .

ويشـــرح الكلابـــاذى قـــولهم فى التوحيـــد وموقفهم من الأسـماء والصـفات وقـولهم فى الرؤية والقـدر وخلـق الأفعـال ثم يبن منهجهم فى معرفـة اللـه والأمـور الغيبيـة بصـفة عامـة وأن مصـــدرها الـــوحى وأن العقـــل لا يمكنـــه بمفرده التعرف على أوصاف الخـالق سـبحانه وتعـالى ، قـال الكلابـاذى فى البـاب الحـادى والعشرون : قولهم فى معرفـة اللـه تعـالى : أجمعوا على أن الدليل على الله هو الله وحده ، وسـبيل العقـل عنـدهم سـبيل العاقـل فى حاجته إلى الدليل ، لأنـه محـدث والمحـدث ل ايدل إلا على مثله .

وقـال رجـل للنـورى : مـا الـدليل على الله ؟
قال : الله .

____

1- انظـر كتابـه الـرد على أهـل الفـرق والـدعاوى فى الأحوال .
2- سيرة الشيخ الكبير عبد الله بن خفيف ص 340 .

قال : فما العقل ؟
قال : العقل عـاجز والعـاجز لا يـدل إلا على عاجز مثله (1) .
ويذكر المكى في قـوت القلـوب كتبـا وفصـولا فى بيان معتقد أهل السنة والجماعة (2) .
ومن الإنصـاف أن يـذكر المـرء أن أقـوالهم فى أمور الاعتقـاد خاصـة الـتى تتعلـق بأسـماء اللـه وصـفاته وأفعالـه وأمـور القـدر وتوحيـد الربوبيـة حجـة فى بيـان منهج أهـل السـنة والجماعة والرد على المخـالفين من الطوائـف المختلفة .
وقد احتج كثير من السلف بأقوالهم ونقلــوا الكثير عنهم فى مؤلفاتهم وعلى رأسـهم شـيخ الإسلام ابن تيمية (3) .

2- أعمال القلوب والجوارح .

تعد أعمـال القلـوب والجـوارح من القضـايا الـتى شـغلت حـيزا واسـعا فى تـراث أوائـل

الصـوفية فلقـد بلـغ الجهـد مبلغـه فى دراسـة أعمال القلوب ـــــــــــــــــ
1- التعـرف ص 78 ، ص 79 وقـارن بين قـول النـورى هـذا فى تقـديم النقـل وبين قولـه المنـاقض للشـرع **(حبيـبى تريـد أن تخـدعنى منـك بمثـل هـذا)** انظر ص 27 .
2- قوت القلوب حـ 1 ص 123 وما بعدها .
3- انظر ما نقله عنهم فى الفتوى الحموية ص 36 ومـا بعدها وانظر فى تفصيل ذلك كتاب ابن تيمية والتصوف للدكتور مصطفى حلمى وكتاب التصوف فى تـراث ابن تيمية للدكتور الطبلاوى محمود سعد .
على وجـــه الخصـــوص ممثلـــة فى الأحـــوال الإيمانيـــة والمقامـــات والنـــوازع والخـــواطر الداخلية التى تطرأ من قبـل النفس والعـدو أو الروح والملك ولا يكاد يخلـو كتـاب من كتبهم من تفصيل ما لهذه الأمور ، فوصـل اهتمـامهم بعبوديـات القلب إلى حـد يفصـلون فيـه خفايـا الأمـــور فى التوبـــة والـــورع والزهـــد والصـــبر والتوكـل والرضـا والقـرب والمحبـة والخـوف والرجـــاء واليقين والمراقبـــة وغـــير ذلـــك من أعمال القلوب ويفصـلون درجـات كـل مـوطن من هـذه الأعمـال ويظهـرون جوانبـه وأبعـاده وفى المقابل ينبهون على ما يفسـد القلب من الريـــاء وســـوء أفعـــال النفس والعجب والكـــبر والغـرور والحسـد والحقـد وغـير ذلـك ، وكـل منهم يـدلى بـدلوه من واقـع إيمانـه وتجربتـه

الشخصية بما يكشف هذه الأمور ويجليها حـتى وصـل الأمـر ببعضـهم إلى أن يسـمى مؤلفـه المسـائل فى أعمـال القلـوب والجـوارح كالحـارث المحاسـبى أو قـوت القلـوب كـأبى طالب المكى .

ويمكن القـول أن نسـبه اهتمـام الصـوفية الأوائل بعبوديات القلب إلى سائر موضوعاتهم قد حازت الصدارة إذا ما قورنت بالموضوعات الأخرى .

فهم مـا برحـوا يوالـون القلب بـالتنقيب والتحليل والدراسة الرعاية والعنايـة وقـد جـاء اهتمـامهم بعبوديـات الجـوارح حفاظـا على سـلامة القلب من ناحيـة ، إذ أنهم يعتبرونهـا ساحة للمنازلـة والإقبـال على اللـه والإعـراض عمن سواه ، وتحقيقا للعبودية فى ظاهر البدن من ناحية أخرى .

ويمكن القـول أن أغلب الصـوفية شـددوا على أنفسـهم بلا هـوادة فى هـذا الجـانب إلى درجة الإفراط والمغالاه ومخالفة الحد النبوى ، حتى إنهم تعاملوا مع المسـتحبات والمنـدوبات على أنهـا واجبـات وفـرائض فيـذكر السـراج الطوسـى أن العامـة لهم أن يقلـدوا علمـاءهم ويسألوا فقهاءهم ويعتمـدوا على أقـاويلهم من الـرخص والسـعات والفتـوى والتـأويلات الـتى أوسع الله تعالى للخلق ، أما المتصـوفة وأهـل

الخصـوص فلا يسـعهم التخلـف عن اسـتعمال الآداب ، والاهتمـام والتكلـف لأحكـام الصـلاة وأحكـام فرائضـها وسـننها وفضـائلها ونوافلهـا وآدابها ، لأنهم ليس لهم شـغل غـير ذلـك ، ولا ينبغى أن يهمهم أمر أكثر من اهتمـامهم بـأمر الصلاة (1) .

وفى الزكاة والصدقات والعمـل والمكاسـب والتصـــرف فى الأســـباب والصـــوم والحج والاجتماعـات والضـيافات واللبـاس والأسـفار والذكر والسـماع وجميـع آداب اللسـان حـالهم أشد وجهدهم أعظم .

3- التربية الروحية .

وأعـنى بهـا عمليـة تكـييف المريـد وتشـكيله على يد شيخه ليرقى إلى

____

1- اللمع ص 203 .

المراتب الصوفية ، وقد نال هذا الجـانب حـيزا كبـيرا من الجهـد الصـوفى فى البدايـة حيث وضعوا القواعد والأسس التى ينهجهـا المبتـدئ وفق نظام يحدده الشيخ المعين ، ولا شــك أن هـذا العامـل مـا زال قائمـا بصـورة سـيئة من خلال المنـاهج المختلفـة فى الطـرق الصـوفية وأورادها .

وقد كان من الأوائل من يرى أن المريـد يبـدأ بتصـحيح الاعتقـاد فيمـا بينـه وبين اللـه تعـالى ويحاول أن يكون اعتقـاده صـاف عن الظنـون

والشـبه خـال من الضـلالة والبـدع صـادر عن البراهين والحجج .
ويقبح بالمريد عندهم أن ينتسب إلى مــذهب من المذاهب ليس على هذه الطريقة ولا يصح للشيوخ التجاوز عن زلات المريدين ، لأن ذلـك تضـييع لحقـوق اللـه تعـالى ، ومـا لم يتجـرد المريد عن كل علاقة لا يجوز لشيخه أن يلقنــه شيئا من الأذكار ، بل يجب أن يقدم التجربة له ، فإذا شهد قلبه للمريـد بصـحة العـزم فحينئـذ يشترط عليه أن يرضى بما يسـتقبله فى هـذه الطريقـة من فنـون تصـريف القضـاء ، فيأخـذ عليه العهد بـأن لا ينصـرف عن هـذه الطريقـة بمــا لا يســتقبله من الضــرر والــذل والفقــر والأســــقام والآلام ، وأن لا يجنح بقلبــــه إلى السـهولة ، ولا يـترخص عنـد هجـوم الفاقـات وحصــول الضــرورات ، ولا يــؤثر الدعــة ، ولا يستشعر الكسـل فـإن وقفـة المريـد شـر من فترته (1) .

1- الرسالة القشيرية حـ2 ص 731 .

ومنهم من يضع أسسـا معـدودة يحتمهـا على المريـد فيـذكر أن المريـد لا بـد لـه من سـبع خصال :

1- الصـدق فى الإرادة وعلامتـه إعـداد العدة .

2- ولا بـد لـه من التسـبب إلى الطاعـة وعلامة ذلك هجر قرناء السوء

3- ولا بد له من المعرفـة بحـال نفسـه وعلامة ذلك استكشاف آفات النفس .

4- ولا بـد لـه من مجالسـة عـالم باللـه وعلامة ذلك إيثاره على ما سواه .

5- ولا بد له من توبة نصوح فبذلك يجـد حلاوة الطاعـــــــــــة ويثبت على المداومــة ، وعلامــة التوبــة قطــع أسـباب الهـوى والزهـد فيمـا كـانت النفس راغبة فيه .

6- ولا بد لـه من طعمـة حلال لا يـذمها العلم وعلامـــة ذلـــك الحلال حلـــول العلم فيه يكون بسـبب مبـاح وافـق فيه حكم الشرع .

7- ولا بـد لـه من قـرين صـالح يـؤازره على ذلـك وعلامـة القـــرين الصـالح معـــاونته على البر والتقوى وتهيئـه إياه عن الإثم والعـــدوان .

فهذه الخصال السـبع عنـده قـوت الإرادة لا قوام لها إلا بها ويستعين على هذه السبع بأربع هن أساس بنيانه وبها قوة أركانه :

أولها الجوع ثم السهر ثم الصمت ثم الخلوة .

فهذه الأربـع سـجن النفس وضـيقها وضـرب النفس وتقييدها بهن
يضعف صـفاتها وعليهن تحسـن معاملاتهـا (1)
ولا يكـاد يخلـو كتـاب من كتبهم من ذكـر مـا لطريقـة الشـيخ فى تـأديب المريـد وتربيتـه الروحية .

5- التنبيـه على الشـطحات الـتى وقـع فيها أدعياء التصوف .

حفاظا على طريقة الصـوفية فـإن كثـيرا من المشايخ ما برحـوا يـردون أغاليـط المنتسـبين إليهم أو من ضل منهم عن طريقة أهل السـنة والجماعـة ويتجلى هـذا فى كتـاب اللمـع لأبى نصر السراج الطوسى وما نقله السـلمى عنـه فى أصول الملامتية وغلطـات الصـوفية ، فقـد نقـل أقـول المشـايخ على وجـه التفصـيل فى ذكر من غلط من المترسـمين بالتصـوف ومن أين يقع الغلط ؟ ثم صنف طبقاتهم وتفـاوتهم فى الغلـط ورده عليهم بأدلـة النقـل والعقـل وأقوال المشايخ ، ولا تخلـوا ردودهم أيضـا من وجود أغاليط ملحوظة (2) .

1- قوت القلوب ص 94 .

2- انظـر اللمـع ص 516 ومـا بعـدها ، وانظـر أصـول الملامتية وغلطات الصوفية تحقيق الدكتور عبد الفتاح الفاوى ص140 وما بعدها .

الفصل الثانى
دراسة فى مفهوم الحرية

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

المبحث الأول :

الحرية لغة وشرعا .

المبحث الثـانى :

الحريـــــــة فى تـــــــاريخ الفكرالإسلامى .

المبحث الثالث :

الحريـــــة ومنهج الحيـــــاة الإسلامية .

*** المبحث الأول ***

الـحـــرية لغـــــة وشـــــــرعا

تنبئ هذه الكلمة بتصاريفها فى اللسـان العــربى عن معــانى كثـيرة ترجــع إلى معـنى الخلوص والتحرر مـن القيود وعـدم الإكـراه أو الضغط على إرادة الإنسان .

يقول الراغب الأصـفهانى : (حـررت القـوم إذا أطلقتهم وأعتقتهم عن أســــــر الحبس ، والتحرر جعل الإنسان حرا والحر خلاف العبد) (1) .

قـال تعـالى : **{ ومن قتل مؤمنـا خطـأ فتحرير رقبة مؤمنة }** (2) .

والرقبـة اسم للعضو المعروف جعـــل فــى التعارف علما على المملوك إذ أنه مقيد بإدارة سيــده وعتـق الرقبـة إخراجهــا للحريـة ورفـع القيود عنهـا (3) .

وقد جاء الإسلام فى وقت انتشر فيـه الـرق فرغب فى الحرية والعتق صونا لآدمية الإنسان وتحريرا لإرادته التى منحه الله إياها .

قال الإمام البغوى فى قولـه تعـالى :**{ فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فــك رقبة }** (4) .

1- المفردات للراغب الأصفهانى تحقيـق محمـد السـيد كيلانى طبعة الحلبى ص11.
2- النساء / 29.
3- السابق ص 201 .

4- البلد 12:11 .

قولـه : **{ فلا اقتحـم العقبة }** يعـنى لم يقتحـم العقبـة فى الـدنيا أى لـم يتحمـل الأمـــر العظيـــم فى طاعـة اللـه ، ثم فسـر اقتحام العقبة بفك الرقاب ومنحهـا الحريـة (1) .

وفى الحث على حرية الإرادة والتـرغيب فى العتـق يقول رسـول اللـه صلـى اللـه عليـه وسلـم :

(أيما رجل مسلم أعتق رجلا مسلما ، فإن اللـه عـز وجـل جاعـل وقـاء كـل عظم من عظامـه عظمـا من عظـام محرره من النار ، وأيمـا امـرأة مسـلمة أعتقت امرأة مسـلمة فـإن اللـه جاعـل قـاء كـل عظم من عظامهـا عظمـا من عظام محررها من النار يوم القيامة) (2) .

فالمعنى السائد للحرية بين العرب ما يقابل الرق والعبودية .

وهنـاك بعض المعـانى الـتى تقابـل معـنى الحرية وتحقيق الرغبة اسـتخدمت فى الشـرع منها :

1- الإكـراه : ويعـنى سـلب الإرادة وتحقيـق الرغبة ولذلك اشترط الفقهاء

1- شرح السنه للبغوى تحقيق زهير الشاويش وشـعيب الأرناؤوط ، طبعة المكتب الإسلامى حـ 9 ص 251 .
2- أخرجه أبو داود فى سننه فى كتـاب العتـق بـاب أى الرقـاب أفضـل رقم الحـديث (3965) والنسـائى فى كتاب الجهاد ، باب ثواب من رمى فى سبيل الله بـرقم (3144) وابن ماجه فى كتاب الجهاد ، بـاب الـرمى فى سبيل الله برقم (2812) .

أن يكون العاقـد فى الـبيع حـرا مختــارا فى بيع متاعه ، فإذا أكره على بيع مالـه بغـير حـق فإن البيــع لا ينعقـــد لقولـــه تعـالى : **{ إلا أن تكـون تجـارة عن تـراض منكم }** (1) ولقوله صلى اللـه عليـه وسـلم : **(رفـع عن أمتى الخطأ والنسـيان ومـا اسـتكرهوا عليه)** (2) .

فحريـــة التصـــرف والاختيـــار من الأمـــور الأساســية فى الــبيع والشــراء والرضــى فى الإنسان يعنى علامة الكمال فى تحقيق حريتــه ومن ثم فلا بد من القبول والإيجاب فى العقود وفى الحـديث : **(البيعـان بالخيـار مـا لم يفترقا أو يقول أحدهما لصاحبه اختر)** (3) .

1- النساء / 92 ـ 2- انظر معرفة السنن والآثـار عن الإمـام الشـافعى تصـنيف الـبيهقى ، طبعـة دار الكتب العلمية حـ 7ص 326 ، والمغنى بالشرح الكبير لموفـق الدين بن قدامه طبعة دار الكتاب العربى حـ 4 ص 3 ،

والحـديث أخرجـه ابن ماجـه فى سـننه كتـاب الطلاق حديث رقم (16) والـبيهقى فى سننـــه حـ 10 ص 60 والحاكم فــى المسـتدرك حـ 2 ص 98 وابن عـدى فى الكامل حـ 2 ص 758 والخطيب البغدادى فــى التـاريخ حـ 7 ص 377 .
3- أخرجـه البخـارى فى كتـاب الـبيوع ، بـاب كم يجـوز الخيـار حـ 3 ص 83 ومسـلم فى كتـاب الـبيوع ، بـاب ثبـوت خيـار المجلس للمتبـايعين حـديث رقم (1531) وأبو داود فى سننه كتـاب الـبيوع والإجـارات ، بـاب فى خيـار المتبـايعين حـديث رقم (3454) والنسـائى فى البيوع باب وجوب الخيار للمتابعين حديث رقم (4470) والترمـذى فى الـبيوع حـديث (1254) وأخـرجـه ابن ماجه فى كتاب التجارات باب البيعان بالخيـار مـالـم يفترقـا حـديث رقـم (2181) .

2- الحجـــر : وهـــو المنـــع والتضـــييق على المديون أو السفيه والحـد من حريـة التصـرف فيما يملك ، قال الإمام الشافعى رحمه اللـه : الحجـر ثـابت على اليتـامى حـتى يجمعـوا بين خصلتين :

البلـوغ والرشـد لقولـه تعـالى :**{ وابتلـوا اليتـامى حـتى إذا بلغـوا النكـاح فـإن آنســتم منهم رشـــدا فـــادفعوا إليهم أمـوالهم }** (1) ويختـبر اليـتيم فـإذا أحسـن التصرف فى ماله وأصلحه رفع عنه الحجر (2) .

3- وفى معنى الإكراه والحجر الغصب : وهو الاستيلاء على حقوق الغير قهرا وهـو نـوع

من السلب لحرية الإنسان وآدميته ولذلك فـإن الشرع حرمه ، قـال تعـالى : **{ يأيها الـذين آمنـو لا تـأكلوا أمـوالكم بينكم بالباطـل إلا أن تكون تجارة عن تــراض منكم }** (3) .

وفى الحـديث : **(إن دمـاءكم وأمـوالكم حرام كحرمة يـومكم هـذا فى شـهركم هذا فى بلدكم هذا)** (4) .

1- النساء / 6 ـ 2- الأم للإمام للشافعى حـ 3 ص 215 ومعرفــة الســنن والآثــار حـ 4 ص 457 .

3- النساء / 29 .

4- أخرجـه مسـلم فى كتـاب الحج ، بـاب حجـة النـبى صلى الله عليـه وسـلم حـديث رقم (1218) وأبـو داود فى كتاب المناسك ، باب صفة حجـة النـبى صـلى اللـه عليه وسلم بـرقم (1905) والنسـائى فى كتـاب الحج ، باب الجمـع بين الظهـر والعصـر بعرفـه بـرقم (2713) وابن ماجه فى كتاب المناسك ، باب حجـة النـبى صـلى الله عليه وسلم برقم (3074) .

ويقسم ابن منظور الحرية إلى ضربين :

الضـرب الأول : من لم يجــر عليــه حكم الشئ كقوله تعالى : **{ يـا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصـاص فى القتلى الحـر بالحـــر والعبـد بالعبد }** (1) .

الضرب الثانى : من لم تتملكه الصفات الذميمة من الحـرص والشـره على المقتنيـات

الدنيوية ، وإلى العبودية التى تضاد ذلـك أشـار النبى صلى الله عليـه وسـلم بقولـه : **(تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم تعس عبـد الخميصة تعس عبد الخميلة)** (2) .

وعلى الضـــرب الثـــانى بـــنى الصـــوفية اصطلاحهـم فى إطلاق اسـم الحريـة على من خلع عن نفسه أمارات الشهوة ومزق سلطانها بسيوف المخالفة كل ممــزق (3) .

ومن ثم فالحريـــة تقابـــل العبوديـــة عنـــد الصوفية بناء على المعنى اللغوى

1- البقرة / 178 .

2- جزء من حديث أبى هريرة رضى الله عنـه ، أخرجـه البخارى فى كتاب الجهاد باب الحراسـة فى الغـزو فى سبيل الله برقم (1887) وأخرجه مسلم فى كتاب البر والصلة ، باب فضل الضعفاء والخاملين بــرقم (2622) وانظر لسـان العـرب لابن منظـور طبعـة دار المعـارف القاهرة حـ 2 ص 829 .

3- اللمع للسراج الطوسى ص 450 وانظر الحريـة فى الإسلام تأليف محمد الخضر حسين طبعة دار الاعتصام القاهرة سنة 1982 ص 15 .

القيـود وأوصـافها ، إذ الحريـة تعـنى التخلص من القيـود الـتى تحـد من حركـة الإنسـان فى أقواله وأفعاله فـى تناسب مطرد بحيث تظهـر نسبة الحريـة فى الإنســان إذا حــددت نسبــة القيود فيه ، ويقسم الــراغب الأصـفهانى هـذه

القيــــود على أربعــــة أضـــــرب فى معـــنى العبودية :

[1- عبد بحكم الشرع وهـو الإنسـان الرقيـق الذى يصح بيعه وابتياعه نحو قولـه تعـالى : **{ العبـد بالعبـد }** (1) وقولـه تعـالى : **{ وعبدا مملوكا لا يقدر على شـئ }** (2) .

[2- عبد بالإيجاد وطبيعة الخلقة وذلـك ليس إلا لله وأيـاه قصـد بقولـه تعـالى : **{ إن كل من فى الســـماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا }** (3) .

[3- عبـد بالعبـادة والخدمـة فى تطـبيق شـرع الله والالـتزام بهديـه وهـو المقصـود بقولـه تعـالى **{ إن عبــادى ليس لــك عليهم ســـلطان }** (4) وبقولـــــه : **{ وعبـــاد الرحمن الـذين يمشـون على الأرض هونا }** (5) فكل هـذه المعـانى تـدل على التزامهم بمنهج الله وشرعه .

[4- عبد للدنيا وأعراضـها وهـو المعتكـف على خدمتها ومراعاتها ، وإياه

____

1- البقرة / 178 .
2- النحل / 75 . 3- مريم / 93 .
4- الحجر / 42 . 5- الفرقان / 63 .

قصـــد النـــبى بقولـــه فى الحـــديث الســـابق : **(تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم)** (1) .

- **والحرية فى ارتباطها بمعـنى العبـادة على ضربين :**

ا ــ حرية اختيـار لفعـل دون آخـر وهى مجـال الإرادة البشرية والنـاس بهـذا الاعتبـار كلهم عبيـــد للـــه إذ أنهم خلقـــوا خاضـــعين لهـــذه الفطرة ، ومن هذا المعنى قوله صـلى اللـه عليـه وسـلم عن رب العـزة : **(ياعبـادى إنى حرمت الظلم على نفسى)** (2) .

ب ــ حرية تحرر من الأفعال المذمومة بوصف الشـرع إلى الأفعـال المحمـودة وعلى هـذا الاعتبار يصح أن يقال : **ليس كـل إنسـان عبدا لله أو مسلمـــا** (3) .

وفى المعنى الأول اتسع المجال للبحث بين الفلاســفة والمتكلمين فى إثبــات الحريـــة الإنسانية أونفيها عبر التـاريخ البشـرى ، **وفى المعنى الثانى** كـانت وقفـة أوئـل الصـوفية فى إخراج مصطلح جديد لمعنى الحرية .

1- المفـــردات للـــراغب الأصـــفهانى ص 319 بتصـــرف والحديث تقدم تخريجه ص 22 .

2- جزء من حـديث أبى ذر الغفـارى رضـى اللـه عنـه ، أخرجه مسلم فى كتـاب الـبر والصلـــة بـرقم (2577)

وأخرجه الترمذى فى كتاب صفة القيامة برقم (2495) وأخرجه عبد الرزاق فى مصنفه برقم (2072) و ابن حبان فى صحيحه ، انظر الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبان حديث رقم (619) .
3- المفردات بتصرف ص 318 .

*** المبحث الثانى ***

الحرية فى تاريخ الفكر الإسلامى

تعتبر مسألة القدر وعلاقته بالحرية الإنسانية من الموضوعات الهامة التى شاع الجدل حولها قديما وحديثا لدى الفرق والطوائف الإسلامية المختلفة فبعد ظهور هذه الفرق أضحت هذه المسألة حجر الزاوية فى فكر كل فرقة وعقيدتها إذ أنها تعكس أثرا واضحا على منهج التفكير فى الحياة .

وقد ظهرت وجهات نظر متتعددة ومختلفة وأدلى كل منهم بدلوه إيزاء هذه المسألة وقد كان السؤال الذى يطرح نفسه بإلحاح ويمثل جوهر الموضوع لدى كل فرد هو : **إذا كان قدر الله شاملا لكل شئ وقضاؤه نافذا لا محالة فلم يحاسب الإنسان على أفعاله وهى مقدرة ومسجلة قبل أن يفعلها ؟**

* أولا : مذهب الجبرية : ويذكر القرآن منطق المشركين المغالطين فى محاولتهم التنصل من المسؤلية المتعلقة بالاختيار الحر وتجاهلهم للإرادة الإنسانية وفعلها مستندين

إلى الرجوع بكل شئ وكـل حـادث وكـل فعـل إلى مشيئة الله كعلـة أولى ووحيـدة ومباشـرة لشركهم وكفرهم .

قال تعالى فى شأنهم : **{ سيقول الـذين أشركوا لوشاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنـا من شـئ كـذلك كـذب الـذين مــن قبلهـم حتى ذاقوا بأسـنا قـل هـل عنـدكم من علم اللـه فتخرجـوه لنـا إن تتبعـون إلا الظن إن أنتم إلا تخرصون }** (1) .

{ وقالوا لو شاء الرحمن مـا عبـدناهم مـــا لهم بـــذلك من علم إن هـــم إلا يخـرصـون } (2) .

والملاحـظ فى رد الله سبحانه وتعالى على قـول المشـركين الــذين يحتجـون بـالجبر أنـه يصـفهم بالجهـل والكـذب ، لأن إفـراد اللـه بـالخلق والفاعليـة لا يتعـارض ولا يتنـافى مـع إثبـات الإرادة الإنسـانية وفاعليتهـا باعتبارهـا إرادة مختـارة ، حيث أن هـذه الإرادة ومـدى فاعليتها وحدود عملها ومجال اختيارها كل ذلك بمشيئة الله وإذنه وقـدره ، وحيث أن اللـه هـو الذى أضلهم ولكن بناء على اختيـارهم للضـلال وإيثارهم لـه على ضـده ولـذلك قـال فى الـرد عليهم وعلى المنكرين للحرية والاختيار :

{ قـل فللـه الحجـة البالغـة فلـو شـاء لهـــداكم أجمعين } (3) ومعـــنى أن للـــه الحجـة البالغـة أن النـاس لن يستطيعــوا يـوم القيامة الاحتجــاج بالجبر (4)

والقول بالجبر عند المشركين قديم كما ورد فى القرآن الكريم إلا أنه ـــــــــــــــــــــــــ

1- الأنعام / 148 . 2- الزخرف /20 .
3- الأنعام / 149 .
4- زاد المســير فى علم التفســير لأبى الفــرج جمــال الدين ابن الجوزى ، تحقيق محمد عبد الرحمن عبد الله ، طبعة دار الفكر سنة 1987م حـ 3 ص 99 .

نشـأ على المسـتوى الفكـرى أو فى مجـال علم الكلام مرتبطا بنشـأة التأويـل العقلى فى المتشابه من آيـات القـرآن وأحـاديث السـنة ، فالمؤســـس الأول للجبريــــة على المســـتوى الفلسفى هو الجهم بن صفوان (1) .

ويـــذكر الـــدكتور على ســـامى النشـــار أن طائفــة المجـبرة نشـأت فى الأصـل على يــد الجعـــد بن درهم ثم الجهم بن صـــفوان أثنـــاء حكم بـنى أميـة (2) حيث اتخـذوا مــن القـول بـالجبر منطلقــا عقيـديا يـبررون بـه أعمـالهم السياسـية (3) .

ويقسم الشهرستانى الجبريــة إلى نــوعين : **الجبريــة الخالصة** وهى الــتى لا تثبت للعبــد فعلا ولا قـدرة علـــى الفعـــل أصـلا ، **الجبرية**

المتوسطة وهــى التى تثبت للعبد قدرة غير مؤثرة فى الفعـل (4) .

والجهميــة من الصــنف الأول فالإنســان عنـــدهم معـــدوم الفعـــل والحريـــة

1- مفتاح السعادة لطاش كبرى زاده حـ 3 ص 33 .

2- انظر فى ذلك نشأة الفكر الإسـلامى للـدكتور على سامى النشـار ، طبعـة القـاهرة سـنة 1969 حـ 1 ص 329 .

3- المحيط بالتكاليف للقاضى عبد الجبار تحقيق عمــر عزمى ، ص 422 والمنية والأمل لأحمد بن المرتضـى ، تحقيق نوما آرنولد طبعـة حيـــدر آبـــاد سـنة 1902م ص 30 .

4- الملـل والنحـل للشهرسـتانى تحقيـق محمـد السـيد الكيلانى طبعة القاهرة سنة 1961م حـ 1 ص 87 .

ويخلـق الله فيه الأفعـال كما يخلقهـا فى سائر الجمادات ونسبـــة الأفعــال إليـه على المجـاز كمــا يقــال : زالت الشــمس ودارت الــرحى وأثمرت الشجرة (1) .

* ثانيا : مذهب القدرية :

وفى مقابـل مـذهب الجبريـة يـذكر القـرآن الكريم طائفة ظنت أن القوانين الطبيعية التى أوجـدها اللــه فى الكـون ورتب نظـام الحيـاة الدنيا عليها تعلو على القدرة الإلهيـة ، فنسـبت إليها الفاعلية أصالة دون الله سـبحانه وتعـالى إذ يقول فى شأنهم :

{ وقـالوا مـا هى إلا حياتنـا الـدنيا نموت ونحيا ومـا يهلكنـا إلا الـدهر ومـا لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنـون } (2) .

فهؤلاء نسبوا الفاعلية للأشياء والأحياء على وجـه الحقيقـة وليس للـه عـز وجـل ، فنتيجـة الألفـة والتكـرار للقـوانين والسـنن الطبيعيـة وتتـابع الأسـباب والعلـل وظهـور نتائجهـا على الدوام بحركات رتيبة منتظمة أوحت إلى هؤلاء أن فى الطبيعة الـتى يحيـا فيهـا الإنسـان قـوة فاعلة من دون الله ومن ثم ظهر اتجـاه ينـادى أنه لا قدر والأمر أنف .

ويكاد يجمع مؤرخـو الفــرق أن معبـدا الجهـنى (توفى بعد 80 هـ)

1- الفــرق بين الفــرق للبغــدادى ، طبعـــة دار الكتب العلمية بيروت لبنان ص 211 .

2- الجاثية / 24 .

هـو أول من قـال من المسـلمين بنفى القـدر والفاعليـة الإلهيـة وكـان ذلـك فى آخـر أيـام الصحابة (1) .

وكـان لهـؤلاء أثـر كبـير فى ظهـور مـذهب المعتزلــة القدريــة بالصــورة المسـتقلة وفى ثــوبهم المتمــيز بالأصــول الخمســة ولــذلك صنفوهم على رأس طبقاتهم من أهل الاعتزال (2) .

وقـد كـانت مسـألة خلـق أفعـال العبـاد من المسـائل العظـام فى التـاريخ الفكـرى للأمـة الإســــلامية ، فالمعتزلــــة اتفقــــوا على أن الاستطاعة صفة جوهرية للإنسان وأنها مصـدر أول لأفعالـه تحـدث بهـا الأفعـال دون تـدخل للقدرة الإلهية خلقا أو تسيرا ، ورفض أكـثرهم القول بأن الله قوى أحـدا على الكفـر وأقـدره باعتباره خالقا لكل شئ مستدلين بقوله تعالى :

{ ومـا أصـابك من حسـنة فمن اللـه وما أصابك من سيئة فمن نفســك } (3) .

1- انظر ميزان الاعتدال فى نقد الرجـال للـذهبى حـ 2 ص 141 وشـفاء العليـل فى مسـائل القضـاء والقـدر والحكمـة والتعليـل ، طبعـة دار الفكـر القـاهرة سـنة 1978م ص 139 .

2- نشأة الفكر الإسلامى د. على سـامى النشـار حـ 1 ص 313 .

3- النساء / 97 وانظرالمنية والأمل لابن المرتضـى ص 15 ومقـــالات الإســـلاميين حـ 1 ص 81 والفـــرق بين الفرق ص 153 ، والملل والنحل حـ1 ص 66 .

ويجمـــع المعتزلـــة إلا قليلا منهم على أن الاستطاعة البشرية محدثـة للفعـــل وليســـت مكتسبـة له (1) .

ثالثا : المذهب السلفى :

وقـد دارت الـدائرة بين الجبريـة والقدريـة كعقيـدتين متقـابلتين ومنحرفـتين فى مسـألة القــدر والحريــة من ناحيــة ، وبين الســلف الصالح من ناحيـة أخـرى ، حيث يؤكـد السـلف أن القـــرآن الكـــريم يثبت فى وضـــوح وجلاء بالنصـــوص العديـــدة وجـــود وجهين لأفعـــال البشر :

الأول : هو كون الفعل مخلوقـا للـه ومقـدرا بمشيئته وواقعا ككل شئ فى الكـون بفاعليتـه تعالـى كقوله **: { ألا له الخلق والأمر }** (2) .

{ الله خالق كل شئ وهو على كل شئ وكيل } (3) .

الوجه الثانى : وهـو كـون هـذا الفعـل فى نفس الوقت مختارا للعبد ومكتسبا باسـطاعته ومفعولا بفاعليته منسوبا إليه بهذا الاعتبار .

فقال تعالى : { لمن شاء منكم أن يسـتقيم } (4) وقـــال : { ولـلـه على النـاس حـج البيــت مــن اسـتطاع إليـه سبيلا } (5) .

1- مقالات الإسلاميين حـ 1 ص 81 .
2- الأعراف / 54 .
3- الزمر / 62 .
4- التكوير /28 .

5- آل عمران / 97 .

وقـــال : **{ لا يكلــف اللــه نفســا إلا وســعها لهــا مــا كســبت وعليهــا مــا اكتسبت }** (1) .

ففرقــوا بين أمــر اللــه الكــونى المتعلــق بالربوبية وأمره التشريعى المتعلق بالعبوديـة ، ومن ثم فالفعــل البشــرى إذا وقــع باختيــار الإنســان ونيتــه مخالفــا للشــرع أو لأمــر اللــه التشريعى كان معصية وشرا .

ووجه الشر هنا ليس منسوبا لله إلا أن اللــه هو خالق الفعل سواء كان خيرا أو شرا ، فالله سـبحانه وتعـالى هـو الخـالق لكـل شـئ حـتى معاصى العباد وهـو الـذى أقـدرهم على فعلهـا لأنه تعالى شـاء أن يبتليهــم **فقال : { إنــــا خلقنا الإنســـان مـــن نطفـــة أمشـاج نبتليــه فجعلنـاه سميعـــا بصـــيرا }** (2)

وقـال سـبحانه وتعـالى : **{ تبـارك الـذى بيـده الملـك وهـو على كـل شئ قـدير الذى خلق الموت والحياة ليبلـوكم أيكم أحسـن عملا وهــو العزيـز الغفــور }** (3) .

ومن ثم تصـــبح الاســـتطاعة البشـــرية والأشياء الطبيعية وأفعالهما المخلوقة لله كلها أفعال وتـأثيرات احتماليـة يتسـاوى بهـا جميعـا

وقــوع الشــر والخـــير ، أمــا حركــة الأفــــلاك والنجـــــــوم والشمـــــس والقمـــــر وســـــــائر

1- البقرة / 286 .
2- الإنسان / 2 .
3- الملك / 1 ، 2 .

الأجرام السماوية فلها حركة اضطرارية جبرية كمــا أرادهــا اللــه لهــا بــالأمر الكــونى ، فليس أمامهــا إلا فعـل واحـد وحركـة واحـدة مطـردة ينبئ ماضيها عن مسـتقبلها بدقـة فائقـة شـأن الملائكـة المكـرمين الـذين قـال اللـه فيهم : **{ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون }** (1) .

فأفعالهم ذات اتجاه واحــد ولا يوجـد حيالهـا سوى احتمـال واحـد بخلاف الانسـان فهـو فى كـل موقـف يبتلى فيـه يجـد أمامـه احتمـالين عليـه أن يختـار ويفعـل واحـدا منهما ولا يمكن الجمع بينهما ، على ذلك فالطريق الذى سـلكه السلف الصالح والذى يعتمـد فى جـوهره على كتاب الله وعلى سنة رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسـلم يعـد أمـرا وسـطا للجمـع بين آراء الجبرية والقدرية (2) .

ولئن كـــان القدريـــة قـــد قـــالوا **ليس فى الإمكان أبدع مما كان** تنزيها للـه فى فعلـه من أن يفعل ما هو قبيح أو نـــاقص أو معيب أو

شـر ، بـل ورغبـة منهم فى القـول بـأن اللـه سـبحانه وتعـالى بوصـفه الموجـود الكامـل المطلـق الواحـد الأحـد فى كمالـه لا يخلـق أو يفعـــل إلا مخلوقـــا تامـــا أو فعلا حســـنا

1- التحريم / 6 .

2- انظر فى ذلـك شـفاء العليـل ص 280 ومـا بعـدها ، مختصـر الصـواعق المرسـلة على الجهميـة والمعطلـة لابن القيم مكتبة المتنبى القاهرة حـ 1 ص 226 ، شرح العقيدة الطحاوية لابن أبى العـز الحنفى تحقيـق محمـد ناصـر الـدين الألبـانى ص 219 ، قـوت القلـوب لأبـى طـالب المكى حـ 2 ص 17 .

وخـــيرا اعتقـــادا منهم فى قولـــه تعـــالى : **{ الذى أحسن كل شئ خلقه وبدأ خلـق الإنسـان من طين ثم جعـل نسـله من سـلالة من مـاء مهين ثم سـواه ونفخ فيـــه من روحـــه وجعـــل لكم الســـمع والأبصار والأفئدة قليلا ما تشكرون }** (1) .

وقولــــه : { فتبــارك اللــه أحســن الخالقــين } (2) .

إلا أنهم تغـافلوا عن لازم قـولهم وهـو نفى المشيئة المطلقة عن الله لأنه مـادام لا يخلـق ولا يفعل إلا الأصلح ، فهو لا يختار بين ممكنات باعتبار أن الأصلح دائما واحد ، كمـا أنـه يضـيق مجـال الفاعليـة الإلهيـة من حيث يجعـل خلـق

العالم بهذه الكيفية التى هـو عليهـا واجبـا على اللـه وحتمـا عليـه فى فعلـه كمـا أنـه يحـد من القدرة حيث يجعل خلق غير العالم محال عليه كما يجعل فعل ما لا يحدث محـال على قدرتـه كذلك ، كل ذلـك نتيجـة لمـذهب المعتزلـة فى الصلاح والأصلح .

وفى مقابـل مـذهب المعتزلـة القدريـة رفـع أصحاب الجبر شعارهم فقالــوا : ما شـاء اللـه كـان ومـا لم يشـأ لم يكن إطلاقـا للمشـيئة الإلهيــة وتحقيقــا للقــدرة ووصــفا للفاعليــة الإلهيــــة بمــا يليــق بهــا ، وهــذا وإن كــان

1- السجدة / 7 : 9 .
2- المؤمنون / 14 .

حقا إلا أن الاكتفاء به يلزم أصـحابه بنسـبة مـا يقـع فى العـالم من شـرور وقبـائح للـه ، وقـد وجـدنا أن ذلـك واقـع من النـاس وبفعلهم وإن كان بمشيئة الله وقدره (1) .

والحقيقة التى أثبتهـا السـلف الصـالح حيـال هذا الأمر أنه ما شاء الله كان ومـا لم يشـأ لم يكن وهــو مـا يحــدث بــالأمر الكــونى وواقــع الربوبية وأنه ليس فى الإمكان أبـدع ممـا كـان لتحقيــق الوضــع الأمثــل لابتلاء الإنســان فى الحياة الدنيا وتكليفه بالأمر الشـرعى من قبـل الله لتحقيق العبودية كمـا قال سبحانه :

{ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون } (2) .

فالشـــعاران اللـــذان رفعهمـــا الفريقـــان صحيحان بنص القرآن وليسا متعارضين بـل إن اللبس والغمـــوض والاضـــطراب فى هـــذه الحقيقة عند كل طائفة يكمن فى أن كلا منهما يتمسك بشعاره ويرفض الآخر .

وفى حديث النبى صلى الله عليه وسلم عندما سأله سـراقة بـــن

1- مختصر الصواعق المرسلة على الجهمية والمعطلـة ص 228 ومـا بعـدها مختصـرا وانظـر اللمـع فى الـرد على أهـل الزيـغ والبـدع لأبى الحسـن الأشـعرى ص 115، وانظر الفصـل فى الملـل والأهـواء والنحـل لابن حزم ، دار الجبل بيروت لبنان حـ 3 ص201 ومـا بعـدها ، تاريـخ المـذاهب الإسـلامية للإمـام محمـد أبـو زهـرة طبعة دار الفكـر العـربى ص121 .

2- الذاريات / 56 .

مالك بن جشعم فقـال : يارسـول اللـه أنعمـل اليـوم فيمـا جفت بـه الأقلام وجرت به المقادير أو فيما يستقبل ؟ فأجـاب رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم : بـل فيمـا جفت بـه الأقلام وجرت به المقادير ؟

قال : ففيم العمل ؟

قال : اعملوا فكل ميسر لما خلـق لـه ، ثم قرأ صلى الله عليه وسلم :
{ فأمـــا من أعطى واتقى وصـــدق بالحسنى فسنيسره لليسـرى وأمـا من بخـــل واســـتغنى وكـــذب بالحســـنى فسنيسره للعسرى } (1) .

فالمتأمل فيه يجد الطـريقين المتقـابلين فى مسألة القدر والحريـة ويجـد المخـرج من هـذا التناقض ، فاللـه سـبحانه وتعـالى كتب مقـادير الخلائـق قبـل أن يخلـق السـموات والأرض بخمسـين ألـف سـنة وفى ذات الـوقت جعـل الإنسان حرا مختارا بالقدر الذى يدينه ويحملـه المسـئولية عن أفعالـه الخلقيـة كـل ذلـك فى نسق فكرى واحد نزل به الوحى ، تظهر فيـــه الغايــة من خلق الحيـاة الدنيـا والآخــرة قـال تعالى : **{ ولو شاء ربك لجعـل الناس أمة واحدة ولا يزالــون مختلفين إلا من رحم ربــك ولــذلك خلقهم وتمت كلمــة**

1- الليل / 5 : 10 .

2- أخرجه البخارى فى كتـاب القـدر ، بـاب جـف القلم على علم الله برقم (6596) ومسلم فى كتاب القـدر ، باب كيفية الخلق برقم (2647) وأخرجه أحمد حـ 1ص 82 ، حــ4ص431 وابن حبـان فى التقــريب حـ 2 ص 45 برقم (334) والترمذى فى القدر ، باب ما جـاء فى الشقاء والسعادة برقم (2136) .

ربــك لأملأن جهنم من الجنــة والنــاس أجمعين } (1) .

وقد نتج عن التفاوت فى علاج هذه القضية كم كبـــير من الـــتراث الفكـــرى الإســـلامى والأقـــرب فيهم إلى الحـــق هـــو الأقـــرب فى التمسك بمجموع الأدلة فى كتـاب اللـه وسـنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

ولقد كان لكثير من أوائل الصوفية فى هذه المسـألة وقفـة سـلفية تـآزرت مـع الفقهـاء والمحدثين فى وقوفهم أمام المخالفين لكتاب اللـه سـوف تتضـح بـإذن اللـه من خلال هـذا البحث ، وقد يكون الشائع عن أوائـل الصـوفية أنهم يرغبـون فى إخـراج أنفسـهم من عـواق الحياة بهجرهـا والزهـد فيهـا وايثـارهم للخلـوة والـــبرارى والصـــحارى عن التفاعـــل معهـــا والخـوض فيهـا كمـا هـو الحـال فى صـوفية اليوم ، إلا أن أوائـل الصـوفية على الـرغم من شطحاتهم ومخالفاتهم لهم جانب لا ينكـر فى خدمة العقيدة السـلفية ، فلهم إبـداعات قيمـة فى عــرض مســألة القــدر وعلاقتــه بالحريــة الإنســانية تسـفر عن فهم دقيـق لكتـاب اللـه وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم .

1- هود / 118 ، 119 .

*** المبحث الثالث ***

الحرية ومنهج الحياة الإسلامية

إذا كـانت الحريـة تعـنى اسـتقلال الإرادة الإنسـانية وحريتهـا فى اختيـار أفعالهـا ، فـإن الوجه المقابل لاستكمالها أن يعين للإنسان حد لا يتجاوزه وأن توضـع نظم تمنـع التعـدى على حريات الآخرين فالحرية وسـيلة وليسـت غايـة إذ الغايـة تكمن فى تحقيـق الكمـال الإنسـانى المتمثل فى عبوديته لله سـبحانه وتعـالى كمـا قـــال جـــل ذكـــره : **{ ومـــا خلقت الجن والإنـس إلا ليعبدون }** (1) .

ولقـد حـوى دين الإسـلام من نظم الحيـاة لجميـع أفرادهـا كـل مـا يحتاجـه الإنسـان من تشريع فى علاقته مع ربه ومع ملائكته وأنبيائــه ومـع أفـراد نوعـه من بـنى البشـر ، فـبين لنـا القرآن الكريم وفصلت لنا السنة النبوية كل ما يلزم الإنسان فى حياته اليومية من نظم تحقق الكمال الإنسانى فى اختيـاره وحريتـه ، وذلـك فى مقابـل النظم والتشـريعات المكتسـبة من التجربـة واستحسـان العقـول فى الفلسـفات الأخرى .

* الحرية فى المجال السياسى :

ففى تنظيم العلاقـة بين الـراعى والرعيـة نجد أفكـارا شـتى عنـد السياسـيين كـل يـدلى

بدلوه ليحقـق كمـال الحريـة من وجهـة نظـره وأقربهم ــــــــــــــــــ
1- الذاريات / 56 .
إلى الحـق أقـربهم إلى النظم الإسـلامية الـتى وضعها الله سبحانه وتعالى .
فالمبادئ الأساسـية الـتى كفلهـا الإسـلام فى ذلك :
1- الحريـة السياسـية لكـل أفـراد المجتمـع أو حق الأمة فى اختيار الحاكم .
2- حــق الأمــة فى مراقبتــه ومحاســبته على أعماله .
3- مبدأ الشورى .
أما طريقة الاختيار للحاكم ، فإن الذى اتبعـه الصحابة هو أن يبايع أهل الحل والعقـد الإمـام أو الخليفة الذى تم الاتفاق عليه ، وأهـل الحـل والعقـد هم **أئمـة المسـلمين وفقهـاؤهم ورؤساء عشائرهم وأمراء أجنادهم وذو الشوكة والمكانة والرأى فيهم** (1) .
والبيعة **(هى العهد على الطاعـة فقـد كان المبايع يعاهد أميره على أنه يسلم له النظر فى أموره وأمور المسلمين)** (2) .
وقد تولى الخلفاء الراشدون ـ وعهـدهم هـو العهد الذى يمثل مبادئ القرآن أصدق تمثيـل ـ بطريق البيعة من أهل الحل والعقد .

وقد قرر ابن خلدون حـق الإمـام فى تعـيين خلفـــــه على المســـــلمين مســـــتندا

1- انظر غياث الأمم فى التياث الظلم لإمـام الحـرمين أبى المعالى الجوينى تحقيق ودراسة الدكتور مصطفى حلمى والدكتور فـؤاد عبـد المنعم أحمـد ص 46 طبعـة دار الدعوة الإسكندرية مصر سنة 1979 .
2- المقدمــة لابن خلــدون تحقيــق الــدكتور على عبــد الواحد وافى حـ 2 ص719 طبعة لجنة البيان العربى .

بتولية عمر بن الخطاب ، ولكن كلامه فيه نظر ، إذ أنه أغفـل التفرقـة بين الترشـيح والتعـيين حيث رشح أبو بكر عمـر ولم يعينـه ، وحيث تم تنصيبه ببيعة أهل الحـل والعقـد بعـد وفـاة أبـو بكر رضى الله عنه (1) .

أما حق الأمة فى محاسبة الحاكم ، فقد نص على ذلك أبـو بكـر وعمـر وسـائر الخلفـاء فى خطبتهم الأولى بعد مبايعة الناس لهم بالخلافة كما أن ما حدث من عامـة المسـلمين لعثمـان بن عفان خير دليـل على ذلـك ، وإن كـانوا قـد جـاروا عليـه باسـتخدامهم هـذا الحـق فى غـير موضعه ودون مبرر معقول ومقبول .

والحــق الثــالث للنــاس على الــراعى حــق الشورى لقوله تعالى : **{ والذين استجابـوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمـرهم شـورى بينهم }** (2) فــبين أن تلــك صــفة لازمــة للمجتمـع المـؤمن كالصـلاة وسـائر الطاعـات

ومن ثم أمــر نبيــه أن يعامــل المســلمين فى أمـــورهم بهـــذا المبـــدأ : **{ فـــاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الأمر }** (3) .
هذه الحقوق الثلاثة للرعية على الراعى مقابل حقه عليهم فى السمع والطاعة ما دام لا يـأمر بمعصية تحقق المساواة التامة بين النـاس من جهة وبينهم وبين الفئة الحاكمة من جهة أخرى ، وأساس هذه المساواة هى ـــــــــــــ
1- الحرية فى الإسلام للـدكتور على عبـد الواحـد وافى ص98 .
2- الشورى / 38 .
3- آل عمران : 159 .
حياتهم جميعا وفق شريعة الله تحقيقا للعبوديه ، و ذلك لأن المساواة الحقة بين أفراد مجتمـع ما فى القيمة الإنسـانية لا تكـون إلا تحت لـواء شـرع ونظـام ومنهج حكيم مـنزل عليهم مـــن ربهم (1) .
* الحرية الدينية :
وقد راعى النظـام الإلهى فى فطـرة النـاس الحرية التامة لكل فـرد من الرعيـة فى اختيـار دينـه ذلـك لأن الحريـة هى الوسـيلة لتحقيـق كيان الفرد فى نفسه وفى مجتمعـه ، ومن ثم فلا إنسانية بـدون حريـة ولـذلك فـإن التشـريع القرآنى يكفل للفرد ضـمانات صـلبة وراسـخة

لحريته حيال المجتمع ، فجعل لكل فرد حق الاختيار فى كل أمور حياته وآخرته هزيلها وخطيرها مادام هذا الاختيار لا يتضمن اعتداء ظالما على غيره ومن ثم فحرية اختيار الإيمان بالله أو الشرك به حق لكل إنسان يتحمل نتائجه : **{ وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر إنا أعتدنا للظالمين نارا أحاط بهم سرادقها }** (1) .

1- السياسة الشرعية ونظام الدولة الإسلامية فى الشؤن الدستورية والخارجية والمالية للشيخ عبد الوهاب خلاف ص25 وما بعدها بتصرف ، طبعة دار الأنصار القاهرة سنة 1977 م .
2- الكهف : 29 .

وذلك لأنه مخلوق حر والحرية مكون أساسى فى طبيعته التى خلقه الله بها فما دام ذلك حقه الذى أعطاه الله له ، فليس من حق أحد أو أى سلطة أن تسلبه منه حتى لو كان ذلك لصالح الإيمان والإسلام .

فلو أكره حاكم أحدا من رعيته على الإسلام لكان ذلك اعتداء منه على حق المكره الذى كفله الله له ، ورفض منه لارادة الله ومشيئته فى خلقه وذلك واضح صريح في قوله تعالى لرسوله مبينا أنه ليس من حقه أن يكره أحدا

على الإيمان : **{ ولـو شـاء ربـك لآمن من فى الأرض كلهم جميعـا أفـأنت تكـره الناس حتى يكونوا مؤمنين }** (1) .
فما دام الله قد شاء أن يكون الناس أحرارا مختارين بين الإيمان والكفر فمن يكره إنسـانا على الإيمان وهو مصر على الكفر أو الشرك ، فقد خالف مشيئة الله واعتـدى على حـق هـذا الإنسان الذى وهبه الله له .
أما ماورد عن رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم حيث قال :
(أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا الـه إلا اللـه فمن قالهـا فقـد عصـم مـنى دمـاءه ومالـه) (2) فـذلك لا يعـنى إكراه الناس على الإيمان ________________
1- يونس 99 ـ 2- حـديث متـواتر رواه البخـارى فى كتـاب الزكـاه ، بـاب وجـوب الزكـاة بـرقم (1399) ومسلم فى كتاب الإيمان ، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولـوا لاإلـه إلا اللـه بـرقم (21) وأبـوداود فى كتـاب الزكاة برقم (1556) والترمذى فى كتاب الإيمان برقم (2609) والنسائى فى كتـاب المحاربـة بـرقم (3983) وابن ماجه فى كتاب السنة والفتن برقم (3927) .
بالقتال ، ولكن المقصود بالناس هنا من وقــف فى طريـق الـدعوة يتصـدى لهـا من أصـحاب السـلطان الجـائرين فى الأرض المكـرهين للناس على الضلال والشرك ، الحـاكمين بينهم بشـريعتهم وأهـوائهم ، ولـذلك فـإن عمـر بن

الخطـاب رضـى اللـه عنـه بعـد النصـر أعطى عهـدا لأهـل إيليـا بالأمـان والحريـة التامـة فى أنفسهم وأموالهم وكنائسـهم وسـائر ملتهم ولا يضار أحد منهم (1) .

وكذلك عهـد عمـرو بن العـاص لأهـل مصـر وجميع من عهد نص على حرية العقيدة وإقامة الشعائر (2) .

ومن ثم فمهمـــة الجيـــوش الإســـلامية المجاهدة تتمثل فى إزالـة هـذا الحـاجز المـانع حتى يستطيع المسلمون تبليغ رسالة الله التى كلفهم بتبليغها وحتى تبلغ كلمة الله آذان الأمم والشعوب وبعد ذلك يكـون من حـق كـل منهم أن يؤمن أو لايؤمن ، وذلك التشريع السياسى العام فى حرية العقيـدة ينسـحب على تشـريع الحريــة العقيديــة بين الــزوجين ، فلا يســمح الإســـلام للمســـلم المـــتزوج باليهوديـــة أو النصــرانية أن يجبرهــا على تــرك دينهــا أو أن يمنعها من آداء شعائرها التعبدية فى كنيستها ، بل تـذهب بعض مـذاهب الفقـه الإسـلامية إلى وجــوب مصــاحبة الــزوج المســلم للزوجيــة

1-البداية والنهاية حـ 7 ص 65 طبعة دار الفكر العربى سنة 1387هـ .

2- السياسة الشرعية ونظام الدولة الإسلامية ص36 .

الكتابية إلى كنيستها أو بيعتها للصلاة إذا أرادت (1) .

ولقد أثار مخالفو الإسـلام من مستشـرقين وغيرهم شـبهات حـول انتشـار الإسـلام نتيجـة الفتوحات الإسلامية زاعمين أن من أسـلم من مواطــنى البلاد المفتوحــة إنمــا أســلم تحت السـيف ، ولكن ذلـك افـتراء منـاف للصـحة والصواب فلم تكن حقيقـة الحـروب الإسـلامية سوى تحرير للنـاس من أوضـاع ونظم ظالمـة غاشــمة تسـتعبد الشــعوب للحكــام من دون الله .

وأصـدق تعبـير وأوضـحه على هـذا المبـدأ الهام هـو قـول ربعى بن عـامر لملـك الفـرس عندما سأله عن سـبب غـزو المسـلمين لبلاده قبل موقعة القادسية قال : **(إن الله ابتعثنا لنخــرج النــاس من عبادة العبـــاد إلى عبادة الله وحـده ومـــن جـور الأديـان إلى عـــدل الإســلام ، ومــن ضـيق الدنيــا إلى سعــة الدنيــا والآخـــرة)** (2) ولن تتحقـق الحريـة على وجههـا الأمثـل إلا بهذا التحرير .

* الحرية فى المجال الاقتصادى :

وتعـنى حريـة الإنسـان فى التملـك للأرض الـتى منحـه اللــه إياهـا واسـتغلاله لثرواتهـا ومنتجاتهـا ، وتعبيـد كـل مـا عليهـا من نبـات

وحيـوان ومعـادن لمعاشـه ومتاعـه المشـروع وهى شـــعبة أخـــرى من شـــعب الحريـــة

1- الحرية فى الإسلام من سلسلة كتـاب اقـرأ د . عبـد الواحد وافى ص 61.
2- البداية والنهاية حـ 3 ص 123 .

الإنسانية بعد الحريـة السياسـية والعقيديـة ولا تقل خطرا عنهما (1) .

ويقدم الإسلام نظامه الاقتصادى الإسـلامى المحكم كمنهج لضـمانها لكـل فـرد فمـا دام النـــاس كلهم مســـتخلفون فى الأرض فقـــد أطلقت التشـــريعات الاقتصـــادية الإســـلامية طاقات العمـل عنـد كـل الأفـراد فى المجتمـع للاستغلال والبناء والتعمير والإنتـاج وفى شـتى ضروب النشاط الاقتصادى .

فأبـاح الإسـلام الملكيـة الفرديـة تمشـيا مـع الفطرة الإنسـانية وإطلاقـا للطاقـات البشـرية إلى آخر مدى مقـدر لهـا وجعـل هـذه الملكيـة هى الأجــر الطــبيعى والمكافــأة العادلــة لمن يعمـل ويجتهـد لاسـتخراج الأرزاق للنـاس من الأرض .

ومن الطبيعى أن تفاوت الناس فى مـواهبهم الموروثة الـتى خلقهم اللـه بهـا يسـتتبع تفاوتـا بينهم فى طاقة كل منهم على العمـل والإنتـاج

واستغلال الأرض ومن ثم يسـتتبع ذلـك فروقـا بينهم فى ملكيـاتهم ولا يمنـع الإسـلام ذلـك ، ولكنه يجعله مسموحا بشروط البشرية فوجود أغنياء فى المجتمعـات البشـرية أمـر قـد أراده الله وشاءه لابتلاء الناس .

ولكن الــذى يحتمــه التشــريع الاقتصــادى الإسلامى حمايـة للحريـة الاقتصـادية لأفـراد المجتمـع هـو أن يكـون للفقـراء والمسـاكين واليتامى والعجزة حق فى مال هـؤلاء الأغنيـاء بقــــدر كــــثرة هــــذا المــــال وتلــــك هى

1- الحرية فى الإسلام من سلسلة كتاب اقرأ ص 72 .

الزكـاة ، ذلـك أن الإسـلام فى مقابـل إطلاق أيدى الناس أصحاب الطاقات البناءة والعاملـة فى ثـروات الأرض يمتلكـون من خيراتهـا مـا يشاؤون وما يستطيعون يجعل لهـؤلاء الـذين لا يملكـون وسـائل الإنتـاج والقـدرات الجسـدية والذهنيــة والعقليــة من العجــزة واليتــامى والمسـاكين وأبنـاء السـبيل وكـل من أقعدتـه ظروفه الجبريـة عن الكسـب يجعـل لهم حقـا فى مال الأغنياء لأن مـا يكسـبه المسـتطيعون نتيجة عملهم واستغلالهم لـثروات الـبر والبحـر إنما هو رزق مقدر من الله للجميع .

ويتضح لنا ذلك الأمر بمعرفة مفهوم الملكية فى الإسلام باعتباره الأساس الفلسفى للنظام الاقتصادى الإسلامى .

وينبثــق مفهــوم الملكيــة فى الإســلام من حقيقـة كـبرى تتمثـل فى أن المالـك الحقيقى للأرض هو الله وأن الملكية الموهوبة للإنســان ليست ملكية مطلقـة دائمـة وحقيقيـة بـل هى مؤقتة لعلـة تنتهى بـالموت أو فنـاء الـدنيا كمـا قــال تعــالى : **{ لــه ملــك السمـــاوات والأرض ثم إليه ترجعــون }** (1) .

وقال سبحانه : **{ ولقد جئتمونا فرادى كمــا خلقنــاكم أول مــرة وتــركتم مــا خولناكم وراء ظهوركم }** (2) .

1- الزمر /44 .
2- الأنعام / 94 .

* الحرية فى المجال الاجتماعى :

أمـا الحرية الاجتماعيـة والـتى تعـنى كـون المواطنين جميعا سواء فى الحقوق والواجبات بلا تمــــيز طبقى أو تفــــاوت بينهم من حيث القيمة الإنسانية ، فالقرآن والسنة يشملان من النصوص العديدة ما يثبت ذلك بوضوح وجلاء .

وتنبثــق فلســفة النظــام الاجتمــاعى فى الإســلام من خلال حقيقـة كـبرى يبينهـا قولـه تعــالى : **{ وهــو الــذى جعلكم خلائــف**

الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتكم } (1) .

فالابتلاء علة وجود التفـاوت والـدرجات بين الناس فى المجتمع فى شتى المجالات ، وهذه مشــيئة اللـــه ســبحانه وتعــالى حيث خلقهم متفـــاوتين فى المـــواهب وســـعة النفـــوس والعقـول ، ومـا عليـه كـل منهم من الجمـال والصحة وأحوال البيئة والظروف الخاصة لكـل أسرة ولكل فرد .

ولكن هـذه الحـالات الاجتماعيـة بين النـاس ليست سوى حالات مؤقتة ومتنوعة يخلق اللـه العبـاد فيهـا تحقيقـا للابتلاء ، وبـذلك يـوجب الشــرع على الخـادم حب مخدومـه وطاعتـه وآداء واجبـه نحـوه باعتبـار أن ذلـك أمـر اللـه ومشيئته لابتلائه ، كما يوجب فى الـوقت عينـه حب المخدوم لخادمه ـــــــــــــــــــــ

1- الأنعام / 165 .

وحسـن المعاملـة واحـترام آدميتـه وآداء حقـه عليـه غـير منقـوص باعتبـاره إنسـانا مثلـه بـل باعتباره أخا له وباعتبار أنه مبتلى كذلك .

ومن ثم فليس الإسلام طبقات بين النـاس بمفهـــوم الطبقـــات الاجتماعيـــة وإنمـــا هى درجـات ، ويسـتحيل أن يخلـو مجتمـع مـا من الدرجات التى تعرف فى علم الاجتماع بالسلم الاجتماعى الذى يأخــذ الشكـل الهرمى .

وتلـك الأسـس تحقـق الوحـدة الاجتماعيـة بين أفراد المجتمع بالحب والإخاء ويصـبح كمـا وصفه رسول الله صلى الله عليـه وسلـم فى قوله :

(تــــرى المؤمــــنين فى تــــراحمهم وتوادهم وتعاطفهم كمثـل الجسـد إذا اشتكى عضو تـداعى لـه سـائر جسـده بالسهر و الحمى) (1) .

1- أخرجه البخارى فى كتاب الأدب ، باب رحمة الناس والبهائم بـرقم (6011) ومسـلم فى كتـاب البروالصـلة برقم (2586) .

Cairo Universty
Faculty of Dar El - Ulum
Department of Islamic Philosophy

MS. C. Thesis

The Concept Of Freedom In Mysticism
In The Third And Fourth Higrah Centuries

By

Mahmod Abdoh Abd Elrazix Ali

Undar Superisor
Prof. Dr. Abdo El Fattah El Ffawy
Prof. Of Islamic Philosophy

1994/1995

الباب الثانى

مفهوم القضاء والقدر وعلاقته بالحرية

عند الصوفية

ويشتمل على فصلين :

الفصـل الأول : موقـف الصـوفية من صفات اللـــه وأثــره فى موضـــوع القـــدر والحرية

الفصـل الثـانى: الحريـــة وأصالتـــــها فـى الذات الإنســانيـــــــــة عنــــــد الصوفيـــة

الفصل الأول

موقف الصوفية من صفات اللـه وأثره فى موضوع القدر والحرية

ويشتمل على أربعة مباحث :

المبحث الأول : منهـج الصوفية فى فهـم المسائـــل العقائديـة

المبحث الثانى : موقف الصوفية من صـفات الـذات وصفات الفعل

المبحث الثالث : إفراد ا لله بالفاعلية أساس عقيـدة القضاء والقدر

المبحث الرابــع : مـــراتب القـــدر عنـــد مشــايخ الصــوفيـة

*** المبحث الأول ***

مـنهج الصوفية فى فهـم المسائل العقائديـة

قضــية الحريــة وعلاقتهــا بالقــدر من أهم القضايا الـتى جـاءت بهـا الرسـالات السـماوية والتى عرضها القرآن الكريم وذلك لأنهـا تحـدد علاقة الإنسان بربه وتفسـر الغايـة من وجـوده فى الحيــاة ، كمــا أنهــا من أوائــل المســائل الفكريــة الــتى ســببت الــنزاع بين الطوائــف الإسـلامية ، ومـع أن القـرآن الكـريم والسـنة النبوية المطهرة همـا المصـدر الغيـبى الوحيـد لجميـع الحقـائق الكونيـة والمبـادئ التشـريعية ومنها حقيقة العلاقة بين القدر والحرية ، إلا أن الفرقة قائمـة بين الفـرق المختلفـة والمتباينـة فى تاريخ الفكـر الإسـلامى حـول التوفيـق بين العقل والنقل حيال المشكلة .

والسـبب الواضـح فى إحـداث هـذه الفرقـة يظهر إذا علمنا أن المعرفة الإنسـانية موضـوع ومنهج ، فالموضـوع هـو مـادة البحث ومصـدر المعرفـــة والمنهج هـــو الســـبيل الفكـــرى والخطـوات الذهنيـة الـتى يتبعهـا العـارف فى مساره بقصد تحصيل المعرفة ، إذا علم ذلــك فـإن علـة اختلاف الفـرق والمـدارس الفكريـة تكمن فى المنهج الذى تتبعه كل فرقة .

ولمــا كــان المنهج محــددا لهويــة الطائفــة المعنيــة وممــيزا لهــا عن الآخــرين فلابــد من إدراك المعـالم الرئيسـية للمنهج الصـوفى فى فهم المسائل الاعتقادية بصفة عامــة ومنهجهم

فى موضوع البحث بصفة خاصة وذلك لتتضـح الهويـة الصـوفية ومـدى قـربهم أو بعـدهم من المنهج النبـوى فى معالجـة القضـية ، وإحقاقـا للحق يجب أن نفـرق بين المنهج الـذى سـلكه صوفية التوحيد وهم أغلب المشايخ فى الفترة الـتى تلت عصـر خـير القـرون وبين صـوفية الحلول والاتحاد ووحـدة الوجـود الـذين عكـروا على أوائـــل الصـــوفية نقـــاوتهم من الشـــرك وجـــوهر العقيـــدة ، فكثـــير من الصـــوفية فى القرون الأولى سلكوا منهجـا سـلفيا فى أغلب أمـورهم خـدموا بـه دينهم وردوا بـه على أهـل البـــدع لا ســيما فى بـــاب الصـــفات والتأويـــل العقلى المتعسف للنصوص القرآنية والأحاديث النبويـة ، وقـد اسـتدل غـير واحـد من السـلف بأقوالهم واحتج بها على مذهب السلف الصالح (1) .

فمن غـير الأنصـاف أن نشـرك هـؤلاء فى وصف واحد يجمعه التصـوف مـع من ضـل عن طريق الحق واتبع نوعا من الفلسـفة الخارجـة عن الإسـلام وحقيقتـه ممن قـالوا بـالحلول أو وحدة الوجود ، من أجل ذلـك يمكن القـول أن أغلب أوائـل الصـوفية لا يختلفـون فى منهجهم عن منهج الســـلف فى بـــاب الاعتقـــاد حيث سلكوا منهجا تتضح معالمه فيما يأتى :

[1] - التسليم للوحى فيما ثبت من نصـوص الصـفات وغيرهـا من المسـائل الغيبيـة بمعـنى أنهم أعطـوا الـوحى قدسـيته والأوليـــة التامـــة أو الصـــدارة فى إثبـــات الاعتقادات المتعلقة بذات الله وصفاته وأفعاله لعلمهم أن الحقـائق الغيبيـة الـتى وردت فى القـــــرآن والســـــنة فـــــوق مســـــتوى

1- انظرعلى سبيل المثال مانقلـه الـذهبى عن مشـايخ الصـوفية فى كتـاب العلـو للعلى الغفـار ، ومـا كتبـه الدكتور الطبلاوى محمود سعد عن التصـوف فى تـراث ابن تيميه .

العقل البشرى ، ولايستطيع أن يعرفها معرفــة تفصيلية بنفسـه وإنمـا دوره حيالهـا هـو التلقى والفهم والتصديق .

قال الجنيد بن محمـد : **(الطـرق كلهـا مسدودة إلا على المقتفين آثار رسـول الله صلى اللـه عليـه وسـلم والمتبعين سنته وطريقتـه ، فـإن طـرق الخـيرات كلها مفتوحـة عليـه كمـا قـال : { لقـد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة }** (1) وقـال أيضـا : **كل توحيـد لا يشـهد لـه الكتاب والسنة فهو زندقة** (2) لأن العقل عنـــدهم لا يعتـــبر فى مســـتوى الـــوحى إذ أن الأمـــور الغيبيـــة كالحـــديث عن اللـــه وملائكتـــه

والجن والسـماوات وأمـور الآخـرة من الأمـور الــتى لا يســتطيع العقــل اقتحامهــا بمفــرده ونصيبه منهـا إذا اجـترأ عليهـا بمفـرده الحـيرة والندم (3) .

1-الأحـزاب /21 والجنيـد هــو أبـو القاسـم الجنيـد بن محمـد الخـراز القـواريري ، أصـله من نهاونـد ومنشـأه بالعــراق وكان فقيها من أئمة القـوم وسـادتهم تـوفى سـنة 297هــ انظـر ترجمتـه فى صـفة الصـفوة لابن الجـوزى حـ 2 ص 235 ، الرسـالة القشـيرية حـ 1 ص 105 ، حلية الأوليـاء حـ 2ص 255 ، وفيـات الأعيـان حـ 1 ص 146 ، طبقـات الشـافعية حـ 2 ص 28 ، تـاريخ بغداد حـ 7 ص 241 ودائرة معارف البستانى حــ6 ص 367 ، ســـير أعلام النبلاء حـ 9 ص 155 طبقــــات الشعرانى حـ 1 ص 98

2- مقولتـا الجنيـد فى حليـة الأوليـاء حـ 01 ص 257 ، وتلـبيس إبليس ص 10 والرسـالة القشـيرية حـ 1ص 106 والاعتصام للشاطبى حـ 1 ص 95 والأمـر بالإتبـاع والنهى عن الابتداع للسيوطى ص 53 .

3- انظر قوت القلوب حـ 2 ص 124 ، حلية الأوليـاء حـ 10 ص 255 .

ولـذلك قـال الجنيـد **: (إذا تنـاهت عقـول العقلاء فى التوحيـــــد تنــــاهت إلى الحيرة)** (1) .

فالمناهج العقلية والأنسقة الفكرية ، ينطلق من خلالهـــا مفكــروا الفـــرق إلى البحث فى القــرآن والســنة وهى فى أذهــانهم كفــروض

يعملون على إثباتها ، فإن وجدوا بين الآيات ما يؤيد هـذه المقررات والفروض فبها ونعـمت ، وإن لم يجدوا قاموا بتأويـل الآيـات والأحـاديث تأويلا متعسـفا لا تحتملـه النصـوص ، أو قـاموا بردها بزعم أنه من روايـة الآحـاد الـتى لا يثبت بها اليقين فى الدين ، هذا الواقع المعـبر عـن مذهب الجهمية والمعتزلة ، نبـه الصـوفية على خطورته وأثـره السـيئ فى هـدم دين اللـه إذ يقـول المكى (1) فى بيـان اعتقـاد الصـوفية وطريقتهم تجاه الوحى :

1- انظر التعرف لمذهب التصـوف للكلابـاذى ص 78 ، 79 .

2- هـو محمـد بن على أبـو طـالب المكى نشـأ بمكـة ورحل إلى البصرة ثم بغـداد ، قـال ابن الجـوزى : كـان زاهدا عابـدا جمـع النـاس عليـه فى الوعـظ فخلـط فى كلامه ، وحفظ عنه أنه قال : ليس على المخلـوق أضـر من الخالق ، فبدعه الناس وهجروه ، فـامتنع من الكلام على الناس بعد ذلك ، وكان رجلا صالحا مجتهـدا صـنف كتابا سماه قوت القلوب ذكر فيـه أحـاديث لا أصـل لهـا توفى سنة 386 هـ انظـر ترجمتـه فى المنتظم حــ41 ص 385 وتاريخ بغداد حـ 2 ص 89 .

قلت : مـا كتبـه المكى فى قـوت القلـوب يـدل على اعتقاد أهل السنة والجماعة فى كثير من المسائل كمـا سنرى أما الصوره التى ذكرها ابن الجـوزى عن الرجـل فالله أعلم بها

(**فإنا قـوم متبعون نقفـوا الأثـــر غـير مبتـــدعين بـالرأى والمعقـول نـرد بـه الخــبر)** (1) .
وقال أيضـا : (**وفى رد أخبار الصـفات بطلان شـــرائع الإســـلام من قبـــل أن النـاقلين إلينـا ذلـك هم نـاقلو شـرائع الــدين وأحكــام الإيمــان ، فــإن كــانوا عدولا فيما نقلوه من الشريعة فالعـدل مقبول القول فى كل مـا نقلـوه ، وإن كــانوا كــذبوا فيمــا نقلــوا من إخبــار الصفات فالكذب مردود القول فى كـل ما جاء به**) (2) .
فمصدر المعرفة بالله هو مـا جـاء عن اللـه بالخبر الصحيح وعمل العقل هو التلقى والفهم والتصــديق والإجابــة ، ولا شــك أن الصــوفى حينما يخضع عقله لقول الله إيمانا منه بأن كل الحق فيه فهو فى الواقع يحـرره ولا يقلـل من شــأنه ، لأن الاستســلام للـــه وحـــده تحـــرر واستعلاء على ما سواه ، أما إذا حاولنا معرفــة الحقائق الغيبية من خلال الأصول الذهنيـة كمـا فعلت المعتزلة وغيرهـا فالنتيجـة الحتميـة هى الانحراف ، وبمزيـد من التوضـيح يمكن القـول أن المعتزلــة كــانت أصــولهم الخمســة تمثــل النسق الفكـرى الـذى يضـعونه فى المقدمـة ، فالتوحيــد والعـــدل والمنزلـــة بين المنزلـــتين

والأمـر بـالمعروف والنهى عن المنكـر والوعـد والوعيـد ، هـذه الأصـول هى السـمة الممـيزة لمن ســلك طريــق الاعــتزال ، ولا يســتحق

1- انظر قوت القلوب حـ 2 ص 124 .
2- السابق حـ 2 ص 124 .

أحد أن يطلـق عليـه لفـظ معـتزلى من وجهـة نظرهم إن لم تكن تلك الأصول مبنى لاعتقاده وأساسا لفكره .

ولمـا دخلـوا بتلـك الأصـول المبنيـة بمـادة العقل على كتاب اللـه كـانت النتيجـة أن ظهـر مــذهب التأويــل العقلى لنصــوص الوحــيين بالمعانى الباطنة التى تحمل النصوص غـير مـا تحتمل حتى بـدت تفسـيراتهم نوعـا من العبث فى كتــاب اللــه ، ومــا ذلــك إلا أن اللفــظ المنطوق والنص المكتوب قهرهم وتعارض مـع أصولهم فعجزت أصابعهم أن تمتـد إليـه بتغـير الألفاظ فـعطلوا المعنى تحت ستار التأويل .

ولـذلك فـإن طريقـة الصـوفية تتفـق مـع الطريقـة السـلفية من حيث التسـليم للـوحى وتقديمه على العقل وذم الكلام .

قال عبد الله بن خفيف الشيرازى (1) :

1- هو محمد بن خفيف بن اسفكشاد الضبى الشـيرازى ، أمـه نيسـابورية وأقـام بشـيراز كـان من الأمـراء ثم

تفقـه وتصـوف وتزهـد ، صـحب أبـا عمـر والدمشـقى والحريــرى ورويمــا ولقى الحلاج ، وعليــه كثــير من المآخذ من خلال سيرته إن كان اعتقاده الذى نقله عنـه شيخ الإسلام ابن تيمية اعتقـادا سـلفيا ، وسـيرته كتبهـا أبو الحسن على بن محمد الـديلمى ، تـوفى سـنة 371 هـ .
انظــر ترجمتــه فى حليــة الأوليــاء حـ 1 ص 385 والرسالة القشيرية حـ 1 ص 184 ، طبقات الشـعرانى حـ 1 ص 142، شذرات الـذهب حـ 3 ص 76، طبقـات الشافعية حـ 2 ص 150 ، المنتظم حـ 7 ص 112 .

(والعقـل لا يحسـن ولا يقبح والشـرع حاكم على العقل) (1) .

وقـال أبـو طـالب المكى : بـاب ذكـر العلم وطريقة السلف وذم ما أحدثه المتــأخرون من الكلام ..ثم تابع كلامـه فقـال : **وقد ظهـرت مصــــــــنفات الكلام وكتب المتكلمين بــالرأى والهــوى والعقــل والقيــاس وذهب علم اليقين وغــــابت معرفــــة الموقنين من علم التقوى** (2) .

ويذكر شيخ الإسلام ابن تيميه اتفاق طوائـف السلـف والأئمة مـن أهـل الحـديث والصـوفية فى ذمهم العلم الكـــلام وطريقـــه الجهميـــة والمعتزلة فى تعطيل الصفات (3) .

[2] - جواز إعمال العقل والفكر فى الرد على الخصوم بما يـؤدى إلى إفحـامهم

وإظهار الدين ، فإذا كـان الصـوفية قـد حـذروا من علم الكلام فإن الكلام المنهى عنه عندهم هو كلام المبتدعة من الجهمية والمعتزلة ، فقد خـافوا على الضـعفاء من أتبـاعهم أن يعلـق بأذهانهم من كثرة الخوض فيه فلا يسـتطيعون الخلاص منه .

1- سيـرة الشيخ الكبير أبى عبد الله محمد بن خفيـف الشـيرازى ، لأبـى الحسـن على بن محمـد الـديلمى تحقيـق دكتور إبراهيم الدسـوقى شتا ، طبعـة مجمـع البحوث الإسلاميـة ص 359 .

2- قوت القلوب حـ 1 ص 146 وما بعدها .

3- انظـر التصـوف فى تـراث ابن تيميـه د0 الطبلاوى سعده ، الفصل الثانى ، الاتفـاق بين السـلفية ومشـايخ الصوفية فى ذم الكلام والمتكلمين ص 74 : 86 .

أما استخدام الكلام أداه يقاوم بهـا الصـوفى ويدافع عن دينه فهذا ثابت فى كلام الأئمة .

وخـير دليـل على ذلـك الحـارث بن أسـد المحاسـبى (1) إذ أن كتبـه تـذخر باسـتخدام العقل لخدمة الشرع والذود عنه فيقول رحمـه الله :

(ألا فمن رغب منكم فى العقـل وأراد السبيل فى اكتسابه ، فإن أفضل ما تستفيد بالعقل أن تطيـع اللـه فيمـا افـترض عليـك وتتجنب مـا حـرم اللـه عليـك ، فمـتى فعلت ذلـك أخـذت من

العقل بنصيب فبذلك جـاءت الإخبـار أن العاقـل من أطـاع اللـه ولا عقـل لمن عصاه) (2) .

ويـبين المحاسـبى دور العقـل حيـال النص فيذكر أن قوما من المتكلمين قالوا :

العقل هـو صـفوة الـروح ولبـه ، ولا نقـــول بـــذلك إذ لم نجـــد فيـــه كتابـــا مسطورا ولا حديثا مأثورا ، إنما العقـل غريـــزة جعلهـــا اللـــه فى قلـــوب

1- هو أبو عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى من أهل البصرة من علماء مشايخ الصوفية ، له تصـانيف كثـيرة أهمهـا كتـاب الرعايـة لحقـوق اللـه ، وهـو أسـتاذ أكـثر البغـداديين فى عصـره مـــات سـنة 243هــ ، انظـر ترجمتـــه فى حليـــة الأوليـــاء حـ 1 ص 73 ، طبقـــات الشـــافعية حـ 2 ص 37 ، مـــيزان الاعتـــدال حــــ ا ص 110 ، تاريخ بغـداد حـ 8 ص 211 سـير أعلام النبلاء حـ 2 ص 110 ، طبقات الشعرانى حـ 1 ص87

2- الرزق الحلال وحقيقـة التوكـل على اللـه للحـارث المحاسـبى ، تحقيـق محمـد عثمـان الخشـت ، مكتبـة القرآن طبعة 1984م ص 10 .

الممتحـنين من عبـاده أقـام بـه على البـالغين الحجــة فهــو غريــزة لا يعــرف إلا بفعالــه فى القلب والجوارح ولا يقدر أحـد أن يصـفه بغيـــر فعالة (1) .

فأنكر تعريف العقل بغير دليـل وأنشـأ كلامـا يصف به العقل ولا يعارض الدليل .

وقــد حــدث أن الإمــام أحمــد أنكــر على الحارث المحاسبى اشتغاله بالكلام ممـا يـوهم أن المحاسبى كان على غير طريقـة السـلف ، والحقيقة أنه أنكر عليه أسلوبه فى الدفاع عن أهل السنة من خلال علم الكلام ونقل شـبهات المخالفين ثم الرد عليها ، فلعل الشـبهة الـتى ينقلها تكون أقـوى من رده فيحـدث عكس مـا يريد ، فلم تكن حملته عليـه شـكا فى عقيدتـه لأنهمـا يتفقـان فى المصـدر والمسـلك ولا أدل على ذلك من اسشهاد شيخ الإسـلام ابن تيمـة بكلامه فى كتابه الفتوى الحموية وغيرها (2) .

ويذكر الشيخ سلامه العزامى أن الذى سلك علم الكلام من مشايخ الصوفية إنما أراد بذلك نصرة أهل السـنة واسـتخراج الأصـول الدينيـة من

1- القصد والرجوع إلى اللـه للمحاسـبى ، تحقيـق عبـد القادر أحمد عطا ، دار التراث العربى ، طبعة 1980م ص 11 ، أعمال القلوب والجوارح للمحاسبى ص 46 .

2- انظر تفصـيل مـا حـدث بين أحمـد والمحاسـبى فى المنقـذ من الضـلال لأبى حامـد الغـزالى ص 34،ـ 35 وتـاريخ بغـداد حـ 8 ص 114 ، قـوت القلـوب ص 168 مـــيزان الاعتـــدال حـ 1 ص 200 ، أســتاذ الســائرين الحــارث ابن أســد المحاســبى ، للــدكتور عبــد الحليم محمود ص 17 ، 18 .

الكتــاب والســـنة للـــرد على المبتدعـــة من القدرية والجهمية وغيرهم ، وذلك لما استفحل جـدلهم وقـــويت شـوكتهم وقـد كـان من آثـار ذلك ظهور كتب التوحيد والعقائد (1) .

وهــذا المنهج ســلكه **الكلابــاذى** (2) فى التعرف فى أكثر من موضع عنده ذكره لاعتقاد الصـوفية فيـذكر فى قـولهم فى القـدر وخلـق الأفعال لله تحت قوله تعالى : **{ إنا كل شئ خلقناه بقدر }** (3) .

وأجمعوا أن اللـه خـالق أفعـال العبـاد كلهـا كما أنه خالق لأعيـانهم ، ثم يتحـول إلى متكلم ماهر فيبين أن الأفعال أكثر من الأعيـان ، فلـو كان الله خالق الأعيان والعباد خالقى الأفعال ، لكان الخلق أولى بصفة المدح فى الخلق من الله تعالى ولكـان خلـق العبـاد أكـثر من خلـق الله .... إلي آخر

____

1- البراهين الساطعـــة فى رد بعــض البـــدع الشـائعة للشــيخ ســلامة العــزامى ص 181 182 ، وانظــر دراسات فى الفلسفة الإسـلامية د . محمـود قاسـم ص 72 ، 73 .

2- هو محمد بن إبراهيم بن يعقوب الملقب بتاج الـدين الكلابـاذى البخـارى ، من أهـل بخـارى كـان حنفيـا فى الفقه وصوفيا فى المسلك ، لـه مشـاركة فى مختلـف العلوم وله كتاب التعرف لمذهب أهـل التصـوف ، وهـو من أوائــل الكتب فى هــذا البــاب وقــالوا فيــه : لــولا التعرف ما عرف التصوف ، توفى سـنة 380 هــ انظـر

ترجمته فى كشف الظنون لحاجى خليفة حـ 6 ص 155 طبعة سنة 1858م والأعلام للزركلى حـ 2 ص 23 .
3- القمر / 49 .

ما ذكر (1) .
وعلى الوتيرة نفسها نجد أن المكى فى قوت القلوب يستخدم العقل فى إثبات صفة الكلام وخلق الأفعال لله عز وجل مؤيدا بذلك منهج السلف الصالح (3) .
وهم بذلك يقررون أن العقل الذى خلقه الله وأبدعه فى الإنسان لا يتعارض مع النقل الثابت بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم
[3] - الأمر الثالث فى المنهج الصوفى أنهم بدءوا طريقهم فى معرفة العقيدة بالتزام التوحيد أولا بمعنى أنهم أفردوا الله بذاته وصفاته وأفعاله عن ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم وكل المقاييس التى تحكمهم ليثبتوا بذلك أن النصوص الواردة فى صفات الله على ظواهرها ، وأنها لا تدل على التشبيه وإنما تدل عليه وحده دون سواه .
فالمعتزلة تنكروا لصفات الله ظنا منهم أن إثباتها يدل على التشبيه وظواهرها هى المستخدمة فى حق البشر ، فتحاملوا عليها

بالتعطيل والتأويل بغير دليل تحقيقا للتوحيد أو الأصل الأول من أصولهم ، فشبهوا صفات الله تعالى بصفات المخلوقين وأخضعوها للأقيسة العقلية التى تحكمهم فى عالم الشهادة ، ثم عطلوا صفات البارى حتى

1- التعرف ص 60 .

2- قوت القلوب حـ 2 ص 126 .

لا يخضع لهذه الأقيسة ليخرجوا من شبهة التشبيه بزعمهم (1) .

ولكن أوائل الصوفية شأنهم فى ذلك شأن السلف الصالح حيث أخرجوا ذات الله وصفاته وأفعاله بداية من المقاييس التى تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم على عكس طريقة المعتزلة وهذا هو مقصدنا بأنهم بدأوا بالتوحيد أولا .

يقول الجنيد : **(التوحيد إفراد القديم عن الحدث)** (2) .

يقول الهجويرى معقبا : ويعنى ذلك أنه لا يجوز لك اعتبار القديم محلا للحادث ومقاييسه ، ولا الحادث أن يكون محلا للقديم (3) .

فما يحكم المخلوق من أقيسة لا يصلح أن يطبق على ذات الله وصفاته وأفعاله عندهم ، وهذا حق يدل عليه منطق العقل ، ولذا يفصح الجنيد عن المعنى السابق بقوله :

(التوحيد هو إفـراد الموحـد بتحقيـق وحدانيته بكمـال أحديتـة ، وأنـه الواحـد الذى لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفـوا أحد ، بنفى الأضـداد والأنـداد والأشـباه بلا تشــبيه ولا تكــييف ولا تصــوير ولا تمثيل لقوله تعالى : { ليس كمثله شئ وهو السميع البصير } (4) .

1- الإبانة عن أصول الديانة ص 106 ، الانتصار للخيـاط ص 126 .

2- كشـف المحجـوب للهجـويرى ص 334 ، والرسـالة القشيرية حـ 1 ص 28 ، 29

3- السابق ص 334 .

4- الشــورى / 11 ، وانظــر التعــرف لمــذهب أهــل التصوف ص 33 .

فهـذه الأيـة جعلهـا الجنيـد أساسـا لاعتمـاده الكلى فى إبراز اعتقاده حيث تضمنت التوحيـد وإفـراد المتوحـد أولا ثم إثبـات الصـفات ثانيـا على ما يليق بجلال الله وعظمته .

سـئل أبـو على الروذبـارى (1) عن التوحيـد فقال :

التوحيـد فى كلمـة واحـدة كـل مـا تصوره الأوهام والأفكار فالله سـبحانه وتعالى بخلافـه لقولـه تعـالى : { ليس كمثله شى وهو السميع البصير } (2) .

فاعتمد الروذبـارى فى اثبـات التوحيـد على منع العقل من العمل فى إدراك كيفيـة الـذات والصـــفات والأفعـــال ، لأن العقـــل تحكمـــه المقاييس والله لا يقاس على شئ من خلقـه ، وما جاء شئ فى الوحى يخبر عن كيفية الذات والصـفات وكـل مـا ورد إنمـا هـو فى إثبـات حقائق الصفات وذلك بناء على قوله تعالى :

{ ولا يحيطون بشئ من علمه إلا بما شاء } (3)

1- هو أحمد بن محمد بن القاسم الروذبارى ، من أهل بغداد سكن مصر ومات فيهـا من أصـحاب أبى القاسـم الجنيد وكان عالمـا فقيهـا حافظـا للحـديث تـوفى سـنة 322 هـ انظر حليـة الأوليـاء حـ 10 ص 356 ، البدايـة والنهايـــة حـ 11 ص 181 ، المنتظم حـ 2 ص 272 ، شـذرات الـذهب حـ 2 ص 296 ، صـفة الصـفوة حـ 2 ص 256 طبقـات الشـعرانى حـ 1 ص 124 ، تـاريخ بغداد حـ ا ص 329 .

2- الشورى / 11 ، وانظر الرسـالة القشـيرية حـ 1 ص 329 . 3-البقرة / 255 .

يقول المكى : **(ونعتقـد نفى التشـبيه والتكـييف عن الأسـماء والصـفات إذ لا كفـوء للموصوف فيشـبه بـه ولا مثـــل له فيجنس منـه ولا نشـبه ولا نصف** (1) **ولا نمثل ونعرف ولا نكيف)** (2) .

فالصـوفية يعتـبرون نصـوص الصـفات على ظاهرها وأنها موضوعة للدلالـة على الخـالق لا على المخلوق ، فهو منفرد بها لا يشاركه فيهــا غيره كمـا بين المكى أنـه لا كفـوء للموصـوف فيشبه به .

[4] - إثبات الصـفات على الحقيقـة لا على المجاز .

ولئن كان التوحيد الذى قرره أهل الاعـتزال أدى إلى أن تنكروا لأخبـار الصـفات بنـاءا على الأصل الفكرى القائل بأن إثبات الصفات شـئ زائد على ذات الله لم يكن من قبل (3) .

فــإن الصــوفية بعــد اثبــاتهم للمباينــة بين الخالق والمخلوق وإفرادهم له بالتوحيـد أثبتـوا الصفات على مراد الله وعلى الحقيقـة لا على المجاز

1- قوله : ولا نصف عنى به تفويض العلم بكيفية الصفة إلى الله ، فهو يثبتها وجودا وينفى العلم بها إلزاما ، لأنه لن يتمكن من وصفها لقوله تعـالى **: { ولا يحيطـون به علما }** ولا يعنى بقولـه ولا نصـف تفـويض المعـنى الذى دلت عليه النصوص لأن هـذا لازمـه أن القـرآن بلا معنى .

2- قوت القلوب حـ 2 ، ص 124 .

3- نهاية الإقدام فى علم الكلام للشـهر سـتانى طبعــة اكسفورد سنة 1934م ص 83 ،ـ 84 ، المنيـة والأمـل

لابن المرتضى ص 35 ، أصول الدين لعبد القادر البغدادى طبعة اسطنبول ص 138 .

وعلموا أنه لا يصف الله أعلم بالله من الله ولا أعلم بالله من رسول الله وفى هذا يقول المكى : **(ولا يشبه بالقياس والعقل ولكن يعتقد اثبات الأسماء والصفات بمعانيها وحقائقها)** (4) .

فنبة المكى أن المعنى الذى تحمله النصوص معلوم واضح فهو وارد بلغة العرب وأنه دل علىحقيقة ثابتة وإن لم نعلم كيفيتها ، فالصفات عنده على الحقيقة لا على المجاز .

ويؤكد الكلاباذى أن الصفات التى أثبتها أهل التصوف حتى عصره هى صفات حقيقية ، وإن له سبحانه وتعالى سمعا وبصرا ووجها ويدا على الحقيقة ليس كالأسماع والأبصار والأيدى والوجوه (2) .

يقول الكلاباذى :

(ومن جعل صفة الله وصفه له من غير أن يثبت لله صفة على الحقيقة فهو كاذب عليه وذاكرا له بغير وصفه .. فهو سبحانه وتعالى موصوف بصفة قائمة به ليست بائنة عنه) (3) .

ويستدل فى رده على المعتزلة القائلين :عالم بعلم هو ذاته ، وأن الصفات

هى عين الذات بقوله تعالى : **{ أنزله بعلمه }** (4) .

1- قوت القلوب حـ 2 ص 124 .
2- التعرف لمذهب أهل التصوف ص 05 .
3- السابق ص 51 .
4- النساء / 166.

وبقوله : **{ فلله العزة جميعا }** (1) .

وهم بــذلك يــبرزون منهج الســلف الصــالح ويتكــاتفون معهم فى نصــرته جــاء رجــل إلى الإمام مالك رحمه الله فقال يا أبا عبد الله : **{ الرحمن على العرش استوى }** (2) كيــف اســتوى ؟ فــأطرق مالــك وأخذتــه الرحضاء ثم رفع رأســه فقــال : **(الاستواء معلـوم والكيـف مجهـول والإيمـان بـه واجب والســؤال عنــه بدعــة ، وأنت صاحب بدعة وأمر به فأخرجوه)** (3) .

فمنهج الصوفة الأوائل لا يختلـف فى شـئ عن مذهب الامام مالك لأنه فـرق فى كلامـه كمـا فـرق الصـوفية بين إثبـات حقيقـة الصـفة وكيفيتها التى تليق بالله من خلال المعنى الذى دل عليه النص وبين جهلنا بتلك الكيفيــة ، ومن ثم كـان غضـبة على السـائل لكونـه سـأل عن كيفية الاستواء لامعناه .

وقال الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله : **(لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله لايتجاوز القرآن والحديث** ـــــــــــــــــ

1- فاطر / 10 وانظر السابق ص 51 .
2- طه / 5 .
3- مختصر العلو للعلى الغفار ص 264 .

وقيل له : الله فوق السماء السابعة على العرش بائن من خلقه وقدرته وعلمه بكل مكان ؟ قال : نعم وهو على عرشه ولا يخلو شئ من علمه) (1) .

وقد جمع ابن تيميه بين أئمة السلف ومشايخ الصوفية فى نص واحد فيقول :

(وأئمة الهدى الذين جعل الله تعالى لهم لسان صدق فى الأمة مثل سعيد بن المسبب والحسن البصرى وعد منهم مالكا والشافعى وأحمد وبشرا الحافى والجنيد بن محمد وسهلا بن عبد الله التسترى وعمر بن عثمان المكى ، وأمثال هؤلاء المشايخ ، كل هؤلاء متفقون على أن الله سبحانه ليس هو خلقه ولا جزءا من خلقه ولا صفة لخلقه ، بل هو

سـبحانه متمـيز بنفسـه بـائن بذاتـه المعظمة) (2) .

فأثنى على عـدد كبـير من مشـايخ الصـوفية الأوائل وعـدهم من أئمـة السـلف الصـالح وأن عقيدتهم ومنهجهم واحد وهو الاقتداء والالـتزام بما فى الكتاب والسـنة ، وأقـوالهم هى أقـوال سلف الأمة (3) .

1- شـرح أصـول اعتقـاد أهـل السـنة والجماعـة لأبى القاسم اللالكائى ص 165 .

2ــ كتاب توحيد الربوبية لابن تيمية ص 474 .

3- انظر الاسـتقامة لابن تيميـة حـ 1 ص 142 ، وانظـر الفتوى الحمـوية ص 35 37 ، 38 ، 42 .

ومن ثم نلخص الى القـــول بـــأن المنهج الصـوفى السـلفى مبـنى على الأمور الآتية :

1- التسليم للوحى وتقديم النقـل على العقل عند التعارض .

2- دور العقل حيـال النقـل هـو التلقى والفهم وجواز عملـه فى إبـراز معـانى النصـوص ومقاصـدها فالعقـل مطيـة للنقل وحامل له .

3- إفراد ذات الله وصفاته وأفعاله عن المقاييس التى تحكم ذوات المخلوقين وصفاتهم وأفعالهم .

4- إثبــات الصــفات على مــراد اللــه ورسـوله على الحقيقـة لا على المجـاز وبلا تفويض فى معانى النصوص .
5- الكـف عن طلب الكيفيـة الـتى دلت عليهــا النصــوص ، لأن هــذا خــارج عن مداركنا والخوض فيه قول على الله بلا علم وهو من أعظم الحرمات عند الله

*** المبحث الثانى***

موقف الصـــــوفية من صفات الذات وصفات الفعل

ســــبق القــــول فى المبحث الأول بــــأن الصوفية أثبتوا صفات الله عز وجـل وأفردوهـا عن الأقيســه والقــوانين الــتى تحكم صــفات المخلوقين مستدلين بقوله تعالى :
{ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير } (1) .
وفى هذا المبحث يدور الكلام حول الموقف الصــوفى من قــدم صــفات الــذات وصــفات الأفعال لما له من أثر واضـح فى بيـان مفهـوم القدر وطلاقة الفاعلية الإلهية ، فالقــول بقـدم

صـفات الأفعـال طـرح عنـد البعض مشـكلة فكريـة مضمونهـا : **أن قـدم صـفات الأفعـال كـالخلق والـرزق والمنـع والعطـاء يسـتتبع قـدم صـفات المخلوقين المفعـولين ممـا يـؤدى إلى تعـدد القدماء** (2) .

والموقـف الصـوفى تجـاه هـذه المشـكلة موقف واضـح ، فمشـايخ الصـوفية لا يفرقـون فى إثبـات الصـفات بين القـدم فى صـفات الذات والقدم فى صفات الأفعال ولا يلـزم من ذلك القول بقدم المفعولات .

يقول سهل بن عبد الله التسترى :

1- الشورى /11 .
2- مقالات الإسلاميين للأشعرى حـ 1 ص 164 .

(الوحدانية فى الأصل أنـه كـان ولم يكن شئ فهو فـرد علم وشـاء وقضـى فقـدر ووفـق وخـذل وتـولى وعصـم وأثـاب وعـاقب والأعمـال تنسـب إلى العباد والبداية منه والتمام عليه) (1) .

فالأشياء كلها بعلم الله وقدرته وليسـت هى العلم والقدرة ولكنها بعلم وقدرة .

ويخـاطب التسـترى من أنكـر قـدم صـفات الأفعال فيقول :

يقال لمن أنكر هـذا : أخـبرنى عن اللـه أهو تام كامل ؟
فإن قالوا : نعم .
فيقـال لهم : فهـو مع تمامـه وكمـــاله هـــو أول وهــو حى وهـو عـالم وهـــو قادر ؟
فلابد من قولهم : نعم .
فيقـــال لهم : هـــذه صـــفات الـــذات والأشـياء كلهـا داخلـة فى هـذه وهـذه الأفاعيـل كلهـا فى القـدرة فهـو حى عالم قادر جل ثناؤه (2) .

وفكرة التسـترى قائمـة على أن المخلوقـات كانت معلومة فى علم الله فى الأزل ، ثم شاء اللـه أن يكتبهـا فى اللـوح المحفـوظ فكتبهـا ، وبهــذا تم القضـــاء ، فلمـــا خلقهـــا بقدرتـــه تم القـــــدر ، ومن ثم كـــــان كـــــل شـــــئ

1- المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى فى الأحوال ، لسهل بن عبد الله التسترى ، تحقيق الـدكتور محمـد كمـال جعفـر ص 80 طبعـة دار الإنسـان سـنة 1980م

2- السابق ص 81 .

داخلا فى العلم .

فالقضاء عنده علم وكتابة ومشيئة ، والقــدر علم وكتابة ومشيئة وخلق ، فمرد الأشـياء إلى العلم والعلم صفة ذات وهو قديم بقدم الله .

ولهذا لما سئل الإمام أحمد رحمه اللــه عن القــرآن وموقفــه مــن خلقــه قــال للسـائل : **(أخــبرنى عن العلم ، فــإذا كـان العلم مخلوقا كان القـرآن مخلوقـا وإذا كـان العلم صـــفة من صـــفات اللـــه غـــير مخلوق ، كان كلام الله كذلك)** .

لأن القـــرآن كــان فى علم اللـــه فى الأزل وكتبـــه فى اللـــوح المحفـــوظ قبـــل خلـــق السماوات والأرض بخمسين ألـف سـنة ، كمـا قال تعالى : **{ إنه لقرآن كريم فى كتـاب مكنـون لا يمسـه إلا المطهـرون }** (1) فاللوح فيه كلمات الله وكلام الله غير مخلـوق وإن كان مكتوبا .

فاحتج على قدم صفات الأفعال بقدم صفات الذات مؤيدا بذلك منهج التسترى فى الاحتجاج (2) .

ويكشـف الغـزالى عن فكـرة التسـترى فى إثبات صفات الأفعال والرد على من قال :

1- الواقعة / 77 : 79 .

2- انظر طبقات الشافعية حـ 2 ص 27 ، حيلـة الأوليـاء حـ 9 ص 161 ، البدايـــة والنهايـــة حـ 10 ص 270 ، والعواصم والقواصم لابن الوزير حـ 4 ص 361 .

إن إثباتها يستلزم حدوثها ، بحجة أنه لاخلـق فى الأزل فكيـف يكـون خالقـا فى الأزل ؟

فيقول : **إن السيف يسمى صـارما قبـل القطع وحـال القطـع ، وهـو فى الأول صـــارم بـــالقوة وفى الثـــانى صـــارم بالفعـل ، فـالبمعنى الـذى يسـمى بـه السيف فى الغمـد صـارما يصـدق اسـم الخـالق على اللــه تبـارك وتعـالى فى الأزل** (1) .

فاللــه ولــه المثــل الأعلى مــا زال بصــفاته قديما قبل خلقه ، ولا فرق بين صفة هى صـفة ذات أو صفة هى صفة فعل .

وخلـق المخلوقـات لا يزيـد فى صـفات اللـه شيئا لم يكن من قبل ، فهو المسـمى بالخـالق قبل الخلق وحال الخلق وبعد فنائهم ، كما أنــه منفـرد بالربوبيـة قبـل خلـق العـالمين ، وحـال خلقهم وبعد فنائهم .

ويؤكد الكلاباذى أن جمهور الصــوفية وكبـار مشايخهم على أنه لا يجوز أن يحدث لله تعالى صــفة لم يســتحقها فيمــا لم يــزل ، وأنــه لم يســتحق اســم الخــالق لخلقــه الخلــق ، ولا

لإحـداث الـبراي ة اسـتحق اسـم البـارى ولا بتصـويره الصـور اسـتحق اسـم المصـور ، ولوكان كـذلك لكـان ناقصـا فيمـا لم يـزل وتم بالخلق (2) .

1- الاقتصـاد فى الاعتقـاد للإمـام حامـد الغـزالى ص 158 .
2- التعرف على مذهب أهل التصوف ص 53 .

ومن الحجج التى أوردها على ذلك أيضا :

1- أنـه لمـا ثبت أنـه سـميع بصـير قـادر خـالق بـارئ مصـور وأن ذلـك مـدح لـه فـلو استوجب ذلـك بـالخلق والمصـوَّر والمـبرَئ لكان محتاجـا إلى الخلـق والحاجـة أمـارة الحدث .
2- أن ذلـك يـوجب التغيـير والـزوال من حـال إلى حال فيكون غير خالق ثم يكون خالقا ، وغـير مريـد ثم يكـون مريـدا ، وذلـك نحـو الأفول الذى انتفى منه خليله إبراهيم عليـه السلام فقال : **{ لا أحب الآفلـــين }** (1) .
3- أن الخلـق والتكـوين والفعـل صـفات للـه تعـالى ، وهـو بهـا فى الأزل موصـوف ، ومعلـوم أن الفعـل غـير المفعـول وكـذلك

التخليق والتكوين ، لـو كانـا جميعـا واحـدا ، لكان كون المكونـات بأنفسـها لأنـه لم يكن من اللـــه إليهــا معــنى ســوى أنهــا لم تكن فكانت (2) .

ومن ثم ينفى الكلاباذى نسـبة حـدوث تغيـير فى الـذات الإلهيـة عنـد بـدء الخلـق وكـل مـا يشترط لتحقيق الفعل موجود فى الأزل .

ويـــرد الصـــوفية المرجـــع فى الخلـــق إلى المشـــيئة الإلهيـــة المطلقـــة لقولـــه تعـــالى : **{ إذا قضـى أمـرا فإنمـا يقـول لـه كن فيكون }** (3)

ولقولـه : **{ إنمـا أمـره إذا أراد شـيئا أن يقول له كن فيكون }** (4)

1- الأنعام / 76 وانظـر السـابق ص 53 ـ 2- السابق ص 53 .

3- مريم / 35 ـ 4- يس / 82 وانظر المعارضة والرد ص 58 .

ولعل ذا النون المصـرى (1) قـد بين الفـرق الواضح الـدقيق بين ذات اللـه عـز وجـل وبين صفاته من ناحيـة وبين صـفاته وبين مخلوقاتـه من ناحية أخرى حين قال :

(إن الله عز وجل صانع كل شئ بقدرته ، وعلة كل شئ صُنْـعُه ولا علـة لصنعه) (2) .

فقوله : **صانع كل شئ بقدرته وعلة كل شئ صنعه** تلاشى به إلزامات المعتزلة حيث جعل علة وجود الأشياء هى صنع الله عز وجل وخلقه لها ، وليس الإله علة وجود الأشياء ، فنفى بذلك أن تكون ذات الله سبحانه وتعالى علة ، كما هو الحال عند المعتزلة حيث قالوا : **خالق بذاته مريد بذاته** ، ونسب العلة إلى صفاته الفاعلة القديمة (3) .

وقوله : **ولا علة لصنعه** تلاشى به إلزامات الفلاسفة الذين فهموا ________________

1- هو أبو الفيض ثوبان بن إبراهيم المصرى ، كان أبوه نوبيا ، ثم نزل بأخميم من ديار مصر فأقام بها وأتى بأشياء غريبة فى التصوف امتحن بسببها ، توفى سنة 245هـ ، انظر تاريخ بغداد حـ 8 ص 393 ، شذرات الذهب حـ 2 ص 107 طبقات الشعرانى حـ 1 ص 81 ، حلية الأولياء حـ 9 ص 331 .

2 - الرسالة حـ 1 ص 35 .

3 - انظر مقالات الإسلاميين للأشعرى حـ 1ص 263 وما بعدها فى بيان رأى المعتزلة .

الذات الإلهية من خلال مفهوم العلية الطبيعية (1) .

ففرق بين الشئ وبين فعل الله ، ففعل الله صفة من صفاته قديم بقدم الذات وليست الذات علة لصفاته وفعله وصنعه .

ومن ثم فرق ذو النون المصرى بين صفات الـذات وصـفات الفعـل من ناحيـة ورفض أن تكون الذات علة لصفاته من ناحيـة أخـرى لأن الصفات قديمة ملازمة للذات .

كما أنه رفع أى ضـرورة عن الفاعليـة الإلهيـة عنـدما رفض أن يكـون ثمـة علـة لصـنعه غـير صفات الأفعال وإرادة الله فى خلقه .

وعلى كل حال فإن جمهور أوائل الصوفية الصـوفية على القـول بقـدم صـفات الـذات والأفعال ولا يلزم من ذلـك قـدم المفعـولات ، ولا عـــبرة بســـلوك بعض الصـــوفية مـــذهب الاعــتزال أو غــيره حيث يقــرر الكلابــاذى أن بعضهم منع أن يكون الله تعالى لم يزل خالقــا وقال : إن ذلـك يـوجب كـون الخلـق معـه فى القدم (1) وقد تقدم جواب التسـترى وموقـف أغلب المشايخ من هذه القضية .

1- انظر فى بيان موقـف الفلاسـفة الرسـالة العرشـية لابن سينا ص 10 :ـ 12 ، وانظر تهافت الفلاسـفة لأبى حامـد الغـزالى ص 37 ،ـ 38 ، الطبعـة الثالثـة ، دار المعارف القـاهرة سـنة 1972م وانظـر التعليقـات ص 20 وهى رسالة من رسائل الفارابى ضـمن أحـد عشـر رسالة ، طبعة دار المعارف العثمانيـة ، حيـدرآباد الهنـد سنة 1926م .

2- التعرف ص 54 .

* صفات الأفعال وأبدية المفعولات :

وبالرغم من تصريح الصوفية بأن البقاء للـه وحده ، فإنهم لا ينكرون بقاء بعض المخلوقات معه أبدا .

وقد قدم الكلاباذي صفة البقاء على الأزلية حين قال : **(بـــاق أول)** (1) .

وهنـا تظهـر مشـكلة فكريـة حـول صـفة البقـاء ، فلا شـك أن بقـاء أهـل الجنـــة والنـــار أبـــدا يبـــدو لأول وهلـــة متعارضا مع إفراد الله عز وجل بالبقـاء وإذا كان مشـايخ الصـوفية قـد رفضـوا رفضـا قاطعـا إشـراك غـيره معـه فى الأزليــة ، فــإن ذلــك يســتتبع ضــرورة رفضهم مشاركة غيره معه فى الأبديــة مما يوحى بالتعارض مع نصوص القرآن والسنة الخاصة ببقاء أهـل الخلدين أبدا .

لقـد كـانت هـذه المسـألة مثـار خلاف بين فــرق الإســلام وبين طائفــة المعتزلــة حــول مفهوم الأبديـة لأهـل الجنـة والنـار فى القـرآن الكريم حتى فهمها البعض بطول الأمـد وليس البقاء اللانهائى (2) .

1- السابق ص 47 .

2- مقالات الإسلاميين حـ 2 ص 53 ، 55 .

ولعـــل أبـا القاسـم النصـــرباذى (1) قـــد وفـق فى تقـــديم الحـل المقنـع والنـابع مـــن القـرآن والسنة حين فـــرق بين ما يبقى ببقــاء الله عز وجل وبين ما يبقى بإبقــائه فقال :

(الجنة باقية بإبقائه ، وذكره ورحمته ومحبته لك باق ببقائه ، فشتان بين مـا هـــو بـــاق ببقائـــه وبين مـــا هـــو بـــاق بإبقائه) (2) .

فالجنة مخلوقة لله عز وجـــل وكائنة بـأمره ورهـن المشيئة الإلهية باعتبار المشـيئة صـفة تخصـيص بين مـا يبقى ومـا لا يبقى ، ومن ثم فإن أوائل الصوفية يعتبرون خلد الجنـة وأهلهـا إلى ما لا نهاية إنما هو بإبقاء الله وإرادته .

فالبقاء عندهم ليس من طبيعة المخلوقـات ولا من خصائصـها الذاتيـة بـل من طبيعتهـا جميعـا كمخلوقـات حـــادثة فى الزمـان الفنـاء فالخلـود المحدث ليس فـــى ذاتـه وإنمـا هـو بمـــدد دائم ومستمر

1- هو إبراهيم بـن محمـــد بن محمـــويه شيخ خراســان فى وقتـــه نشـأ فى نيســابور وكـان عالمـا بالسـيرة والتاريخ ومن أكابر مشايخ الصوفية فى عصـره ، مـات بمكة سنة 367هـ.

انظر شذرات الـذهب حـ 3 ص 58 ، والمنتظـــم حـ 7 ص 89 ، تـاريخ بغـداد حـــ6 ص 169 ، اللبــاب فى تهذيب الأنساب حـ 3 ص 225 .

2- الرسالة القشيرية حـ 1 ص 41 .

لا ينقطع من الله تعالى (1) .
وهذا هـو مـا عـبر عنـه النصـرباذى فى قولـه : **الجنــة باقيــة بإبقائــه** .
أما صفات الله عز وجل ومنها رحمته وذكره ، فهى **باقيــة ببقائه** ســبحانه وتعــالى حيث البقــاء صفــة ذاتية له ، كمـا أن الأزليـة صـفة ذاتية لله تعالى .
فالنصرباذى فرق بين صفات الأفعال الإلهيـة وبين مخلوقات الله عـز وجـل وهـو فى هـذا لا يعبر عن رأيه فى تلك المسـألة فقـط ، وإنمــا يعبـر عن رأى أغلبالأوائـل من الصـوفية ، حيث يعقب القشيرى على كلامه بقوله :
(وهذا الذى قاله الشيخ أبو القاسم النصـرباذى ، هــو غايـة التحقيـق فـإن أهل الحق قـالوا : صـفات ذات القـديم سبحانه وتعالى باقيات ببقـائه تعـالى) (2) .
فنبــه على هـذه المســألة وبين أن البــاقى ســبحانه وتعـالى بـاق ببقائـه بخلاف مـا قالـه مخـالفو أهـل الحـق ، لأنهم قـالوا : **لا يبقى شئ ببقائه** (3)

1- انظر سيرة الشيخ الكبير عبد الله خفيف الشـيرازى ص 356 حيث ذكـر اعتقـاد مشـايخ الصـوفية فى هـذه القضية .
2- الرسالة حـ 1 ص 42 .
3- انظــر تعليــق الــدكتور عبــد الحليم محمــود على الموضوع فى الرسالة حـ 1 ص 42 .

فنفوا صفات الحق سبحانه وتعالى .

وفى هذا يفرق القرآن الكريم بين نـوعين من البقاء :

- **الأول :** فى قولــه تعــالى : **{ كـل مـــن عليهــا فـــان ويبقى وجــــه ربــك ذو الجلال والإكرام }** (1) .
  وقوله : **{ كل شئ هالـك إلا وجهـه }** (2) .
- **والثانى :** فى قوله تعالى : **{ ومــا عنـد الله خـــير وأبقـى للذين آمنـوا وعلى بهـم يتـوكلـون }** (3) .

وقـوله : **{ والآخــرة خــير وأبقـــــى }** (4) .

وقــوله : **{ ولعـــذاب الآخـــــرة أشـــد وأبقــى }** (5) .

فالأيات الأولى دلت على صـفة من صـفات الــذات وهى صـــفة الوجـــه ودلت على بقـــاء الصــفة ببقــاء الــذات ، فــأثبتت بقــاء الــذات بصفاتها وفناء ما دونهـا أو إمكانيـة فنائـه ، إذ

أن الله هـو الأول والآخـر وهـو قبـل كـل شـئ وبعد كل شئ .

1- الرحمن /26: 27 .
2- القصص /88 .
3- الشورى / 36 .
4- الأعلى / 17 .
5- طه / 127 .

قـال ابن كثـير فى الآيـة الأولى والثانيـة : **أخـبر اللـه بأنـه الـدائم البـاقى الحى القيوم الذى تموت الخلائق ولا يمـوت ، فعبر ببقاء الوجـه عن بقـاء الـذات لأن الوجه من صفات ذاته سبحانه وتعالى** (1) .

أما الآيات الآخرى فبقــاء المخلوقات فيهـــا لا لــذاتها ولكن بعطــاء من اللــه لإكــرام أهــل طاعتــه وإنفــاذ عدلــه فى أهــل معصــيته (2) ولذلك يقول سبحانه : **{ إن للمتقين مفازا حـدائق وأعنابـا وكـواعب أترابـا وكأسـا دهاقا لا يسمعون فيهـا لغـوا ولا كـذابا جزاءا من ربك عطاءا حسابا }** (3) .

ويضـيف النصـرباذى فرقـا آخـر بين صــفة الفعل وصفة الذات يغلب عليه الطابع الوجدى بالإضـافة إلى مـا سـبق من تفريقـه النـابع من النظـر العقلـى فى الأدلة فيقول :

(أنت متردد بين صفات الذات وصفات الفعل ، وكلاهما صفته

1- انظر تفسير القرآن العظيم لأبى الفدا إسماعيل بن كثير ، طبعة دار إحياء الكتب العربية حـ 3 ص 403 .
2- انظر هذه المسألة فى الاعتبار ببقاء الجنة والنار للسبكى فى الرد على ابن تيمية وابن القيم القائلين بفناء النار ، تحقيق وتقديم الدكتور طه الدسوقى حبيشي ص 32 ، 33 .
3- النبأ / 34 : 36 .

تعالى على الحقيقة ، فإذا هيمك فى مقام التفرقة قرنك بصفات فعله وإذا بلغك إلى مقام الجمع قرنك بصفات ذاته) (1) .

فجعل تعامل العبد مع الله عز وجل من خلال صفات أفعاله مقاما من المقامات ، ومعرفة صفات الذات مقاما أعلى فى التوحيد والتحقيق من معرفة صفات الأفعال ، ومن المعلوم أن مبنى هذه التفرقة قائم على تفريقه بين صفات الذات وصفات الأفعال من ناحية وبين صفات الأفعال وآثارها المتمثلة فى المخلوقات من ناحية آخرى .

وهذا الأصل هو الذى رفض به جمهور الأوائل من الصوفية القول بقدم العالم وغير ذلك من المنزلقات الفكرية المؤدية إلى وحدة

الوجود ولذلك نجد لأئمة التصوف فى العصـر الأول أقوالا يرفضون بها الحلول والإتحاد سواء بتصور إمكانية اتحـاد النفس الإنسـانية بالـذات الإلهية أو بتصور جواز حلول الإله فى العالم .
يقول الجنيد بن محمد مستنكرا ذلك :
(متى يتصل من لا شبيه له ولا نظير له بمن له شبيه ونظير ؟! هيهـات هـذا ظن عجيب إلا بما لطف الطيــف فــــلا إدراك ولا وهم ولا إحــــاطة إلا شــارة اليقين وتحقيـق الإيمــان) (1) .
فهو ينفى الاتصال بين ذات الله وبين غيره من الذوات نفيا قاطعا سواء من جهة ذاتــه أو من جهـة غـيره ، ويجـيز الاتصـال بين الخلـق وبين الله ويحصـره فى الصـفات الإلهيـة ، أمـا اتصـال المشـاعر والوجـدان فيحـدد لـه صـفة اللطـــف الإلهيـــة الـــتى يمن اللـــه بهـــا على المؤمــنين بمــا يشــعرون بوجــوده ويتمثلــون عظمته ويحيون برحمته .

ـــــــــــــــــــــــــــــ
1- الصـوفية الأوائـل يقصـدون بمقـام التفرقـة العبـادة حـال النظـر إلى الأسـباب والاشـتغال بهـا لكسـب الضـروريات الـتى تقيم الأبـدان كالأخـذ بالأسـباب حـال التوكل وما شابه ذلك ، ويقصدون بمقـام الجمـع النظـر إلى مدبر الأسباب والتغافل عنهـا حـال الصـلات وبعض أنواع العبادة الأخرى ، انظر السابق حـ 1 ص 42 .

ويـورد الجنيـد الـدليل على هـذا الاعتقـاد فيقول :

(وإن الـدليل على ذلـك لموجـود ، أليس قـد روى عن النـبى صـلى اللـه عليـه وسـلم أنـه قـال : قـال اللـه عـز وجـــل : ولا يـــزال يتقـرب إلى عبـدى بالنوافل حتى أحبه فـإذا أحببتــه كنت سـمعه الـذى يسـمع بـه وبصـره الــذى يبصـر بـــه (2) **فـإذا كـان سـمعه الـذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ، فكيـف تصف ذلك بكيفية أو تحده بحد تعلمـه ؟ ولو ادعى ذلك مدع لأبطل دعواه ، لأنــا لا نعلم ذلك كائنا بجهـة مــن الجهـــات تعلم أو تعرف)** (3) .

1- السابق حـ 1 ص 43

2- الحـديث أخرجـه البخـارى فى كتـاب الرقـاق ، بـاب التواضع برقم (650) وابن ماجه برقـــم (3989) وأبــو نعيم فى الحلية حـ 1ص 252 .

3- كتاب الفناء للجنيد مخطوط شـهيد على رقم 1374 ص 55 :ـ 58 ، نشره الدكتور محمد كمال جعفـر فى كتابه التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 303 .

فالاتصال الذى يثبته الجنيـد هـو اتصـال بين الصفات الإلهية وبين الخلق

دون الحلول يقول فى بيان معنى الحديث :

(إنما معنى ذلك أنه يؤيده ويوفقه ويهديه ويشـهده مــا شـاء كيـف شـاء بإصابة الصواب وموافقة الحـق ، وذلـك فعـل اللـه عـز وجـل فيـه ومواهبـه لـه منسوبة إليه) (1) .

* معية الله لخلقه فى مجال الصفات دون الذات :

ويرفض الجنيد فهم المعية من خلال الـذات ويثبت أنها معيـة الصـفات والأفعـال ويفسـرها على معنين :

[1] - مـع الأنبيــاء بالنصــر والكلاءة

ويستدل لذلك بقولــه تعــالى : **{ قال لا تخافـــا إنـــنى معكمـــا أســـمع وأرى }** (2) .

[2] - مع العامـــة بالعلم والإحاطة ويستـدل لذلك بقــوله تعالى : **{ ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم }** (3) .

فقصر المعيــة على الصفات دون أن ينسـبها إلى الـذات ، وأبطـل بـذلك القول بـالحلول والإتحـاد والمماسـة أو القـول بوحـدة الوجـود إبطـــالا تامــا (4) .

1- السابق ص 305 .
2- طه /46 .
3- المجادلة / 7 .

4- الرسالة القشيرية حـ 1 ص44 .

ويذكر السراج الطوسى أن الذى وقـع فى القول بالحلول غلـط لأنـه لم يحسـن أن يمـيز بين أوصاف الحق وأوصـاف الخلـق ، لأن اللـه تعـالى لا يحـل فى القلـوب وإنمـا يحـل فى القلـوب الإيمـان بـه والتصـديق والتوجـه لـه والمعرفـة بـه ، وهـذه أوصـاف مصـنوعاته من جهة صنع الله بهم ، لا هو بذاته أو صفاته يحـل فيهم ، ثم يقول : **(والله تعـالى موصـوف بمـا وصـف بـه نفسـه كمـا وصـف بـــه نفسـه)** (1) لقوله تعــالى : **{ ليس كمثله شئ وهو السميع البصير }** (2) .

ولعل أعمق ما وصـلنا عن أوائـل الصـوفية بشأن الحديث عن صـفات الأفعـال أقـوال أبى محمـد سـهل بن عبـد اللـه التسـترى ، حيث يحـاول توضـيح مفهـــوم الربوبيـة والفاعليـــة الإلهية من خلال مفهــوم الكلام كصفة لله عـز وجــــل (3) وحيث تتم مفعولاتـــه بكلمـــة كن الإلهية .

فالفرق بين كلام اللـه وبين كلام الخلـق أن كلام الخلق موضوع بـــاتفاق واصــطلاح ، وهى صيغة تحدث فـى الهـواء جـزاءا جزا ثم تتقـدم وتنفذ ولا تثبت البتة (4) .

1- اللمع لأبى نصر السراج الطوسى تحقيق د. عبد الحليم محمود ، طه عبد الباقى سرور ، دار الكتب الحديثة بمصر سنة 1380 / 1960م ص 542 .
2- الشورى / 11 .
3- من التراث الصوفى للدكتور محمد كمال جعفر ص 360 .
4- السابق ص 367 من رسالة الحروف لسهل بن عبد الله التسترى .

فكلام الخلق ليس له وجود ذاتى مستقل عن غيره فلا يبقى بينما كلام الله تعالى أسفر عن أعيان قائمة وأنوار روحانية ساطعة (1) .

ومعنى ذلك أن كلمات الله عز وجل موجودات قائمة فى الوجود باقية بمشيئة الله تعالى ، وهذا القول من شأنه أن يثير لدينا مسألة العلاقة بين صفات الله عز وجل وبين أفعاله **حيث قد يُتوهم من أول وهلة أن التسترى يوحد بين الصفة : أى الكلمة ، وبين الفعل : أى المخلوق ، من حيث أن الكلمة : كن تصير بعد أن يقولها الله تعالى لشئ كائنا حسب المشيئة** ولكن التسترى يشرح مذهبه بما ينفى عنه هذه الشبهة نفيا تاما فيقول :

إن الله تعالى ذكره وتقدست أسماؤه له صفة انفرد بها عن الأشياء وهى صفة ذاته ويفسرها قوله تعالى **: { لم يلد ولم يولد ولم يكن**

له كفوا أحــد } (2) والثانيـة هى الـتى بهـا فعل وبها أوجد وبها تسمى الله (3) .

وتوضيحا لقول التسترى يقرر الدكتور كمال جعفر أن سهلا يؤكـد بهـذا القـول التفرقـة بين صفات الـذات وصـفة الفعـل ، ثم يـبين أهميـة هـذه التفرقـة حيـال العلاقـة بين اللـه وخلقـه بقوله :

1- السابق ص 368 .
2- الصمد / 3 : 4 .
3- السابق ص 368 .

(وعن طريق هذه التفرقة استطاع التسترى بحـق أن يثبت وجـود علاقـة أساسية بين كل المخلوقـات وبين اللـه تعالى من خلال صفاته لا من خلال ذاته) (1) .

لقد فهم أوائل الصوفية التوحيد بأنه انفــراد الله عز وجل بفعل الوجود بنفس الدرجة الـتى فهموا بها انفراد ذاته بالأزلية ، وبالمثل فسروا الشرك بأنه إشراك فاعل حقيقى آخر معه فى الوجود .

يقول المكى :

(وعند أهل المعرفـة أن لا فاعـل حقيقية إلا الله عـز وجـل لأن حقيقـة الفاعـل هـو الـذى لا يسـتيعن بغـيره لا

بآلــة ولا ســبب ، وعنــدهم أن فعلا لا يأتى مـن فاعلين وإلا كان شركا) (2) .

وهذا الفهم للتوحيـد وإن كـان يثـير مسـألة هى جوهر مشكلة القدر والحريـة وهى كيـف تصدر المعاصى من العبـاد ؟ ولمـاذا يحاسـبون عليهـا إن لم تكن فـاعليتهم خاصـة ومسـتقلة وحقيقيه ؟

إلا أننا نـرجئ ذلـك لمبحث آخـر فمـا نـود إثباتـه الآن بيـان موقـف الصـوفية من صـفات الذات وصفات الفعـل ويمكن تلخيص مـوقفهم فى

1- السابق ص 369 .

2- قوت القلوب لأبى طالب المكى حـ 2 ص 12 .

النقاط الآتية بناء على ما تقدم :

1- أوائـل الصـوفية لا يفرقـون بين القـدم فى صفات الذات والقدم فى صفات الأفعال .
2- أن الصفات صفات الـذات وصـفات الفعـل هى صفات حقيقية قائمـة بالـذات وليسـت هى عين الذات كما هو الحال عند المعتزلة ، ولا الذات علة للصفات كما هو الحال عند الفلاســفة فالصــفات لا تخضــع للقــوانين والأسباب .

3- أن الله متصف بها قبل أن يخلق الخلـق ولا يلزم من قدمها وجود مفعولات لا أول لها

4- أن الجنـة والنـار مخلوقتـان باقيتـان بإبقـاء اللـه ومشـيئته عـز وجـل فالبقـاء ليس من طبيعتهما .

5- أنهم رفضـوا القـول بـالحلول سـواء باتحـاد النفس بالذات الإلهية أو بجواز حلول الإلـــه فى العــالم ، ويثبتــون الاتصــال بين الإلــه والخلق من خلال الصفات فقط دون الذات .

6- أن بعض أوائل الصوفيـــة خـالفوا ومـالوا إلى رأى المعتزلة لكن ما تقدم يمثــل رأى الأغلبية .

*** المبحث الثالث ***

إفراد ا لله بالفاعلية أساس عقيدة القضاء والقدر عند مشايخ الصوفية

يؤسس أوائل الصـوفية مفهـوم القـدر على توحيد الربوبيـة وإفـراد اللـه بصـفاته المطلقـة كــالعلم والإدارة والقـــدرة ، بحيث يســـتحيل حدوث شئ أو فعل بدون علمه أو قدرته يقول القشـيرى فى بيـان اعتقـاد الصوفية :

(فلا يخرج عن قدرته مقـدور ولا ينفك عن حكمه مفطـور ولا يعـذب عن علمه معلوم يفعل ما يريد ويذل لحمكه العبيد ولا يجرى فى سلطانه إلا ما شاء ولا يحصل فى ملكـه غـير مـا سـبق بـه القضـــاء ، مـــا علم أنـــه يكـــون من المحدثات أراد أن يكون ومـا علم أنـه لا يكون مما جاز أن يكون أراد ألا يكـون) (1) .

ولا شك أن ما ذكره القشيرى يعتـبر أساسـا للعقيـدة الصـحيحة فى القضـاء والقـدر ولا يختلـف فى كثـير أو قليـل عن كتـاب اللـه أو اعتقـاد أهـل السـنة والجماعـة بالسـنة لهـذا الأصل الكبير مـن أصول الإيمان .

1- الرسـالة القشـيرية حــ1 ص51 انظـر فى المعـنى الـذى أورده القشـيرى عن الصـوفية الـرزق الحلال وحقيقـة التوكـل على اللـه للمحاسـبى ص 21 ،ـ 32 سيره الشيخ الكبير عبد الله بن خفيف ص 344 قـوت القلـوب حـ 1 ص 125 ,ـ 126 ماهيـة العقـل للحـارث المحاسبى ص 237 والرعايـة لحقـوق اللـه للمحاسـبى ص 33 ، 34 .

وعلى الـرغم من أن أغلب الطوائـف الـتى خاضت في قضية القدر والحرية وأفعال العبـاد يقـررون أن كـل شـئ بقضـاء وقـدر إلا أنهم يختلفون بعد ذلك حول مفهوم القضـاء والقـدر

اختلافـا يتنـوع أثـره قربـا أو بعـدا عن عقيـدة السلف الصالح .

فكمـا هـو معلـوم ممـا سـبق أن الخلاف الجوهرى كائن فى مسألة هامـة ورئيسـية فى الموضـــوع وهى مســألة أفعـــال الشـــرور والمعاصى ، حيث يبدو للناظر أن القول بنسبة أفعــال الشر إلى فاعلــة على الحقيقـة يعـنى خروج هذه الأفعال عـن مجال قــدرة الله عــز وجل وقضائه ، لأنه نهى عنها وأمـر بخـلافهــا ، كمــا يبـدو فى نفس الـوقت أن القـول بنسـبة المعاصى إلى القــدر الإلهى المحيـط الشـامل ينسب هذه الأفعـال إلى الفاعليـة الإلهيـة على الحقيقـــة ، وإلى الفاعليـــة الإنســـانية على المجاز ، فيكون الإنسـان مسـيرا فى أفعالـه لا مخـيرا وهـذا ينفى مسـئوليتة ، ومن ثم ينشـأ أمـام الناظر تعـارض بين الجــزاء فى الآخــرة وبين العـدالة الإلهيـة .

هذا هو لب المشكلة الـتى انقسـم بسـببها أهـل الطوائـف المختلفـة وهم كمـا سـبق بين طرفين ووسط كل يقـرب أو يبعـد عن موقـف أهل السنة والجماعـة ، **فماذا كـان موقـف الصوفية الأوائل ؟**

لقد كان الموقف الصوفى لأوائل الصوفية مماثلا لموقف السـلف تمامـا حينمـا قـرروا أن كل شئ بقضاء الله وقدرته حتى أفعـال العبـاد

فالله سبحانه وتعالى هو المنفرد بالربوبية فلـه الخلق والأمر والملـك لايشـركه فى ذلـك أحـد كمـا قالـه سـبحانه وتعـالى : **{ لا يملكــون مثقـــال ذرة فى الســماوات والأرض ومــا لهم فيهمـا من شـرك ومــا لـــه منهــم من ظهــير }** (1) .

وقـــال ســـبحانه : **{ ألا لــــه الخلـــق والأمــر }** (2) .

ويـذكر المكى معقبـا أن من شـروط صـحة إيمان العبد أن يصدق بجميع أقدار اللـه تعـالى خيرها وشرها أنهـا من اللـه تعـالى سـابقة فى علمه جارية فى خلقـه بحكمـه ، فلا حـول لهم عن معصــيته إلا بعصــمته ، ولا قــوة لهم على طاعته إلا برحمته ، وأنهم لا يطيقون ما لهم إلا به ، ولا يستطعيون لأنفسـهم ضـرا ولا نفعـا إلا بمشيئة الله (3) .

وليست معاصى العباد واقعـة بقضـاء اللـه ومشيئته وعلمه وحفظه فقط ، بل هى واقعــة وحادثة بخلقـه أيضـا فلا خـالق إلا اللـه ، يقـول القشـيرى فى بيـان اعتقـاد الصـوفية : **فهـو سبحانه وتعـالى خـالق لأكسـاب العبـاد خيرها وشرها مبـدع مـا فى العـالم من الأعيان والآثار قلهـا وكثرهـا كمـا قـال سبحانه وتعالى :**

{ ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى } (4) .

1- سبأ / 22 .
2- الأعراف / 54 .
3- قوت القلوب حـ 2 ص 126 .
4- طه / 50 .

ويمكـن القول أن أوائل الصوفية يجمعـون على خلق الله عز وجل لأفعال العباد بمـا فيهـا المعاصـى حيث يفـرد الكلابـاذى فصـلا بعنـوان **قـــولهم فى القضـــاء والقـــدر وخلـــق الأفعال** وذلك لأن نقطـة الخلاف بين الفـــرق حـــول مشـــكلة الجـــبر والاختيـــار أو القـــدر والحرية ، وصلت خلال القرن الثـالث الهجـرى إلى مسـألة خلـق أفعـال العبـاد ، هـل هى من خلق الفاعليـة الإلهيـة أو من إحـداث الفاعليـة الإنسانية ؟

وقد اتفق أهل السنة والجماعـة على إفراد الله عز وجل بالخلق كأساس للتوحيد في حين قـرر القدريـة والمعتزلـة نسـبة حـدوث أفعـال العبـــاد إلى فـــاعليتهم وخاصـــة المعاصـــى والشـــرور (1) وكـــان ذلـــك منهم تقريـــرا للمسئولية وإثباتا للعدل الإلهى .

وفى هـذا الفصـل يسـجل الكلابـاذى رأى الصـوفية حـتى نهايـة القـرن الرابـع الهجـرى

وأنهم على التمسك بموقـف السـلف مصـرين على إفـراد اللـه عـز وجـل بـالخلق والأمـر فيقول :

(أجمعوا أن الله تعالى خالق لأفعـال العباد كلها ، كما أنه خالق لأعيانهم وأن كـل مـا يفعلونـه من خـير وشـر فبقضـاء اللـه وقـدره وإرادتـه ومشـيئته ولولا ذلك لم يكونـوا عبيـدا ولا مربويين ولا مخلوقين) (2) .

1- لبيـان مـذهب المعتزلـة فى ذلـك ، انظـر مقـالات الإسلاميين حـ 1 ص 298 .

2- التعرف لمذهب التصوف ص 60 .

فقارن بين الربوبية وإفـراد اللـه بالخالقيـة من ناحية وبين العبودية بخضوع العبيـد لقضـاء الله وقدره من ناحية أخرى .

وهو يبرهن على ذلك بأدلة نقلية وعقلية :

1- أمـا دليلـه النقلى فيسـتدل بقـــوله تعالى : **{ قـل الله خالق كـل شـئ }** (1) وبقولـه تعـالى **: { إنـا كـل شـئ خلقنـاه بقـدر }** (2) وبقولـه تعـالى : **{ وكل شئ فعلـــوه فـى الزبـر }** (3) .

ويعلـق الكلابـاذى على الـدليل النقلى بتوضيح وجه الاسـتدلال فيقـول : **(فلمـا**

كـــانت أفعـــالهم أشـــياء ، وجب أن يكون الله خالقها ولو كانت الأفعـال غـير مخلوقـة لكـان اللـه عـز وجـل خـــالق بعض الأشـــياء دون جميعهـــا ولكـان قولـه : { خـالق كـل شئ } كذبا تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا) (4) .

2- أما دليله العقلى الذى يسـتدل بـه على أن الآثار مخلوقة لله عز وجل كالأعيـان سـواء بسـواء فهـــو يتمثـل فى أن الأفعـال أكـثر من الأعيان فلـو كـان اللـه خـالق الأعيـان والعبـاد خالقى الأفعال لكـان الخلـق أولى بالمـدح من الله تعالى ولكـان خلـق العبـاد أكـثر من خلـق الله وقـد قال الله

____

1- الرعد / 71 .
2- القمر / 49 .
3- لقمر / 52 .
4- التعرف ص 60 .

تعـالى : **{ أم جعلـوا للـه شـركاء خلقـوا كخلقه فتشابه الخلـق عليهم قـل اللـه خالق كل شئ وهو الواحد القهار }** (1) .

فأثبت توحيد الربوبية وإفراد الله بالفاعلية ونفى أن يكــون خالقــا غــيره ، وهــذا الــدليل العقلى دعا الإمام البخارى رحمه الله أن يفـرد

له بابا فى كتـاب التوحيـد من صـحيحه فقـال : بــاب **{ فلا تجعلـــوا للــه أنــــدادا وأنتم تعلمـون }** (2) .

قال ابن حجر : المـراد بيـان كـون أفعـال العباد بخلق الله تعـالى ، إذ لـو كـانت أفعـالهم بخلقهم لكانوا أندادا لله وشركاء له فى الخلق ، وهو يرد بذلك على الجهميـة والمعتزلـة ممـا يعكس بوضــوح الوحــدة والترابــط فى اتجــاه الخــط السـلفى لأوائــل الصــوفية نحــو هــذه القضية (3) .

ويثبت سهل بن عبد اللـه التسـترى شـمول العلم الإلهى وإحاطته وطلاقـة القـدرة الإلهيـة لتشمل كـل حـدث فى الوجـود حـتى معاصـى العباد بناءا على قوله تعالى :

{ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكــون } (4) .

1- الرعد / 17 وانظر التعرف ص 60 .
2- انظر فتح البارى بـاب فلا تجعلـوا لله أنـــداد وأنتــم تعلمـون حـ 13 ص 50 .
3- انظر فتح البارى حـ 13 ص 500 وانظر خلق أفعال العبـاد والـرد على الجهميـة وأصـحاب التعطـل للإمـام البخارى فى المقارنة بمذهب السلف ص 26 : 28 .
4- يس / 82 .

فالكن الأعظم كما يسميها سهل بن عبــد اللــه هى أرادة الله الشاملة المطلقة المحيطة بكل

ما سوى البارى تعالى ، وقد عبر الكتور كمال جعفر تعبيرا وجيزا حينما قال عن اعتقاد سهل بن عبد اللـه : **(فاللـه جـل شـأنه عليم لا يخفى عن علمـه شـئ عـادل لا ينسـب إليـــه الجـــور وهـــو ســـبحانه المرجـــع والمعول فى كل شئ)** (1) .

ويقرر التسترى أن المعاصـى شـئ ، وكـل شـئ محـدد مقـدر ، فالمعاصـى هى الأخـرى مقدرة ومحددة (2) ولقـد حفـظ لأكـثر شـيوخ الصوفية الأوائل ما يفيد إيمانهم بشمول القـدر وإحاطته .

يقـــول ذو النـــون المصـــرى : **(ليس فى الســـــموات العلى ولا فى الأرضـــــين السفلى مدبر غير الله)** (3) .

بـل لقـد وصـل الإيمـان بتوحيـد الربوبيـة وإفراد الله بـالخلق والتـدبير الإلهى لكـل شـئ إلى حـد اعتبـارهم كـل شـئ مجـرد موضـوع لأحكام القـدرة الإلهيـة ليس إلا فقـد روى عن أبى عثمان المغربى (4)

1- من التراث الصـوفى ص 262 ـ 2- السـابق ص 262 .

3- الرسالة القشيرية حـ 1 ص 35 ـ 4- هــو سعيد بن سلام المغربى مـن قرية بناحية قيروان يقـال لهـا : كركنت ، أقــام بمكـة فترة طويلة وكان شـيخ الحـرم ، سـافر إلى نيسـابور ومـات بهـا سـنة 372 هــ انظـــر ترجمتــه فى اللبـاب فى تهـذيب الإنسـان حـ 3 ص 36

شـذرات الـذهب حـ 3 ص 81 تـاريخ بغـداد حـ 9 ص 112 طبقـــات الشـــعرانى حـ 1 ص 143 الرســـالة القشيريــة حـ1 ص191 .

وقــد سـئل عن الخلــق فقــال : **(قــوالب وأشباح تجرى عليهم أحكام القــدرة)** (1) .

وجعل الجنيد الإيمـان بهـذا المبـدأ أصـلا من أصول التوحيـد بـل هـو مرتبـط عنـده بمـراتب اليقين ، **حيث سئل عن التوحيد ؟**

فقال : هو اليقين .

فقال السائل : بين لى ما هو ؟

قـال : هـو معرفتـك أن حركـات الخلـق وسكونهم فعل الله عـز وجـل وحـده لا شريك له ، فإذا فعلت ذلك فقــد وحدته (2) .

وهــذه العبــارة الأخــيرة تــدل على اعتقــاد الجنيد فى شرك من ينسـب لغـير اللـه تبـارك وتعـــالى فعلا حقيقيـــا على ســـبيل الخلـــق والإحداث ، وذلك لأن التوحيد عنده هو الاعتقاد بـانفراد اللـه عـز وجـل بالفعـل وحـده حـتى بالنسبة لخلق المعاصـى والـذنوب وإن كـان لا يبيح الاحتجاج بها على القدر .

والجنيـد ومعـه ســائر المعتـدلين من أوائـل الصـوفية لا يقصـدون بـإفراد اللـه عـز وجـل بالفاعليــة كشــرط للتوحيــد مجــرد الاعتقــاد

النظرى فى هذا المبـدأ بـل هـو يعـنى الحيـاة العملية والسلوكية التى يعبد اللـه بهـا ويتحـرر له ممن

1- الرسالة القشيرية حـ 1 ص 38 .
2- السابق حـ 1 ص 40 .

سـواه وفـق هـذا المبـدأ علاوة على الاعتقـاد النظرى ، وقد عبر الجنيـد عن ذلـك لمـا سـئل عن توحيد الخاصة فقال :

(التوحيد هو أن يكون العبد شبحا بين يـدى اللـه ، تجـرى عليـه تصـاريف تدبيره ، فى مجـارى أحكـام قدرتـه فى لجج بحار توحيده بالفناء عــن نفسـه وعن دعوى الخلق له) (1) .

وهذا الفناء ليس فنـاء ذات العبـد فى ذات اللـه فقـد ثبت عنـه فيمـا سـبق النفى القـاطع لهـذا المفهـوم (2) وإنمـا يقصـد فنـاء إرادة الصـوفية فى إرادة اللـه الشـرعية بالطاعـة التامة له ، وفناء شعور العبد بأى باستطاعة أو قوة أو حـول ذاتى لـه ، لتيقنـه أن كـل الحـول والقوة لله عز وجل وحـده ثم صـدور السـلوك من العبد موافقا لهذا اليقين ونابعا منـه ومبينـا عليه .

هـذا هـو لب التوحيـد عنـد الجنيـد وأغلب الأوائـل من مشـايخ الصـوفية الـذين تمسـكوا بالكتاب والسنة .

غـير أن التوحيـد عنـد الصـوفية يتمـيز عن مفهـوم التوحيــد عنــد المتكلمين والفلاســفة بشرط هام وضعهوه لأنفسهم ، وهو الاستجابة الســلوكية الموافقــة لـــه علاوة على عـــدم مخالفته لأصول الإيمان فى الكتاب والسنة .

لقد كان تأكيد الجنيـد على ضـرورة القـول بخلـق اللـه عـز وجـل وفعلـه لكـل شـئ حـتى معاصى العباد كتاكيده هو وأغلب الصـوفية فى عصره

1- السابق حـ1 ص 40 .
2- انظر ص 106 .

بـإفراد اللـه بالأزليـة سـواء بسـواء ، فيعـرف الموحد بأنـه مـا لم يشـرك مـع اللـه أحـدا فى تدبيره وحكمه وعلمـه وأمـره وقضـائه وخلقـه ورزقه وعطائه ومنعه كمـا قـال تعـالى تهديـدا لمن أشرك معه غيره فيمـا لـه : **{ واعلمـوا أن الله برئ من المشركين ورســولُه }** (1) .

ويقول : **(من أشرك مع الله فيما لله غير الله فالله ورسوله بريئان منه)** (2) .

وهكـذا جعـل الجنيـد إفـراد اللـه عـز وجـل بـالخلق وشـمول التـدبير أصـلا من أصـول التوحيد تؤدى مخالفته إلى الشرك ، سواء كان ذلـك شـركا جليـا أو خفيـا إلا أنـه عقب على القول السابق بما يـدل على أن خفـاءه دقيـق يلزم منه الاحتياط والتمييز فى القـول والفعـل فأورد حديث النبى صلى الله عليه وسلم الذى قال فيه :

(الشرك أخفى فى أمتى من دبيب النمـل على الصـخرة الصـماء فى الليلة الظلماء) (3) .

1- التوبة / 3 .

2- قوت القلوب حـ 1 ص 96 .

3- الحديث أخرجه أبو يعلى ص 19 ، 20 انظر مسند أبى يعلى طبعـة المكتب الإسـلامى ، وابن المنـذر فى الدر المنثـور حـ 4 ص 541 ، ورواه أحمـد فى المسـند حــ4 ص 403 وزاد فى الـدر المنثـور : **(الشـرك أن تقول : أعطانى اللـه وفلان ، والنـد أن يقـول الانسان : لولا فلان لقتلنى فلان)** .

وينسب الواسطى أفعـال العبـاد جميعـا إلى فاعلية الله عز وجل فيقول :

(لما كـانت الأرواح والأجسـاد قائمـة بالله وظهرت لا بـذواتها كـذلك قـامت الخطرات والحركـات باللـه لا بـذواتها ، وإذا كانت الحركـات فـرع عن الأجسـاد

والخطــرات فــرع عن الأرواح ، فــإن أكساب العبـاد كلها مخلوقـه للــه) (1) .

ويعلـق القشـيرى على هـذا الكلام بقولـه : **صــرح بهــذا الكلام أن أجســاد العبــاد مخلوقة لله عز وجل فكما أنـه لا خـالق للجـــواهر إلا اللـــه فكـــذلك لا خـــالق للأعراض إلا الله** (2) .

ويلاحظ الباحث بوضوح التزام أغلب مشايخ الصـوفية الأوائـل بـالمنهج القـرآنى فى ذلـك ، حيث وحدوا الله وأفرادوه بالخلق والتدبير مما يفتح باب الإيمان بالمعجزات والكرامـات حيث يصبح تفسـير الأمـور الخارقـة للعـادة والسـنن الجاريـة بنسـبتها إلى الربوبيـة كنسـبة الأمـور الموافقة للسنن سواء بسـواء ، ومن ثم يـزداد المؤمنون إيمانا برؤيتها وإن كانوا يتلقونها كمــا يتلقــون الأمــور الموافقــة للســنن باعتبــار أن الجميع من فعل الله وليس من فاعـل غـيره ، بل قد يحصل لصاحب هـذا التصـور عن طـرق التأمل والاعتبـار نتـائج معينـة وحقـائق إيمانيـة تتصل بالآيات الكونية الجارية بمقتضى الســنن بنفس الدرجة التى يحصل عليهـا من مشـاهدة المعجزة

1- الرسالة حـ 2 ص 38 .

2- السابق حـ 2 ص 38 .
وربما كان مـا يحصـل من السـابق أكـثر ممـا يحصله من اللاحق كما قال تعالى : **{ إن فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهــار لآيــات لأولى الألبــاب الــذين يــذكرون اللــه قيامــا وقعــودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات وا لأرض ربنــا مــا خلقت هــذا بــاطلا سبحانك فقنا عذاب النار }** (1) .
ممــا تقــدم نصــل إلى أن الصــوفية قــد استطاعوا بحسب الاعتقاد الذى أسسـوا عليـه مفهــوم التوحيــد إرســاء الأســس الفكريــة الحقيقيـة الـتى يمكن أن يقـوم عليهـا مفهـوم الربوبية والفاعلية الإلهية خالصـة من كـل قيـد رافضــين أدنى ضــرورة على فعلــه ســبحانه وتعـالى ، فأكـدوا بـذلك على طلاقـة المشـيئة والفاعلية الإلهية إذ أنها الأصل الذى ينبنى عليه مفهوم القضاء والقدر فى الإسلام .
ولاشك أن ذلك سيكون له أثره الواضـح فى وصـول هـؤلاء الشـيوخ إلى التصـور الصـحيح للقضاء والقدر واتخاذ الموقف الصحيح إيزاءه .

1- آل عمران 190 / 191 .

*** المبحث الرابع ***

مراتب الإيمان بالقدر عند مشايخ الصوفية

سـبق فى المبحث الثـالث أن الصـوفية يؤسسـون مفهـوم القـدر على صـفات اللـه المطلقة وإفراده بالربوبيـة والخلـق والتـدبير , وفى هـذا المطلب يـدور البحث حـول المـراتب المتدرجـة الـتى بهـا يكـون السـبيل لظهور الأشياء أو العالـم إلى الوجـود .

وهنا نجد أن أوائـل الصـوفية سـلكوا طريقـا يعتمد على الأدلة القرآنية والأحـاديث النبـوية إيزاء هذه القضية ، فالشـيخ الكبـير سهـل بن عبـد اللـه التسـترى يقـرر فى مـراتب الإيمـان بالقـدر **أنهـا تبـدأ بـالعلم ثم الكتـاب ثم القضاء والقدر**،ولا يخرج الخلق من القـدر ، والعلم الأصل لا يخرج منـه أحد ، والكتاب فيه يمحـو مـا يشـاء ويثبت ، والقضـاء هـو الحكم الذى يثبت ، والقدر إظهـاره فى الخلق (1) .

[1] - فأول هذه المراتب التى ذكرها سهل بن عبد الله التسترى هى العلم ويقصد بـه علم الله الذى أنشأ فيـه المخلوقـات فى الأزل ، فهو العلم المحيـط الشـامل بكـل شـئ من الموجودات ، وعلم ما كـان ومـا يكـون من

الخلــق قبــل أن يخلقهـــم وعلمــه تعــالى بأرزاقهم وآجالهـم

1- التصوف طريقا ومذهبا وتجربة للدكتور محمد كمال جعفر ص 276 نقلا عن الشرح والبيان لمـا أشـكل من كلام سـهل لأبى القاسـم الصـقلى مخطـوط رقم 727 كوبرولو بتركيا ص 211 أ .

وأحوالهـــم وأعمـــالهم فى جميـــع حركـــاتهم وســـكناتهم وعلمـــه تعـــالى بأهـــل الشـــقاوة والسعادة أو أهل الجنة والنار (1) .

والعلم عنده صفة ذاتية للـه سـبحانه قديمـة أزلية وباقية ببقائه ، والمشيئة عنـده تلى العلم فهى أقرب صفة من الذات بعـد العلم ومن ثم فهى مرتبـــــة تلى العلم (2) بيـــــدأ أن العلم والمشيئة سران لله عز وجـل لا يطلـع عليهمـا أحـد من خلقـه ولا يوجـد شـئ مطلـق خـارج العلم المحيـط ولا يقـع أى شـئ إلا بالمشـيئة المطلقة ، وهما سران لأنهما صفتان قـديمتان للذات .

قـال سـهل بن عبـد اللـه : ومعـنى **{ رب العالمين }** سيد الخلق المربى لهم والقـائم بأمرهم ، المصلح المدبر لهم قبل كونهم وكون فعلهم المتصرف لهم لسابق علمه فيهم كيف شاء لمـا شـاء ، وأراد وحكم وقـدر وشـرع من أمر ونهى لا رب لهم غيره (3) .

ويلى العلم والمشـــيئة ، الإرادة والقـــدرة وهما ليسا سرين كالعلم والمشـيئة لأنهمـا من صفات الأفعال ، ولـذلك فـإن آثارهمـا ومـا يتم بهما ظاهر فى الوجود فهما علنيان باديان ، بيد أن ثمة فرق بينهما وهو أن

1- تفسيرالقرآن العظيم لأبى محمد سهل بن عبد اللـه التسـترى ص 16 طبعـة ، دار الكتب العربيـة الكـبرى مصر ص 113 .
2- السابق ص 9 .
3- السابق ص 7 وانظر الرزق الحلال وحقيقـة التوكـل على الله للحارث بن أسد المحاسبى ص 31 .

الإرادة تسبق القدرة فى الأثر لا فى الوجــود (1) .

[2] - المرتبـة الثانيـة لظهـور الأشـياء إلى الوجود هى الكتابة ، وفيها تســجل الأحكام الصادرة بمشـيئة اللـه فى الكتـاب وعند ذلك يتم القضاء الغيبى الــذى يتحـول بالخلق والإنشاء إلى قدر ، فالأحكام الإلهية الصادرة بمقتضى المشيئة هى مـا دون فى الكتاب وهو مظهـر للإرادة ، وهذه الأحكـام قابلـة للمحـو والإثبـات لا من حيث ذاتيتهـا ولكن من حيث وسـائل تنفيـذها واتخاذهـا المكان المناسب للظهور ولا يكـون التغيـير فى قــدر اللــه تعـالى حيث يتحــدد القــدر

بـالعلم والمشـيئة وهمـا صـفتان للـذات فلا يجوز التغيير فيهما (2) .

سـئل سـهل بن عبـد اللـه عن معـنى قولـه تعالى : **{ وإياى فاتقون }** قال : أراد بذلك وصـولهم إلى موضـع علمـه السـابق فيهـــم ، لعمـــرى إن المعرفـــة أدرجت فى أوطـــــانها ليجـرى عليهم مـا كـان من علم اللـه سـابقا فيهـــم ، فلا بـد من إظهـاره على أوصـافه) (3) .

فالقضـــاء والقـــدر بعـــد الإرادة ، والمحـــو والإثبـات يكـون فى التـدوين ومن ثم يكـون سـبيل ظهـور الأشـياء فى الوجـود أو خروجهـا إليـه متـدرجا بحيث يبـدأ بـالعلم ثم الكتـاب ثم القضاء والقدر .

1- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 725 .
2- السـابق ص 725 وانظـر فى معـنى كلام التسـترى قوت القلوب حـ1 ص127.
3- التفسير، لسهل بن عبد الله ص 12 .

ويستدل المكى على هذه العقيدة السابقـة بالأدلـــة النقليـة ويـــورد الآيـات التـــى تـــدل علـى العلـم السـابق كقوله تعالى :

{ قال ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السـموات والأرض وأعلم مـا تبـدون وما كنتم تكتمون } (1) .

ثم يقول بعدها :

(وروينا عن رسول الله صلى اللـه عليه وسلم أنه قال : سبق العلم وجف القلم وقضـــى القضـــاء وتم القـــدر بالسعادة من الله تعـالى لأهـل طاعتـه وبالشـــقاء من اللـــه تعـــالى لأهـــل معصيته) (2) .

كمـــا يســـتدل التســـترى بقولـــه تعـــالى : **{ كذلك الله يخلـق مـا يشـاء إذا قضـى أمرا فإنما يقـول لـه كن فيكـون }** (3) على أنه إذا كان فى علمه السابق الأزلى أمــر قضـاه فـأراد إظهـاره فى القـدر قـال لـه كن فيكون يضيف قائلا (4) :

1- البقرة / 33 .

2- قوت القلوب حـ 1 ص 126 ، والحديث ثابت بمعناه وبألفـاظ أخـرى كثـيرة انظـر صـحيح البخـارى كتـاب الجنـائز ، بـاب موعظـة المحـدث عنـد القـبر حـ 2 ص 120 ومسـلم فى كتـاب القـدر ، بـاب الخلـق بـرقم (2647) والترمذى فى كتاب التفسـير بـاب من سـورة الليـل بـرقم (3341) وابن ماجـه فى المقدمـة ، بـاب القدر بـرقم (78) والنسـائى فى كتـاب الجنـائز ، بـــاب الصـلاة علـى الصبيان حـديث رقم (1949) .

3-آل عمران / 47 .

4- تفسير القرآن لسهل بن عبد الله ص 25 .

قضى قبل خلق الخلق ما هو خالق :
خـــلائق لا يخفــى عليـه أمورها
هواهــا ونجواهــا ومضمر قلبهـا :
وقبل الهوى ماذا يكون ضميرها

1- فالعلم هو الأصل الذى لا يخرج منـه أحد ولا يخالف فى الكون حادث فكل ما هو كائن وما سـيكون مطـابق لمـا فى العلم .

2- وأمـا الكتـاب فهـو مـا يسـجل فيـه العلم ، وما يتم من محو وإثبات فهو فى علم اللـه الشـامل ومـدون فى الكتاب أنه سيمحى أو سيثبت .

3- وأمـا القضـاء فهـو الـذى يثبت بعـد مرحلة المحو والإثبات ويستصدر منـه الحكم الإلهى فى تكـــوين شـــئون المخلوقات .

[4] - أما القدر فهو إظهاره فى الخلق

حيث أن العلم والمشيئة هما أصـل القضـاء والقدر فإن الله يخلـق مـا يشـاء ويختـار ، فيخص البعض بالفضـــــــل دون البعض ، ويصطفى فى الخلق من مخلوقاته وعبـاده من يشاء دون أن يكـون من العبـد سـبب ، لكى يعرف هذا الفضل ويـدعوا هـذا حـتى يتفضـل عليـه بمـا تفضـل على غـيره وإذ أعطى الله عبدا ولم يعـط أخـر فليس هـذا

ظلمـا منافيـا للعـدل الإلهى لأنـه لم يمنعـه شيئا هو له (1) .

1- التصوف طريقا ومذهبا وتجربة ص 276 .

ويذكر الدكتور جعفر فى كتابه التصـوف أن أوائل الصوفية وعلى رأسهم سهل بن عبد الله لا يقبلــون أى مــذهب فى القـــدر إلا أن يفى بالمبادئ الآتية (1) :

1- علم الله فى الأصل .
2- عدله فى الفرع .
3- سلطانه فى النهاية .
4- عدم الاسغناء عنه فيما بين ذلك .

وإذا كـانت المشـكلة الصـعبة الـتى واجهت الفكـر البشـرى هى كيفيـة انتقـال العـالم من كونه معلومة فى علم الله المحيـط الشـامل ، وكونه مرادا لـه بالمشـيئة المطلقـة إلى كونـه موجودا فى العيان وكذلك الأمر بالنسبة للشئ الجزئى ، فإن سهل بن عبد اللـه قـد وضـع حلا لهذه المسألة لا ينقصـه العمـق والتوفيـق الى حد كبـير ، مـع حـرص التسـترى على الالـتزام بآيات القرآن الكريم .

وهذا الحل يعبر فيه سـهل بن عبـد اللـه عن آيات الخلق القرآنية بكلمة **كن** ولكى نتعـرف على الحل علينا أن نتذكر تفريق سهل بن عبد الله الذى سبق فى المبحث الثانى بين صـفات

الذات وصفات الفعل من ناحية ، وتفريقه تبعـا لذلك بين علم الله اللانهائى كصفة ذاتيــة وبين

1- الشـرح والبيان لمـا أشكــل مــن كــلام سهــل بن عبـد الله ص 211 تقلا عن السـابـق ص 276 .

مراداتــه ومعلوماتــه المنفصــلة عن غيبــه أى المنفصلة عن علمه المحيط بإرادته من ناحيــة أخرى ، ومن ثم فإن هــذا المنفصــل عن العلم اللانهائى محدود باعتبار دخوله الزمان .

وأســاس هـذا الحــل أن التسـترى فهم كلمـة **كن** الالهيــه الــتى نقلت مــراد اللــه من الغيب الى الشهادة على نحوين :

الأولى : الكن الأعظم .

الثانيــة : الكن الخاصــة لكــل موجــود جزئى .

وتعبر الأولى فى مفهوم التسترى عن مشيئة الله وعلمـه الكلى للمخلوقـات ، وكـل موجـود جزئــى له **كن** الخاصة به ، وكلمات اللــه بهـذا المعنى أدت إلى ظهور المخلوقات فى الوجود خلال الزمان ، وإن كـانت كلمـات اللـه قديمـة ويسميها التسترى القوة المفصلة أى المظهرة للمخلوقات .

فعلم اللـه المحيـط بالمخلوقـات ومشـيئته الكلية للموجودات هى **الكن الأعظم** وإرادته وقدرتــه بالنســبة للشــئ الجــزئى هى **الكن**

المفصلة للشـئ المظهـرة إيـاه فى الوجـود المحققة له فى العيان .

وعلاوة على أن هذه الفكـرة كـانت أساسـا للتفريق بين فاعلية الله عـز وجـل وأثـار هـذه الفاعلية أى المخلوقات ، فإنها تعتبر فى نفس الوقت حلا ناجحا للمشكلة العويصة الـتى نحن بصـددها وهى **كيفيـة نـزول الأمـر الإلهى القديم ثم تحققه فى الواقع الحادث** ؟

وذلك لأن حدوث الشئ أو نفاذ الحـدث فى الكـون ليس بمقتضـى مشـيئة أولى للإلـه ثم بمقتضى الأسباب بعد ذلك وإنما هـو بمقتضـى إرادة إلهية خاصة لكل حدث أو لكـل شـئ فى الكون ، فكل شى وكل حدث من فعل الله عز وجـــل ومن خلقـــه وليس للأســـباب أو الاســتطاعات المخلوقــة أى دور فى الخلــق والإحـداث سـوى أنهـا أدوات للقـدرة الإلهيـة وهـذا مـا جعـل مفهـوم التوحيـد عنـد أوائـل الصـوفية مفهومـا راسـخا يعـبر عن العقيـدة الاسلامية فى القضاء والقدر (1) .

وقـد تقـدم فـــى المبحـــث السـابق قـول الجنيـــد : (**التوحيـــد هـــو اليقين وهـــو معرفتـك أن حركـات الخلـق وسـكونهم فعل الله عز وجل وحده لا شريك فــإذا فعلت ذلك فقد وحدته**) (2) .

ولقـد عـبر التسـترى بتفصـيله السـابق فى انتقـال المقـادير من الغيب إلى الشـهادة عنـد عقيــدة القــرآن والســنة فــالكن الأعظم فى مفهوم التسترى تعـبر عن علم اللـه ومشـيئته فى تقدير أمر المخلوقـات ، وهـو مـا دون فى اللــوح المحفــوظ من نــوعى التقــدير الأزلى والميثاقى .

- قال تعـالى : **{ ألم تـر أن اللـه يعلم مـا فى الســموات والأرض إن ذلــك فى كتاب إن ذلك على الله يسير }** (3) .

1- من التراث الصوفى للـدكتور كمـال جعفـر ص 258 بتصرف .
2- انظر ص 119 .
3- الحج / 70 .

- وقـال تعـالى : **{ مـا أصـاب من مصـيبة فى الأرض ولا فى أنفســــــــكم إلا فىكتـاب من قبـل أن نبرأهـا إن ذلـك على الله يسير ، لكيلا تأسـوا على مـا فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم }** (1) .

قال ابن كثير فى تفسيره : (يخبر سـبحانه وتعـالى عن قـدره السـابق فى خلقـه قبـل أن يبرأ البرية أنه ما من مصيبة تحدث فى الآفـاق أو فى النفوس إلا كتبها فى اللـوح المحفـوظ ،

وقولـه : **{ من قبـل أن نبرأهـا }** أى من قبل أن نخلق الخليقة (2) .

ثم أورد حـــديث مســـلم : **(قـــدر اللـــه مقـــادير الخلائـــق قبـــل أن يخلـــق السمـاوات والأرض بخمسين ألف سـنة وعرشـه على الماء)** (3) .

وفى حـــديث أبى داود : **(أول مــا خلــق اللـه القلم فقـال لـه اكتب قـال : رب وماذا أكتب ؟ قـال : اكتب مقـادير كـل شئ حتى تقوم الساعة)** (4) .

1- الحديد / 22 : 23 .

2- تفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ 4 ص 314 .

3- الحـديث رواه مسـلم فى القـدر ، بـاب حجـاج آدم وموســى عليهمــا الســلام بــرقم (2653) وأحمــد فى المسـند حـ 2 ص 169 والترمـذى فى القـدر برقـــم (2156) والبيهقى فى الأسماء والصفات ص 374 .

4- رواه أبـو داود فى كتـاب السـنة ، بـاب القـــدر رقم الحـديث (4700) والحاكـــم فى المسـتدرك حـ 2 ص 454 ، والهيثمى فى مجمـــع الزوائـــد حـ 7 ص 190 والحديث صححه الشـيخ الألبـانى انظـر صـحيح الجـامع حديث رقم (2014) .

فدلت الآيات والأحاديث على أن اللـه تبـارك وتعالى قدر كل شئ سيحدث فى الكون سواء كان خلقا أو فعلا ، وسواء كان الفعل جبريـا أو اختياريا ، إضافة إلى أن ذلـك مكتـوب ومـدون

تدوينا سابقا على الحـدوث فى التقـدير الأزلى واللوح المحفوظ .
وأمـا مـراد التسـترى بـالكن الخاصـة لكـل موجود جزئى فيطابق أنـواع التقـدير والتـدوين الأقـــل عمومـــا من الكن الأعظم أو التقـــدير الأزلى والكلى للمخلوقات .
[1 ــ سواء كان تقديرا خاصا بعمر كل إنسـان عنـد خلقـه فى الـرحم كمـا جـاء فى قولـه صلـى الله عليه وسلم :
(إن أحدكم يجمع خلقه فى بطن أمـــه أربعين يومـــا نطفـــة ثم يكون علقة مثـل ذلـك ثم يكـون مضـغة مثل ذلك ، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح ، ويؤمر بـأربع كلمـات بكتب رزقـــه وأجلـــه وعملـــه وشـــقى أم سعيد) (1) .
[2 ــ أو كـان تقـديرا أخص حيث تـدون فيه المقادير سنويا مما يخص أحوال العباد كما جاء فى قوله تعالى :

1- أخرجـه البخـارى فى كتـاب التوحيـد ، بـاب ولقـد سـبقت كلمتنـا لعبادنـا المرسـلين برقـــم (7454) ومسلم فى كتاب القدر بـاب كيفيـة خلـق الأدمـى فى بطن أمـه برقـــم (2643) والـدرامى فى الـرد على الجهميـــــــة ص 81 ، وأبـــو داود برقـــــم (4708)

والترمذى برقـــم (2137) وأحمد فى المسند حـ 1 ص 382 .

{ إنا أنزلناه فى ليلة مباركة إنا كنا منذرين فيها يفرق كـل أمـر حكيم أمـرا عندنا أنـا كنـا مرسـلين } (1) فيهـا يفصـل من اللـوح المحفـوظ إلى الكتبـة أمـر السنة وما يكون فيها من الآجال والأرزاق وغير ذلك من تقديرات (2) .

[3 ـــ أو كـان تقـديرا يوميـا أخص ممـا تقدم من أحوال التقدير الجزئى كما جاء فى قولـــه تعـــالى : **{ يســـأله من فى السـماوات والأرض كـل يـوم هـو فى شأن }** (3) .

ويروى ابن جرير الطبرى فى معـنى قولـه : **{ كـل يـوم هـو فى شـأن }** حـديثا عن الرسول صلى الله عليه وسـلم وقـد سـئل مـا ذاك الشأن ؟ فقال :

(أن يغفر ذنبنا ويفرج كربنا ويرفــع أقواما ويضع آخرين) (4) .

ويذكـــر ابن كثـير أن هــذا الحـــديث روى موقــوفا وقـد ذكـره البخـارى على أنــه مــن كـلام أبـى الدرداء .

1- الدخان / 4 .

2- هكـــذا روى عن ابن عمـــر ومجاهـــد وأبى مالـــك والضـحاك وغـير واحـد من السـلف انظـر فتح القـدير للشوكانى حـ 4 ص 570 .
3- الرحمن / 29 .
4- انظر تفسير ابن جرير الطبرى حـ 6 ص 113 .

يقــــول ابن كثــير : وبهــذا المعــنى فســـر جمهــور السلـف الآية (1) .
وكـل هـذه المعـانى تؤيـد رأى التسـترى فى نـــزول الأقـــدار على ضـــربين **ضـــرب عـــام وضرب خاص .**
لقـد أقـر أوائـل الصـوفية بـأخص خصـائص الربوبية فى القـرآن الكـريم وهـو انفـراد اللـه ســـبحانه وتعـــالى بـــالعلم الأزلى اللانهـــائى والمشـــيئة المطلقـــة حـــتى وصـــف بعض الصوفية مشيئة الله المطلقة لكونها مع العلم سران للذات ، وصفوها بأنها عرش الذات (2) .
وذلك مع اعتقادهم أنه من كمال الربوبيـة اللائقة به مباشرة الله سبحانه وتعـالى للكـون المخلـوق بإرادتـه وتنظيمـه سـواء كـان لكـل موجود على حدة أو للعـالم أجمـع ، وذلـك يتم بقدرتـه وأمـره النـازل إلى العبـاد فى حيـاتهم الزمنية .
فأمر الله سبحانه وتعالى إنما ينزل بمقتضى إرادة إلهية لكل حدث أو لكل شئ فى الكون ،

فكل شئ وكل حدث من فعل الله عز وجل ومن خلقه وليس للأسباب أو الاستطاعات المخلوقة أى دور فى الخلق والإحداث ، إلا باعتبار الغاية من خلقها ، فوجود العلل الغيبية أو العلل الطبيعية ليس سوى أدوات وآلات للقدرة الإلهية يتم بها قضاء الله

1- انظر تفسير القرآن العظيم لابن كثير حـ 4 ص 273 ، وفتح القدير الشوكانى حـ 5 ص 139 ، وزاد المسير فى علم التفسير لابن الجوزى حـ 8 ص 32 .
2- انظر التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 275 .

وقدره ، وهى جميعا جنود لله تعالى تفعل بمشيئته وفاعليته دون استقلالها عن المشيئة والقدرة الإلهية ، هذا مع قدرته تعالى على الفعل بدونها كالفعل بها سواء بسواء .

ويذكر المكى أننا لا يمكن عقلا أن ننسب لمن يضرب بالسوط الضرب للسوط دونه ، وإنما الفعل منسوب للفاعل لأن السوط ليس سوى أداة يصدر تأثيره عنه حسب قصد الفاعل وإرادته (1) .

وبذلك يمكن القول أن الصوفية تجنبوا الإلزامات الشنيعة التى ترتبت على مفهوم القدر عند الفلاسفة العقليين كابن سينا حيث جعل مفهوم القدر هو إيجاب الأسباب للمسببات ، فزعم فى رسالته سر القدر أن

فعل الإله لا يتم إلا بالأسباب والمسببات وهذه الأسباب والمسببات مقـدرة ومرتبـة ومنظمـة منذ الأزل (2) .
وذلك يعنى أن كل ما يحـدث ومـا سـيحدث لازم وفيه حتمية لنفاذ القضاء ، وعـدم جـوازه تغييره وتلطيفه أو محوه وإثباته .
وهذا التصور يجعـل الأسـباب والاسـتطاعات الحادثـة مشـاركة للـه فى فعلـه وخلقـه ، بـل وصل الأمر بهـؤلاء الفلاسـفة إلى عـزو الخلـق والربوبية للأفلاك والكوكب والأجرام السماوية دون الله (3) .

1- قوت القلوب حـ 2 ص 13 .
2- رسالة فى سر القدر ص 3 : 7 .
3- القضاء والقدر فى الاسلام للدكتور فاروق الدسوقى حـ 1 ص 386 .

ويذكر الدكتور كمال جعفر أن هذا مـا رفضـه الصوفية الأوائـل وعلى رأسـهم سـهل بن عبـد اللــه حيث أدى فهمــه لكلمــة كن على هــذين النحــوين الســابقين إلى حــل جــذرى لهــذه المشــكلة ، فهــو علاوة على إثباتــه القــدر الشامل المحيط فإنه يثبت أيضا العناية الإلهيـة للكــون شــامله ومحيطــه ويثبت الربوبيــة أو الفاعلية كاملة مطلقة للكلى كما هى للفــردى والجزئى سواء بسـواء ، فيتغـير بـذلك مفهـوم

العلاقة بين الفاعلية الإلهية والأسباب الطبيعية تماما بحيث تصبح هذه الأسباب مفعولة وليست فاعلة ، ومخلوقة وليست خالقة .
وهذا هو مفهوم القدر عند الصوفية وفى الإسلام حيث أطلق القرآن الفاعلية الإلهية وأثبت حكم الله عز وجل لقدره وهيمنته على سننه فإثبت الله عز وجل لنفسه المحو والإثبات فى القضاء على نحو لا ينسب له التغيير فى القدر أو فى علمه وصفاته وذلك فى قوله تعالى :
{ يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب } (1) .
يقول الدكتور جعفر بعد ذلك : وهذا يدع مجالا واسعا لتأكيد فكرة الإحتمال وتفنيد الحتمية الصارمة وهو ما يعنيه بعضهم من قوله عن الله عز وجل : **(يمحو الأسباب ويثبت الأقدار)** (2) .
وإذا عدنا إلى المبادئ الصوفية الأربعة لحل مشكلة القدر نجد أن

1- الرعد / 39 .
2- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 275 .

الدكتور جعفر يفسر الأول بقوله : (**إن الله جل شأنه عليم لا يعزب عن علمه شئ)** فيجعل علمه فى الأصل هو شمول العلم ولا نهائيته **.**

والثانى بقوله : **(عادل لا يمكن أن ينسب إليه الجور)** ففعل الإنسان لمعاصيه نابع من ذاتـه وإن كـان هـذا الفعـل من خلـق اللـه عـز وجل ككل شئ فى الوجود .

ويفسر أيضا المبدأين الثالث والرابع بقولــه : **(وهـو سـبحانه المرجـع والمعـول فى كل شئ)** (1) .

فليس ثمــة مشــكلة كمــا مــر بنــا بالنســبة لخضوع كل شئ فى الكون لقدر الله المحيـط ، ولكـن المشكلة بالنسبة للإنسان الذى يترتب على سلوكه حساب فى الآخرة ثوابـا وعقابـا ، فمــاذا يقــول ســهل بن عبــد اللــه بالنســبة للمعاصى والشرور الإنسانية هـل هى من قـدر الله وقضائه أم لا ؟

وهنا يتفق التسـترى مـع سـائر السـلف فى إثبات عموم القـدر حـتى يشـمل أفعـال العبـاد والســلوك الإنســانى الخلقى بمــا فى ذلــك المعاصـى ويسـتخدم التسـترى لفـظ **القيـام** ليعبر به عن سلطان الله ونفاذ أمــره وانطلاق صفاته وهو يستمد هـذا المصـطلح من القـرآن الكريم حيث يقول تعالى فى سورة الرعد :

{ أمن هو قائم على كـل نفس بمـا كسبت } (2) .

1- من التراث الصوفى للدكتور كمال جعفر ص 249 .

2- الرعد / 33 .

فقيام الله عز وجل على كل نفس بما كسبت سواء كان خيرا أو شرا طاعة أو معصية هو تفسير للمبدئين الثالث والرابع من مبادئ القدر عند الصوفية وهو سلطانه فى النهاية وعدم الاستغناء عنه فيما بين البدء والمنتهى (1) .

ومن ثم تكون معاصى العباد بقدر الله وخلقه وليست واقعة بغير مشيئته أو مخالفة لإرادته التكوينية ، والتسترى يدخل أية الإشهاد فى مفهوم القدر حيث يقول : **(خلق الله الخلق على معرفته وابتلاهم بنفسه)** (2) فيفهم الإشهاد فى قوله تعالى : **{ ألست بربكم قالوا بلى شهدنا }** (3) أن الله ابتلاهم بنفسه فى عالم الذر وزودهم بذلك بإيمان فطرى ثم أرسل لهم الرسل بقوله تعالى :

{ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا } (4) .

وقوله : **{ لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا }** (5) .

فاتصل العلم السماوى النازل بالوحى ، بالعلم الفطرى المغروس فى النفوس بالإشهاد ، وهو سبحانه وتعالى قبل ذلك قد قهرهم بقدرته ـــــــــــــــــــــــ

1- السايق ص 251 .
2- السابق ص 258 بتصرف .
3- الأعراف / 172 .
4- الإسراء / 15 .
5- المائدة / 48 .

وانفذ فيهم مشيئته وأجـرى عليهم أحكامـه وهـــو القـــائم عليهم بملكـــه فـــإذا انصـــرف الإنســان عن إيمانــه الفطــرى باختيــاره فهــو بالأمر الكونى لله عز وجـل ، واللــه مقيم على نفســه بمــا كســبت من كفــر ومعصــية ويــدين الإنســان على أنــه اكتســب الكفــر باســتطاعته واختياره وذلك ما سنعرضه تفصــيلا فى البــاب الثالث إن شاء الله .

ولكن هذه الاستطاعة وهذا الاختيــار كفيلان بإدانة الإنسان ومســئوليته عن فعلــه الخلقى ، وإذا كان خلق الفعل للــه فــإن النيــة الــتى هى مصدر الخــير والشــر فى الفعــل منســوبة عنــد سهل بن عبد الله أصالة للعبد وعليهــا يجــازى بذلك (1) .

ممــا يــدفعنا إلى دراســة الحريــة وأصــالتها فى الــذات الإنســانية فى الفصــل الثــانى من هــذا الباب ، ولاشك أن هــذه المبــادئ الأربعــة الــتى بــنى عليهــا الصــوفية الأوائــل مفهــومهم للقــدر نابعـــة من التوحيـــد الخـــالص ولا تختلـــف عن اعتقاد السلف الصالح أهل السنة والجماعــة .

1- انظر السابق ص 258 بتصرف .

الفصل الثانى

الحرية وأصالتها فى الذات الإنسانية عند الصوفية

وقد اشتمل على خمسة مباحث

المبحث الأول : مفهــوم الـذا ت الإنســانية عنـد أوئـل الصوفيـة .

المبحث الثــانى : الإرادة الحــرة وأصــالتها فى الــذات الإنسانية .

المبحث الثالث : دوافـع الإرادة وبوعثها عند الصـوفية .

المبحث الرابع : موضـوع الاختيــار البشـربومجاله عنـد الصوفية

المبحث الخــامس : العلاقــة بين المشيئــة الإلهيــة الـمطلقة والإرادة الإنسانيـة الحادثـة .

*** المبحـث الأول ***

مفهـــوم الـــذا ت الإنســـانيـة عنـــد الصـــوفيـــــة

سبق القول بأن أوائل الصوفية يقـررون أن كـل شـئ بقضـاء وقـدر حـتى أفعـال العبـاد ومعاصـــيهم ، فهى مخلوقـــه للـــه ســـبحانه وتعالى ، وفى هـذا الفصـل نـرى مـوقفهم من أصالة الحرية فى الذات الإنسانية ، فهل يعـنى ما سبق فى الفصل الأول أن الإنسان محمـول على فعله مجبر فيـه مسـتكرة عليـه أم أن لـه اختيـارا وقـدرة يلـزم منهمـا وجـود المسـألة والحساب فى الدنيا والآخرة ؟!

هذا مـا سـنعرفه من مـادة البحث فى هـذا الفصـل ، ونبـدأ أولا بعـرض نظـرة الصـوفية الأوائل لمفهـوم الـذات الإنسـانية حـتى نتمكن من تحديد مكانة الإنسان عندهم .

فالصـــوفية الأوائـــل كـــان لهم من الـــذات الإنسانية موقفا يختلف عن المذاهب الفلسفية والنظريـــة ، وذلـــك لأنهم لم يطلبـــوا معرفـــة نظريـــة للنفس على غـــرار مقصـــد الفلاســـفة ومنهجهم ، بـل اهتمـوا بالمعرفـة الـتى لا غـنى عنها للنفس لتقـديم السـلوك الخلقى واجتيـاز

الطريق إلى الله ، ولذلك كان لهم موقفا أكثر من كونه دراسة ومذهبا لها ، يقول الدكتور أبوالوفا التفتازانى :

(إن أسمى غايات التصوف إنما تكمن فى تهذيب النفس وضبط الإرادة على منهج العبودية وإلزام المرء بمكارم الخلاق حتى ينفسح الطريق أمام السالكين نحو ربهم ليصللوا إلى مرضاته فى الدنيا والآخرة) (1) .

ومع ذلك فإن هذا الموقف ينبثق عندهم بالضرورة من مفهوم خاص للنفس وخصائصها وينبنى عليه تعامل خاص للصوفى مع نفسه ، كما يمكن القول بأن الموقف الصوفى من الذات الإنسانية ظهر منه فى النهاية مذهب خاص فى النفس ، سرى فى كتاباتهم وركزوا عليه باهتمام بالغ إذ كانت النفس الإنسانية شغلهم الشاغل ومراقبتها دأبهم المستمر .

1- مدخل إلى التصوف الإسلامى د . أبو الوفا التفتازانى ص 9 طبعة دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة سنة 1983م .

قلت : كلام التفتازانى محمول على الصوفية الأوائل لأنه إذا كانت هذه غاية التصوف عند المعاصرين من الصوفية ، فما موقف الدكتور التفتازانى من الطرق الصوفية بما حوته من أمور الشرك والعكوف على قبور الصالحين فى كل مكان واتشار البدع بكل

أشكالها وأنواعها وهو شيخ مشايخ الطـرق الصـوفية ؟!
وما مـوقفهم من المخالفـات الصـريحة الـتى لا يختلـف عليها اثنان من وجـود الأضـرحة والقبـور فى المسـاجد فى المدن والقـرى ودعائهـا وعبادتهـا بـالقلب والسـان والجـوارح ؟! هـل هـذه الأفعـال توصـل إلى مرضـاة الله ؟! وهـل الغايـة من التصـوف عنـد الأوائـل هى مـا يسـعى إليـه هـؤلاء الجـاهلون الـذين يعملـون لتـدمير الإسلام فى قلـوب النـاس بالإصـرار على هـذا الشـرك وتلك البدع ؟!

وقـــد غلب عليهم إثبـــات جـــانبين للنفس الإنسانية :

- **أحدهما : حسن طيب .**
- **والآخر : شرير قبيح** .

وهذا المبدأ ينبثق عندهم من قولـه تعـالى : **{ ونفس وما سواها فألهمهـا فجورهـا وتقواها }** (1)

ولكن يبدو أن عناية الأوائل بجـانب الفجـور والهــوى ومكمن الشــهوات فى النفس كــان أعظم من عنايتهم بجـانب التقـوى حـتى يمكن القول إن بعضهم تناسوا هذا الجانب وتجاهلوه ، وليس ذلك من قبيل الحط من شـأن النفس وطبيعتها والإجحاف بمـا فيهـا من خـير ، ولكن من قبيل البعد عن مزالق الغرور وبقصد إنكار الذات والرجـوع بالفضـل كلـه للـه عـز وجـل ، ولـذلك بين القشـيرى مـراد الصـوفية بـالنفس فى قوله :

(فهم إنما أرادوا بالنفس ما كان معلولا من أوصاف العبـاد ومـذموما من أخلاقهم وأفعالهم) (2) .

1- الشـمس / 8 1 وانظـر تـاريخ التصـوف الإسـلامى للــدكتور قاســم غــنى ص421 ترجمــه عن الفارســية صادق نشـأت ، طبعـة النهضـة المصـرية القـاهرة سـنة 1390هـ .

2- الرسـالة القشـيرية حـ 1 ص 44 لاشـك أن النفس المذكورة فى القرآن وصفت بأنها مطمئنة تارة ولوامـة تارة وأمارة بالسوء تارة أخـرى فليسـت كلهـا شـر وإن كان أوائل الصـوفية يلحقـون النفس المطمئنـة بـالروح الممثلـة لجـانب الخـير إلا أن الالـتزام بـالنص القـرآنى أولى .

ويصـور الهجـويرى النفس البشـرية على أنهـا حيوان دنىء يجب على الصوفى أن يحذر منه فيقول :

(النفس كلب باغ وجلـد الكلب لا يطهر بالدباغ) (1) .

ولقـد عـرض الـدكتور كمـال جعفـر مفهـوم النفس عنــد ســهل بن عبــد اللــه التســترى باعتباره معبرا عن مـذهب أغلب الصـوفية فى القرن الثالث الهجرى ، بل يعتبر مذهبه تفسير للمبـدأ الأساسـى الـذى فهم معظم الصـوفية بعده الذات الإنسانية من خلاله ، فهو يقـرر أن مصدر الخـير فى الإنسـان هـو روحـه ومصـدر

الشر والهوى نفسه ، وكـل منهمـا ينقسـم إلى مراتب ، ولا يعنى ذلك انقسام الذات الإنسانية ، بل هى ذات واحدة بدرجات متعددة ، فالروح عليـا وسـفلى وأسـمى نقطـة فـــى الـروح يسـميها الـروح النـورى ذات الأصـل الإلهى المبـاشر ، وأسفل نقطة فى الروح يمنحها هذا الصـوفى يسـميها تسـمية غريبـة وهى نفس الـروح أى النقطـة الـتى تنتهى عنـدها الـروح وتبدأ بعدها أوصاف النفس (2) .

وتعتبر النفس العليـا هى حلقـة الاتصـال بين الــروح وبين النفس الحيوانيــة السـفلى وهى مأوى الميول الحيوانية والشيطانية التى تظهـر فى شــهوة البطن والفــرج واللهــو واللعب ، والميول السحرية الإبليسية التى تظهر فى المكر والخداع والاستعلاء والاستكبار (1) .

ومجاهـدة أوائـل الصـوفية لأنفسـهم تـرمى إلى علاج كل ميل من هذه الميـول فمنهـاجهم وطـــرقهم كلهـــا تقـــوم على أســـاس عـــدم الاستجابة لهذه الميـول والعمـل على تقويمهـا وعلاجها ومثال ذلك مـا يـذكره المحاسـبى فى محاسبة النفس وأنها على وجهين :

1- كشف المحجوب للهجويرى ص 258 .
2- من قضايا الفكر الإسلامى انظـر تفريـق بين مسـرة بين النفس والروح ص 326 .

أحـــــدهما : بـــــالنظر إلى مســــتقبل الأعمال .

والثـــانى : بـــالنظر إلى مـــا اســتدبره الإنسان منها .

فأما المحاسبة فى مستقبل الأعمال فقد دل عليها الكتاب والسنة وأجمع عليها علماء الأمة وفى كتاب الله تعالى :

{ واعلمـــوا أن اللـــه يعلم مـــا فى أنفسكم فاحذروه } (1) .

وهـذا تحـذير منـه لنـا وتنبيـه على مـا ذكـره تعالى فى كل ما نـأتى ومـا نـدع ، واتقائـه فى آداء فرائضه واجتناب نواهيه (2) .

وأمـا المحاسـبة فيمـا مضـى من الأعمـال فيستدل لها المحاسبى بقوله تعالى **:**

{ وتوبوا إلى الله جميعا أيـه المؤمنـون لعلكم تفلحون } (4) .

1- السابق ص 326 .
2- البقرة / 235 .
3- الرعاية لحقوق الله لأبى عبد اللـه الحـارث بن أسـد المحاسبى تحقيق د . عبد الحليم محمود ص 48 طبعـة دار المعارف .
4- النور / 31 .

ويـذكر القشـيرى أن المعلـولات من أوصـاف العبيد على ضربين :

أحدهما : مـا يكـون كسـبا لـه كمعاصـيه ومخالفته .
والثانى : أخلاقـه الدنيئـة فهى نفسـها مذمومة .
فــإذا عالجهــا العبــد ونازلهــا تنتفى عنــه بالمجاهدة ، فالميل الحيوانى يعـالج بالإيمـان ، والشيطان يعالج بالعباد وكثرة التنفل ، والميل الإبليســى يمكن أن يــداوى بــاللجوء إلى اللــه وهكذا (1) .
ومن ثم يـــرمى الصـــوفى من عملـــه إلى القضــاء على التنــازع المتعــدد فى الاتجاهــات الكائنــة فى ذاتــه وإيجــاد الانســجام الخلقى أو على الأقــل التخفيــف من الصــراع الــدائر بين هذين المبدأين بمراتبهما (2) .
وعندما يتم للإنســان ذلــك ينمحى الشــر من نفسه ويقضى على الفجور فيها وترقى نفســه وتنتقل من كونها نفسا أمارة بالسوء إلى كونها نفسا لوامــة ثم نفسا مطمئنة ، ويعتــبر أوائــل الصوفية الأنانية وحب الذات هما مصدر الشــر فى الإنسان ، وبالتالى يعتبر مصــدر الشــر فى الوجود هو إبليس لعنه الله ، وذلك لحبــه لذاتــه وأنانيتــه والركــون إلى نفســه دون الاســتعانة بالله أو الخضوع له .
والــروح تمثــل الانســان بمــا ينبغى أن يكــون ، بينما النفس تمثله بما هو ـــــــــــــــ

1- الرسالة القشيرية حـ 1 ص 262 .
2- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 97 .
كائن (1) .
وهدف الصوفى فى الحيـاة ، هـو الانتقـال من ذاته الكائنة فى النفس وأنانيتهـا وفجورهـا إلى الاستضاءة بالروح باعتبارها المستوى الانسانى الأمثـل ومصـدر التكـريم الانسـانى ، ومن ثم فالصـوفى يـرى كمـال الـذات الانسـانية فى الارتفـاع بـالخلق القـويم والنجـاة من أسـفل السافلين .
وهذه الحالة تتمـل فى المكانـة الـتى خلـق اللـه آدم عليهـا عنـد الامتـداد الغيـبى للوجـود الانسانى فى الزمـان حيث أسـجد لـه ملائكتـه بعد أن نفخ فيه من روحه .
فالروح هى مبرر تكـريم الانسـان وارتفاعـه إلى هــذا القمــة السـامية بين المخلوقــات ، والتى عـبر عنهـا القـرآن الكـريم بالخلافـة فى الأرض ، وقـد سـجدت الملائكـة تسـليما لـه بالخلافــة واسـتجابة لأمــره سـبحانه وتعــالى وامتنع الشيطان أن يقر له بهـا ظلمـا وعلـوا ، قـال سـهل بن عبـد اللـه فى قولـه تعـالى :
{ وإذا قـال ربـك للملائكـة إنى جاعـل فى الأرض خليفـة قـالوا أتجعـل فيهـا من يفسـد فيهـا ويسـفك الـدماء ونحن

نســبح بحمـدك ونقـدس لـك قـال إنى أعلم ما لا تعلمون }
(2) .

قال : إن الله تعالى قبل أن يخلق أدم عليـه السلام قال للملائكة : إنى

1- السابق ص 97 .
2- البقرة / 30 .

جاعـل فى الأرض خليفـة ، وخلـق آدم عليـه السلام من طين العـزة من نـور محمـد صـلى الله عليه وسلم (1) وأعلمه أن نفسـه الأمـارة بالسوء أعـدى عـدو لـه ، ويسـتطرد التسـترى فيذكر أن الله خلق النفس وجعل فيها خـواطر وهمّا وإرادة وأمرها بإدامة الافتقار إليه .

- **فإن أبدى عليها طاعة قالت : أعنى .**
- **وإن حـــركت إلى معصـــية قـــالت : اعصمنى .**
- **وإن حـــركت إلى نعمـــة قـــالت : أوزعنى .**
- **وإن قال لها اصبرى على البلاء قـالت : صبرنى .**

1- خلق الله آدم عليه السلام من طين مكـون من مـاء اختلـط بـالتراب كمـا قـال تعـالى **{ وإذ قال ربـك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سـويته ونفخت فيه من روحى فاقعوا لـه سـاجدين }** ص / 71 ، 72 .

أما القول بأن آدم عليه السلام خلق من نور محمـد من طين العزة فهو باطل لانعدام الدليل وتعارضـه مـع الأدلة الصحيحة ، وكل ما ورد فى كون النبى صلى اللـه عليه وسلم هو أول ما خلق الله ، كالحديث الذى يـروى عن جـابر بن عبـد اللـه رضـى اللـه عنهمـا أنـه قـال : **(قلت يارسول الله : بـأبى أنت وأمى أخـبرنى عن أول شئ خلقه اللـه قبـل الأشـياء ، قـال : إن اللـه تعـالى خلـق قبـل الأشـياء نـور نبيـك ياجابر ، ثم خلق منه كل خـير وخلـق بعـده كـل شئ)** وما فى معناه فهو باطل لا يصح ، انظـر كشـف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشـتهر على ألسـنة النـاس ، للعجلونى ص 263 وما بعدها .

ولا يســاكن قبلــــه أدنى وسوســة لهــا دون الرجوع عنها إلى ربه .

وقد جعل الله طبع النفس فى الأمر ســـاكنا وفى النهى متحركـــا وأمـــر الإنســان بــأن يسـكن عنـد المتحـرك ، ويتحرك عند الساكن بلا حـول ولا قــوة إلا بالله ، أى لا حول له عن معصيته إلا بعصـمته ولا قــوة لــه على طاعتــه إلا بمعونته (1) .

ثم أدخل الله الإنسـان ممثلا فى آدم عليـه السلام وزوجته تجربة لتحقيق الـذات إذ خلقـه وكيفه على نحو يحقق ذلك ، ليصل إلى أقصى كمال ممكن من خلال محبة اللـه لـه ورضـــاه عنه ، فأمره بدخول الجنـة والأكـل منهـا رغـدا

حيث شــاء ، ونص عليــه فى النهى الأكــل من الشجرة التى تسبب له الهلاك .

{ وقلنا يـاآدم اسـكن أنت وزوجـك الجنـة وكلا منهـا رغـدا حيث شـئتما ولا تقربـــا هـــذه الشـــجرة فتكونـــا من الظالمين } (2) .

ويفســر التســترى كيـف ظهـر حب النفس وكـان سـببا فى الهلكـة عنـدما دبـر الانسـان لصالحـه فيقول :

(فلما دخل الجنة ورأى ما رأى قال : لو خلدنا وإنما لنا أجل

1- تفسير سهل بن عبد الله ص 10 بتصرف .

2- البقرة / 35 .

مضروب إلى غايـة معلومـة ، فأتـاه إبليس من قبل مساكنه قبله بوسوسـه نفسه فى ذلك فقال :

هـل أدلـك على شـجرة الخلـد الـتى تتمناهــا فى هــذه الــدار وهى ســبب البقاء والخلود وملك لا يبلى) (1) .

فكان الشيطان عـاملا مسـاعدا للنفس فى إتمام المعصية وإحداث النسيان .

ويقــول التســترى : **(ألحــق اللــه بــه وسوسة العدو لسابق علمه فيـه وبلـوغ**

تقـديره وحكمـه العـادل عليـه ، وأول نسيان وقع فى الجنة نسيان آدم عليـه السـلام وهـو نسيــان عمــد لا نسيــان خطـأ وهو المراد من تركه لعهد الله) (2) .

والتســترى يقــرر بــذلك الامتــداد الغيــبى للإنســان فى الزمـان قبـل وجـوده فى الحيـاة الدنيـــا وأنــه لا يحيــا فى الــدنيا بمعــزل عن السابق أو اللاحق لها فوجـوده الوضـعى الـذى نحسـه محصـور بين وجـودين غيبـيين والعـالم المشــهود ليس ســوى صــفحة بين عــالمين غيبيين ، وأن الحكمة الإلهية اقتضـت ذلـك لمـا ســبق فى تقــدير اللـــه وعلمـــه من ابتلائهم واستخلافهم فى الأرض .

1- السابق ص 10 .
2- السابق ص 10 .

قال أبو سعيد الخراز (1) :

(إن الله إنما أهبط آدم عليه السلام إلى الـدنيا عقوبـة ، وجعلهـا سـجنا لـه حين أخرجه من جواره وصــيره إلى دار التعب والاختيــار فمن ملــك من أهــل الصدق شيئا من الـدنيا فهـو معتقـد أن الشئ لله عز وجل لا لــه إلا من طريــق

حق ما خــوله اللــه تعالـى ، وهو مبلى بــه حتى يقوم بالحق فيه) (2) .

فالخلافة فوق أنها وظيفة الإنسـان الكونيـة وتحقيقهـا يمثـل الكمـال الإنسـانى فى إثبـات الـذات إلا أن الصـوفى لا يعمـل لتحقيـق هـذه المكانـة الدنيويـة فقـط وإنمـا لكونهـا سـبيل الوصول إلى الهدف الأسـمى وهـو محبـة اللـه ورضــاه ، ولا يكــون ذلــك عنــده إلا باخضــاع النفس للروح والخلوص بها من دار الابتلاء إلى دار البقاء فى الآخرة وبهذا يكون تحقيق الذات الإنسانية عند مشايخ الصوفية الأوائل .

1- هـو أبـو سـعيد أحمـد بن عيسـى الخـراز ، بغـدادى النشأة والمنبت ولد فى أوائل القرن الثـالث الهجـرى ، وهو من أئمة القوم وجلة مشايخهم ، وقيـــل : إنه أول من تكلم فى علم الفنـاء ، صـحب ذا النـون ونظـراءه وتوفى سنة 277 هـ وقيل سـنة 279 هــ ، انظـر حليـة الأوليــاء حـ 1 ص 117، الرســالة القشــيرية حـ 1 ص 276 ومــرآة الجنــان حـ 2 ص 223 ، تــاريخ الإســلام وطبقات المشاهير والأعلام حـ 16 ص 22 .

2- الطريق إلى الله أو كتاب الصدق لأبى سعيد الخـراز ص 33 .

سئل الجنيـد بن محمـد عن غايـة السـائرين فقال :

(**إنــه الظفـــر بنفوســهـــم**) (1) .

وتحقيـق الـذات الإنسـانية بهـذا المفهـوم يأخـذ معـنى لـدى أوائـل الصـوفية مخالفـا عن نظـيره عنـد الآخـرين ، حيث أن تحقيـق هـذه الذات لا يكون ببروزها ولا يعنى ذلك استقلالها واعتـدادها بنفسـها ، كمـا أن ذلـك لا يكـون بتعقلهـا للحقـائق الكونيـة واسـتطالة الانسـان فيهـا ، ولكن تحقيـق الـذات الإنسـانية عنـد الصوفية يكون بالتحرر ممـا سـوى اللـه وتـرك العبـد لنفسـه فيتحـرر من قيودهـا ويـؤدى العبوديـة على الوجـه اللائـق ، ولـذلك فـإن التسـترى يشـير إلى المعـنى الـذى يحصـل بدخول آدم إلى الجنة وخروجـه منهـا ، فيـذكر أن فعـل آدم صـار علمـا وسـنة فى ذريتـه إلى يوم القيامة ، ولم يرد الله تعالى معـانى الأكـل فى الحقيقة وإنمـا أراد معـانى مسـاكنه الهمـة مع شئ هو غيره .

فـآدم عليـه السـلام لم يعتصـم من الهمـة والفعل فى الجنة فلحقه ما لحقه . من أجـل ذلك وكذلك من ادعى ما ليس له وساكنه قلبه ناظرا إلى هوى نفسه فيـه ، لحقـه الـترك من الله عز وجل مع مـا حـل عليـه من نفسـه ، إلا أن يرحمه فيعصمه من تـدبيره ، وينصـره على عدوه وعليها ، فأهل الجنة معصـمون فيهـا من التدبير الذى كانوا به فى دار الـدنيا لأن آدم لم

1- رسائل الجنيد ضمن كتاب التصـوف طريقـا وتجربـة ومذهبا ص 303 .

يعصم من مساكنة قلبه تدبير نفسـه بـالخلود (1) .

فليس للإنسان عدو أشـد من نفسـه ، وهـو يــرى أن البلاء يكمن فى الانفراديــة الــتى هى أصل الأنانية (2) .

ومن ثم فـإن الـذات الإنسـانية فى مفهـوم أوائل الصوفية وجـدت فى الـدنيا كامتـداد لمـا سبق فى الغيب وتنتقل بعدها إلى خالقها ، كل ذلك للقيام بواجبها فى الدنيا على النحو الــذى يرضى الله سـبحانه ، فـإن فعلت فقـد وصـلت إلى الكمال فى تحقيق الذات وتحقيـق الهـدف من وجودها .

وهذه الحقيقة يقررها أبو سعيد الخــراز فى قوله :

(فأيقن القوم أنهم وأنفسهم لله تعــالى ، و كــذلك مــا خــولهم وملكهم فإنما هو له ، غـير أنهم فى دار اختبـار وبلـوى وخلقـوا للإختيـار والبلـوى فى هذه الدار) (3) .

ثم يروى عن عمر بن الخطـاب رضـى اللـه عنه حين سمع : **{ هل أتى على الإنســان حين من الدهر لم يكن شيئا مـذكورا }** (4) .

1- تفسير القرآن العظيم لسهل بن عبد الله ص11 .
2- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 98 .
3- كتاب الصدق ص 33 .
4- الإنسان / 1 .

قال : ياليتها ما تمت ؟! يعنى قبل قـراءة : **{ إنا خلقنا الإنسـان من نطفـة أمشـاج نبتليـه }** (1) فهمهم عمـر وعجـز فى التلاء عجزا .

يقول أبو سعيد : (ومعنى قـول عمـر رضـى الله عنه ياليتهـا مـا تمت يعـنى لم يخلـق حين سـمع اللـه يقـول : **{ لم يكن شـيئا مذكورا }** وذلك من معرفة عمـر رضـى اللـه عنه بواجب حق الله ، وقدر أمره ونهيه وعجـز العباد عن القيام به ، وقيام الحجـة للـه تعـالى عليهم عنـد تقصـيرهم ومـا تواعـدهم بـه إذا ضيعوا) (2) .

* ويمكن أن نلخص ما سبق فى النقاط الآتية :

1- أن الإنسـان لـه وجـود غيـبى قبـل الزمان والمكان .

2- أن الإنسـان مسـتخلف فى الأرض وتحقيـق الذات يكمـن فى طاعـة اللـه والقيـام بمـا أوجب عليه .

3- أن مصدر الخير فى الإنسـان روحـه ومصدر الشر نفسه .

4- أن نفسه الأمارة بالسوء أعدى عـدو له .
5- أنـه فى الجنـة معصـوم من التـدبير الذى كان به فى الدنيا .

1- الإنسان / 2 .
2-كتاب الصدق ص 33 .

وهــذا الإجمــال يتطلب دراســة الموقــف الصوفى لأوائـل الصـوفية من إمكانيـة تحقيـق الإنسان لدوره الأساسى فى الدنيا وكيف كيفه اللــه لتحقيقــه ؟ ممــا يــدفعنا إلى البحث عن أصالة الحريـة فى الـذات الإنسـانية ومقومـات الاختيار فيها وعلاقـة الإرادة الإنسـانية الحادثـة بــالإرادة الإلهيــة المطلقــة ، وكيــف تتحقــق المساءلة ويتم توقيع الجزاء مع عدم المساس بعدل الله سبحانه وتعالى ؟ وهـذا مـا سيتضـح من الأبحاث الأتية فى هذا الفصل إن شاء الله .

*** المبحث الثانى ***

الإرادة الحرة وأصالتها فى الذات الإنسانية

أجمع أوائل الصوفية على أن الإنسـان حـر مختار لأفعاله ليس بمسـتكره عليهـا وأنهـا من خلق الله وتقديره قال الكلاباذى : **(وأجمعوا على أن حركــة المــرتعش خلــق اللــه فكذلك حركة غيره ، غـير أن اللـه خلـق لهذا حركة واختيارا وخلق للأخـر حركـة ولم يخلق له اختيارا)** (1) .

ويســـتدل الكلابـــاذى على حريـــة الإرادة الإنســانية بالســلوك الخلقى الــذى يكتســب الإنسان به الإيمان والكفر والطاعة والمعصـية وهذا السلوك يستحيل الجبر فيه فيقول :

(واللــــه خلــــق لهم الاختيــــار والاستحسان والإرادة للإيمــان والبغض والكراهيـة والاسـتقباح للكفـــر ، قـال تعالى : { ولكن الله حبب إليكم الإيمان وزينـه فى قلـوبكم وكـره إليكم الكفـر الفسوق والعصيان }) (2) .

فموضــوع الاختيــار البشــرى هــو الأفعــال الخلقية التى يحاسب عليها الإنسـان فى الـدنيا

بإقامـة الحـدود وفى الآخـرة بـالجزاء ، فهـذا الاختيـار هـو أسـاس المسـؤلية عنـد الصـوفية وأساس الكسب فى أفعال الإنسان .

1- التعرف لمذهب أهل التصوف ص 62 .
2- الحجرات / 7 .

ويذكر الكلاباذى أنهم أثبتوا للإنسـان أفعـالا اختياريـة وأخـرى جبريـة وأن كـل مـا يحاسـب عليه الإنسان هو اختيارى ، لأن الإجبار عنــدهم **هو أن يسـتكره الفاعـل على إتيـان مـا يكرهـه ويـترك الـذى يحبه** وهـذه الصـفة ليست فى اكتسابهم الإيمان والكفـر والطاعـة والمعصية ، بـل اختـار المـؤمن الإيمـان وأحبـه واستحسـنه وآثـره على ضـده وكـره الكفـر وأبغضه واستقبحه ولم يرده وآثر عليـه ضـده (1) .

كمـا ينقـل إجمـاعهم على ذلـك بقولـه : **(وأجمعـوا أنهم مختـارون لأكسـابهم مريدون لها ، ليسـوا بمحمـولين عليهـا ولا مجـبرين فيهـا ولا مسـتكرهين عليهـا ، فمعـنى قولنـا مختـارون : أن الله خلق لنـا اختيـارا فـانتفى الإكـراه وليس ذلك على التفويض)** (2) .

ومن ثم فإننا نستطيع القـول بـأن الركـيزة الأساسية التى قـام عليهـا الاختيـار فى الـذات

الإنسـانية عنـد الصـوفية هى الإرادة الحـرة ، فـالإرادة لهـا شـأن كبـير فى تـراث أوائـل الصوفية وكتاباتهم تدل على اعتقادهم أصـالتها فى الذات الإنسانية ، فهم أهل إرادة لله تارة ، وأهل تجرد عن الإرادة لما سواه تـارة أخـرى ، وما آداب المريدين إلا توجيـه لتلـك الإرادة فى العمل على مرضاه الله .

1- السابق 65 .
2- السابق 66 .

يقـــول الحكيم الترمـــذى فى وصـــف الصوفية : **أهل الإرادة على ضربين :**

1- منهم من سـار فى طريقـه إلى ثواب الله يؤدى فرائضه ويتجنب نواهيه ومحارمه ثم يتطـوع من أنـواع الـبر مـا تهيأ له .

2- ومنهم من سار إلى الله ليعبده فيـؤدى فرائضـه ويتجنب محارمـه ثم يتحـرر من آفـات الـدنيا وحبهـا بقطـع العلائق من باطنه (1) .

ويسـتدل القشـيرى بقولـه تعـالى : **{ ولا تطـــرد الـــذين يـــدعون ربهم بالغـــداة والعشى يريدون وجهه }** (2) .

على أن الصـوفية أثبتـوا للمـريدين اختيـارا به ساروا فى طريق القـرب إلـى اللـه (3) .

والإرادة عنـدهم سـابقة على الفعـل بحيث يمكن اعتبارها علتـه والـدافع لـوقوعـه يقـول القشيرى :
(إنما سميت هذه الصفة إرادة ، لأن الإرادة مقدمـة على الفعـل وعلى كـل أمر ، فما لم يرد العبد شيئا لم يفعله) (4) .

1- آداب المـريدين للحكيـم الترمـذى تحقيـق الـدكتـور عبـد الفتـاح عبـد اللـه بركه ص 33 : 34 .
2- الأنعام / 52 .
3- الرسالة القشيرية حـ 2 ص 433 .
4- السابق حـ 2 ص 433 .

ولعلهم كـانوا يقصـدون بالنيـة توجيـه الإرادة للعمـل إلى هـدف واحـد مـع اختلاف الأعمـال والعبادات ، هذا الهدف هو إرضاء الله ومحبتـه ولذلك قالوا :
(إن النية هي روح العمل وقلب المـؤمن ، فالنيـة أو القصـد إنمـا يجئ تمـام الأعمـال على شـبيه أول القصـد منه) (1) .
* الفرق بين النية وحديث النفس :
ويسمى الحارث المحاسبى الإرادة وعملهـا قبـل ظهـور الفعـل على الجـوارح : **اعتقـاد القلب** ، ويفـرق بينـه وبين حـديث النفس مستدلا بقوله تعالى :

{ لا يؤاخـــذكم اللــه بــاللغو فى أيـمـانكم ولكن يؤاخـذكـم بـما كـسبـت قلـوبكـم } (2) .

فكســب القلب هــو ماعقــده داخلــه بفعــل الإرادة ، ويأتى العمل فى الجوارح تبعا لها فإن تخلـف العمـل فى الجـوارح مـع قيـام الإرادة ، فإنهـا عقــد القلب وهــو مؤاخــذ بهــا ، ويــذكر المحاسـبى الـدليل على ذلـك وهـو مـاورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(إذا التقى المسـلمان بسـيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار قيل :

1- قوت القلوب حـ 1 ص 175 .
2- البقرة / 225 .

يارسول اللـه هـذا القاتـل فمـا بـال المقتول قال : لأنه أراد قتل صاحبه) (1) .

يقــول المحاســبى معقبــا : (ألا تــرى أنــه بإرادة قلبه قتل صـاحبه شـهد لـه النـبى صـلى الله عليه وسلم بالنار ولم يقتـل وقــد نــوى ، واللـه عـز وجـل يؤاخـذه بباطنه وبعقد قلبه إذا كان مقيما على الفعل مصرا على ذلك) (2) .

فالإرادة عند المحاسبى محلهــا القلب وهى الــتى تكســب العمــل معــنى الخــير والشــر

والصلاح والفساد وهذا الاعتقاد هو مـادل عليـه قوله تعالى :
{ كـل نفس بمـا كسـبت رهينـة } (3) .
وقولــه صــلى اللــه عليــه وســلم : **(إنمــا الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ**

1- أخرجــه البخــارى فى كتــاب الإيمــان ، بــاب وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلـوا بـرقم (31) ومسـلم فى كتاب الفتن ، باب إذا توجه المسلمان بسيفيهما برقم (2888) والنسائى فى كتاب تحريم الـدم ، بـاب تحـريم القتل حـ 7 ص 125 ، والـبيهقى حـ 8 ص 190 وأحمـد حـ 5 ص 48وابن ماجه برقم (3965) .
2- القصــد والرجــوع إلى اللــه ، للحــارث بن أســد المحاسبى ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ص 92 : 93 ، وانظر قوت القلوب حـ 2 ص 161 .
3- المدثر / 38 .

ما نوى ، فمن كـانت هجرتـه إلى اللـه ورسـوله فهجرتــه إلى اللــه ورســوله ومن كــانت هجرتــه لــدنيا يصــيبها أو امــرأة ينكحهــا فهجـرته لما هاجر إليه) (1) .
فالنيــة هى فعـل القلب واعتقـاده وهى فى بــاطن الإنســان وجــذور القلب وهى موضــع النظـر والعمـل فى متابعـة الملائكـة لأفعالهـا ففى الحديث :

(إذا أراد عبدى أن يعمل سيئة فلا تكتبوها عليه حتى يعملهـا فـإن عملهـا فاكتبوها بمثلها ، وأن تركهـا من أجلى فاكتبوها له حسـنه وإذا أراد أن يعمـل حسنة فلم يعملها فاكتبوها له حسـنة ، فإذا عملها فاكتبوها لـه بعشـر أمثالهـا إلى سبعمائة ضعف) (2) .

فالحديث دل على أن الأعمـال مبنيـة على فعل الإرادة ، وفعل الإرادة

1- أخرجه البخارى فى كتـاب الإيمـان ، بـاب من هـاجر فله ما نوى برقم (54) ومسلم فى كتاب الإمارة ، باب إنما الأعمال بالنية بـرقم (1907) وأبـو داود فى كتـاب الطلاق ، بـاب فيمـا عـنى بـه الطلاق والنيـات بـرقم (2201) والنسـائى فى كتـاب الطهـارة ، بـاب النيـة فى الوضوء برقم (58) وابن ماجه فى كتاب الزهـد بـــاب النيـة برقم (4227) وابن الجـارود فى المنتقى بـرقم (64) والدارقطنى فى سننه حـ 1 ص 50 .

2- أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ، باب يريــدون أن يبــدلوا كلام اللــه بــرقم (7501) وأخرجــه مســلم فى كتاب الإيمان ، باب إذا هم العبد بـرقم (128) وأخرجـه أحمد فى المسند حـ 2 ص 242 .

هو أساس صلاح القلب أو فسـاده كمـا قـال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

(ألا إن فى الجسـد مضـغة إذا صـلحت صـلح الجسـد كلـه وإذا فسـدت فسد الجسد كله ألا وهى القلب) (1) .

وأمـا حـديث النفس عنـد المحاسـبى فهـو مختلف عن الإرادة ، حيث ينشـأ عن الخـواطر التى تدور فى القلب وغالبا ما تكون من الفكر والروية ، وقد مثل له بحديث بن مظعون حيث قال :

يارسول الله نفسى تحـدثنى أن أطلـق خوله .

فقال : مهلا ، فإن من سنتى النكاح .

قـال : نفسى تحدثنى أن أحب نفسى .

قـــال : مهلا ، إن خصـــاء أمـــتى دؤب الصيام .

قـــال : نفســـى تحـــدثنى أن أتـــرهب بنفسى .

قـــال : مهلا ، رهبانيـــة أمـــتى الحج والجهاد .

قـال : نفسى تحدثنى أن أترك اللحم .

قـال : مهلا ، فإنـى أحبته ولـو أصبتـه لأكلتـه ولـو سألتـه ربـى

1- أخرجه البخارى فى كتاب الـبيوع ، بـاب الحلال بين والحرام بين برقم (2051) وأبو داود فى كتاب البيوع ، بـاب اجتنـاب الشـبهات بـرقم (3329) والنسـائى فى

كتاب البيوع باب اجتنـاب الشبهــات حـ 7 ص 241 ، وأحمد حـ 4 ص 270 .
لأطعمنى) (1) .

يقول المحاسـبى : ألا تـرى أن قـول النـبى صلى الله عليه وسلم : مهلا حيث يقول عثمان : نفسى تحدثنى **فحـديث النفس إنمـا هـو تروّيه والـدليل على أنـه تروّيـه أنـه لم يفعل ولم يمض فيما حـدث به نفســه ، إذ لم يســتوطن اعتقــاد الفعــل بقلبــه ولم تســكن النفس إلى ذلـــك وإنمـــا يحـل بقلبـه خطرات بغير استيطان** (2) .

ويذكر المحاسبى أن هذه الإرادة لها وجهـة واحــدة بين طـريقين معروضـين أمامهـا فـإذا تــوجهت إلى أحــدهما ، ســتفارق الآخــر حتمــا ومحــال أن يجمــع بين نيــتين ، فلا يكــون قلب مصــرا على معصــية اللــه ومســتعملا بكمــال طاعته ، والدليل على ذلك عنده هو قوله اللــه تعالى : **{ ما جعل الله لرجـل من قلـبين فى جوفه }** (3) .

1- حديث عثمـان بن مظعـون ورد بألفـاظ أخـرى وهـو حسن لغـيره ، انظـر الإحسـان فى تقـريب صـحيح ابن حبــان حـ 1 ص 185 ومصــنف عبــد الــرزاق بــرقم (10375) ورواه الــبزار بإســناد صـحيح بـرقم (1458) وأحمد فى المسند حـ 6 ص 268 والبيـهقى فى مجمع

الزوائد حـ 4 ص 301 وأخرجه ابن سعد فى الطبقـا ت حـ 3 ص 394 .
2- القصد والرجوع إلى الله ص 95 .
3- الأحزاب / 4 .

فإذا كان القلب مشتغلا بالإصـرار عمى عن البصـيرة ، ولا يـرى حسـنا تتـوق إليـه النفس رغبـة فى ربـه ، ولا قبحـا يتجنبـه رهبـة منـه ، فتجره أسباب الفتنة إلى مصارع الهلكة (1) .

والنية عنـد أوائـل الصـوفية ركن من أركـان الإيمان وهى عقد القلب كما سبق ويلزم فيهـا الإخلاص لقبول العمل يقول أبو سعيد الخراز :

(إن الإخلاص الذى أمر به اللـه عـز وجل فى قوله تعالى :

{ فمن كان يرجـو لقـاء ربـه فليعمـل عملا صــالحا ولا يشــرك بعبــادة ربــه أحدا } (2) .

هو أن يكون العبد يريد الله عز وجــل بجميـع أعمالـه وأفعالـه وحركاتـه كلهـا ظاهرهـا وباطنهـا لا يريـد بهـا إلا اللـه وحده) (3) .

فإرادة العبـد لمرضـاة اللـه تنفى الشـرك ، ولـذلك جعـل المحاسـبى الإخلاص فـرض فى جميع الأعمال ، فعندما سئل عن كونـه فرضـا أو فضيلة ؟

قال : الإخلاص لله عز وجل فرض لازم لجميـع الأعمال لأن الله عز وجل يقول :

1- السابق ص 95 .
2- الكهف / 110 .
3- كتاب الصدق لأبى سعيد الخراز ص 17 .

{ وما أمروا إلا ليعبـدوا اللـه مخلصـين له الدين حنفاء } (1) .

فكـل من داخلـه إعجـاب أو ريـاء أو حب محمدة أو كراهية مذممة فى اسقاط المنزلة ، فليس بمخلص فى عمله لأن الله عـز وجـل لا يقبل إلا ماكان خالصا لوجهه) (2) .

ويضيف المحاسبى فى كتابه الرعاية تفصـيلا دقيقا فى بيان الإخلاص ونفى الرياء وأن إرادة العبـد هى الفيصـل فى ذلـك ، فالريـاء عنـده ينافى إرادة العبد لمرضاة اللـه ، وصـلاح النيـة يكمن فى إرادتـه للحـق ، فالنيـة هى الممثلـة لقيمـة العمـل وأصـلها الإرادة ، والعمـل مـع فساد النية مردود على صاحبه ويجـازى المـرء عن نيتـه إذا تخلـف عمـل الجـوارح بحصـول العجز وفقد الاستطاعة كمن أتم العمل ســواء بسواء .

ويضرب المحاسبى لـذلك مثلا برجـل عـزم من الليل أن يقتل النفس التى حـرم اللـه ، أو يفعل فاحشة بحرمة مسلم ، أو يكفر باللـه إذا

هو أصـبح ونـوى ذلـك بقلبـه وعـزم بإرادتـه ثم مات على تلك النية وذلك الإصرار حشره اللــه على ما عقده عليه ونـوى ، فـإذا حـل الإصـرار عن القلب وعزم على عدم الفعـل ونــدم على ما كان منه فهو تائب إلى الله عز وجل مـأجور .

1- البينة / 5 .
2- القصـد والرجــوع إلى اللــه ص 93 ،ـ 94 وانظــر الرعاية لحقوق الله ص 132 .

ودليله فى ذلك قول النبى صلى اللــه عليـه وسلم :
(يغزو جيش الكعبة ، فإذا كـانوا ببيـــداء من الأرض يخســـف بـــأولهم وآخرهم ، قالت عائشة : كيـف يخسـف بـــأولهم وآخـــرهم ، وفيهم أســواقهم ومن ليس منهم ، قال : يخسف بأولهم وآخرهم ثم يبعثـون على نيـاتهم) (1) .
وقـــد تعـارف مشـايخ الصـوفية فى أواخـر القـــرن الثــالث الهجـــرى على مصطلـــح (**القصــود**) ومعنــاه عنــدهم صــدق الإرادات والنيات المقـرونة بالنهـوض إلى الله (2) .
قــال أحمــد بن أبى الحــوارى (3)ـ : **(من قصد فى قصوده** ـــــــــــــــــــــــــ

1- أخرجه البخارى فى كتـاب الحج ، بـاب هـدم الكعبـة برقم (1595) وأخرجـه مسـلم في كتـاب الفتن ، بـاب اقــتراب الفتن بــرقم (2882) وأبــو داود فى كتــاب المهدى برقم (4289) وانظر الرعايـة لحقـوق اللـه ص 127 والقصد والرجوع إلى الله ص 94 .
2- اللمع ص 446 ، 447 وكشف المحجوب ص 472 ، 473 .
3- هو أحمد بن ميمون المكنى بـأبى الحسـن من أهـل دمشق ، قال عنه الجنيد : ريحانـة الشـام ، طلب العلم ثلاثين سنة ثم حمل كتبه إلى البحر فأغرقها ، وكان من الزاهدين الورعين ، مات سـنة 230 هـ انظـر الرسـالة القشيرية حـ 1 ص 105 ، حلية الأوليـاء حـ 1 ص 32 ، صفة الصفوة حـ 4 ص21 ، طبقات الشعرانى ص 96 ، مرآة الجنان حـ 2 ص 153 ، تهـذيب التهـذيب حـ 1 ص 49 .
قلت : من أغــرق كتب العلم فى البحــر فكيــف يكــون ريحانه .

غــير الحــق فقــد عظمت اســتهانته بالحق) (1)

فالإنســان مثــاب فى المقــام الأول على إرادته وما ينشأ عنها من قصود ورغبات ونيات ، أمـا الحركـات والسـكنات الـتي تحـدث فى أعمـال الجـوارح وتنشـأ عنهـا الأفعـال ، فهى عندهم فعل الله وخلقه سواءا كـانت طاعـة أو معصية وهى تابعة لإرادة العبد ونيتـه ، **والنيـة هى الــتى تكســب العمــل النســبة إلى معانى الخير أو الشر .**

وهذا الفهم الصوفى لأوائل الصوفية يوفق بين كون الأفعال مخلوقة للـه من جهـة وكـون العبد مسؤلا عن فعله مكتسبا له مجازى عليـه من جهة أخـرى ، فالأفعـال مخلوقـة للـه وهى على حالـــة محايـــدة لا هى بـــالخير ولا هى بالشر ، فإذا تلبست بها إرادة العبد ظهر معنى لأفعال الحلال والحرام .

ولبيان الفكرة من المنطق الصوفى لأوائـل الصوفية نضرب مثلا بمباشـرة الرجـل للمـرأة فهو فعل واحد ، ولكنه يكون حلالا يـؤجر عليـه المرء كما قـال رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم :

(وفى بضع أحدكم صدقة) (2) .

1- اللمع ص 447 .

2- أخرجه الإمام مسلم فى كتاب الزكـاة ، بـاب فضـل النفقة على الأقـربين والـزوج والأولاد بـرقم (53) وأبـو داود فى كتــاب التطــوع بــرقم (13) وأحمـدحـــ5 ص 167 .

وتارة يكون زنا يعاقب عليه كما قال تعالى :

{ الزانية والزانى فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلـــــدة } (1)

والفاصل بين هاتين الحالتين نية العبد وموافقة الفعل لمنهج الله .

ويشــترط الصــوفية الأوائــل شــرطين لكى يكون العمل مقبولا يحمل معنى الخير وطاعــة الله :

أحــدهما : مطابقــة العمــل للشــريعة وأحكام الدين .

والثانى : توجيه الإرادة وإخلاص القصد لله بحيث يكون مبتغـاه من العمــل مرضاة الله ولا شئ سـوى مرضـاة الله.

ويحبط العمل عنـدهم إذا خلا من أحـد هـذين الشرطين (2) .

ويـذكر الهجـويرى فى كشـف المحجـوب أن أوائل الصوفية يرون اختيار الله لهم هـو الـذى يفصــل فى معــنى الخــير والشــر ، ويجب أن يتفــوق مــراد اللــه على مــرادهم لأنفســهم ، فيرضون بكل مـا اختـاره لهم من خـير أو بعـد عن الشر (3) .

1- النور /2 .

2- القصد والرجوع إلى الله ص 68 .

3- كشف المحجوب ص 470 .

سئل أبو اليزيد البسطامى (1) عن الأمــير فقال : **(هو من لا اختيار له ، ومن كـان اختيار الله اختياره)** (2) .

فالإرادة التى يتم بهـا الفعـل منسـوبة إلى العبـد أصـالة وهى منـاط الثـواب والعقـاب ، ويفـرد الصـوفية فصـولا فى كتبهم عن الريـاء واستجلاب رضا الناس والحكام وإرضاء النفس وغير ذلك ، كبـدائل لابتغـاء مرضـاة اللـه أمـام الاختيار الإنسانى ، وذلك كله يوضـح اعتقـادهم باختيار الانسان بين طاعة الله وبين معصـيته ، أى بين الحلال والحرام وبين الخير والشر .

ويكـــثر الصـــوفية الأوائـــل من الكلام عن مراحـــل النيـــة كالهمـــة والإرادة والعزيمـــة والتفرقـــة بين الريـــاء والمداهنـــة والمجاملـــة والنفاق وخصوصا فى كتاب المحاسبى الرعاية لحقوق الله ، وهذا الكتاب فى جملته دستور

1- هو أبو يزيد طيفور بن عيسى البسطامى ، كان جده مجوسـيا ، أسـلم ومعـه ثلاثـة إخـوه كلهم زهـاد عبـاد ، وكان أجلهم حالا ، وهو من أهل بسطام ، ورد عنه كلام بـديع فى اتبـاع السـنة ، وورد عنـه أيضـا كلام شـنيع كقوله : **ما فى الجبة إلا الله** وغـير ذلـك والشـأن فى صـحته إليـه ، انظـر حليـة الأوليـاء حـ 10 ص 33 مـيزان الاعتـدال حـ 1 ص 481 مـرآة الجنـان حـ 2 ص 173 والبدايـــة والنهايـــة حـ 11 ص 35 طبقـــــات الأوليـــاء لابن ملقـــن ص 397 وإحيـاء علـــوم الـدين لأبى حامــد الغزالى حـ 4 ص 356 ، 357 .

2- كشف المحجوب ص 470 .

عميق يحمل الفهم الـدقيق للخـواطر النفسـية والطريقـة المثلى للإيمـان العميـق والاتصـال الوثيق مع اللـه تعـالى وعنـوان الكتـاب نفسـه دليل على ذلك وكذلك كتاب الوصايا .

وهــذان الكتابــان الى جــانب مــا خلفــه التســترى والمكى وغيرهمــا من تــراث يشــير بصورة واضـحة إلى أهميـة العوامـل والـدوافع النفسية والوجدانيـة فى الحيـاة الصـوفية عنـد الأوائـــل من ناحيـــة وأهميـــة النظـــرة إلى الضروريات والأسباب الواقعـه فى حيـاتهم فى تشـكيل مفهـوم الحريـة الإنسـانية من ناحيـة أخرى .

يقــول الــدكتور كمــال جعفــر : **وخلاصـة الدراسات النفسية والأخلاقية فى هـذا الميــــدان أن فى الإنســــان مبــــدأين يتصارعان :**

[1- مبدأ يدعوا إلى التسفل وقد أمر الإنسان بمخالفته .

[2- مبدأ يدعو إلى الترقى وقد أمر الإنسان بمعاضدتة .

والناجح فى الحياة الروحيـة من أعطى المبدأ الثانى اليد العليا (1) .

ويربط أغلب الأوائـل من مشـايخ الصـوفية ربطــا محكمــا بين تطــبيق الشــرع والالــتزام بكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم

وبين مبــدأ الــترقى ، حين يصــرون على أن النجاح لا يكون إلا بتطبيق شريعة الله عز وجل وعــدم مخالفــة الكتــاب والســنة ، حيث أنــه لايوجد مصدر ______________

1- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 95 ، 96 .

للخير عندهم سوى طاعة الله وتطبيق شريعته .

ومن ثم فالشر والعمل بخلاف مـا أمـر بـه الوحى ولغـير وجـه اللـه عـز وجـل هـو شـرك خفى أو شــرك ظــاهر أو كفــر أو معصــية ، ويغلب الشر على الفعـل بمقـدار غلبـه الكفـر والمعصية على الإيمـان والطاعـة فيـه ، فليس للشر معنى عقلى مستقل فى الوجود بـل هـو ما حرمه الله وكـذلك الخير كل ما أمـر الله به .

ولقـد أحسـن الجنيـد حينمـا لخص ذلـك فى عبارة واحدة فقال :

(الطرق كلها مسددة على الخلق إلا من اقتفى أثر النـبى صـلى اللـه عليـه وسـلم ، فـإن طـرق الخـيرات مفتوحـة عليه) (1) .

ومن ثم يــرفض أوائــل الصــوفية القــول بإيجاب المعارف العقلية وينفون قـدرة العقـل البشـرى وحـده على معرفـة الخـير والشـر ، ومعرفة ما يؤدى إلى كل منهمـا من الأفعـال ،

حيث لا يوجـــد خـــير بالـــذات ولا يوجـــد شـــر بالذات ، بل أوامر الله خير ونواهيه شر ، ومن ثم وجب معرفــة ذلــك من الــوحى وليس من العقل وحده .

فمصدر الشر إذا عند مشايخ الصـوفية هـو اختيار العبد وإرادته من الفعل غير مرضاة الله أو مخالفته لأوامـر اللـه التشـريعية ، وحيث أن الإرادة الإنسانية أصيلة عند العبد وهـو مسـؤل عنها فإن أوائل الصوفية

ـــــــــــــــــــ

1- سبق تخريجه انظر ص 78 .

نزهوا الله بذلك عن فعل الشر أو إرادته له إرادة شرعية من حيث أنه نهى عنــه وإن كـان الفعل مخلوقا له .

ومما تقدم فى المبحث الأول نجد أن أوائل الصـــوفية قـــرروا أن الفعـــل من حيث كونـــه مخلوقا لله عز وجل هو فعل محايد ليس شـرا ولا خيرا وإنما الذى يصبغ عليه الصبغة الخلقية هو كسب العبد له حسب اختيار ونية معينة .

فإن كان الكسب للفعل ابتغاء مرضـاة اللـه وهو واقع حسـب شـرعه ومنهجـه فإنـه يصـبح طاعة وخيرا ، فالذى جعله خيرا هـو نيـة العبـد وكسبه وإن كان الكسب لفعـل ابتغـاء الـدنيا وحسب الهوى ورغبة للنفس وفجورها مخالفـا لحكم الله وأوامره التشريعية كان شرا .

وهنا يظهر التوافـق بين اعتقـاد أهـل السـنة والجمـــاعة ومشـايخ الصـوفية الأوائـــل فى إبرازهم لحقيقة القـرآن كمـا هى دون مخالفـة فى هذا الباب ففى قــوله تعالـى :

{ من كان يريد العاجلة عجلنـا لـه فيهـا مـا نشـاء لمن نريـد ثم جعلنـا لـه جهنم يصلاها مذموما مدحورا ومن أراد الآخرة وسعى لهـا سـعيها وهـو مـؤمن فأولئك كـان سـعيهم مشـكورا كلا نمـد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربـك ومـا كـان عطاء ربك محظورا } (1) .

1- الإسراء / 18 : 20 .

فالاعتقـاد الـذى حملتـه هـذه الآيـات يشـهد بسلامة الاعتقاد الصوفى للأوائل إذ أنها دلـــت علـى عدة أمور :

1- إثبات الإرادة الإنسانية حرة وأصـيلة فى العبد يختار بها أحد الطـريقين المعروضـين أمامه ، طريق ممثـل فى العاجلـة أو الـدنيا وآخر ممثل فى الآخرة .

2- أن الله يخلق الفعل فى العبد بنـاءا على اختياره وإرادته حيث نسـب تحقيـق المـراد للإنسان أو عدم تحقيقه إلى نفسه وحسب مشيئته فى الابتلاء فقال تعالى : **{ عجلنـا له فيهـا مـا نشـاء لمن نريـد }** فليس

كل ما يريده الإنسان ويتمناه يحققه الله بعد تمنيه مباشرة ، كالمثل الذى ضربه المحاسبى وذكر فيه إرادة القاتل القتل وموته قبل ذلك فحوسب على نيته .
3- أن الله سبحانه وتعالى يمد الكافر والمؤمن بالفعل على السواء فيعطى الكافر القدرة على أفعال الكفروالإيمان ويعطى المؤمن القدرة على أفعال الإيمان والكفر تحقيقا للابتلاء .
* الصوفية وإسقاط الإرادة :
أخطأ بعض السالكين من أوائل الصوفية وظنوا أن الطريقة الكاملة للتصوف ألا يكون للعبد إرادة أصلا وليس هذا ما عناه مشايخ الصوفية لما نادوا بالتجرد عن الإرادة كقول أبى يزيد البسطامى :

(أريد ألا أريد ، لما قيل له : ماذا تريد ؟) (1) .
ويعلق ابن تيمية على العبارة السابقة بقوله :
(والواقع أن عبارة أبى يزيد البسطامى تبين أنه قد أراد) (2) .
ويقول : **(بعض الصوفية حملوا كلام المشايخ الذين يمتدحون بترك الإرادة**

على تــرك الإرادة والاختيــار مطلقــا ، وهـــــذا غلـــــط منهم على الشـــــيوخ المســــــتقيمين إذ أنهم لا يســــــوغون للسالك ولو طـار فى الهـواء أو مشـى على المـاء أن يخـرج عن الأمـر والنهى الشرعيين) (3) .

وتتضـح هـذه الفكـرة إذا علمنـا أن أوائـل الصــوفية يحــاولون فى منهجهم الســعى إلى مرضـاة اللـه ومن ثم فإنــه من المفـترض أن يختاروا لأنفسهم مـا اختـاره اللـه لهم ودعـاهم إليه فينبـذوا الـدنيا ويفضـلوا الآخـرة كمـا قـال تعالى : **{ والآخرة خير وأبقى }** (4) .

ولشدة الالتزام المتوقـع بهـذا الطريـق بـدا عليهم وكأنهم مسلوبى الإرادة متجـردين عنهـا تمامـا يحـركهم اللـه كيـف شـاء شـرعا وكونـا ولذلك يقول القشيرى :

1- التنوير فى إسقاط التدبير ص 110 .
2- كتاب السلوك لابن تيمية ص 494 .
3- السابق ص 516 .
4- الأعلى / 17 .

(المريد فى عرف هـذه الطائفـة من لا إرادة له فمن لم يتجرد عن إرادتــه لا يكون مريدا) (1) .

وإن دل ذلــك على شــئ فإنمــا يــدل على مدى إثبات الصوفية لأصـالة الإرادة فى الـذات الإنســانية يقــول الواســطى : **(أول مقــام المريــد : إرادة الحــق ســبحانه وتعـالى بإسقاط الإرادة)** (2) .

فالـذين نظـروا إلى أن المشـايخ فرغـوا من الإرادة مطلقا ولم يبق لهم مراد إلا مـا يقــدره الرب ، وأن هذا المقــام هـو أكمـل المقامـات الــتى أدت بالأوائـــل إلى منزلتهـــم الرفيعــة جانبـوا الصـواب تماما ، لأنهم لا يعنون التحلــل من أوامر الشرع بإسـقاط الإرادة أو الاحتجـاج بالقدر ، وإنما أرادوا كمال الانضباط .

وخير دليل على ذلك مــن كلامهــم مـا ذكره أبو بكر الدقاق حيث قال **: (لا يكون المريد مريـــدا حـــتى لا يكتب عليـــه صـــاحب الشمال عشرين سنة)** (3) .

ويقصد بذلك استقامة المريد العابــد بإرادتــه واختيـاره على الطريـق الـذى اختـاره اللـه لـه والمتمثل فى الالتزام بأحكـام العبوديـة وكـثرة التطوع

ـــــــــــــــــــــــــــــ

1- الرسالة ص 433 .

2- السابق ص 473 .

3- الرسالة حـ 2 ص 434 .

والتنفــل إلى أن يبلــغ درجــة لا يجــد الملــك الموكل بكتابة السيئات شيئا يكتبـه عليـه مـدة

عشرين عاما على تقـدير الـدقاق ، وعلى هـذا أيضا يحمل قول أبى يزيد السابق : **(أريد ألا أريــد)** أى أريــد الالــتزام بــالأمر والنهى فى طريق التكليف ولا أريد غير ذلك .

فملازمتـه لطريـق اللـه إنمـا يكـون بقـوة الإرادة وأصالة الاختيـار فيـه وصــدق البـاعث من الإخـلاص فى القصد بالهمة والعزيمة .

ويفرد السراج الطوسى بابا فى كتابه اللمع يرد به على من غلط فى عين الجمع وظـن أن المقام هو مقام القول بـالجبر حـتى يصـل إلى شهود أفعال الربـوبيـة فقـال :

(وجماعة غلطوا فى عين الجميع فلم يضيفوا إلى الخلق مـا أضـاف اللـه تعــالى إليهم ولم يضــيفوا أنفســهم بالحركـة فيمـا تحركـوا فيـه وظنـوا أن ذلك منهم احترازا حتى لا يكون مع الله شئ سوى الله) (1) .

فبين أن ذلك أداهم إلى الخـروج من الملـة وتـرك حـدود الشـريعة لقـولهم أنهم مجـبرون على حركــاتهم حــتى اســقطوا اللائمــة عن أنفسهم عند مجاوزة الحدود ومخالفة الإتبـاع (2) .

ويذكر السراج أن من هؤلاء من أخرجه ذلك إلى الجسارة على

1- اللمع ص 549 .

2- السابق ص 549 .
التعدى والبطالة وطمعته نفسه على أنه فيما هو عليه مجبور (1) .
وقد يظن بعض الصوفية أن الوقوف مع إرادة الأمر والنهى يكون فى السلوك والبداية ، أما النهاية فلا تبقى إلا إرادة القدر وهذا ضلال بين وخروج عن الطاعة والعبادة مما يؤدى بهم إلى أن يكونوا من أعوان الفجار والكفار حيث شهدوا القدر معهم ولم يشهدوا الأمر والنهى الشرعيين (2) .
وهؤلاء بعض الملاتية الذين يفعلون المعاصى والمنكرات ويقولون لا ملامة .
وقد نقل الهجويرى كثيرا من أفعالهم وبين خطأهم فى ذلك (3) إلا أن الأصل فى إسقاط الإرادة عند المستقيمين من المشايخ يختلف عن المنحرفين فى فهمها وقد سئل سهل بن عبد الله عن رجل يقول : **أنا مثل الباب لا أتحرك إلا أن يحركونى ؟**
فقال سهل : **(هذا لا يقوله إلا أحد رجلين : إما رجل صديق وإما رجل زنديق)** (4) .

1- السابق ص 549 .
2- كتاب السلوك ص 499 .

3- كشف المحجوب 260 : 265 وانظر الفتوحات لابن عربى حـ 3 ص 46 .
4- اللمع ص 549 .

فالأول عنده صديق لأنه اختار اختيار اللـه لـه فلا يتزحرج عنه ويرجـع فى كـل شـئ إلى اللــه ، والــتزم الأمــر على مــا ينبغى من المتابعة وحسن الطاعات والقيـام بشـرط الأدب وســـــلوك المنهج على حـــــد الاستقامة .

والثانى عنـده زنـديق لأنـه احتج بالقـدر على المعصـية واسـقط اختيـاره مطلقـا تحت ستار القدر فـأزال اللائمـة عن نفسـه فى ركوب المـآثم بغوايـة الشـيطان وتسـويله وتأويله الباطل (1) .

ومن جملة ما تقدم فى هذا المبحث نخلص إلى القول بأن أوائـل الصـوفية يقــررون فى إرادة الإنســان الأمــور الآتية :

أولا : وجــود الإرادة الحــرة كمصــدر أصــيل لأفعال الإنسان ، وأنها ذاتية منه بمعنى أنها مصــــدر أول وأصــــيل لكــــل الحركـــات والسـكنات فى أعمـال القلـوب والجـوارح ومصدر للنيات والرغبات والقصـود وجميـع الاختيارات الإنسانية .

ثانيا : أن هـذه الإرادة إرادة مختـارة وليسـت مجبرة أو مسـيرة فالأسـلوب العـام الـذى سلكه أوائل الصوفية يثبت الاختيار ويؤكـده ، فهم يطرحـــون أمـــام الإرادة الإنســـانية طريقين يختار العبد بينهمـا ، طريـق يـؤدى إلى الدنيا بصـفة عامـة وطريـق يـؤدى إلى الآخرة ، ودور هذه

1- السابق ص 550 بتصرف .

الإرادة يكـــاد ينحصـــر فى الاختيـــار بين الأفعال التى يحصل بهـا الصـوفى الـدنيا أو الأفعال التى يفوز بها بالآخرة .

ثالثـا : وجـود الضـدين اللازمين والضـروريين لصـــحته عقلا حيث أثبتـــوا وجـــود شـــيئين مطـــروحين فى آن واحـــد إذا مـــال إلى أحدهما حتما سيفارق الآخـر ، فهمـا فعلان أو سلوكان يدل اختيار العبـد لأحـدهما دون الآخر على رغبـة فيـه تجاهـه وإرادة وإيثـار وحب .

رابعـــا : أن الإرادة الإنســـانية اختيارهـــا ليس اختيارا مطلقـا فلا يسـتطيع أن يختـار على التفـويض بين جميـع الأشـياء فى آن واحـد وإنمـا الاختيـار محـدود بطريقـتين لحظـة حدوثـه ، وهـذا مـا اسـتدل لـه المحاسـبى

بقوله تعالى (1) : **{ ما جعل الله لرجل من قلبين فى جوفه }** (2) .

خامسـا : أن منهج أغلب الأوائـل فى التجـرد عن الإرادة إنما هـو مقصـد شـرعى يـؤدى إلى التمسـك بكتـاب اللـه وسـنة رسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم ، ويثبت أصـالة الإرادة فى الإنســـان مـــع إعلان أغلبهم الـبراءة ممن اسـتغل اسـقاط الإرادة فى التحلل من الشـرع والاحتجـاج بالقـدر على الجبر وفعل المعاصى .

1- انظر القصد والرجوع إلى الله ص 95 .
2- الأحزاب / 4 .

سادسا : اتفاق المبـادئ بين أوائـل الصـوفية وأهل السنة فى كون الدليل الشـرعى هـو الحجة فى هذا الباب ، وهذا بين واضح من خلال مــا تقــدم ومــا ذكـــره ابن تيميـــة وأبوعثمان الصابونى وغيرهما (1) .

1- انظر عقيدة أصحاب الحديث لأبى عثمان الصـابونى ص 78 ، ومـا بعـدها ضـمن مجموعـة بعنـوان عقيـدة الفرقة الناجية ، إعـداد عبـد اللـه حجـاج القـاهرة سـنة 1400 هـ وانظر الصفدية لشيخ الإسلام ابن تيمية حـ 1 ص 55 وما بعدها ، والاستقامة لابن تيمية حـ 1 ص 86 : 102 .

*** المبحث الثالث ***

دوافع الإرادة وبواعثها عند الصوفية

وصـلنا ممـا سـبق إلى أن أوائـل الصـوفية اتفقـوا على إثبـات الإرادة الإنسـانية حـرة وأصـيلة فى ذات الإنسـان ، ومن الأمـور الـتى ينبغى ذكرهـا إظهـارا لمفهـوم الحريـة من الناحية الاعتقادية عند أوائل الصوفية ، تأصـيل الدوافع التى تسبق الإرادة وأثرها عليهـا ، تلـك الدوافع الـتى أجـاد الصـوفية فى إبرازهـا تحت تفصيلهم للخواطر وتحليلها .

فمن مقومات الحرية عنـدهم وجـود الإرادة الحرة بين نماذج مزدوجـة من الخـواطر ، إمـا أنها تهيئ الإنسان إلى فعل الخير أو المفاضـلة بين أنواعـه وإمـا تحضـه على فعـل الشـر أو المفاضلة بين أنواعه .

وقد أفرد أبو طـالب المكى فصـلا مسـتقلا لتفصيل هذه الخواطر فى كتابه قـوت القلـوب

واستدل لها بقوله تعالى : **{ ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها }** (1) .

يقول المكى مبينا المعنى : (**أى ألقى فيها وقذف فيها**) (2) .

وهذه الخواطر مبنية عند أوائل الصوفية على ركنين اثنين هما :

[1] - وجود نازعين نفسيين متقابلين ومتضادين :

1- الشمس / 7، 8 .

2- قوت القلوب حـ 1 ص 113 ، وانظر الرسالة حـ 1 ص 393 .

أحدهما : يسمونه بالروح وهى عندهم نازع الخير ومكنه ومستقره وبأثرها تظهر التقوى وتظهر فطرته المؤمنة الموحدة .

والثانى : النفس وهى مكمن الشهوات ومستقرها ونازع الشر فى الذات الإنسانية وبأثرها يظهر الفجور (1) .

ولقد سبق القول بأن اهتمام أوائل الصوفية بجانب النفس أعظم من عنايتهم بجانب الروح والتقوى ، وذلك بهدف البعد عن الغرور وإنكار الذات والرجوع بالفضل إلى الله تعالى ، غير أنهم ركزوا على الخواطر ومتابعتها ومعرفة بواعثها ومنابعها ، ليتمكنوا

من الثبات على الطريق فنازعا الخير والشـر حظيا باهتمام بالغ لديهم .

والصـوفية الأوائـل يعتبــرون صـفاء الـروح ومخالفة النفس هما رأس التصوف والعبـادة (2) .

فالصوفى عندهم هـو الـذى تحـررت روحـه من كــدورة البشــرية ، وصــفت من الآفــات النفسية ، وخلصـت من الهوى .

يقـــــول أبــــو الحســـين الـنـــــورى : **(التصــوف تــرك كــل حـــظ للنفس والصـوفية هم الـذين صـفت أرواحهم فصـــــــاروا فى الصـــــــف الأول بين**

1- انظر التصوف طريقا وتجربة ومذهبا د. كمال جعفـر ص 98 بتصرف .

2- انظر التصـوف فى الإسـلام د. عبـد اللطيـف محمـد العبد ص 75 .

يدى الحق) (1) .

ويقرر سهل بن عبد الله أن مصـدر التقـوى والخير فى الإنسـان هـو روحـه ومصـدر الشـر والهوى نفسه وكل منهمـا ينقسـم إلى مـراتب ودرجات خاصة ، وهو لا يعـنى بتقسـيم النفس أو الـروح تجزئتهمـا ، بـل يعـنى فقـط وجـود درجــات فى نطــاق الوحــدة لكــل منهمــا ،

فـالنفس واحـدة ولكن لهـا درجـات والـروح واحدة ولكن لها درجات (2) .

وهـذان النازعـان عنـد أوائـل الصـوفية من دوافـع الإرادة المـؤثر فى سـلوكها ويشـكلان ملتقى الخـواطر الـتى تجـول فى داخـل الإنسـان ، يقـول المحاسـبى : **(فـاعرف نفسك فإنك لم تـرد خـيرا قـط ، مهمـا قـل إلا وهى تنازعـك إلى خلافـة ولا عـرض لـك شـر قـط إلا كـانت هى الداعية إليـه ، ولا ضـيعت خـيرا قـط إلا لهواها ، ولا ركبت مكروها قط إلا لمحبتهـا ، فحـق عليـك حـذرها لأنهـا لا تفتر عن**

1- كشف المحجـوب ص 232 ، وانظـر الرسـالة حـ 1 ص 393 والنـورى هـو أحمـد بن محمـد أبـو الحسـين النورى بغدادى المنشأ والمولد خرسـانى الأصـل تـوفى سنة 295هـ انظر فى ترجمته ، تاريخ بغـداد حـ 5 ص 93 ، البدايـة والنهايـة حـ 11 ص 106 المنتظـم حـ 6 ص 77 ، صـفة الصـفوة حـ 2 ص 294 ، طبقـات الشعرانى حـ 1 ص26 ، حلية الأولياء حـ 10 ص 294 .

2- من التراث الصـوفى لسـهل بن عبـد اللـه التسـترى د.كمال جعفر ص 236 .

الراحة إلى الدنيا والغفلة عن الآخـرة) (1) .

[2] - الركن الثـانى الـذى يسـهم فى تشكيل الخواطر عند الصـوفية هـو إيمـانهم بوجـود هـاتفين يهتفـان للإنسان بفعل الخير أو فعـل الشـر لحظة الاختيار :

1- هــاتف يهيب بـــه أن يفعـــل الخـــير ويزينه له ويسمى عندهم بالملك .

2- هاتف يزين للإنسان أن يفعل الشــر ويحضه عليه ويسمى عندهم بالعدو أو الشيطان .

والـــروح والنفس فى ذات الإنســـان همـــا النازعـان المقـابلان لهـذين الهـاتفين من حيث اتفاق الروح مع الملـك فى الـدعوة إلى الخـير واتفـــاق النفس مـــع العـــدو فى الـــدعوة إلى الشر .

يقول المكى فى وصف النـازعين والهـاتفين فى القلب : **(فمن الســـواء والتعـــديل والازدواج والتقـــويم ، أدوات الظـــاهر وأعراض البـاطن وهى حـواس الجسـم والقلب ، فأدوات الجسم هى الصــفات الظاهرة وأعـراض القلب هى المعـانى الباطنـــة ، قـــد عـــدلها اللـــه بحكمتـــه وسواها**

1- الرعاية لحقوق اللـه ص 261 وانظـــر الصـدق لأبى سعيد الخراز فى توافقه مع المحاسبى ص 25 ، 26 .

على مشـيئته وقومهـا اتقانـا بصـنعته ، أولهــا النفس والــروح وهمــا مكانــان للقـاء العـدو والملـك وهمـا شخصـان ملقيان للفجور والتقوى) (1) .

ويســتند المكى إلى الــدليل الشــرعى فى إثبات الهاتفين فيستدل بقوله صلى اللـه عليـه وسلم :

(ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينـه من الملائكـة ، قـالوا : وإيـاك يارسـول اللـه ؟ قـال : وإيـاى لكن اللـه أعـاننى عليـه فأسـلم فلا يأمرنى إلا بخير) (2) .

وبقوله : **(إن للشيطان لمة بــابن آدم وللملك لمة ، فأما لمة الشيطان فإيعاذ بالشر وتكذيب بالحق ، وأما لمة الملــك فإيعــاذ بــالخير وتصــديق بــالحق فمن وجـد ذلـك فليعلم أنـه من اللـه تعـالى فليحمـــد اللـــه ، ومن وجـــد الأخـــرى فليتعوذ بالله من الشيطان)** (3) .

1- قوت القلوب حـ 1 ص 114 ، وانظر كتـاب الصـدق ص 27 .

2- السابق حـ 1 ص 114 ، والحديث أخرجه مسلم فى كتاب صفات المنافقين باب تحـريش الشـيطان وبعثـه سـراياه لفتنـــة النـاس بـرقم (2814) وأحمـــد فى

المسند حـ 1 ص 385 ، والــدارمى فى سـننه حـ 2 ص 306 ، والبخارى فى التاريخ الكبير حـ 4 ص 239 .
3- السـابق حـ 1 ص 114 والحـديث أخرجـه الترمـذى فى كتـاب التفسـير حــ3 ص104 والهيثمى فى مجمـع الزوائـد حـ 8 ص 225 وأخرجـه الطـبرانى فــى الكبـير برقم (7223) .

وهذان الهاتفـان كمـا دل الحـديث ليس لهمـا جــبر أو ضــغط على الإرادة فى الإنســان فلا يلزمانها بفعل معين دون آخـر ، وإنمـا دورهمـا فقــط يكمن فى الإيعــاذ والوسوســة والــدعوة إلى فعل معين دون آخر .

أما الإرادة فهى التى تمضى الفعل وتحرك الجسد ، يقول المكى :

وروينـا عن الحسـن رحمـه اللـه أنـه قـال : **(إنما همـا همـان يجـولان فى القلب ، هم من اللــه تعــالى وهم من عــدوه ، فرحم اللـه عبـدا وقـف عنـد همـه فمـا كـان للـه أمضـاه ومـا كـان من عـدوه يجاهده)** (1) .

فالدور الذى يثبته أوائل الصوفية للشـيطان هــو الوسوســة فقــط ، ومن ثم نــرى عنــدهم تفسيرا مقبولا لعبودية الإنسـان للشـيطان من خلال اتباعه لما يطرحه من أفكار ، وبهذا أيضا يظهر سلطان الشيطان عليه .

وقلما يخلو تراث أوائل الصوفية بوجه عــام من وصف الحـذر من العـدو والطريقـة المثلى

فى مقاومته ، وقد أجاد المحاسبى فى عرضـه مجموعة من الأبواب لتحليل الحـذر من العــدو (2) يظهـــر من خلاصـــتها أن هـــذه الأفكـــار والوساوس الـتى يطرحهـا الشـيطان إنمـا هى ابتلاء للعبد يجب عليه أن يردها ما استطاع وأفضل طريق لذلك هو الاشتغال بذكر الله .

1- السابق حـ 1 ص 115.
2- انظر الرعاية لحقوق الله ص 150 وما بعدها .

يقول المحاسبى فى وصـف أفضـل طريـق يمكن الإنسـان من القضـاء على نـوازع العـدو وخطراتـه : **(فهم فى الاشـتغال بـربهم دائبـون ، وبالحـذر إذا عـرض الخـاطر مـتيقظون ، وبقـوة الاشـتغال باللـه يسـهل عليهـم فحص الخواطـــر إذا عرضـــت بفتنـة ، فسلمـــوا أو غنمـــوا واتبعـوا واستقاموا)** (1) .

* التفاعل بين النازعين والهاتفين وعلاقة ذلك بالإرادة :

ويـرى البـاحث فى تـراث أوائـل الصـوفية مـــدى التفـــاوت والتفـــاعل بين النـــوازع والخواطر وعلاقتها بالإرادة :

فتـارة تختلـف اللمتـان من الملـك والعـدو ويتفاوت الإلهام والوسوسـة فى طـرح معـانى الخير والشر ، فلربما تقدمت لمة العدو بـالأمر بالشر وتقـدح بعـدها لمـة الملـك نصـرة للعبـد

وتثبيتا على الخير وعناية من الرب تعالى فينتهى عن ذلك **وعلاقة ذلك بالإرادة أنه يجب على العبد أن يعصى الخاطر الأول ويطيع الخاطر الثانى .**

ولربما تقدم إلهام الملك بالأمر بالخير ثم يقدح بعده خاطر العدو بالنهى عنه والتثبيط فيه بالتأخير ، محنة من الله تعالى للعبد لينظر كيف يعمل وحسدا من العدو ، فعليه أن يطيع الخاطر الأول ويعصى الخاطر الثانى .

1- السابق ص 163 .

ثم تدق الخواطر من إلهام الملك بالخير ومن وسوسة العدو بالشر وقد يتفاوت ذلك من ضعف خاطر الخير لقوة الرغبة فى الدنيا ، ومن قوة خاطر الشر لقوة الشهوة والهوى ، وفى المزيد والنقص منهما والتقديم والتأخير بهما لتفاوت الأحكام والإرادة من الحاكم (1) .

ويتساءل المحاسبى **عما إذا كان الشيطان يعلم ما تحدث به النفس فيعارضها بالصد عن الخير ؟**

ويقرر أن الشيطان طالت مقارنته للإنسان وتفقده لأحواله ، حتى لم يخف عليه حاله فعرف مطالبه ومذاهبه فعند كل خير صده عنه ، هذا من غير علم منه بما يحدث غير أنه

علم أن خيرا قد أحدثـه العبـد وكـذلك يعلم أن شرا قد أحدثه لا يعلم أى خير ولا أى شر (2) .

ويرى المكى أن خلـق الإنسـان بازدواجيـة فى الخــواطر ووجــود الإرادة الحــرة بينهمــا وتركيبه بهذا الوضع أية من آيـات اللـه الكونيـة تـدل على حكمتـه سـبحانه وتعـالى فى تعـديل الإنسان بما يحقق الغاية من خلقه وابتلائه فى الـدنيا ، ويسـتدل المكى لـذلك بقولـه تعـالى : **{ يأيها الإنسان ما غـرك بربـك الكـريم الـذى خلقـك فسـواك فعــدلك فى أى صــورة ما**

1- انظر تفصيل ذلك فى قوت القلوب حـ 1 ص 122 : 125 .

2- انظـر تفصـيل ذلـك فى أعمـال القلـوب والجـوارح للحارث المحاسبى ص 80 : 83

شاء ركبك } (1) .

وبقــوله : **{ لقـد خلقنـا الإنسـان فى أحسن تقويم }** (2) .

فكانت صورة التعديل والتقـويم عنـد المكى أن جعـل اللــه زوجين من الخــواطر كبـواعث للإرادة الإنسانية فى حثهـا على تحريـك البـدن إلى الطاعة أو المعصية .

ونجـد لسـهل بن عبـد اللـه التسـترى تحليلا للعلاقة بين الإرادة وبواعثها فى إظهار التوفيق الربانى للعبد المؤمن أو الإضلال الذى لا ينافى عدله سبحانه وتعالى ، فيقرر أنه إذا كانت هذه الخــواطر عن أواســط الهدايــة وهى الملــك والروح ، كانت تقوى وهدى ورشدا وكـانت من خزائن الخير ومفتاح الرحمـة قـدحت فى قلب العبد نورا أدركـه الحفظـة ، وهم أملاك اليمين فأثبتوها حسنات .
وإن كـانت الخـواطر عن أواسـط الغـواة وهم العدو والنفس كانت فجـورا وضـلالا ، وهى من خــزائن الشــر ومعــالق الأعــراض قــدحت فى القلب ظلمــة ونتنــا أدرك ذلــك الحفظــة من أملاك الشمال فكتبوها سيآت .
وكل هـذا إلقـاء من خـالق النفس ومسـويها وجبار القلوب ومقلبها حكمـة منـه وعـدلا لمن شــاء ، ومنــة وفضــلا لمن أحب كمــا قــال : **{ وتمت**

1- الانفطار / 6 : 8 .
2- التين / 4 .

كلمــة ربــك صــدقا وعــدلا } (1) أى بالهدايـة صـدقا لأوليائـه مـا وعـدهم من ثوابـه وبالإضـلال عدلا علـى أعدائـه مـا أعـد لهم من عقابه (2) .

ويـبين سـهل بن عبـد اللـه أن اللـه إذا أراد إظهـار شـئ من خـزائن الغيب حـرك النفس بلطيــف القــدرة فتحــركت بإذنــه فقــدح من جوهرها بحركتها ظلمــة تنكت فى القلب همــة سـوء ، فينظـر العـدو إلى القلب وهـو مراصـد ينتظر والقلـوب لـه مبسـوطة والنفـوس لديـه منشـورة يـرى مـا فيهـا ومـا كـان من عملـه المتبلى بــه المصــرف فيــه ، فــإذا رأى همــة قـدحت فى النفس فأحـدثت ظلمـة فى القلب ظهر مكانه فقوى بذلك سلطانه (3) .

والهمة عنـد التسـترى تـرد على واحـــد من ثلاثة معــان لا تحصـى فروعهـا لأن هــم العبـد على قـدر بغيته :

1- هوى وهو عاجل حظ النفس .

2- أمنية وهذا عن الجهل الغريزى .

3- دعـوى حركـه أو سـكون وهـو آفـة العقل ومحبة القلب .

فــأى هــذه الثلاثــة قــدح فى القلب فهــو وسوسـة نفس وحضـور عـدو تـرد بأحـد ثلاثــة أصـول بجهـل أو غفلـه أو طلـب فضــول دنيــا ، والأفضـل

1- الأنعام / 115 .

2- من التراث الصوفى ص 172 ، وقوت القلـوب حـ 1 ص 123 .

3- من التراث الصوفى ص 175 .

عنـده مجـاهــدة النفس والعــدو عن إمضـائها وحبس الجـوارح عن السعى فيها ، فـإن أمـرح قلبه فى ذكرها أو نشـر خطــواته فى طلبهـا ، كن حجابـــا بين قلبـــه وبين اليقين ، وإن كن وردن بمباحات فالأفضل له أن ينفيها عـن قلبه كيلا يكـــون قلبـه موطنـا للغفلات ، كـل ذلـك يندرج عند سهل بن عبد اللـه تحت أصـل كبـير هو الابتلاء من الله تعـالى بـالتقليب والامتحـان منه فى التصريف .

ويفسر لنا هذا الصوفىكيف يريد الله تعـالى سـلامة هـذا العبـد الـذى أشـرف على الهلاك والبعد بتسليط العدو عليه وتسـويل النفس لـه فيقول :

(فيطهِّر القلب عند الابتلاء ويهـدى النفس بنــور إيمانــه إلى اللــه تعــالى ويسر الالتجاء إليه ويخفى التوكل عليه عائــدا لائــذا مخلصــا لــه ، فهنــاك توكل عليه فكان حسبه وعنـدها فـوض الأمـر إليـه فوقـاه اللـه مكـر عـدوه وجعل لـه مخرجـا ونجـاة ، فينظـر اللـه تعـــالى إلى القلب نظـــرة تخمـــد النفس وتمحـــق الهمـــة وتخنس العـــدو لسقوط مكانــه ، وتـذهب لخنوسـه شـدة سـلطانه ، فيصـفوا القلب بقـوة القهـار العزيـز الجبـار ، فيخـاف العبـد

مقام الرب ويفزع من الخطيئة ويهرب منها ويستغفر الله ويتوب) (1) .

وفى المقابـل يـبين سـهل بن عبـد اللـه فى تحليـــــل عميـــــق أن اللـــــه تعـــالى إذا

1- من الــتراث الصــوفى ص 174 ملخصــا ، وقــوت القلوب حـ 1 ص 124 .

أراد إظهــار خــير وإلهــام تقــوى من خــزائن الملكـوت حـرك الـروح وهى نـازع الخـير فيـه بخفى اللطـف فتحـركت بـأمره جلت قدرتـه ، فقدح من جوهرها نور سـطع فى القلب فـأنتج همة عالية .

وكمــا قســم الهمــة فى الشــر إلى ثلاثــة أقسام قسم همـة الخـير فى المقــابل كــذلك لأن همة كـل عبـد فى الخـير عنـده والـتى هى مبلغ علمه ومنتهى مقامه ثلاثة أنـواع :

1- مسارعة إلى أمر بفرض أو ندب لفضل يكون عن عمـل فى حـال العبد .

2- علم يكون فطنة له ظهر عليه من مكاشــفة غيب من ملــك أو ملكوت .

3- تحمل مباح من تصرف يعود صـلاحه عليـه واسـتراحة النفس بما أبيح له يكون نفعـه لغـيره أو

ما يباح من ترويحات من الأفكار لقلبه الغـائص فى البحـار يكـون تخفيفا لكربه .

فهـذه مرافـق للعبـد باختيـار من المعبـود وحكمة من الحكيم ، وفى كلها رضـاه سـبحانه وتعالى ، ويـرى التسـترى أن إمضـاءها أفضـل للعبد وبعضها أفضل من بعض (1) .

ثم يقــول التســترى : **(وهــذه الأصــول الســـــتة من الخـــــير والشـــــر هى**

1- السابق ص 176 .

الفرق بين لمة الملك وبين لمة العدو ، وبين إلهــام التقــوى وإلهــام الفجــور الـــتى هى النيـــة والوسوســـة وهمـــا الاختيــار و الاختبــار ، ويتفــاوت العبــاد فى مشاهدتها على حسب علــوهم فى اليقين) (1) .

وعلى الوتيرة نفسها قسم أبو طالب المكى بواعث الإرادة من الخواطر إلى ستة أقسام :

1- خاطر النفس وخاطر العدو وهــذان لا يعـدمهما عمـوم المؤمـنين وهمـا مـذمومان محكـوم لهمـا بالسـوء ولا يـردان الا بـالهوى وضد العلم

2- خـاطر الـروح وخـاطر الملك وهـذان لايعدمهما خصوص المؤمنين وهما محمودان لايردان إلا بحق وبمادل عليه العلم .

3- خــاطر العقل وهــو متوســط بين هــذه الأربعة :

ا ــ يصـلح للمـذمومين فيكـون حجـة على العبــد لمــا كــان من تميــيز العقــل وتقســيم المعقول ، لأن العبـد يـدخل فى هـواه بشـهوة جعلت لــه ، واختيــار لايعســر عليــه من حيث لايعقل و إجبار .

ب ـــ ويصــلح أيضــا للمحمــودين فيكــون شـاهدا للملـك ومؤيـدا لخـاطر الـروح ويثـات العبد على حسن النية وصدق المقصد .

ويبن المكى أن خاطر العقـل إنمـا كـان مـع النفس تارة ومع الملك تارة أخـرى حكمـه من الله تعالة لصنعه وإتقانـا لصـنعه ليـدخل العبـد فى الخير

ـــــــــــــــــــــــــــــ

1- السابق ص 176 .

والشر بوجود معقول وصحة شهود وتميـيز، فيكون عاقبة ذلك من الجـزاء والعقـاب عائـدا له وعليه ، فالله سبحانه وتعالى جعل الإنسـان مكانا لجريان أحكامه ومحلا لنفـاذ مشـيئته فى مبانى حكمته .

4- خاطر اليقين وهو روح الإيمـان والعمـل الـــذى يحـــرك الإرادة على الطاعـــة

والاستجابة كمحصلة للخواطر الإيمانية المتقدمة (1) .

لقد بلغ تفصيل الخواطر التى تسبق الإرادة عند أوائل الصوفية حدا يوحى بمدى الفهم الدقيق للقدر وعلاقته بحرية العبد واختياره ، ذلك لأنهم حللوا بواعث الإرادة بدرجة توجب الحذر من كل صغير أو كبير تعن فى القلب من هداية وتوفيق أو إضلال وخذلان يُبتلى من خلالها الإنسان ، يقول المكى :

وهذ كله كشف لعلم الله تعالى وإنفاذ لمشيئته وهو الابتلاء بالأسباب فالعدو يصير سببا لقوله تعالى : **{ ولقد صدق عليهم إبليس ظنه فاتبعوه إلا فريقا من المؤمنين }** (2) .
ثم أحكم ذلك بسابق علمه فقال : **{ وماكان له عليهم من سلطان }** يعنى بحوله وقوته ومشيئته **{ إلا لنعلم من يؤمن بالآخرة ممن هو**

____

1- انظر قوت القلوب ملخصا حـ1 ص 114 ، 115 .
2- سبأ / 20 .

منها فى شك } (1) أى لنرى .
وقيل : لنعلم العلم الذى يجازى عليه بالصواب والعقاب .
وقيل : لنخبر ونكشف (2) .

* كيفية التعرف على مصدر الخواطر :
ويعرض المكي أيضا فى تفصيل رائع كيف يمكن للإنسان أن يفرق بين أنواع الخواطر ومصادرها والسلوك الأمثل حيالها من قبل الإرادة ويحصر ذلك فى التقسيم فيما يلى :
[1] - ما كان من لائح يلوح فى القلب من معصية ثم يتقلب فلا يثبت فهذا نزغ من قبل العدو .
[2] - ما كان فى القلب من هوى ثابت أو حال مزعج دائم لابث فهو من قبل النفس الأمارة بطبعها أو مطالبة منها بسوء عادتها .
[3] - ما ورد على العبد من همه بخطيئة ووجد العبد فيها كراهيتها فالخاطر مركب :
ا ــ الورود من قبل العدو .
ب ــ والكراهية من قبل الروح والإيمان .
[4] - ما وجد من هوى أو معصية ثم ورد عليه المنع من ذلك فالخاطر مركب أيضا :
ا ــ الهوى من قبل النفس .
ب ــ المنع من قبل الملك .
[5] - ما وجده عن خوف أو حياء أو ورع أو زهد وما شهده من تعظيم وهيبة وإجلال فهذا كله من إرادة اليقين وهو من مزيد الإيمان (1) .

ثم يقـول المكى بعـد ذلـك : **(فمـا كـان منها من نية وعزم ، كان محسوبا للعبد فى بـاب النيـات مكتوبـا لـه فى ديـوان الإرادة له بها حسنات ، ومـا كـان منهـا من الشر نية وعقدا وعزما فعلى العبـد فيـه مؤاخـذة من بـاب أعمـال القلـوب ونيات السوء وعقود المعاصى)** (2)

* شكل توضيحى لبواعث الخواطر عند الصوفية :

الروح الخير **الـمـلك** **نجد**

العقل **الإرادة**

النفس الشر **الشيطان** **نجد**

1- انظر السابق حـ 1 ص 127 ملخصا .
2- انظر السابق حـ 1 ص 127 .

نخلص من جملة ما سـبق فى هـذا المبحث إلى القـول بـأن أوائـل الصـوفية أثبتـوا وجـود بـواعث للإرادة يقلبهـا الحـق سـبحانه وتعـالى كيـف يشـاء تثـير الإرادة وتهيؤهـا للفعـل دون إجبار أو إلزام بفعـل دون آخـر ، وهـذه ممثلـة فى وجود نازعين متقـابلين همـا محـل التقـوى والفجور ، وهاتفين يهتفـان لـه فى كـل وقت ، **أحـدهما هـو العـدو أو الشـيطان** بوعـده الكـاذب من ناحيـة ، **والثـانى هـو الملـك ووعد الله الحق** من ناحية أخرى ، وكل ذلك ثابت بدليل النقل ، كما أكدوا رفع أى سـلطان أو قهـر على الإنسـان لحظـة الاختيـار وإجابتـه للـدواعى الداخليـة إلا سـلطان الإرادة الـذى يـتربع الإنسـان على عرشـه ، فهى كمـا تقـدم الفيصل فى تحريـك البـدن إلى مـا يلحقـه من ثواب أو عقاب .

وهم بـذلك يضـعون الشـيطان فى موضـعه الصحيح ويفسرون كيف أنـه لا سـلطان لـه إلا على أوليائـه من خلال متـابعتهم لأوامـره ؟ تحقيقا لقول الله تعالى فى شـأنه : **{ وقـال الشـيطان لمـا قضـى الأمـر إن اللـه وعدكم وعد الحق ووعـدتكم فـأخلفتكم وما كـان لى عليكم من سـلطان إلا أن دعـوتكم فاسـتجبتم لى فلا تلومـونى ولوموا أنفسكم ما أنـا بمصـرخكم ومـا**

أنتم بمصـــــرخى إنى كفـــــرت بمــــا أشركتمونى من قبــل إن الظلمين لهم عذاب أليم } (1) .

1- إبراهيم / 22 .

ويفســرون كيــف يعبــد الهــوى باتبــاع الإرادة لدوافعه ؟ تحقيقا لقول الله تعالى فى شأنه :

{ أفــرأيت مــن اتخـذ إلهـه هـواه وأضـــله الــــله على علــــم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشـاوة فمن يهديــــه من بعــــد الـــــله أفلا تـذكـرون } (1) .

وكيف يقلب الله القلوب ولا يتنافى ذلك مع عدله فى تحقيق العقاب على المسئ ؟ .

1- الجاثية / 23 .

*** المبحث الرابع ***

موضوع الاختيار البشرى ومجاله

يذكر المكى أن القرآن الكريم حدد مجال اختيار الإرادة الإنسانية وجعلـه بين طـريقين معروضـين أمـام الإنسان ، أحدهما هو نجد الخير والثانى هو نجد الشر ، قال تعالى : **{ وهديناه النجدين }** (1) .

فالنجدان طريقان معروضان خارج الإنسان ، وهما لازمان لصحة الاختيار وتحقيق معنى الحرية من الناحية العقلية ، أحدهما يعبر عنه القرآن بحـرث الـدنيا والآخـر يعبر عنه بحرث الآخرة قال تعالى :

{ من كان يريد حرث الآخرة نـزد لـه فى حرثـه ، ومن كـان يريـد حـرث الدنيا نؤته منها وماله فى الآخرة من نصيب } (2) .

وإذا كان القرآن قد عبر بلفظ الشراء أو الاسـتبدال أوالاستحباب والإيثار كما فى قوله تعالى :

{ أولئك الذين اشتروا الضـلالة بالهـدى فماربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين } (3) .

1- البلد / 10 .

2- الشورى / 20 .

3- البقرة / 16 .

وقولـه : **{ ومن يتبـدل الكفـر بالإيمـان فقد ضل سواء السبيل }** (1)

وقولـه : **{ ذلك بأنهـم استحبوا الحيـاة الدنيـا على الآخرة}** (2) .

فـإن هـذه الألفـاظ تـدور حـول معـنى واحـد وهـو الاستغناء عن حياة فى سبيل أخرى (3) .

فـالمؤمن يضـحى بالـدنيا فى سـبيل الحصـول على الآخـرة والكـافر يضـحى بـالآخرة ويتناسـاها أو يغفلهـا استغناء عنها لحصوله على الدنيا وهذا هو عين الاختيار ومجاله فى القرآن الكريم ولا يعـنى هـذا الاختيـار بهـذا المعنى ترك الـدنيا وإهمالهـا والسـلبية حيالهـا وحرصـه على الآخرة والإيجابية نحوها فقط ، وإنما يعـنى اختيـار منهج فى الحيـاة يـؤدى إلى الجنـة أو منهج يـؤدى إلى فقـدها ، أو أنـه اختيـار بين حريـتين ، حريـة فى الـدنيا يتحرر فيها من الشرع ، أو حرية للآخـرة باختيـاره منهج الله .

ومن ثم فإن معنى إيثار العبد للـدنيا على الآخـرة هـو أنه فضل أن يكون حـرا فى الـدنيا متحللا من كـل منهج يخالف مراده وهواه فقوله تعالى : **{ بل تؤثرون الحياة الدنيا والاخرة خـير وأبقى }** (4) .

1- البقرة / 108 .

2- النحل / 107 .

3- انظر قوت القلوب فى تعليق المكى على هذه الآيــات حـ 1 ص 248 ، 249 .

4- الأعلى / 16 : 17 .

يعـنى أن هـؤلاء القـوم المخـاطبين إنمـا رفضـوا أن يكونوا عبيدا لله سبحانه وتعـالى مقيمين بمـا كلفهم بـه فى حياتهم مؤثرين أن يعيشوا باختيارهم وحــريتهم فى الــدنيا ، مفــرطين فى حــريتهم وملكهم الأخــروى فى الجنــة ، والعكس أيضــا فــإن المــؤمن برفضــه للــدنيا وحرصـه على الآخـرة إنمـا يـرفض الحيـاة الـدنيا وفـق شهواته ونزواته وأهوائه ، داخلا فى عبوديته لله سبحانه وإن كان دخولا اختيارا وفى ذلك يقول تعالى :

{ ومـا كان لمؤمن ولا مؤمنـــة إذا قضـى اللـه ورسـوله أمــرا أن يكـون لهم الخيرة من أمـرهم } (1) .

فالمؤمن هوالذى يسلم قيادته ووجهـه وإرادتـه للـه ، وذلك وإن كـان فقـدا للاختيـار بمعـنى يـؤدى إلى تمـام العبودية لله ، إلا أنه يحقق تمام الحريـة الإنسـانية حيث لا حريـــة حقـــه للإنســـان إلا على مـــا أعطـــاه اللـــه واسترعاه فيه .

ومصطلح الحرية عند الصوفية لا يعـنى إلا العبوديـة وتمامها على الوجه الأمثل ولشرح ذلك فصـل مسـتقل إلا أننا نـود أن نـبين موضـوع الاختيـار البشـرى ومجالـه عندهم .

فالصوفية الأوائل أجمعـوا على وجـود الجنـة والنـار وأن لكل منهما ــــــــــــــــ

1- الأحزاب / 36 .

طريـق فى الـدنيا والإنسـان بينهمـا سيصـل إلى سـابق علم الله فيه ، يقول الكلاباذى :

(وأجمعــوا أنــه لــو عــذب جميــع من فى السماوات ومن فى الأرض لم يكن ظالمـا لهم ولو أدخـل جميـع الكـافرين الجنـة لم يكن ذلك محالا ، لأن الخلق خلقه والأمر أمره ولكنه أخـبر أنـه ينعم على المؤمـنين أبـدا ، ويعـذب الكـــافرين أبـــدا ، وهـــو صـــادق فى قولـــه وخبره صدق ، فـوجب أن يفعـل بهم ذلـك ولا يجـــوز غيـــره ، لأنـــه لا يكـــذب فى ذلـــك ، تعالـى الله عن ذلك علوا كبيرا) (1) .

ويذكـــر الكلابـاذى أن الصوفية حتـى عصـره أقـروا بتأبيـد الجنة والنار وأنهما مخلوقتان باقيتـان أبد الآبدين ، لا تفنيان ولا تبيـــدان وكذلك أهلوهما ، باقـون فيهمـا خالدون مخلـدون منعمـون لا ينفـــد نعيمهم ولا ينقطـع عذابهم (2) .

والاختيــار البشــرى كفعــل داخلى ونفســى محض للإنســان هــو تحــرك الإرادة الحــرة لاختيــار المواقــف الابتلائية ولتوجية النية وتصـويب القصـد وتحديـد العـزم نحو فعل دون آخر أو نحو الفعل دون الـترك أو العكس حتى يصل بالمحصول النهـائى لجملـة الأفعـال إمـا إلى الجنة وإما إلى النار .

1- التعرف ص 67 .

2- السابق ص 73 .

ويــبرز الحكيم الترمـذى (1) هـذه الفكـرة من خلال تردد العبد بين ابتلااءات الله بما منحـه اللـه من اختيـار وحرية ليصل فى النهاية إلى ما قضـاه اللـه ، من كونـه فى الجنة أو النار ، فيذكر أن الأحوال التى تتناوب العبد إنما هى من تدبير الله ، فيقبلهـا راضيـا بها مبتهجـا لهـا ، ولو كانت مكروهـات لنفسـه ، لأن تـدبير اللـه لـه من خلال الشرع أفضل من تدبيره لنفسـه ، فيجاهـد نفسـه مـدركا أن هـذه الـدنيا لم تجعـل للمشـيئة والاختيـار ولا للتجبر والاقتدار ولكن للعبودية والاضـطرار ، لأن الـدار دار العبيـــد أنشئــت للعبـوديـــة والآخــرة دار الأحــرار والملوك ، ومن ثم وافـق العبـد ربـه فى تـدبيره وتـرك حـظ نفسه ، فوضـع نفسـه للــه ، وآثـره على نفســه وعلـم يقينـا أن كـل شـئ قد تم وأحكم (2) .

وذلك أنه لما أبرز ملكه من غيبه إلى عرشه وسمائه وأرضه وملائكته ــــــــــــــــــــــــ

1- هو محمد بن على الملقب بالحكيم الترمذى ويكنى بأبى عبد الله اختلفوا فى تاريخ ميلاده واتفقوا على أنه ولد فى أوائل القرن الثالث الهجرى بمدينة ترمذ ، له تصانيف كثيرة أشهرها كتابة ختم الأولياء وفيه مخالفات كثيرة فليحذر منها القارئ قيل توفى سنة 255 هـ وقيل سنة 285 هـ وقيل 320 هـ انظر حلية الأولياء حـ10 ص 233 صفة الصفوة حـ 4 ص141طبقات الشعرانى حـ 1 ص 106 طبقات الصوفية ص217 .

2- نوادر الأصول فى معرفة أخبار الرسول للحكيم الترمذى ، طبعة استانبول سنة 1293 هـ ص 397 بتصرف .

واستوى على عرشه حمد نفسه ، ثم أثنى على نفسه بالأمثال العلى والأسماء الحسنى ، وخلق اللوح والقلم وعدن الجنة بيده ، وحشاها بالإقبال عليها رحمة ولطفا ونزاهة وطيبا وبنظرة واحدة إلى خلقه أدنى وأقصى وأسعد وأشقى وبسط الرزق وأكدى كل ذلك عدل منه سبحانه ، وبإقبال واحد حشا الجنة فصارت بإقباله بهية لا تنقص على طول الأمد موادها ولا ينفذ نعيمها ولا يفنى أهلها وصارت الدنيا بنظرة واحدة محكمة لا يتفاوت تدبيره ولا ينقص ، يدور تدبيره معهم دوران الرحا حتى ينقضى كله وينفذ (1) .

ويكشـــف الحكيم الترمـــذى عن حقيقـــة الحكمـــاء ويصفهم بأنهم يتدبرون كيفية خلق الآدميين لآداء مهمـة العبـادة ؟ وتفصـيل الخـواطر والإرادة ومجـال أعمالهـا وحسـن الاختيـار بين مـا يطرحـه اللـه لهم من ابتلاءات فيقول :

(والحكماء عن تدبير الله يتذكرون كيف دبر شـــأن الآدمـــيين ؟ وكيـــف ركبهم ؟ ومن أين اســـــتخرجهم ؟ وأين وضـــــعهم ؟ وإلى أين دعـاهم ؟ فينشرون منن الله ويشـيعون نعمـه لـديهم ويصـفون تـركيب أجسـادهم ومكـامن العدو منها وسلطان الشهوات فيها ، ويمـرون بين

____

1- السابق ص 398 بتصرف .

أعمال القلوب وأعمال النفوس وجذع العـدو ، فإن للنفس وسواسا يـدق فى جنبـه وسـواس العـدو ، ويصـفون شـأن الـدارين وانقســـام هـــذه الـدار على الـدار الآخـرة ، ويصفـــون الإرادة ويعرفـــون المريـــدين مكـــامن النفس لإفساد العطايـا الـواردة على السـالكين بـذلك الطريق إلى الله) (1) .

فالاختيارات والنيـات الـتى يختارهـا العبـد هى الـتى تحدد طريقه فى الحيـاة ، وتصـبح أفعالـه وأعمالـه بعـد اختياره وبعد تلبسـها بإرادتـه ووقوعهـا منـه فى الواقـع

مكتسـبة للخـير أو الشـر أو الحلال والحـرام ، ومجـال العمـل الـدائم عنـد أوائـل الصـوفية هـو محـو الرذائـل والتفانى فى مجال الفضائل .

والزهـــد والمجاهـــدة والفنـــاء وغـــير ذلـــك من المصطلحات الـتى أنشـأها أوائـل الصـوفية أكـبر دليـل على اختيار الآخرة وعدم الإصرار على حب الدنيا .

والصوفى الحـق عنـدهم يبغى من مجمـوع اختياراتـه فى الـدنيا أن يصـل إلى نعيم اللـه ومحبتـه وهـو يعتـبر مجاهدتـه فى إصـلاح النفـوس والتحكم فى الخـواطر ونوازع السوء التى تعن له على الدوام من أشـد أنـواع التقوى .

يقول الترمذى :

(فإن التقوى فى هذا الطريق أصعب وأدق وأغمض وأعظم ـــــــــــــــــــ

1- الحكيم الترمذى ونظريته فى الولايـة للـدكتور عبـد الفتـاح عبـد اللـه بركـه حـ 2 ص 311 طبعـة مجمـع البحوث الإسلامية بالأزهر .

مؤنـة من التقـوى فى طريـق الشـريعة ، لأن طريق الشريعة على الجوارح ، وهـذا الطريـق بـالقلوب فى ممرهـا على النفـوس فيحتـاج إلى أن يسـلك بعمـل القلب على شـهوات النفس بالحراسـة العظيمـة ، والاسـتعانة بالله حـتى يسـلم ذلـك العمـل الـذى نهض فى

القلب من آفــة النفس فيخــرج إلى الجــوارح سليما يصعد إلى الله سليما من آفاتهـا) (1) .

ويبين الحكيم الترمذى مجال الاختيـار وعمــل الارادة فيمـا يسميه بولاية التدبير فمعنى ولاية التـدبير أن اللـه شرع السبيل وهدى القلوب ورزق العقول وأكد الحجـة بالرسل ، وبما جاءوا بـه من البيـان وأيدهـم بالملائكـة يهدون ويسـددون وقيل سيروا إلى الله سيرا مسـتقيما فى هذا الصراط ، فـإن عارضـتكم نفوسـكم بخلاف مـا أمر الله فجاهدوها وسـلوا اللـه المعونـة ، فهـذا تـدبيره الذى وضعه للجميع) (2) .

ومن ثم فــإن أعــز العلــوم على الصــوفية معرفــة النفس وأخلاقها ، وأقـوم النـاس بطريـق المقـربين من الصوفية أقومهم بمعرفة النفس ، ومعرفة أقسام الدنيا ودقائق الهوى وخفايا شهوات النفس ، وشرها وشرهها (3) .

1- السابق ص 142 .

2- السابق ص 214 .

3- عوارف المعارف للسهروردى ص 26 .

ويذكر المكي فى تفسيره لقوله تعالى :

{ فأمـا مـن طغـى وآثـر الحيـاة الدنيــا فــإن الجحيـــم هى المـــأوى

وأمـا مـن خــاف مقـام ربــه ونهـــى النفــس عــن الــهوى فــإن الجنـــة هـى المأوى } (1)

أنه لما كانت الجنة ضد الجحيم كان الهوى هو الدنيا ، لأن النهى عنــه ضــد الإيثــار لــه فمن نهى نفســه عن الهـوى ، فإنـه لم يـؤثر الـدنيا وإذا لم يـؤثر الـدنيا ظهـر معنى الزهد فيها وكانت له الجنة التى هى ضــد الجحيم فصارت الدنيا هى طاعة الهوى وإيثـاره فى كـل شـئ (2) .

ويذكر المكـى فى موضـع تخيـير العبـد بيــن الـدنيا والآخرة حديثا نبويـا فيـه : **(لغدوة فى ســبيل الله أو روحة خير من الدنيا ومـا فيها)** (3) .

1- النازعات / 37 : 41 .

2- قوت القلوب حـ 1 ص 246 .

3- الحـديث أخرجـه البخـارى فى كتـاب الجهـاد ، بـاب الغدوة والروحة فى سبيـل اللــه برقم (2792) وكذلك أخرجه مسـلم فى كتـاب الإمـارة ، بـاب فضـل الغـدوة والروحــة فى ســبيل اللــه بــرقم (1880) وأحمــد فى المســـند حـ 3 ص141 والترمـــذى بـــرقم (1648) والنســائى حـ 6 ص 15 ، وابن ماجــه بــرقم (2756)

والدارمى حـ2 ص 212 والـبيهقى فى السـنن حـ 9 ص 159 .

ثم يشـرح المكى كيـف يزهـد المـرء فى الـدنيا من خلال ما هو مطروح لديه من أمور الابتلاء بأن الله قـال فى شأن يوسف عليه السلام :

{ وشـــروه بثمن بخس دراهم معـــــدودة وكـــــانوا فيـــــه من الزاهدين } (1) .

فهـذه تسـمية لهم بالزهـد فلمـا بـاعوه وخـرج من أيديهم صاروا زاهـدين ، والعـرب تقـول شـريت بمعـنى بعت لأنهم يقولون ابتعت بمعنى اشتريت .

كذلك العبد إذا باع نفسه وماله من الله تعالى وخـرج من هـواه إلى سبيل مولاه فهو من الزاهـدين ، وكـذلك قال المولى عز وجل :

{ إن الله اشـترى من المؤمـنين أنفسـهم وأمـوالهم بـأن لهم الجنة } (2) .

وقال أيضا : **{ وأما من خاف مقام ربـه ونهى النفس عن الهـوى فـإن الجنـة هى المأوى }** (3) .

فإذا كان العوض واحدا وهو الجنة فى ذكـر المعـنين كان بيع النفس

____

1- يوسف / 20 .

2- التوبة /111 .

3- النازعات /40 .

والمال وإخراجهما لله تعالى بمعنى النهى عن الهوى فيهما ، والهوى هو الحياة الدنيا ، وهو اقتناؤه للمال وحبس النفس عليه ، فاستبدال ذلك بضده من إخراج الهوى من النفس وإدخال الفقر على المال هو الزهد فى الدنيا (1) .

يقول سهل بن عبد الله : **(من علامة حب الله تعالى حب النبى عليه السلام ومن علامة حب النبى صلى الله عليه وسلم حب السنة ومن علامة حب السنة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا ألا يأخذ منها إلا زادا وبلغة)** (2) .

* موضوع الاختيار البشرى واتساع دائرته عند الصوفية :

وإذا كان موضوع الاختيار البشرى ومجاله عند أغلب أوائل الصوفية هو اختيار الدنيا فى مقابل الآخرة أو العكس ، فإن هذا المجال أخذ فى وقت مبكر بمعنى آخر يختلف عن هذا المعنى وإن اتفق معه فى بعض النتائج ، وذلك أن الزهد الذى تميز به الصوفية وبمفهومه السابق دليل واضح على اختيارهم للآخرة ورفضهم للدنيا ، ولكنه لم يلبث حتى تطور من الزهد فى الدنيا فقط إلى الزهد فى الدنيا والآخرة معا ، طمعا

1- قوت القلوب جـ 1 ص 247 .
2- السابق جـ 1 ص 259 ._
فى إرضاء الله ومحبته .

فأصبح مجـال الاختيـار هـو تفضـيل اللـه على الـدنيا والآخرة وكل شئ وقد نبتت هـذه الفكـرة وأينعت فى القرنين الثانى والثالث الهجريين حينمـا شاع قول رابعة العدوية (1) من نساء الصوفية : **(ما عبـدتك خوفـا من نارك ولا طمعا فى جنتك ، ولكن حبا لذاتك)** (2) .

فقد جعلت بواعث العبادة ثلاثة :

1- عبادة عن خوف .

2- عبادة عن طمع .

3- عبادة مجردة من الخوف والطمع وهى أرقاها .

ولا شـك أن هـذه العبـادة الـتى دعت إليهـا رابعـة العدوية تبدوا مخالفة للنصوص الشرعية ومنهج النبوة ، حيث جعـل أصـحاب هـذا الاتجـاه ذات اللـه موضـوعا للاختيار فى مقابل الدنيا والآخرة .

1- هى رابعـــة بنت إســـماعيل العدويـــة العابـــدة المشهورة ، قـال ابن كثـير : أثـنى عليهـا النـاس وتكلم فيها أبو داود السجستانى واتهمها بالزندقـة فلعلـه بلغـه

عنها أمـر وقـد ذكـروا لهـا أحـوالا وأعمـالا صـالحة وصيام نهارا وقيام ليل ، توفيت بالقدس الشريف سـنة 185 هـ انظر البداية والنهاية لابن كثير حـ 10 ص 186 صـفة الصـفوة حـ 2 ص 249 تذكـــرة الأوليـاء لفريـــد الدين العطار حـ 1 ص 71 وما بعدها .
2ـ صفة الصفوة حـ 2 ص 249 .

والواقع أن بعض أوائـل الصـوفية تصـوروا أن العبـد ينبغى أن يسترسـل مـع اللـه على غـير انتظـار للثـواب وعلى غير خوف من العقاب بل يسترسل معه على مـا ينبغى له سبحانه وتعالى من العبودية حـتى وصـلوا إلى درجة يحتقرون فيها من عبد الله انتظـار لثوابـه وخوفـا من عقابه .

وقد صنفوه من التجار الـذين لا يعطـون إلا لانتظـار البدل ، بل غالى بعضهم فوصف هذا الفريق بأنهم عبيد السوء لا يوقرون الله عز وجل لذاته ولكن لمـا يصـلهم من نفع أو نعمة (1) .

وهـذا النقـد اللاذع لمن طلب العـوض فى العمـل سوف يتوجه حتما وباللزوم إلى رسول الله صـلى اللـه عليه وسلم وأصحابه باعتبار الأدلة الثابتة عنه فى كونـه عبد ربـه خوفـا وطمعـا ممـا يـدل على خطـأهم وسـوء أدبهم ، كما أدى ذلـك أيضـا إلى اسـتهجان البعض منهم لعذاب النار فصرح بعدم الخوف منها وقلل من شأنها ، قال أبو بكر الشبلى (2) :

1- طبقـات الصـوفية ص489 والتعـرف لمـذهب أهـل التصوف ص161، 184 .

2- هو جعفر بن يـونس الشـبلى وقيـل اسـمه دنـف بن جحدر خرسانى الأصل بغدادى المنشـأ والمولـد صـحب الجنيـــد ومن فى عصــــره من المشــــايخ ، لــــه بعض الشطحات والمخالفات الشأن فى صـحتها تـوفى سـنة 334 هـ انظر شذرات الذهب حـ2 ص 338 ، اللباب حـ 2 ص 10 وفيات الأعيان جـ1 ص 225 تـاريخ بغـداد حـ 14 ص 389 ، الكامــــــل لابن الأثــــــير حـ 8 ص 350 وطبقات الصوفية ص 337 .

(إن لله عبادا لو بزقوا على جهنم لأطفئوها) (1) .

وقـال أيضـا : **(لـو خطـــر ببـــالى أن الجحيم بنيرانها وسعيرهـــا تحرق مـــنى شعــــره لكنت مشركـا)** (2) .

والله سبحانه وتعالى جعـل النـار فى مقابـل الجنـة وجعـل لكـل منهمـا طريقـا يوصـف بـالخير والشـر ولم يجعل الطريقين الذين يمثلان موضوع الاختيار البشـــرى حيـال الإرادة الإنسـانية ، **ذات اللـه مقابـل الفـوز بنعيم الجنة والنجاة من النار** بحيث يقال : إن من أراد الله فقد وفق إلى الصواب ، ومن أراد الجنـة فقـد أراد غيره أو قع فى المحذور .

وقد بين شيخ الإسلام ابن تيمية خطأ هذه الطائفة من حيث ظنوا أن الجنة ليست إلا التنعم بالأكل والشرب والنكاح والباس وسماع أصوات طيبة وشم روائح طيبة ، ولم يدخلوا فى مسمى الجنة نعيما غير ذلك ، فجعلوا يطلبون نعيما أعلى من خلال رؤية الله تعالى والتنعم بالنظر إليه فسمت إليه همتهم وخافوا فوته .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية : **(قول أحدهم : ما عبدتك شوقا إلى جنتك أو خوفا من نارك ولكن لأنظر إليك وإجلالا لك ، وأمثال هذه الكلمات مقصودهم بذلك هو أعلى من الأكل والشرب**

____

1- اللمع ص 490 .

2- السابق ص 491 .

والتمتع بالمخلوق ، ولكن غلطوا فى إخراج ذلك من الجنة) (1) .

ويضيف ابن تيمية **تعليلا لهذه الحالة فى مجال الاختيار بين الله وما دونه** بأن الصوفى همته المتعلقة بمطلوبه ومحبوبه ومعبوده تفنيه عن نفسه حتى لا يشعر بنفسه وإرادتها ، فيظن أنه يفعل لغير مراده ، والذى طلب وعلق به همته غاية مراده ومطلوبه ومحبوبه ، فكثير من الصالحين والصادقين أرباب الأحوال والمقامات يكون لأحدهم وجد صحيح

وذوق سليم ، لكن ليس له عبارة تبين كلامه ، فيقع فى كلامه غلط وسوء أدب مع صحة مقصوده (2) .

ويذكر العلامة ابن القيم فى تحقيقه لهذا الأمــر أن الخطـا نشـأ عنـدهم لأنهم غلطـوا فى مسـمى الجنـة ، فالجنة ليست اسما لمجرد الأشجار والفواكـه والطعـام والشراب والحور والقصور والأنهار ، وإنما الجنـة اسـم لـدار النعيم المطلـق الكامـل ، ومن أعظم نعيم الجنـة التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم وسماع كلامه وقــرة العين بالقرب منه وبرضـوانه ، فلا نسـبة للـذة مـا فيهـا من المأكول والمشـروب والملبـوس والصـور إلى هـذه اللذة أبدا فأيسر يسير من رضوانه أكبر من الجنان وما فيها من ذلك (3) .

1- مجمـوع فتـاوى شـيخ الإسـلام ابن تيميـة حـ 1 ص 699 .

2- السابق حـ 10 ص 70 .

3- مدارك السالكين لابن القيم الجوزية حـ 2 ص 80 .

واستدل لذلك بقوله تعالى : **{ ورضـوان مـن اللـه أكبـر }** (1) **.**

والرضـوان فى الآيـة نكـرة فى سـياق الإثبـات ، أى أىُّ شـئ كـان من رضـاه عن عبـده فهـو أكـبر من الجنـة ، يقول ابن القيم بعــدها : **(فأى نعيم وأى لـذة وأى قــرة عين وأى فــوز يــدانى نعيم تلـك المعيـة**

ولـذتها وقــرة العين بهــا وهــو ســبحانه بــه طابت الجنـة وعليـه قـامت ، فكيـف يقـال : لا يعبـد اللـه طلبـا لجنتـه ولا خوفـا من نــاره ؟) (2) .

وقد دلت نصـوص القـرآن والسـنة على الثنـاء على عباد الله وأوليائه بسؤال الجنة ورجائها والاســتعاذة من النار والخوف منها .

 قــال تعــالى : **{ إنهم كـانوا يســـارعون فى الخيرات ويـدعوننا رغبـا ورهبـا وكانـوا لنا خاشعين }** (3) .

 وقال سبحانه : **{ والذين يقولـــون ربنـا اصرف عنا عـذاب جهنم إن عذابهــا كـان غرامـا إنهــا سـاءت مسـتقرا ومقاما }** (4) .

 وفى الحديث عن أبى هريرة قال : **قال رسـول الله صلى الله عليه** ـــــــــــــــــــــــــ

1- التوبة / 72

2- السابق حـ 2 ص 80 .

3- الأنباء / 90 .

4- الفرقان / 65 : 66 .

وســـلم لرجـــل : مـــا تقـــول فى الصلاة ؟
فقال : أتشهد ثم أقول : اللهم إنى أسألك الجنـة وأعـوذ بـك من النـار ، أنا والله ما أحسن دندنتك ولا دندنــة معاذ .
فقــال صـلى اللــه عليـه وسلــم : حولها ندندن) (1) .

 وفى حـــديث الملائكـــة الســـيارة : **(إن اللـــه تعـالى يسـأل عن عبـاده وهـو أعلم بهم .**
فيقولون : أتيناك من عند عباد لـك يهللونك ويكبرونك
ويحمدونك ويمجدونك .
فيقول عز وجل : وهل رأونى ؟
فيقولون : لا يارب ما رأوك .
فيقـــول عـــز وجـــل : وكيـــف لـــو رأونى ؟
فيقولـون : لـو رأوك لكـانوا أشـد تمجيدا .
قالوا : يارب ويسألونك جنتك .
فيقول : هل رأوها ؟

1- أخرجـه أبـو داود فى كتـاب الصـلاة ، بـاب تخفيـف الصـلاة بـرقم (927) وأخرجـه ابن ماجـه فى كتـاب الإقامـة ، بـاب مـا يقـال فى التشـهد برقـم (910) وأخرجـه أحمـد فى المسـند حـ 3 ص 474 وصـحح الألبانى إسناده فى كتابه صفة الصلاة ص 202 .

فيقولون : لا وعزتك ما رأوها .
فيقـول : فكيف لو رأوها ؟
فيقولون : لو رأوها لكانوا لها أشد طلبا .
قالوا : ويستعيذون بك من النار .
فيقول : وهل رأوها ؟
فيقولون : لا وعزتك ما رأوها .
فيقول : فكيف لو رأوها ؟
فيقـولون : لـو رأوهـا لكـانوا أشـد منها هربا .
فيقــول : إنى أشــهدكم أنى قــد غفرت لهم وأعطيتهم ما سألوا وأعذتهم مما استعاذوا) (1) .

وقد قسـم ابن القيـم أصنـاف النـاس فـى هـذا الموضع إلى أربعـة أقسـام :

1- أخرجه البخارى فى كتاب الدعوات ، باب فضل ذكر الله عز وجل رقم (66) وأخرجه مسلم فى كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار ، باب فضل مجالس الذكر برقم (1722) وأخرجه الترمذى فى كتاب الدعوات ، باب ماجاء أن لله ملائكة سياحين فى الأرض برقم ، وأخرجه أحمد حـ 2 ص 358 ، 382 والحاكم فى المستدرك حـ 1 ص 495 .

1- من لا يريد ربه ولا يريد ثوابه فهؤلاء أعداؤه حقا وهم أهل العذاب الدائم وعدم إرادتهم لثوابه إما لعدم تصديقهم به وإما لإيثارهم العاجل عليه ولو كان فيه سخطه .

2- من يريده ويريد ثوابه وهؤلاء هم خواص خلقه وهم أصحاب نبيه صلى الله عليه وسلم ورضى عنهم أجمعين .

3- من يريد من الله ولا يريد الله فهذا ناقص غاية النقص وهو حال الجاهل بربه ، ويضرب لهذا النوع حال أكثر المتكلمين لأنهم أنكروا رؤيته والتلذذ بالنظر إلى وجهه فى الآخرة ، وأعلى الإرادة عندهم إرادة الأكل والشرب والنكاح واللباس فى الجنة وتوابع ذلك .

4- من يريد الله ولا يريد منه فهذا هو زعم بعض الصوفية بأنهم يطلبون الله بلا علة من طمع فى جنة أو خوف من نار (1) .

ويمكننا تعليل الوجهة الصوفية عند الأوائل لاختيارهم محبة اللـه على مـا سـواه من بـاب حسـن الظن الـذى ذكـره شـيخ الإسـلام وهـو أنهم لا يحسـنون الكلام عن مرادهم وإن كان مقصدهم حسنا .

ذلك التعليل يتمثل فى المفاضلة والاختيار بين أثـر من آثار صفات الـذات وأثـر من آثـار صـفات الأفعـال ، فالجنة مخلوقة بفضل الله ورحمته

____

1- مدارج السالكين حـ 2 ص 81 ، 82 مختصرا .

ففى الحديث عن أبى هريـرة رضـى اللـه عنـه قـال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(تحـــاجت الجنة والنار ، فقـالت النـار : أوثـرت بالمتكبرين والمتجبرين .**
وقالت النار : لا يدخلنى إلا ضعفـــاء النـاس وسقطهم .
فقـــال اللـــه للجنـــة : أنت رحمــتى أرحم بك من أشـاء من عبادى .
وقال للنار : أنت عـذابـى أعـذب بـك مـن أشاء من عبادى ولكل واحد منكمـا ملؤها) (1) .

فالجنة من آثار صـفات الأفعـال وهى عنـدهم باقيـة بإبقـاء اللـه لهـا ، أمـا محبتـه ورضـاه فإنهمـا يتعلقـان بصفات إلهية باقيـة ببقائـه ، فهم أثـروا مـا يبقى ببقائـه على ما يبقى بإبقائه ، من ثم يعتبر الصوفى نفســه قـد

ارتقى درجة عندما يبتغى بعبادته محبة الله ورضاه وليس فضله وجنته ، فليس بعد الدنيا من دار إلا الجنة وهم آمنوا بوجودها ، ومع ذلك فإنهم أخطأوا

1- والحديث أخرجه البخارى فى تفسير سورة ق ، باب قول الله تعالى **وتقول هل من مزيد** برقم (4850) ومسلم فى كتاب الجنة وصفة نعيمها ، باب النار يدخلها الجبارون والجنة يدخلها الضعفاء برقم (2846) والترمذى فى صفة الجنة باب ما جاء فى احتجاج الجنة والنار برقم (2561) وأحمد فى المسند حـ 2 ص 450 ، والبيهقى فى الاعتقاد ص 158 وابن منده فى الرد على الجهمية برقم (9) والآجرى فى الشريعة ص 391 .

لأنهم تجاوزوا الخط النبوى .

- فقول أبى يزيد البسطامى **: (الجنة لا خطر لها عند أهل المحبة وأهل المحبة محجوبون بمحبتهم)** (1) .
- وقوله الآخر : **(إن الله قد أمر العباد ونهاهم فاطاعوه فخلع عليهم خلعة فاشتغلوا بالخلع عنه ، وإنى لا أريد من الله إلا الله)** (2) .

نقول فيه : يجب أن يتأدب فيه ويقف بعد قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يقدم بين يده قولا ولا فعلا ، وإن كان الدافع الذى حمله على اسقاط

النظـر إلى الثـواب والعقـاب هـو تطلعـه إلى الأفضـل والارتقاء فى سلم الرضى والمحبة .

وأيـا كـان موضـوع الاختيـار البشـرى عنـد الصـوفية الأوائل ، فإنهم جعلوا مجاله محددا بالالتزام بفعـل دون آخر وفق توجيـه الشـرع وتـدبير الله ، كمـا أن شـيوخ الصوفية رفضوا رفضا باتا فكرة الاتحاد بالـذات الإلهيـة وشـهودها من خلال القـول بالمحبـة فى ذات اللـه ، والأقوال السـابقة لمشـايخ الصـوفية تؤكـد أنهم يعنـون بحب الذات أو الفناء فى الله فناء الإرادة الإنسانية عند رؤية إرادة اللـه التشـريعية ، وانطلاقـا من محبـة العبـد لربه فإنه يلتزم بـأوامر المحبـوب ونواهيـه قـولا وعملا فيكون سلوكه ترجمة ________________

1- طبقات الصوفية ص 70 .

2- السابق ص 71 .

لرغائب محبوبه ، محفوظا فيما لله عليه مأخوذا عما له وعن جميع المخالفات .

وعلى الرغم من أن أوائل الصوفية أجمعوا على أن القبيح ما قبحه الله والحسن ما حسنه ، وأن القـبيح مـا نهى والحسـن مـا أمـر بـه إلا أن بعضـهم انزلـق إلى مفهوم يبطل دين الله كليه ويقلب مجال الاختيار الـذى شرعه بالأمر والنهى إلى معان كفرية خبيثة ، فإذا كـان مشايخ الصوفية قـد وقفـوا موقفـا حازمـا من القـائلين بالحلول والاتحاد فإن الحلاج (1) ومن سـار على نهجـه

قـد جعلـوا موضـوع الاختيـار فى المقابلـة بين القـول بـالحلول وبين التحلـل من الشـرع وانفكـاك معانيـة واضمحلالها ، فجوز ـــــــــــــــــــ

1- هو الحسين بن منصور الحلاج يكـنى بـأبى المغيث ، كان جده مجوسيا اسمه محمى من أهل بيضاء فارس ، نشأ بواسط وقيل بتستر وقدم بغـداد فخالـط الصـوفية وصحب الجنيد بن محمد وأبا الحسين النـورى ، وعمـرو بن عثمان المكى ، والصوفية مختلفـون فيـه رده أكـثر المشايخ ونفـوه وأبـوا أن يكـون لـه قـدم فى التصـوف وأثنى عليه جماعة منهم وصححوا حالـه وجعلـوه عالمـا ربانيا ، مـات مقتـولا بسـبب آرائـه سنة 309 هـ انظـر تـاريخ بغـداد حـ 8 ص 112 البدايـة والنهايـة حـ 11 ص 144 ، طبقـات الشـعرانى حـ 1 ص 126 ، شـذرات الذهب حـ 2 ص 233 ، وفيات الأعيان حـ 1 ص 183 ، اللبـــاب حـ 1 ص 330 ، والمنتظم حـ 6 ص 160 ، الفهرست لابن النديم ص 283 ، وأخبـار الحلاج لـويس ماسينيون وبول كراوس ، باريس سنة 1936م .

الحلاج كفر فرعون وإبليس وضـياع المعـانى الشـرعية فى مقابـل القـول بـالحلول فـنراه يـدافع عن إبليس وفرعون فى عصيانهما الأمر الإلهى ويرى فيهمـا مثـالا للفتوة الحقـة ، بـل لقـد صـرح بـأن اسـتاذه هـو إبليس وفرعون ، فإبليس لما عصى الله بامتناعه من السـجود لآدم ، إنما عصى الأمر لأنه أبى أن يسجد إلا لله .

ولمـا قـال اللـه لإبليس : لأعـذبنك عـذاب الأبدية .

قال له إبليس : أو لست ترانى فى تعـذيبك إياى .

قال : بلى .

قـال : فرؤيتـك إيـاى تحملنـــى على عـــدم رؤية العــذاب (1) .

فهو ينسى عذابه لحلـول الحـق فيـه ، وكـان إبليس فى نظر الحلاج مجيبـا للـه لا عاصـيا لـه لأن إبليس قـد رأى فى جحوده للأمر تقديسا للآمر (2) .

يقـول الحلاج : **(إن لم تعرفـوا اللـه فـاعرفوا آثاره ، وأنا ذلك الأثر وأنا الحق لأنــنى مـا زلت أبـدا بـالحق حقـا ، فصـاحبى وأسـتاذى إبليس وفرعون ، فإبليس هـــدد بالنـار ومـا رجـع عن دعواه ، وفرعون أغرق**

1- الطواسين للحلاج نشـره الأسـتاذ لـويس ماسـينيون ص 12 طبعة باريس سنة 1913 م

2- من قضـايا التصـوف فى ضـوء الكتـاب والسـنة ص 105

فى اليـم ومـا رجــع عــن دعـواه وإن قتلت أو صـلبت أو قطعت يـداى ورجلاى مـا رجعت عن دعواى) (1) .

وثبت عنه أنه قال (2) :

أنا من أهوى ومن أهوى أنـا : نحن روحـان حللنا بدنـا

فـــــإذا أبصـــــــرتنى أبصـــرتـــــه : وإذا أبصـرتـــــــه أبصـــرتنـا

وقريب من فعل الحلاج مـا يـروى عن بعض الصـوفية كـأبى الحسـين النـورى فى تفضـيله نبـاح الكلب على تكبير المؤذن .

فلما سـمع المـؤذن دعـا عليـه قـائلا : طعنـة وشم الموت .

وسمـع نبـاح الكلاب فقال : لبيك وسعديك .

لل ذلك فقال : أما المؤذن فأنا أغار عليه أن يذكر الله وهو غافل يأخذ عليه الأجرة ، ولولا الأجرة من حطام الدنيا الـتى يأخـذها لمـا ذكـر الله ، فلذلك قلت له : طعنة وشم الموت .

وقد قال الله تعالى : { وإن من شـئ إلا يســـبح بحمـــده ولكن لا تفقهـــون تسبيحهم } (3) .

1- الطوسين ص 51 ، 52 .

2- المنتظم حـ 6 ص 162 ، تاريخ بغداد حـ 8 ص 129 .

3- الإسراء / 44 .

فالكلب وكل شئ يذكرون اللـه بلا ريـاء ولا سـمعة ولا طلب للعــوض (1) .

وفى هــذا الكلام وأمثالــه ضــياع لمعــانى الكتــاب والسنة فالمخلوقات تسبح بواقع الربوبية ولا اختيار لهـا فى قبول التسبيح أو رفضـه لأنهـا اختـارت بدايـة قبـول الطاعة الدائمة كما دلت آية الآمانة فى سورة الأحزاب فلا تكليف عليها :

قـال تعـالى : **{ ثم اسـتوى إلى السـماء وهى دخان فقـال لهـا وللأرض ائتيـا طوعـا أوكرهـا قالتا أتينا طائعين }** (2) .

أما الإنسان فهو حامل للأمانة مسـتخلف فى الأرض مريد حر مكلف باتبـاع الشـرع على سـبيل الابتلاء ، فلا بد من السعى والمجاهدة والحفاظ على الأمانة بأدائها .

وإذا كـان المـؤذن يـؤدى مـا أوجب اللـه عليـه ولـو تقاضـى أجـرا وكـان جـزاؤه الإعـدام من وجهـه نظـر النـورى فـأى معـنى للشـريعة يبقى مـع هـذا الاعتقـاد الفاسد .

ولا شــك أن هــذه الأقــوال فتحت البــاب للقــول بوحــدة الوجــود وغــيره من الفلســفات الــتى شــوهت صورة الأوائل من الصوفية .

1- اللمع ص 492 .

2- فصلت / 11 .

وخلاصــة الأمــر أن أغلب المشــايخ من الصــوفية الأوائل جعلوا موضع الاختيار ما ذكره الله فى كتابه من وعده بالجنة ووعيده بالنار ، وأن مجـال الاختيـار يتمثـل فى الالـتزام بالأحكـام التشـريعية ممثلـة فى الأوامـر والنواهى التكليفية ، وحتى الذين جعلوا محبـة اللـه فى مقابل التضحية بكل شئ فهم وإن أخطـأوا فى ذلـك إلا أنهم لم يجـوزوا الخـورج عن مجـال الأحكـام الدينيـة ودعوا إلى الالتزام بالسنة .

*** المبحث الخامس ***

العلاقة بين المشيئه الإلهية المطلقة والإرادة الإنسانية الحادثة

يثبت الصوفية الأوائل بوضوح وجلاء طلاقة المشـيئة الإلهية كما جاء فى قوله تعالى : **{ قـال كـذلك اللـه يخلق ما يشاء إذا قضـى أمـرا فإنمـا يقـول لـه كن فيكون }** (1) إذ يعتـبرون ذلـك من أهم الأسـس فى توحيد الربوبية ودعائمه ، ولذا فإننا نجدهم يؤكـدون على أنه لا فاعل فى الكون إلا الله ولا خـالق للعـالمين سواه ، فالله سبحانه وتعالى هو خالق الخلق بما يتجدد فيـه من آحـاد أو يحـدث فيـه من فنـاء ، ولـه سـبحانه وتعالى المشيئة المطلقة الـتى تحكم الكـون دون قيـود أو شئ يحد من انطلاقها أو مثيل له فيها .

وهو سبحانه وتعالى الموجود الحـق وكـل مـا سـواه مستمد وجوده منه وأوائل الصوفية يـرون أنـه سـبحانه وتعـالى دليـل على وجـود غـيره من المخلوقـات وليس

غيره دليلا عليـه أو على وجـوده ، وإن كـانوا لا ينكـرون أن مخلوقات الله آيات تشهد لعظمته وقدرتـه وعلمـه ، ولكن المسلم ليس بحاجة إلى المخلوقـات لمعرفة ربه وعظمته ولكنهم عرفوا الله

1- آل عمران / 47 .

بتوفيقه لهم وعبادتهم إياه .

قيل لذى النون المصرى : بماذا عرفت ربك ؟ قــال : ربى أجــل من أن يعــرف بشــئ ولكن عــرفت ربى بــربى وعــرفت مــا دون ربى بربى (1) .

وهم أفردوا الله بالخلق ، والخلق كان معلومة فى علم اللــه فى الأزل ثم دون اللــه علمــه فى اللــوح المحفوظ ثم أظهره بمشيئته إلى الواقـع المشـهود من خلال قولـه : كن فكـان مـا أراد ، وتم مـا سـبق بـه القضاء .

وقـد تقـدم أنهم اسـتدلوا بقولـه تعـالى : **{ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقـول لـه كـن فيكون }** (2) على إثبات كلمة كن المظهـرة لكـل المخلوقات والتى أصبحت بعـد أن لم تكن عيانـا قائمـة ومفعولات له سبحانه بالكلمة الأزليـة والفعـل القـديم (3) .

يقــول الحــارث المحاســبى : **(هــو الأول قبــل الأبــد والآخــر إلى غــير أمــد المنشــئ لمــا شــاء بمشيئته ، لما سبق فى ذلك من علمه واســتتر فى خفى غيبة فكان أمره جل ثناؤه :**

{ إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون }

1- الرسالة القشيرية حـ 2 ص 586 .

2- يس / 82 .

3- قوت القلوب حـ 1 ص 242 .

بمحكم من الصنعة وإتقان من الحكمة) (1) .

ويعتبر ذو النون المصـرى طلاقة المشيئة والفاعلية أساس التوحيد فالكـل مخلــوق بمشـيئة مقـدرة ، ومن توهم أن فعل الله محكوم بقوانين أو قــوالب أو نمــاذج أو كيفيات محددة بحيث لا يفعل بغيرها كمــا قــال كثـير من المتكلمين والفلاسفة فما وحد الله عندهم .

فهم ما برحــوا يؤكـدون فى اعتقــادهم أن اللــه على كل شئ قدير ســـواء أراد أن يفعـل من خلال سـننه أو أراد أن يفعل بكيفية أخرى فلا تمتنع أمام قدرته شــئ ، سئل ذو النون المصرى عن التوحيد ؟

فقــال : **(أن تعلم أن قــدرة اللــه تعــالى فى الأشــياء بلا مــزاج وصــنعه للأشــياء بلا علاج)** (2) !

فالله سبحانه وتعالى هـو رب العـالمين ، والـرب يفعـل فى ملكه ما يشاء وينفرد بتصـريف ملكـه وتـدبير أمـره يقول ذو النون :

(لو شاء لم يتكلم ولم ينقصه تـرك الكلام ، ولــو شــاء تكلم بلا كلام ، ولــو شــاء تكلم بلا إلهام ، ولو شاء لقـوى أبصـار النـاظرين على رؤيته ، وأسكن الكثير فى القليل وأسمع

1- الـرزق الحلال وحقيقـة التوكـل على اللـه للحـارث المحاسبى ص31 .

2-الرسالة القشيرية حـ 2 ص 582 .

الميت خفى الكلام الـــذى لا يســـمعه الحى السوى) (1) .

وإذا تبين لنا أن المشيئة الإلهية عند أوائل الصوفية تعنى أنـه لا شـئ يحـدث فى هـذا الكـون إلا بـأمر اللـه وقضائه وقدره فإن ثمة سؤال ضرورى بعد ذلك وهو :

كيف يفسر مشايخ الصوفية العلاقة بين المشـــيئة الإلهيـــة المطلقـــة وبين الإراده الإنسانية الحادثة ؟

أو كيف يثبتون حريـة الإنسـان ومسـئوليته عن أفعاله فى ظل المشيئة الإلهيـة المطلقـة مع عدم التعارض بينهما ؟

حيث أن الممنـــوع عقلا قيـــام إرادتين حـــرتين فى الوجود تعملان بلا تصادم أو تعارض أو تناف ، فالمشيئة الإلهية المطلقة معناها أن الله يفعل ما يشـاء بلا موانـع ولا عوائق وبلا حد أو معارضة أو مخالفة مهمـا صـغرت تعوق التنفيـذ أو تبطئـة أو تغيـير من كيفـه أو تقلـل من كمه أو تزيد ، إنما يأتى الخلق أو الفعـل المـراد لـه فى اللحظة التى شـاءها اللـه بـالكم والكيـف المـرادين لـه سبحانه ، فإذا ما قامت إرادة حـرة حادثـة لهـا اختيارهـا الذاتى وحركتها الحرة ، تبادر للذهن من أول وهلـــة أن هذه الإرادة الحادثة تشكل حدا يحد من المشيئة الإلهية فيمنع انطلاقها ؟!

1- علم القلوب ص 89 .

هـذه فحـوى المشـكلة الـتى نبحث عن حلهـا عنـد مشايخ الصوفية الأوائل .

وفى هـذا الصـدد يقـول ابن خفيـف الشـيرازى فى معتقد الصوفية الأوائل : **(ويعتقد أنه تعالى فعـال لما يريد ، لا ينسب الظلم إليه وأنه يحكـــم فى ملكوتـــه كيـــف يشـــاء بلا اعـــتراض ، ولا مـــرد لقضائه ، ولا معقـب لحكمه ، ويعتقد أنه تعالى يقرب من يشـاء بغير سـبب ، ويبعـد من يشـاء بغير سبب ، وإرادته فى عبـاده مـا هـــم فيـه ،**

وبرضـــاه طــاعتهم ، والمعصـية بمـــراده لا برضاه) (1) .

فقد بين فى هذا الاعتقاد أن كل شئ بقضاء اللـه وقدره ، وأنـه سبحانه تعالى هو الخالق لأفعـال العبـاد ، فهو يخلق الكافر وأفعاله ويشاؤها ولكن لا يرضـاها ولا يحبها فيريدها كونا ولا يرضاها دينا دل على ذلك قوله :

(والمعصية بمراده لا برضـاه) واحـترز ممـا ذهب إليه أهـل الاعـتزال من أن اللـه شـاء الإيمـان من الكـافر ولكن الكـافر شـاء الكفـر لئــلا يقــال : **شـاء الكفر من الكافر وعـذبه عليه** (2) .

1- سـيرة الشـيخ الكبــيرعـــبد اللـه بن خفيـــف ص 341 .

2- انظــر قـــوت القلـــوب حـــ1 ص 128 حيث يــذكر المكى هـذا الكلام وينسـبه لإمـام المعتـــزلة عمـرو بن عبيد ويرد عليه .

فقال : **(ولا ينسب الظلم إليه)** ثم بين طلاقـــة المشـيئة لينفى مـا لـزم المعتزلـة ممـا هـو أسـوأ من قولهم السـابق ، وهـو أن مشـيئة الكـافر غلبت مشـيئة الله فقال : **(وأنه يحكم فى ملكوته كيـف يشـاء بلا اعتراض ولا مرد لقضائه ولا معقب لحكمه)** .

 وفى ذلـك يقـول تعـالى : **{ إنـا كـل شـئ خلقنـاه بقدر }** (1) حتى لا يخرج خلقه عن مشيئتة وقدره

 وقـال : **{ فمـن يـرد الله أن يهـديه يشرح صـدره للإسـلام ومن يـرد أن يضـله يجعـل صـدره ضـيقا حرجـا كأنمـا يصعـد فـى السماء }** (2)

ليدلل على أن إرادته فى عباده ما هم فيه ، فالإيمان والكفر بمشيئة الله .

 وقـال تعـالى : **{ إن تكفـروا فـإن الله غنى عنكم ولا يرضى لعبـاده الكفـر وإن تشكروا يرضه لكم }** (3) .

 وقـال تعـالى : **{ والله لا يحـب الفسـاد }** (4) ليدلل على أن

1- القمر / 49 .

2- الأنعام / 125.

3- الزمر / 7 .

4- البقرة / 205 .

المعصية بمراده لا برضاه .

 وقد قال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم : **(إن الله يحب أن تؤتى رخصه كمـا يحب أن تؤتى عزائمه)** (1) .

ومنشأ الضـلال من التسـوية بين المشـيئة والإرادة الكونيـــة من ناحيـــة وبين المحبـــة والرضـــا وإرادتـــه الشرعية من ناحية أخرى ،.

- **فالجبرية قالت :** الكون كله بقضـاء وقـدر فيكـون محبوبا له .
- **والقدرية قالت :** ليست المعاصى محبوبـة للـه ولا مرضية له فهى ليست مقدره ولا مقضية بـل خارجـة عن مشيئته وخلقه .
- **أما أوائل الصوفية** فـإنهم قـالوا : إن إرادة اللـه وإن كانت صـفة من صـفات اللـه الأزليـة إلا أنهـا بين وجهين :

* الوجــه الأول : إرادة كونيــة قدريــة ، وهى المشــيئة الشـاملة لجميـع الحـوادث ومنهـا مايحبـه ومـا لا يحبـه ، وبهـا يصـدر الأمرالإنشـائى التقـديرى من اللـــه إلى جميـــع المخلوقـــات من الســـماوات والأرض والجـــن والإنس والملائكـة وكـل مـا فى الكون على سبيل الإنشـاء

1- أخرجه أحمد فى المسند حـ 2 ص 108 والطبرانى فى الكبير بـرقم (11880) وأبـو نعيم فى الحليـة حـ 8 ص 276 والـــدارمى فى مســنده بـــرقم (990) وعبـــد الـــرزاق فى مصـــنفه بـــرقم (20569) والهيثمى فى

مجمــع الزوائــد حـ 3 ص 162 والإحســان فى تقــريب صحيح ابن حبان برقم (354) .

والمتابعــة ، وهــذا الأمــر نافــذ لا محالــه فلا يتخلــف باعتبار معنى الربوبية الذى ذكره سهل بن عبــد الله (1) والــذى ورد فى قولــه تعــالى عن موســى عليــه السلام : **{ ربنــا الذى أعطى كــل شئ خلقه ثــم هــدى }** (2) وعن إبــراهيم عليــه السلام :

{ فــإنهم عــدو لى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهــو يهــدين والذى هو يطعمــنى ويسقـــين وإذا مرضـــت فهـــو يشفيـــن والـــذى يميتنى ثم يحـــين } (3) .

* الوجــه الثــانى : إرادة شــرعية إلهيــة يصــدر بهــا أمــر ابتلاىء خاص للإنسان والجــان ، قــد يلتزمــان بــه وقـــد يمتنعـــان عن تنفيـــذه ، وهـــذه الإرادة هى المتضمنة للمحبة والرضا وهى التى تستلزم أمر الله ونهيه ، فلا شــك أن الفــرق ثــابت بين إرادة المريـــد أن يفعـــل وبين إرادتـــه من غـــيره أن يفعل ، فــالأولى متعلقــة بفعلــه والثانيــة متعلقــة بفعل الغير .

1-حيث قال : (ومعنى رب العالمين سيد الخلق المربى لهم والقائم بأمرهم المصلح المدبر لهم قبل كونهم وكون فعلهم المتصرف بهم ، لسابق علمه فيهم كيف يشاء لما شاء وأراد حكم وقدر من أمر ونهى لا رب لهم غيره) انظر تفسير التسترى ص 7 .

2- طه / 50 .

3- الشعراء / 77 : 81 .

سئل سهل بن عبد الله عن قوله تعالى : **{ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين }** (1) .

قال السائل : **لما أمر إبليس بالسجود لآدم أراد منه ذلك أم لا ؟**

فقال سهل : **أراده ولم يرده** (2) .

ويشرح أبو طالب المكى كيف فرق سهل بن عبد الله بين الوجهين فى الإرادة فقال : **(يعنى أنه أراده شرعا وإظهارا عليه إيجابا وتكليفا ولم يرده منه وقوعا ولا كونا ، إذ لا يكون فى ملكه إلا ما أراد الله تعالى ، فلو أراد كونه لكان ولو أراده فعلا لوقع بقوله تعالى :**

{ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون } (3) **فلما لم يكن ، عُلم أنه لم يرده ، فقد كان الأمران معا :**

1- إرادته بالتكليف والتعبد .

2- إرادتـه بـأن لا يسـجد ، فلم يقـدر أن يمتنـع من ألا يسـجد كمـا لــم يقـدر من أن يمتنـع أن يؤمن) (4) .

1- البقرة / 34 .

2- قوت القلوب حـ 1 ص 128 .

3- يس / 82 .

4- السابق حـ1 ص 218.

وثمة فرق آخر دقيق فى كلام أوائل الصوفية ، وهـو تفريقهم بين المشيئة والإرادة والأمر فالمشيئة لاتكـون إلا كونية فهى من مـراتب القـدر وسـابقه لكـل مـا هـو كـائن حـتى مشـيئة العبـاد ، قـال تعـالى : **{ ومـا تشـاءون إلا أن يشـاء الله }** (1) .

أما الإرادة والأمر فيحملان الوجهين السابقين :

1- وجه بالمعنى الكونى المساوى للمشيئة .

2- وجه بـالمعنى الشـرعى الـذى يمكن للعبـاد مخالفته .

يقول المكى : **(والأمة مجمعة على قول : مـا شاء الله كان ، وما لم يشأ لم يكـن ، واجتمعت على قـــول : لا حـــول ولا قـــوة إلا باللـــه فهذا عام فى كل شئ ليس فى بعض الأشــياء دون بعض)** (2) .

ثم يفرق بين الوجهين فى الإرادة والأمـر فيقول بعد ذكره لسؤال السائل الـذى أجـاب عليـه سـهل بن عبـد الله :

(وكذلك القول فى كل مـا أمـر بـه وأراده ، أنـه أراد الأمر الشرعـــى ليكونـوا مكلفين متعبـدين ، ولم يـرده ممن لم يكن فيه الامتثال لأنه سبحانه وتعالى قال : **{ إنما قولنا لشئ إذا أردنـــاه أن نقـول لـه كـــن**

1- الإنسان / 30 .

2- السابق حـ1 ص 218.

فيكون } (1) .

فأخبر أنه إذا أراد شيئا كونه ، كما أنه إذا كـون شـيئا فقد أمر بتكوينه وأراده بدلالة كونه ، فلما لم يكن الأمر من العاصين علمنا أنه لم يرده إذ لـوأراده كـان فصـار كون الشئ دليلا على إرادتـه) (2) .

ثم يـذكر بعـد ذلـك العلـــة فى كـون هـذا التقسـيم فيقول :

(وهـذا أصـل الابتلاء وإرادة ظهـور البلاء ، يأمر الله تعالى بالشئ ويريـد كـون ضـده وقـد أراد الأمر به وحسب ، وينهى عـن الشئ ويريد كونه ، وقـد أراد النهـى عنـه فقـط) (3) .

ويـذكر الترمـذى كيـف أن الخلـق لا يخرجـون عن المشيئة لما سئل :

ما تقدير الله ؟

قــال : إبــراز علمــه فى عبيــده من الغيب بمشيئته ، فقد علم ما يفعل هذا العبد فأبرز علمه (4) .

ثم يبين أن الحكمة البالغة هى التى بـرزت يـوم المقادير من قبل خلق

1- النحل / 40 .

2- السابق حـ1 ص 218 .

3- السابق حـ1 ص 218 .

4- أدب النفس للحكيم الترمذى ص 94 .

السـماوات والأرض بخمسـين ألـف عـام ، وإنمـا كـانت حكمة بالغة لأنها بلغت علم المقادير ، ومنها جــرت إلى العباد وإلى الحكمة الظاهرة التى أدتهـا الرسـل إلى الأمم ، فـإن اللـه سـبحانه وتعـالى شـرع لكـل رسـول شريعة الأمر والنهى من الحكمـة البالغـة ، فمن عـرف ذلك فقد عرف الشرائع .

وإنما وضعت الشرائع ابتـلاء للعباد ، واستخراجا لمــا يثبت لهم فى ســابق علمــه لأن المقــادير وقت الابتلاء والعبودية ، فـالخلق فى المشـيئة والمقـادير مـأخوذون بالعبوديــة للــزوم الحجــة ، فمنهم من وفى ومنهم من أبق ولم ينقض العهد ، ومنهم من أبق ونقض العهد .

فإذا انتهى وقت الابتلاء والتمحيص عادت الأمور إلى ما كـانت عليـه فى البـدء ، فهى مقـادير ابتلاء وهى فى نفس الوقت مقادير تقسيم الحظوظ على العباد .

وتشـمل هـذه الحظـوظ مـا يتعلـق بحيـاة العبـد من إيمان وسعى ورزق وأجل وغير ذلك مما وضع فى جبله كل عبد ونشأته ، ولابد أن يظهر ذلـك فى واقـع الحيـاة الدنيا وأن يقوده إما إلى الجنة وإما إلى النار .

فكل ما يبرز فى عالم الابتلاء وعالم التدبير إنما هــو تحقيـق لمشيئة اللـه وما تم لهم يوم المقادير (1) .

1- الحكيم الترمـذى ونظريتـه فى الولايـة بتصـرف ص 315 ، 316 ، 317 .

ويورد المكى هذا التفصيل تحت بابين اثـنين باب الربوبية وباب العبودية :

* فالأمور الكونية والمعانى الحتمية الصارمة كالمشيئة والإرادة الكونيــة هى بــاب الربوبيــة وواجب على العبد الموحد أن يفرد الله بها .
* والأمــور الشــرعية والمعــانى الاختياريــة كــالإرادة الشرعية والأمر الشرعى هى باب العبودية وواجب على العبد أن يسلم لله فيهـا وأن يفـرده بالعبوديـة ولا يخضع لسواه .

يقــول المكى : **(وهــذا التفصــيل فى هــذه المعانى من الأحكام هو ظاهر العلم وفرض القدر وفحوى التنزيل والشرع والجبر للملـك الجبار ، يجبر خلقـه على مـا شـاء كمـا خلقهم لما شاء ويردهم إلى ما شاء ، كما ينشئهم فيما يشاء فـالحكم للـه العلى الكبـير الواحـد القهار)** (1) .

ثم يبين تعلق ذلك بالربوبية والعبودية فيقول :

1- يقهــر عبــاده كيــف شــاء ويجــرى عليهم مايشــاء ولــه الحجــة البالغــة والعــزة القــاهرة والقــدرة النافــذة والمشــيئة السابقة بوصف الربوبية وبحكم الجبريـة .

1- قوت القلوب ، حـ 1 ص 128 .

2- وعليهم الاستســلام والانقيــاد والطاعـــة والاجتـــــهاد طوعــا وكــــرها بوصـــف العبودية وبحق الملكة (1) .

فمن شأن أهل اليقين أن تنسـلخ نفوسـهم من التدبير والاختيار الذى يخـالف تـدبيره تعـالى واختيـاره ، بل قد سلموا إليه سبحانه وتعـالى التـدبير كلـه ، سـواء كان تدبيرا بواقع الربوبية فى الخلـق والإيجـاد والإمـداد والرزق والمنـع والعطـاء ، أو كـان تـدبيرا بواقـع معـنى العبوديـة فيمـا أمـر ونهى وفـرض وحـرم ، فلا يـزاحم تـدبيرهم ولا اختيـارهم اختيـاره لـتيقنهم أنـه الملـك القاهر القابض على نواصى الخلق المتـولى تـدبير أمـر العـالم كلـه ، وتيقنهم مـع ذلـك أنـه الحكيم فى أفعالـه الذى لا تخرج أفعاله عن الحكمة والمصلحة والرحمــة ، فلم يدخلوا أنفسـهم معـه فى تـدبيره لملكـه وتصـريفه أمور عبـاده ولا اعتراضـوا عليـه أو تسـخطوا تـدبيره أو تمنوا سواه بل همهم كله فى إقامة حقه عليهم (2) .

وبدون الفهم الصحيح للعلاقـة بين المشـيئة الإلهيـة المطلقـــة والإرادة الإنســانية الحادثـــة والتفريـــق بين الإرادة الكونية والإرادة الابتلائية والأمـر الكـونى والأمـر الابتلائى سـيكون الأمــر غامضـا متناقضـا ، وبـالتفريق بينهما جميعا سيكون الأمر واضحا جليا .

1- السابق حـ 1 ص 128 ، 129 .

2- طريـــق الهجـــرتين وبـــاب الســـعادتين لابن القيم الجوزية ، تحقيق محب الـدين الخطيب طبعـة المكتبــة السلفية ص 216 بتصرف .

- **فـالأمر الإلهى والإرادة الكونيـة والمشـيئة المطلقة** كل ذلك عندهم يعمل فى الجانب الجبرى من الإنسان وبقية المخلوقات فى الكون .
- **أما الجانب الاختيارى فى الإنسان** فـإن الإرادة الدينية أو الأمـر الإلهى الابتلائى موجـه إليـه ولا يعـنى ذلك أن هناك من يفعل أو هناك ما يحدث فى الكـون بدون أمر الله الكونى أو بخلاف ما يريـد ، فـإن فعـل الإنسان المخالف لأمر الله الابتلائى التخييرى موافـق لأمره الكونى الذى هو قضاؤه وقدره ، وأمـره بجعـل الإنسانحرا يفعل ما يختار لابتلائـه ، هـذا الأمـر كـونى عـام وشـامل وسـابق على الأمـر الابتلائى فى يـوم التقـدير وعلم التـدبير قبـل التكـوين فى الحكمـة الظاهرة (1) .

وكذلك لا يعنى ذلـك عنـدهم أن الأمـر الإلهى متعـدد ومتنوع وأن الإرادة الإلهية متعددة ومتنوعـة وإنمـا هـذه صـفات اللـه ، فـالإرادة واحـدة ولكنهـا إذا صـدرت للمخلوقات بكلمة كن المفصلة والمظهرة كما يسـميها سـهل بن عبـد اللـه (2) فإنهـا تصـبح ابتلائيـة تخييريـة للإنسان وكونيه جبريـة لغـيره من المخلوقـات الـتى لم تخلق للابتلاء .

ولـذلك فـإن المكى قـد وفـق عنـدما حصـر أعمـال العباد فى ثلاثة أنواع

____

1- انظر الحكيم الترمذى ونظريته فى الولايـة ص 316 .

2- انظر ص 131 .

تبين العلاقة بين المشيئة الإلهية والإرادة الإنسانية :

[1]- الفرض وهو ما أمر به العباد على سبيل الإلـزام وفيه تجتمع ثلاثة معان عند استجابة العبد :

1- المشيئة الشاملة والإرادة الكونية المطلقة .
2- الإرادة الابتلائيـــة والأمـــر التشـــريعى المتضمن للمحبة .
3- إرادة العبد بالامتثال للشرع واختياره تدبير الله (1) .
وفى تلــك الحالــة يتعامــل العبــد مــع أوامــر اللــه التشريعية على أنه أسلم نفسه لله وانسلخ من التــدبير والاختيار الذى يخالف تدبير الله واختيـــاره ، فينخـــرط فى سلك سائر الكائنات العابدة ، وكأنه يقف معهــا فى صف واحد يجمعهم وصف العبوديــة ، كمـا قـال تعـالى فى جمعــه للكائنــات العابــدة مــع عبوديــة الإنســان :
{ ألم تــر أن اللــه يســجد لــه من فى السماوات ومن فى الأرض والشمس والقمــر والنجــوم والجبــال والشــجر والدواب وكثير من النــاس } (2) فجعلهم صفا واحدا فى السجود مع كون المخلوقات خارجة عن الابتلاء والانسان داخل فيه .
[2]- النوع الثانى فى حصر أعمـال العبـاد هـو النفل وهو ما أمر به
____
1- قوت القلوب حـ 1 ص 127 .
2- الحج / 18 .
العباد لا على سبيل الحتم والإلزام وفيه معنيان :
1- المشيئة الشاملة والإرادة الكونية المطلقة .
2- محبة الله له إذ ندب إليه .
فإذا فعل العبد ما ندب الله إليه فقد وافق المشــيئة والمحبـــة يقـــول المكى : **(ونقـــول : إن**

النفل لا بأمر الله الإلزامى لأنه لم يوجبـه ولم يعـاقب على تركـه ولكن بمحبـة اللـه ومشـيئة جل وعلا ، لأنه سـبحانه شـرعه ونـدب إليـه) (1) .

وكثــير من أوائــل الصــوفية نزلــوا المســتحبات أو المنــدوباب منزلــة الواجبــات بغيــة التقــرب إلى اللــه وسوف يأتى تفصيل ذلك إن شاء الله .

[3]- النــوع الثــالث فى حصــر أفعــال العبــاد

المعصية وهى مخالفة العبد لإرادة الله التشريعية وفيها يجتمع من المعانى :

1- المشــيئة الشــاملة والإرادة الكونيــة المطلقة .

2- مخالفة الإرادة الإنسانية الحادثة للأمر الشرعى والإرادة الشرعية .

يقـول المكى : (إن المعصـية لا بـأمر اللـه لأنـه لم يشرعها على ألسنة المرسلين ، ولا بمحبة الله لأنه قــد كرهها إذ لم يأمر بها ولم يندب إليها ـــــــــــــــــــــــــ

1- السابق حـ 1 ص 127.

ولكن بمشيئة الله جلت عظمته ألا يخرج شئ منها كمـا لم يخرج شئ من

علمه ، فقد دخل كل شئ فيها كما دخـل كـل شـئ فى العلم) (1) .

فالله سبحانه وتعـالى أراد بـإرادة نافـذة وأمـر أمـرا كونيا سابقا على الأوامر الابتلائيـة فى الـزمن السـحيق أن يكون الإنسان حرا وأن يفعـل مـا يختـاره حـتى ولـو كـان معارضـا وخارجـا عن الأمـر الابتلائى ، وكـل ذلـك لحكمــة الابتلاء وهى الغايــة القصــوى من خلــق عــالم الشهادة وعـالم الغيب ، فـإذا فعـل الإنسـان أى فعـل مخـالف لأوامـر اللـه ونواهيـه التشـريعية ، فإنـه

يمارس الحرية ويختار ما ينبع من إرادتة وينفذه بأمر الله الكونى الأول الذى أصبح به مختارا ، ويصبح معنى القدر الإلهى بالنسبة للإنسان قدرا من الإنسان العاصى لعصيانه ، أى أن الله قدر منه المعصية ومكنه منها بالأمر الكونى الذى به أصبح حرا .

ومن ثم يكون معنى الاختيار بالنسبة للإنسان عودة اختيارية من المختار إلى أمر الله الكونى الذى تسير به كل الكائنات المخلوقة لله سبحانه وتعالى .

يقول المكى فى إجمال هذا المعنى : (فالله سبحانه عالم بما أراد وقد

____

1- السابق حـ 1 ص 127 ولذلك أخرج الله العصاة من أية الحج رقم 18 ولم يجعلهم فى صف الساجدين فقال : **{ وكثير حق عليه العذاب }** ثم أدخلهم فى المشيئة فقال : **{ ومن يهن الله فماله من مكرم إن الله يفعل ما يشاء }** .

سبق به علمه ، كذلك هو مريد لما علمه أظهرت إرادته سابق علمه وكشف علم الغيب بظهور إرادته الشهادة ، فهو عالم الغيب والشهادة فالغيب علمه والشهادة معلومة ، فكيف يخالف المعلوم العلم وهو إجراؤه والإرادة نفذت العلم فى معلومات الخلق ، وهذا فرض التوحيد) (1) .

وبذلك نصل إلى أن أوائل الصوفية وفقوا إلى تقديم الحل المقنع فى التوفيق بين المشيئة الإلهية المطلقة والإرادة الإنسانية الحادثة وأثبتوا افتقارهم إلى تدبير الله لهم ، فلا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا يملكون موتا ولاحياة ولا نشورا فعادوا بفقرهم إلى ربوبيته لعلمهم بفقر المخلوقات بأسرها إلى مشيئته وتدبيره ، وعادوا بفقرهم إلى ألوهيته كما افتقر أنبياؤه ورسوله وعباده الصالحين إليه لعلمهم أن هذا هو الفقر

النافع ، فرأوا أعمالهم مستحقه عليهم بمقتضى كـونهم مملـوكين مسـتعملين فى أوامـر سـيدهم ، فأنفسـهم مملوكة وإرادتهم لسيدهم وأعمالهم مسـتحقة بمـوجب العبودية تحقيقا لقولــه سـبحانه : **{ إيــاك نعبــد وإيـــاك نستعــين }** (2) .

1- السابق حـ 1 ص 127 ، 128 .
2- انظــر الــرزق الحلال وحقيقــة التوكــل على اللــه للمحاسبى ص 33 : 39 وانظر مدارج السالكين حـ 2 ص 45 ، وما بعدها ، وطريق الهجرتين ص 11 .

الباب الثالث

الحرية من الجانب العملى السلوكى

وقد اشتمل على فصلي :

الفصل الأول : الاستطاعة البشرية والفاعليــة الإلهية

الفصـــل الثـــانى :الحــــرية ومنهــــــــج العبـــوديــــة

الفصل الأول

الاستطاعة البشرية والفاعلية الإلهية

وقد اشتمل على أربعة مباحث :

المبحـث الأول : الاسـتطاعة مــن مقومـات الحـــــرية عند الصوفية

المبحـث الثـانى: الاستطـــاعـــة وعلاقتهــــا بالعـــــلل والأسبـــــاب

المبحث الثالث : العلاقة بين الفاعلية الإلهيـة والفاعليـة الإنسانية

المبحث الرابع : الحكمـــة مـــــن خلـــــق الأواســـط والأسبــــــاب

*** المبحـث الأول ***

الاستطاعة مـن مقومات الحــــرية

سبق أن علمنا أن أوائل الصوفية أثبتوا اختيـار حـرا للإنسان ، بإرادة ذاتية وأصـلية فيـه ، وأن الـذى يختـاره سواء كان طاعـة أو معصـية فإنـه لا يخـرج عن مشـيئة الله الشاملة وإرادتـه الكونيـة المطلقـة وإن كـان ذلـك مخالفا كمعصية لأمره الدينى التشريعى ، وهم يعتبرون إثبات الاختيار الحر مقوما أساسيا فى إثبات حرية العبد ووقوعـه تحت المسـاءلة وتوقيـع الجـزاء فى الآخـرة ،

وهنا نجـدهم يثبتـون مقومـا آخـر من مقومـات الحريـة يتمثل فى إثبـاتهم لاسـتطاعة الإنسـان على تحقيـق مـا يختــار وقدرتــه عليــه فهم علمــوا وأيقنــوا أن اللــه اســتخلفهم فى الأرض وخــولهم واســترعاهم فيهــا ليبتليهـم ، ويقرر أبو سعيد الخراز فى وضـوح تـام هـذه الحقيقة الهامــة فيقــول : **(إعلم أن الأنبياء عليهم السلام والعلماء والصالحين من بعدهم رضــى اللــه عنهم أمنــاء اللــه تعــالى فى أرضــه على ســره وعلى أمــره ونهيــه وعلمــه وموضــع وديعته ، والنصـحاء لـه فى خلقـه وبريتـه وهم الــذين عقلــوا عن اللــه تعــالى أمــره ونهيــه وفهموا لمـاذا خلقهم ومـا أراد منهم وإلى مـا ندبهم)** (1) .

1- الطريق إلى الله لأبى سعيد الخراز ص 32 .

ثم بين أنهم أصغوا إلى الله بآذان فهومهم الواعية ، وقلـوبهم الطـاهرة ولم يتخلفــوا عن ندبتـه ، فسـمعوا الله عز وجل يقول :

{ آمنـو باللـه ورسـوله وأنفقـوا ممـا جعلكم مستخلفين فيه } (1) .

ثم قال : **{ ثم جعلناكم خلائف فى الأرض من بعدهم لننظر كيف تعلمون }** (2) .

وقال تعالى : **{ لله مـا فى السـموات ومـا فى الأرض }** (3) .

وقال تعالى **: { ألا له الخلق والأمر }** (4) .

ويصل بعد ذلك إلى الحقيقة التى أيقن بها المؤمنون وجعلوها نصب أعينهم وفى كل أفعالهم فقال : **(فأيقن القوم أنهم وأنفسهم لله تعالى وكذلك ما خولهم وملكهم فإنما هو له ، غير أنهم فى دار اختبار وبلوى ، وخلقوا للاختبار والبلوى فى هذه الدار)** (5) .

والمحاسبى يجعل هذه الحقيقة فى كتابه الرعاية أول ما يجب على العبد معرفته والفكر فيه ويبوب لها بابا مستقلا يقوله فيه :

1- الحديد / 7 .
2- يونس / 4 .
3- البقرة / 284 .
4- الأعراف / 54
5- السابق ص 32 .

(فتعلم أنك لم تخلق عبثا ولم تترك سدى ، وإنما خلقت ووضعت فى هذه الدار للبلوى والاختبار لتطيع الله عز وجل أو تعصى فتنقل من هذه الدار إلى عذاب الأبد أو نعيم الأبد) (1) .

ومن ثم فإن الاستطاعة تظهر فى المفهوم الصوفى لأوائل الصوفية من خلال فهمهم للغاية من خلق الإنسان ، ووجوده فى هذه الأرض بالكيفية التى تحقق معنى الابتلاء ، فالله سبحانه وتعالى استخلف الإنسان فى الأرض وخوله فيها ، وهذا يعنى أن طبيعة الكائنات وماهية المخلوقات المستخلف عليها فى الأرض تسمح بقبول فعل الإنسان وتأثيره فيها ، كما أن إقامة النواميس الكونية والقوانين الطبيعية بحيث تمكنه من التملك السيطرة عليها دليل حازم على

إثباتهم للاستطاعة والقـدرة ، ويـزدار الأمـر وضـوحا إذا تعرفنـــا على الاســتطاعة من خلال دراســتهم للكـــبر والعجب والغرور .

فالله سـبحانه وتعـالى أعطى العبـد ومكنـه فأصـبح قادرا مستطيعا فـاعلا فـأمره سـبحانه بالتواضـع واللين وأن يرد الفضل إلى خالقه وأن يعرف قدره فى بدايتــة وحياته وعاقبتـه .

يقول المحاسبى : **(أحياه بعـد مـا كـان ميتـا ، وأسمعه بعد ما كان**

____

1- الرعاية ص 47 .

أصما ، وبصره بعد ما كان لا بصـر لـه ، وقـواه بعد أن كان ضعيفا وعلمه بعد أن كان جـاهلا ، وأغناه بعد أن كان فقيرا ، وأشـبعه بعـد أن كان جائعا ، وكساه بعد أن كان عاريـا ، وهـداه بعد أن كان ضالا) (1) .

فإذا تذكر العبد وتفكر فى الأشـياء وعلم أن حولـه وقوته من الله واستطاعته منحـة وفضـل منـه سـبحانه وتعــالى ، زال عنــه الكــبر ولزمــه الخضــوع والذلــة والتواضـع للمـولى عــز وجـل والشـكر للمنعم تعـالى والانكسـار للخـوف من العقـاب ويـذكر المحاسـبى أن الكبر والاستطالة على وجهين :

أحدهما : بين العباد وربهم وذلك يكون بالامتنــاع عن العبادة مع القدرة عليها كما قال سبحانه :

{ وإذا قيل لهم اسجدوا للرحمن قــالوا ومـا الـرحمن أنسـجد لمـا تأمرنـا وزادهم نفورا } (2) فلما امتنعـوا مـع الاسـتطاعة فى الدنيا سلبها الله منه فى الآخـرة ، قـال تعالـــى :

{ يوم يكشف عــن ســاق ويدعـــون إلى السجـــــــود فـــــــلا يستطيعــــــون

خاشعةأبصارهم ترهقهم ذلـة وقـد كـانوا يدعــون إلى السجـود

1- السابق ص 317 .
2- الفرقان /60 .

وهـم سالمـون } (1) **.**

الوجـه الثـانى : بين العبـد وبين العبـاد ويكـون ذلـك بالتعظم عليهم إما باحتقارهم أو رد الحــق عليهم أن يقبلــه منهم وهــو يعلم أنــه الحــق أو أمــره بعضهم بخير أو نهـاه عن منكـر ، ويسـتدل لـذلك بحديث سلمة بن الأكوع حيث **قال النبى صلى الله عليه وسلــم لرجل : كل بيمينك .**

قال : لا أستطع .

فقال النبى صلى اللـه عليـه وسـلم : لا استطعت ما منعك إلا الكبر .

قال سـلمة : فمـا رفعهـا بعـد ذلـك إلى فيه (2) .

ويقيم الحكيم الترمذى الأساس فى نظريتـه للولايـة بغض النظـر عن آرائـه المنحرفـة فيهـا على أن الآدمى دون ســـائر المخلوقـــات هـــو المحـــل الوحيـــد

1- القلم 42 ، 43 .
2- السابق ص 305 ، 306 والحديث أخرجه مسلم فى كتـاب الأشـــربة ، بـاب آداب الطعـام بـرقم (2021) وأخرجه أحمد فى المسند حـ 4 ص 45 ، 46 والدارمى فى سـننه حـ 2 ص 97 وابن حبـان فى كتـاب التـاريخ ، بـاب المعجـزات بـرقم (6512) والـبيهقى فى دلائـل النبويـة حـ 6ص 238 ، والطـبرانى فى الكبـير 6235 وهذا الرجل هو بسر بن راعى العير .

لهـذه الولايـة ، وذلـك لأن اللـه هيـأه وأعـده الإعـداد المناسب لهـا وجـوهر ولايـة المخلـوق للـه فى الخدمـة والوقـوف بين يديـه والمبـادرة إلى تـدبيره والمسـارعة فى تنفيذه ، يدل على ذلك عنده قولـه تعـالى : **{ إنى جــاعل فى الأرض خليفـة }** (1) .

وللخليفة شأن فى ملك المستخلف ، والآدمى هـو المخلوق الوحيـد الـذى خلـق لـذلك (2) فقـد خلـق آدم بيده وعلمه الأسماء كلها ، وقد خلقنـا لمحبتـه ، وجعلنـا موضعا لتوارد مختلـف أحكامـه ، واقتضـى منـا الخدمـة والوقوف بين يديه وتنفيذ هذه الأحكام .

أما سائر المخلوقـات فقـد خلقت بقولـه : **{ كن }** وجعلت مسخرة لنا ولا تكليف له فيها ، فالسخرة لازمة لا تزول ، وهى قائمة فيها حتى تعود إلى الأصـول الـتى خلقت منها فما خلق من التراب عـاد ترابـا ، ومـا خلـق من النار عاد إلى النار الـتى خلـق منهـا ، ويبقى الآدمى فى دار البقاء فى أبديته التى خلق لها (3) .

ومن هنـا يبـدوا واضـحا أن معـنى السـلطة والولايـة والحكم مشتق من

____

1- البقرة / 3 .

2- الرياضة وأدب النفس للحكيم الترمذى ص 34 .

3- نـوادر الأصـول للحكيم الترمـذى ص 382 ، ـ 383 بتصرف .

معـنى الخلافـة ، وأن الخلافـة تكـون على أشـياء دون مسـتوى الخليفـة فى الدرجـة الوجوديـة ، وأن الآدمى مؤهل بمؤهلات يتمـيز بهـا عن غـيره تجعلـه أهلا لهـذه المهمة من دون الآخرين ، وذلك يستتبع أيضا أن يكــون الإنسان مكلفا من قبل الله بأمور خاصة .

فيـــذكر الســـراج الطوســـى فى بـــذل الوســـع والاستطـاعة فى تحقيـق التكليـف والعبوديـة أن معـنى قوله عز وجل :

{ اتقــوا الله حــق تقــاته } (1) .

راجع إلى قوله : **{ فاتقــوا الله مـا اسـتطعتم } (2) .**

والتشديد فى قوله : **{ فاتقوا الله ما اسـتطعتم }** لأنك لو صليت ألف ركعة واسـتطعت أن تصـلى ركعة أخرى ، فأخرت ذلك إلى وقت آخـر فقـد تـركت اســتطاعتك ، ولــو ذكــرت اللــه تعــالى ألــف مــرة واستطعت أن تذكره مرة أخرى فتـؤخر ذلـك إلى وقت ثان فقد تركت استطاعتك .

وكذلك لو تصدقت على سـائل بـدرهم ، واسـتطعت أن تعطيه درهما آخر ، أوحبـة أخـرى فلم تفعـل ذلـك فقد تركت

____

1- آل عمران / 102 .

2- التغابن / 16 .

استطاعتك ، فمـن أجـل ذلك قلنا بالتشديد فى قولـه : **{ مــا استطعتــم }** (1) .

يقول الترمـذى فى كتابـه نـوادر الأصـول : **(ولما كــانت ســائر المخلوقــات مســخرة مجــبرة لا تكليف عليها وكان الآدمى على خلاف ذلـك ، كــان من شــأنه أن يوضــع فى دار ابتلاء وأن يكون ذا مشـيئة يمكن أن تتعلـق بـأى حـظ من حظوظ هذه الـدار ، وأن يكـون الأمـر من اللـه علينــا خاصــة من طريــق الكلفــة والأســباب والاجتهــاد والبلــوى ، حــتى يكــون لنــا اســم**

ومحمدة ، وفضيلة على سائر الخلق ، إذ لـو لم يكن الأمــر على طريــق الاجتهــاد والتكليــف وإقامة الحدود لمـا كـان لنـا اسـم ولا نعت ولا صفة) (2) .

1- اللمع ص 122 قلت : فرق بين الاسـتطاعة فى آداء الواجب وترك المحرم والاستطاعة فى آداء المسـتحب وتـرك المكـروه فـالأول يجب أن يؤديـه المسـلم مـا استطاع أما الثانى فهو مخير فيه مع وجـود الاسـتطاعة ولا يعد مقصرا فى تقوى الله فكلام السـراج فيـه نظـر لأن لازمه تـرك الحيـاة بالكليـة والسـلبية حيالهـا وليس هذا ما دل عليه الشرع وإنمـا دل على أن الحيـاة ابتلاء فيها الغـنى والفقـير والقـوى والضـعيف وغـير ذلـك من لوازم الابتلاء ممـا يعـروف فى بابـه ، فيجب التنبـه إلى أننـا أورنـا كلامـه للاسـتلال على اعتقـدهم فى اثبـات الاستطاعة فقط دون إقرار وتسليم .

2- السابق ص 314 .

وكما أنهم أثبتوا استطاعة الإنسان وعلوه على ما دونـه من المخلوقـات المسـخرات لـه ، فـإنهم أيضـا أثبتـوا استطاعة ذاتية تقوم فى النفس البشـرية وتتمثـــل فى اســـتطاعتة على إتمـــام الفعـــل المـــراد لـــه ، وهـــذه الاسـتطاعة يخلقهـا اللـه لهم مـع أفعـالهم ، فـالجوارح الظاهريـة هى أدوات الاسـتطاعة الـتى تحـول الفعـل الداخلى للقلب والممثل فى الإرادة وتوابعهـا من أمـور الاختيار إلى فعل خارجى ظاهر ملموس يحاسـب عليـه الإنسان ويكتسب به الحسنات والسيئات .

ويحكى الكلابـــاذى إجمـــاعهم علـــذلك فيقـــول :

(وأجمعـــوا أنهم لا يتنفســـون نفســـا ، ولا يطرفون طرفـة ولا يتحركـون حركـة إلا بقـوة

يحـدثها اللـه تعـالى فيهم واسـتطاعة يخلقهـا الله لهم مع أفعالهم لا يتقدمها ولا يتأخر عنها ولا يوجد الفعل إلا بها) (1) .

وفهم الاسـتطاعة على هـذا النحـو يبطـل وصـف الإنسان بأن له قـوة مسـتقلة يفعـل بهـا مـا يشـاء ممـا يـوحى بإمكانيـة حـدوث فعـل خـارج عن قضـاء اللـه وقدره ، ولذلك فالاستطاعة ليسـت محدثـة للفعـل لأن الخالق هو اللـه وحـده وإن كـانت الاسـتطاعة مكتسـبة للإنسان .

وقـد ذم المحاسـبى إضـافة العمـل إلى النفس على سبيل الكبر ونسيان

____

1- التعرف لمذهب أهل التصوف ص 63 .

الفضل الذى من الله به على العبد إذ خلقه ووفقـه إلى العمل .

قال له سائل فى ذلك : وكيـف لا أضـيف الشـئ إلى نفسى ولم يعمل ذلك العمل غـيرى ، ولـو لم أعلم أنى أنا الذى عملته ما عددته نعمة ولا رجوت ثوابه من اللـه عز وجل ؟

فأجابه المحاسبى بأنـه ليس من العجب علمـك بمـا عملت ولكن بالإضافة إلى نفسـك بالحمـد لهـا ونسـيان منة المولى بذلك ، فأمـا إذا علمت أن ذلـك كـان بمنـة الله عز وجل ، وأن نفسـك لـو تركتهـا ومحبتهـا لـركنت إلى خلاف ذلك فتفرد الله بالمـنة فـى ذلــك ، فلســت معجـبا (1) .

ويفـرق المحاسـبى بين معرفـة العبـد أن العمـل تم باستطاعته ، وبين إضافة الفضـل فى هـذه الاسـتطاعة إلى نفسـه وحمـده عليهـا فيقـول : **(معرفتك بأنـك عملت العمـل بالاسـتطاعة معرفـة قائمـة فى الطبع بالاضطرار لا تقدر أن تجحد أنـك عملتـه**

ولا تحتــاج إلى ذلــك ولا مخاطبــة نفســك بــه ولكنك مع ذلك تتناسى فلا تنظر فيـه إلى منـة اللـه عـز وجـل إذ وهبـك القـدرة على العمـل والطاعة ، فلو كان الله عز وجل لم يمن عليك بشـئ من ذلــك ، أكنت تقــوى عليــه أو تــرى لنفسـك من القـدرة فى القـوة والاسـتطاعة على إنفاذه ؟) (2) .

1- الرعاية ص 271 باب لإضافة العمل إلى النفس .

2- السابق ص 271 .

وفى إثبات الاستطاعة مخلوقة لله والعـود بالفضـل فيها إلى الله لا إلى شئ سواه ، ما قاله الله فى كتابــه يوم حنين لأصحاب محمـد صلى اللـه عليه وسلــم وهم خــير عصــابة على وجــه الأرض : **{ ويــوم حــنين إذ أعجبتكـــــم كـــثرتكم فلم تغن عنكم شــــيئا ، وضـــاقت عليكم الأرض بمــا رحبت ثـــم وليتم مدبــرين }** (1) .

وذلك أن قائلا منهم قـال : **(لن نغلب اليـوم من قلة)** فلما أعجبوا بكثرتهم واتكلوا على قـوتهم ونسـوا اللـه عـز وجـل فى ذلـك ، رفـع اللـه فى ذلـك الـوقت النصــر عنهم ليعلمهم أن كـثرتهم لا تغــنى عنهم شــيئا وأن الله عز وجـل الناصـر الغـالب لهم على عـدوهم لا عــددهم ، ثم عطــف اللــه عـــز وجـــل عليهم بالنصــر إكرامـا لنبيـه صلــى اللــه عليــه وسلــم ولهم ونصـرا لدينه (2) .

1- التوبة / 25 .

2- انظـر فى غـزوة حـنين : مغـازى الواقـدى حـ 3 ص 885 ، طبقــات ابن ســعد حـ 2 ص 108 ، وتــاريخ

الطبرى حـ 3 ص71 وسـيرة ابن هشـام حـ 2 ص 437 والكامـــل لابن عـــدى حـ 2 ص 135 وانظـــر صـــحيح مسلم ، كتاب الجهـاد ، بـاب فى غـزوة حـنين حـ 5 ص 166 ،ـ 167 ، والمسـتدرك للحاكـــم حـ 3 ص 327 والمســـــند لأحمـــــد بن حنبـــــل حـ 1 ص 207 ، وانظـــرالرعاية لحقـــوق اللـــه للمحاسـبى ص 272 ، 273 .

قال ابن خفيف :

(هـــذا معتقـــدى ومعتقـــد الأئمـــة الســـادة والعلماء القـادة الـذين قبلى وفى زمـانى من أهل السنة والجماعة) (1) .

فذكر فى بيان الاستطاعة :

(ويعتقـد أن الأفعـال لله تعالى لا للخلـــق والاكتساب للخلـق والاكتسـاب خلـق اللـــه فلا خلـق لهـم) (2) .

وبيان ذلك أن الله تعـالى هـو المعطى ، يعطى من يشاء مـا يشـاء ولا يعطى لمن لا يشـاء ، فالأفعـال للـه والكسب للعبيد فكل ما يصـدر عن العبـد من طاعـة أو معصية ، فاللـه يخلقها بتمامهـا ، ولكن صـورة الكسـب للعبـد ، والكسـب أيضـا مخلـوق من اللـه تعـالى لا من خلق العبد ، فليست للعبد قدرة على خلق شئ قط ولا يكون أبدا (3) .

أما موقع الاستطاعة من الفعل فيقول فيها :

(ويعتقد أن الاستطاعة والقدرة مع الفعـل ، أى حينما يشتغل العبد به ويفعلـه يهبـه اللـه القدرة ، وأنه يخلق هذا الفعـل أيضـا ، وذلك أن القدرة له قبـل أن ينشغـل العبـد بـه

1- سـيرة الشـيخ الكبـير أبى عبـد اللـه ابن خفيـف ص 342 .
2- السابق ص 349 .
2- السابق ص 349 .
ويعتقـد أن اللـه تعالــى لا يجبـــر عبـاده على معصيته) (1) .
وهذا التصور للاستطاعة البشرية الحادثـة يـدل على أن أفعـال العبـاد الـتى بهـا صـاروا مطيعين أو عصـاة مخلوقة لله تعالى ، وأن الله منفرد بالخلق والإيجاد كما قال تعالى : **{ الله خالق كل شئ }** (2) .
وأوائل الصوفية لا يعتبرون الاستطاعة البشــرية هى الأعضــاء والجــوارح بـل هى مـا يـرد من القــوة على الأعضاء السليمة ، فهى ليست قوة أو ملكـة دائمـة فى النفس الإنسانية .
يقـول الكلابـاذى : **(ولو كـانت الاسـتطاعة هى الأعضاء السليمة لاستــوى فى الفعل كـل ذى أعضاء سليمة ، فلما رأينا ذوى أعضـاء سـليمة ولم نر أفعـالهم ، ثبت أن الاسـتطاعة مـا يـرد من القوة على الأعضـاء السليمة)** (3) .
وتلك القـوة متفاضـلة لـديهم فى الزيـادة والنقصـان وفى وقت دون وقت ، ويستدل الكلاباذى على أن لكـل فعل استطاعة يخلقها الله عز وجل فى العبد يفعل بهـا هذا الفعل الـذى خلقت من أجلـه ، وأنهـا لا تبقى بعـده ولا تصلح لغيره مـن الأفعــال بقــوله تعــالى فى قصـة موسى ـــــــــــــــ
1- السابق ص 356 ، 357 .
2- الرعد / 18 .
3- التعرف ص 63 .

عن العبـــد الصـالح : **{ إنـك لـــن تسـتطيع معــى صبـرا }** (1) .

ومعلـوم أن ثمـة اسـتطاعات لأفعـال أخـرى كـالتى يقـــوم بهـا موســى عليــه الســلام فى هــذا الــوقت ، فالإنسان مستطيع بالنسبة لفعل عاجز بالنسبة لغـيره ، ويسـتطيع بالنسـبة لفعـل مـا فى وقت عجـز عنـه فى وقت آخر .

ومن ثم فاسـتطاعة الإنسـان ليسـت قـوة أو قـدرة ذاتيـة مستقلة ومصاحبة له طيلة حياته (2) .

فالإنسـان ليس محـدثا لفعلـه أو خالقـا لـه بـل فعلـه مخلـوق للـه ، ويقتصـر دورالاسـتطاعة البشـرية إيـزاء الفعل المخلوق لله على اكتسابه فقط وبـذلك يتوافـق مفهوم الاستطاعة ودورها مع مفهوم الربوبية والفاعلية الإلهية المتقدم وإفراد الله بالخلق والأمر .

والكسـب ليس منسـوبا للعلـل الطبيعيـة وإنمـا هـو للفاعليــة الإنســانية فقــط حيث هــو منــاط التكليــف والثواب والعقاب ، ولما كانت الطبيعات غـير مكلفـة أو محاسبة فليس لديها اختيـار أو اسـتطاعة ، وخلـق اللـه عز وجل لأفعال الإنسان الخلقيـة لا يتعـارض مـع الأمـر والنهى والثواب والعقاب فى الآخرة ، بل يتوافـق معـه لأن الإنسـان لا يكتسـب من الأفعـال إلا مـا يختـاره هـو اختيـارا حـرا ، ومن ثم فهـو لا يجـازى على ذات الفعـل لأن ـــــــــــــــــــــ

1- الكهف /66 .

2- السابق ص 64

ذلك من خلق الله وإنما يجـازى على المعصـية الخلقيـة للفعـل المكتسـب أو على الطاعـة الخلقيـة المبنيـة على الاختيار والنية والقصد من حيث كونه خيرا أو شرا حسنا أوقبحا .

والحكم بالحسن والقبح للفعل يبنى على أنه نتيجة لاختيار العبد وليس نتيجة لخلق الله لهما ، فإن وافق الشرع كان خيرا وإن خالفه كان شرا ، فعلة كون الفعل خيرا أوشرا هو الاختيار الإنسانى ، أما علة حدوث الفعل بعد أن لم يقع بصرف النظر عن كونه خيرا أو شرا فهى خلق الله عز وجل من ناحية وخلقه لصفات الإنسان المكتسبة له بناء على اختياره من ناحية أخرى .

ومن ثم يقرر الكلاباذى أن أوائل الصوفية أجمعوا على أن لهم أفعالا وأكسابا على الحقيقة هم بها مثابون وعليها معاقبون ولذلك جاء الأمر والنهى (1) .

ويكاد يفهم الكلاباذى الاكتساب بمفهوم الأشاعرة له حتى يمكن القول : إنه يبدو متكلما نحو هذه المسألة أكثر من كونه صوفيا ، ودليل ذلك قوله : **(إن معنى الاكتساب أن يفعل بقوة محدثة)** (2) .

وقد حاول الأشعرى فى هذا المجال التوفيق بين أن يحدث

____

1- السابق ص 64 .

2- السابق ص 64 .

الفعل بقدرة الله تعالى وفاعليته خلقا وإبداعا مع نسبة الفعل بوجه ما إلى الاستطاعة البشرية حتى يوجب ذلك على العبد المسئولية والجزاء .

شكل يوضح الفرق بين مذهب أوائل الصوفية ومذهب الأشعرى فى مسألة الكسب

أولا : مذهب أوئل الصوفية :

نجد الخير

الإرادة الاستطاعة

نجد الشـر

(الاستطاعة صالحة للضدين من الأفعال بين الخير والشر)

ثانيا : مذهب الأشعرى :

نجد

الخير

الاستطاعة

الإرادة

الاستطاعة

نجد الشـر

(الاستطاعة صـالحة لواحـد من الفعلين فقـط إمـا الخـير وإمـا الشر)

وملخـص هــذه المحاولة الفكـرية أن اللـه حين يـرى من العبد عزما بالاستطاعة البشرية التى يقتصر دورهـا على اكتساب الفعل المخلوق .

فـدور الاسـتطاعة فى فعلهـا ليس فى إحداثـه من عدم ، أى خلقه وإيجاده وإنما هـو فى اكتسـاب الفعـل الذى يخلقه الله عز وجـل للعبـد حالـة اختيـاره وعزمـه وتصميمه عليه ، من أجل ذلـك أصـر الأشـعرى على أن تكون الاستطاعة مع الفعل للفعـل لا تسـبق الفعـل ولا تبقى بعده (1) .

إن دور المسـئولية الإنسـانية عنـد أوائـل الصـوفية يكمن فى امتثال الإنسان الطاعة فى الوقت الذى كـان فيـه مسـتطيعا لاكتسـاب المعصـية والعكس كـذلك ، فالاسـتطاعة عنـدهم مجـردة وصـالحة للضـدين من الأفعال خيرا كان أو شـرا ، أمـا الأشـعرى فالاسـتطاعة عنده يخلقها الله لا تصلح إلا لفعـل واحـد ، وذلـك عنـد إرادة العبد للخير أو الشر فهى صالحة للخـير فقـط أو الشر فقط وهذا فيه شبه من مذهب الجبرية .

ويـذكر الكلابـاذى فى اعتقـاد أوائـل الصـوفية ، أنهم مختارون لاكتسابهم مريدون له وليسوا بمحمولين عليه ولا مجبرين ولا مستكرهين له (2) .

ولكن هذا الاختيار ليس على التفويض كليا أزليـا من الله عز وجل

1- اللمع فى الرد على أهل الزيغ والبدع ص 72 .

2- التعرف السابق ص 64 .

للإنسان يفعل به ما يشاء ، بل هو أمر يخلقـه اللـه عـز وجـل فى الإنسـان إبـان الفعـل لينتفى بـه الإكـراه والجبر والضرورة عن الإرادة لحظة الاختيار .

يقـول الكلابـاذى : **(ومعنى قولنـا مختـارون : أن اللـه تعالى خلق لنا اختيارا فانتفى الإكـراه فينا وليـس ذلك على التفويض)** (1) .

ثم يورد قول سـهل بن عبـد اللـه التسـترى : **(إن اللــه لم يقــو الأبــرار بــالجبر إنمــا قــواهم باليقين)** (2) .

ومن ثم فإن اللـه لم يجـبر عبـدا على الاختيـار ولـو كان إلى الطاعة فهو سبحانه يمد المؤمن بعد اختيــاره للإيمان والطاعـة وبعـد رفضـه للكفـر والمعصـية يمـده بالاستطاعة الصالحة لما يريد ويعينه على ذلك .

كذلك يفعل مع الكافر حيث يمده ويخلق له الأفعال صلحة للكفر والإيمان كما قال سبحانه وتعالى :

{ وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا ومن يرد ثواب الدنيا نؤتـه منهـا ومن يرد ثواب الآخـرة نؤتـه منهـا وسنجــزى الشاكرين } (3) .

1- السابق ص 64 .

2- السابق ص 64 .

3- آل عمران /145 .

ومما يجدر ذكره أن التسترى ينفرد عن سائر الصوفية فى عصره فى فهم الاستطاعة البشرية بمعنى زائد ، حيث يقرر أنها قبل الفعل وأثناؤه وبعده ، ولكنه مع ذلك يؤكد عدم استقلال الاستطاعة البشرية عن الفاعلية الإلهية ، وذلك لأن الاستطاعة تكون خاضعة للإرادة الإلهية أثناء الفعل .

ورأى التسترى فى الاستطاعة ينطوى على عمق سببه حرصه على إثبات المسئولية الخلقية للإنسان ، وفى نفس الوقت إثبات حدوث الفعل بخلق الله عز وجل .

وقد عبر الدكتور كمال جعفر عن هذا العمق بأن الاستطاعة الفعلية ضرورية للفعل قبل الفعل بواجبه نحو ربه ، وهى ضرورية أيضا بعد الفعل من حيث القدرة على الشكر إذا كان العمل من أعمال الطاعة أو التوبة والاستغفار إذا لم يكن كذلك (1) .

ومعنى ذلك أن الاستطاعة قبل وبعد الفعل باعتبار مقدماته ونتائجه فهى أفعال متتابعة متلاحقة لا تنقطع ، بيد أنه يكون من البدء عقليا ثم سلوكيا ثم نفسيا أو وجدانيا وهكذا ، ومن ثم فالفعل نفسه لا قيمة له فى حد ذاته بل إن القيمة الحقيقية تنصب على النية والدافع الذى يسوقه إلى الفعل ، وهما فيما يرى سهل بن عبد الله فى نطاق ________________

1- من التراث الصوفى ص266 .

الاستطاعة الإنسانية (1) .

ومن ثم تأكد لنا أن سهلا حينما قال بالاستطاعة قبل وأثناء وبعد الفعل ، لم يكن فى ذلك القول مختلفا من حيث الأصول والنتائج عن سائر مشايخ الصوفية الأوائل حيث لم يجعل الاستطاعة بذلك محدثة للفعل ،

وجعل أهمية الفعل منحصـرة فـى الدافـع إليـه ونتائجـه كمـا أشـار إلـى ذلـك قول رسول الله صلى اللـه عليـه وسلم :

(إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل إمرئ مـا نــوى فمن كـانت هجـــرته إلى اللــه ورســوله فهجرته إلى اللـه ورسـوله ومن كـانت هجرتـه لدنيا يصـيبها أو امرأة ينكحها فهجـرته إلى مــا هـاجر إليه) (2) .

ويرى سهل بن عبد الله أن الحكمة من تـزيين اللـه للإنسان بالاسـتطاعة هى الابتلاء شـأنها فى ذلـك شـأن الأسباب الخارجية التى تتدخل فى حيـاة الإنســان ابتلاء واختبــارا ، كـالفقر والغــنى والصــحة والمــرض والعلم والجهل والخير والشر ، والإنسان كما أنـه مطـالب بـأن

1- السابق حـ 1 ص 266 .

2- أخرجه البخارى فى كتاب بدء الوحى ، باب كيف بدأ الوحى رقم (2) وأخرجه مسلم فى كتاب الإمارة بـرقم (1906) وأبـــو داود فى كتـــاب الطلاق بـــرقم (20) والترمــذى فى كتــاب فضــائل الجهــاد بــرقم (1647) والنســائى فى كتـاب الطهـارة بـرقم (75) وابن ماجـه فى كتاب الـزهد برقم (4227) .

يصارع قواه الباطنيـة إذ أملت عليـه الانحـراف ، كـذلك فإنه مطالب بجعل هذه الاستطاعة التى منحه الله إياها آداة يدين بها للإله الواحد (1) .

ومهما يكن من أمـر فمـا نـود تأكيـده هـو أن مشـايخ الصوفية الأوائل قد أثبتوا للإنسـان قـدرة أو اسـتطاعة حقيقية لا يمكن إنكارها ولا يؤثر ذلك عنـدهم فى مـدى شمول قدرة الله وإرادته أو الحد منها ، كما أن تفسير العلاقة بين الفاعلية الإلهية والفاعلية الإنسانية بالكسب

هو التفسير الذى ارتضوه مع أهل السنة والجماعة وسيأتى المزيد من التفصيل فى المباحث الآتية .

1- انظر من التراث الصوفى ص 267 ، وانظر التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 282 .

*** المبحث الثانى ***

الاستطاعة وعلاقتها بالعلل الطبيعية

مما لا شك فيه أن مبحث العلية من المباحث الرئيسية فى الفكر الفلسفى وفى الفكر القائم على الرسالات السماوية جميعا ، ولذلك فقد أدلى مفكرو الإسلام بدلوهم فى هذا المبحث الهام والذى يمثل أساسا متينا فى اعتقاد كل مسلم ، ومما يجدر ذكره

أن الصـــوفية الأوائـــل لم يبحثـــوا فى جلســـاتهم أو مأثوراتهم وأقـوالهم وكتبهم موضـوعا لمجـرد المعرفـة النظرية البحتة ، بل المعرفة عندهم مبعثها دائما العمل والسلوك ، ومؤدية دائما إلى عمل وسلوك ولـذلك نجـد أن النتـاج الصـوفى حيـال الفكـر الفلسـفى لا يكـون مباحث ونظريات صورية بحتة لكل موضوع بحيث يكون كـل واحـد مسـتقلا عن الآخـر ، بـل هى جميعـا حصـيلة موقف وجدانى نشـأ عنـده من خلال الـترقى فى سـلم الإيمان بالله .

ولذلك فإننا نجد مبحث العلية عندهم متجليا ظـاهرا فى فهمهم للتوكـــل ، حيث يمكننـــا تلمس مفهـــومهم للأسبـاب الطبيعية ومدى فاعليتها وعلاقتهـا بالإنســـان مـن ناحيـة أو بالفاعليـة الإلهيـة والربوبيـة من ناحيـــة أخرى .

وإذا كان متكلمو الإسلام قـد وقفوا من مبحث العلية مواقـف متباينـة فمنهم من نـادى بـالوجوب الضـرورى للمعلــول عن العلــة واقترانهمــا فى الوجــود والعــدم بالضــرورة ، فـأثبتوا اسـتطاعة ذاتيـة للعلـة ينتج بهـا المعلول ومنهم من قال بعكس ذلـك فأنكـر أن تكـون العلاقة بين العلـة والمعلـول قائمـة على هـذا الوجـوب الضـرورى والاقتـران الحتمى بينهمــا وجــودا وعــدما ، حتى لا يكون هنـاك استقلال للطبيعـة فـى فعلهـا عـن الفـاعلية الإلهيـة فتتعـدد الفـاعليـات فى الوجود وتكون قدرة الله محكومة بالعلل والمعلولات (1) .

إذا كان هذا هو الشأن فإن الصوفية الأوائل التزموا النهج الإسـلامى في هـذه القضـية ، فقـالوا أولا بوجـود علـل ومعلـولات وأسـباب ومسـببات تـؤدى فعلهـا فى الكون والوجود بسبب ما أودع الله فيها من قوى وتأثير لا ينبع من ذاتها بل بإرادة الله فيها .

ويفرد المكى بابا لبيـان ذلـك تحت عنـوان : **(ذكر الأسباب والأواسط لمعانى الحكمة ونفى أنهـا تحكم وتجعل لثبوت الحكـم والقـدرة)** (2) .

ويبين فيه أن اللـه عـز وجـل أظهـر أشـياء بوصـف قدرتـه وأجـرى أشـياء من معـانى حكمتـه ، فلا يسـقط المتوكل ما أثبت من حكمته لأجـل

____

1- انظر فى تفصـيل ذلـك الأمـــر ، الفصـل فى الملـل والنحل لابن حزم الأندلسى حـ3 ص 14 وما بعدها .

2- قوت القلوب حـ 2 ص 10 .

مـا شـهد هـو من قدرتـه ، حيث أن اللـه تعـالى حكيم فالحكمة صفته ولا يثبت المتوكل الأشياء حاكمـة نافعـة ضارة فيشـرك فى توحيـده ، من قبـل أن اللـه تعـالى قـادر والقـدرة صـفته وأنـه حـاكم جاعـل ضـار نـافع لا شريك له فى أسمائه ولا ظهير له فى أحكامه .

ويسـتدل على ذلـك بقولـه تعـالى : **{ إن الحكم إلا لله }** (1) .

وقوله : **{ ولايشـرك فى حكمه أحدا }** (2) .

ويذكر المكى أن الأسباب أواسط حق وصدق ، إنما جعلهـا الله لأن الأسماء متعلقــة بهــا والأحكــام عائـدة عليهـا بـالثواب والعقـاب ، فلم يصـلح ألا تـذك رفتعـود الأحكام على الحاكــم تعـالى عن هـذا ، من أجـل ذلـك كانت الأشياء وفـــق هـذا النظـام ، وهـذا سـبب إظهـار المكان من الموات والحيوان (3) .

فسخر الله المخلوقات وفق ثوابت وسنن ونواميس كونية تترابط فيهـا الأسـباب وتلتقى العلـل والمعلـولات بحيث تسمح بقبول فعل الإنسان وتأثيره فيهـا لتحقيـق علـــة الابتلاء ، والصـــوفية يعتـــبرون ترابـــط العلـــل والمعلـولات وتسخيـــر الكائنـات للإنسـان من موجبـات الشكر ويستدل

____

1- يوسف / 40 .
2- الكهف / 26 .
3- السابق حـ 2ص 13 .
التسترى بقوله تعالى :

{ والأنعـام خلقهـا لكم فيهـا دفء ومنـافع ومنها تأكلون ولكم فيهـا جمـال حين تريحـون وحين تسـرحون وتحمـل أثقـالكم إلى بلـد لم تكونـوا بالغيـه إلا بشـق الأنفس ....إلى قولـه تعالى ....و سخر لكم الليل والنهـار والشـمس والقمـر والنجـوم مسـخرات بأمـره ألا لـه الخلـق والأمـر تبـارك اللـه رب العالـمين } (1) .

على أن تسخيـر الصنعـة لنـا ممـا بين السـماء والأرض مـن أمهات النعم التى تستـوجب شكر خالقهـا (2) .

ورأوا أن الله سبحانه وتعالى هو الذى يحكمها ويدبر أمرها لانفراده بالخلق والتدبير ، من أجـل ذلـك رفضـوا حتمية الترابط بين العلة والمعلول على وجـه الإطلاق ، وإن أثبتوا ضرورة ما بينهما من خلال خضوعها وقوامهـا بمشيئة الله عز وجـل ، كمـا آمنـوا بقدرتـه تعـالى على الفعل بهذه الحتميـة وعلى الفعـل بـدونها ، فـإن كـانت ثمـة حتميـة بين العلـة والمعلـول فهـى بقـدرة اللـه وربوبيته .

ولكنهم حرمـوا توجـه القلب إلى هـذه الأسـباب لأن الله حاكم عليها وعلى حتميتها ، فالعلة لا تملـك حتميـة صدور معلولها عنها ، إذ ليس لها

1- النحل / 5 : 12.
2- السابق حـ 2 ص 15 .

فاعليـــــة مســـتقلة ومن ثم ينبغى على المتوكـــل أن يستوى فى اعتقاده وجود السـبب أو عدمـه وأن يكـون مطمئنا عند العـدم إطمئنانـه عنـد السـبب وألا يشـغله ذلك كله عن الله لعلمه أن اللـه من وراء الأفعـال وهـو الذى يهيئ الأسباب (1) .
ويذكر المكى أن الله احتجب على العموم بالأسباب فهم يرونهـــا فى اطـــراد العلـــل والمعلـــولات وحجب الأسباب بنفسه عن الخصـوص فهم يرونـه ولا يرونهـا (2) .
* مقومات التوكل وعلاقـة ذلك بالأسبـــاب :
ويمكن للباحث أن يحدد مقومات التوكل عند أوائـل الصوفية من خلال فهمهم للفاعلية الإلهية وعلاقتهـا بالأسباب والعلل فى الركائز الآتية :
[1] - توجيه القلب إلى الله على الدوام ســواء كان الرزق بأسباب أو بغير أسباب كما تقدم وهذا نابع عنـدهم من قولـه تعـالى : **{ ومـن يتق الله يجعل الله مخـرجا ويرزقــــه مـــن حيـث لا يحتســـب }** (3) .

1- السابق جـ 2 ص 204 .
2- التعرف ص 15 .
3- سورة الطلاق / 2 ، 3 وانظر قوت القلوب جـ 2 ص 10 .

[2] - توجه الجوارح إلى الأسباب لمـا جعلـه اللـه من العلل والمعلولات المترابطـة وقيـام التكـاليف وعود الثواب والعقاب .
وهذا الأمر يوضحه الحكيم الترمذى فى أن للـه قـد أثبت الأرزاق فى اللوح على المقـدار الـذى يريـد وعلى كيفية ما يريد فى الـوقت الـذى يريـد والنفس تشـتهى

شيئا ربما يوافق ذلك المثبت فى اللوح وربمـا يخـالف ، فلــو لم تكن هــذه الأســباب لكــانت النفس تغلى فى شهوتها لا تقدر أن ترى ذلك التقدير حسـنا ، فكـان فى ذلك فسـاد قلـوبهم فجعلت الأسـباب لصـرف وجـوههم عن ذلــك المثبت إلى وجــوه المطــالب والمكاســب فيرجعوا باللائمة على أنفسهم فى ذلك .

والمثال الـذى ضـربه لتوضـيح توجيـه الجـوارح إلى الأسـباب ، هـو ملـك المـوت كـان يقبض الأرواح عيانـا فسبوه فشكا إلى الله (1) فوضعت

____

1- ثبت أن ملـك المـوت أتى عيانـا فى صـورة آدمى ، لحـديث أبى هريـرة أن النـبى صـلى اللـه عليـه وسـلم قال : (أرسل ملك الموت إلى موسى عليهما السلام ، فلما جـاءه صـكه ، ففقـأ عينـه فرجـع إلى ربـه فقـال : أرسلتنى إلى عبد لا يريد الموت ، فرد اللـه عليـه عينـه وقال : ارجع فقل له يضع يـده على متن ثور ، فله بكل ما غطت به يده بكل شعـرة سنة ، قـال : أى رب ! ثم ماذا ؟ قال : ثم الموت : قال : فالآن ، فسـأل اللـه أن يدنيه من الأرض المقدسة رميـة بحجـر) متفـق عليـه ، أخرجــه البخــارى فى كتــاب الجنــائز ، بــاب من أحب الدفــن فى الأرض المقدســة أونحوهـا بـرقم (1339) وأخرجـه مسـلم فى كتـاب الفضـائل بـاب من فضـائل موسى برقم (1533) .

العلل والأسقام .

فالأسبـاب بمنـزلة الأمراض والـرزق بمنزلة الموت وبـدء كليهمـا من عنـد اللـه (1) من أجـل ذلـك ربطت الجوارح بالأسـباب ووجهت الجـوارح إليهـا مـع تقـديرها أزلا .

[3] - ضرورة التسليم والرضا التام بقضاء الله وقدره وهـذا المقــوم الأخـير قـد يكـون مـدعاة

للبعض برمى أوائل الصوفية بتهمـة الجبريـة ونفى أى دور للاستطاعة والفاعلية الإنسانيـة فى الفعل ، ولكن ليس لهـذا الظن نصـيب من الصـحة لأنـه وليد نظرة سـطحية عاجلـة خاصـة إذا ذكـر هـذا المقوم الثالث مجردا عما سبق وكثـيرا مـا يحـدث هذا ، حيث كان شيوخ الصوفية يعمدون إلى إلقـاء مأثوراتهم وكلماتهم فى مناسبات خاصة وردا على أسـئلة معينـة فتتناقلهـا الأجيـال عنهم متبـورة عن علتها وظروفها وعن سائر أقوال المشايخ الأخـرى مما يحدث لبسا حول معانيها .

ومن ذلك ما ذكـره الترمـذى فى بيـان الـرد على من قال : إن بعض المقبلين على أمر الدين تركوا الطلب وقالوا : قـد ضـمن اللـه الـرزق حيث جـاء عـــن رســوله : **(إن الــرزق ليطلـــب العبــد كمــا**

1- آداب المريدين وبيـان الكسـب للحكيم الترمـذى ص 168 ، 169.

يطلبه أجله) (1) .

فقـال : إن كـانوا قعـدوا ينبغى لهم أن يقومـوا وأن يطلبوا تحرزا من الطمـع وفسـاد القلب فلا يضـيع حـق الزوجة والولد برغم أن أرزاقهم على الله ، فهـذا تـارك للسبيل والسنة لقوله تعـالى : **{ وعلى المولود لــه رزقهـن وكسوتهـن }** (2) .

ثم بين موقف الذين سلموا لقضاء اللـه وقـدره مـع الرضا بما قسـمه لهم ، فأخـذوا بالأسـباب ومـا تركوهـا

ولكن همهم كـان فى طاعـة اللـه والإنشـغال بـه عمـا سواه فقال :

(وأما الذين أقعدوا فقوم كان سبيلهم منذ تابوا الاجتهاد فى حفظ الحدود مـع اللـه فى طلب المكاســـب ، وركبــــوا صـــــعاب

1- الحــــديث رواه الطــــبرانى عن الحســــن بن على بصيغة : **(أيها الناس إنى والله ما أمركم إلا بما أمركم الله به ، ولا أنهاكم إلا عما نهـاكم اللـه عنـه ، فـأحملوا فى الطلب فوالـذى نفس أبى القاسـم بيـده إن أحـدكم ليطلبـه رزقـه كمـا يطلبـه أجلـه فـإن تعســـر عليكم شـئ منـه فاطلبوه بطاعة اللـه عـــز وجـل)** انظـر كشـف الخفا ومزيل الإلباس فيما اشتهر على ألسنة النـاس حـ 1 ص66 ورواه ابن عدى فى الكامــل عن أبى الـدرداء بصـيغة **(إن الــرزق ليطلب العبـد أكـــثر ممـــا يطلبه أجله)** وحسنه ، انظر حـ 1 ص 67 .

2- البقرة / 233 .

الأمور ودققـوا النظـر ، فتورعـوا عن كثـير مـــن الحلال مخافـة الشـبهة ، فلم يزل الله لهـــم معينا ومؤيـــدا فى ذلك) (1) .

ومن ذلك أيضـا قـول ابن مســروق (2)ـ : **(التوكل الاستسـلام لجريـان القضـاء والأحكـام) (3)**

فالنظرة المجردة لهذا القول توحى بالجبرية .

وإذا علمنا أن الاستسلام لقضاء الله وقدره لا يكـون إلا لنتيجة الفعـل ولا يـأتى فى المقدمـة أى فى مرحلـة الأخـذ بالأسـباب ، فـإن هـذا القـول يكـون تعبـيرا عن المرحلة الأخيرة من التوكل بعد ظهور نتيجة الفعل .

فلا يجب أن يفهم من هــذا القــول إلغــاء الجــانب الاختيارى من فعـل الإنسـان أو تعطيـل الأسـباب لعـدم جــدواها أمــام الربوبيــة والفاعليــة الإلهيـــة وذلــك لاختــلاف حــال الفاعــل فى أول الفعـل عن حاله بعـد حدوث النتيجة المرجوة منه أوعدم حدوثها .

1- انظـر آداب المريـدين وبيـان الكســـب ص 173 ، 174 .

2- هو أبو العباس أحمد بن محمد بن مسروق من أهـل طوس بخراسان ، سكن بغداد ومات بها وله صحبه مـع الحــارث المحاســبى وهــو من قــدماء مشــايخ القــوم وجلتهم توفى سنة 299 هـ انظر مرآة الجنـان حـ 2 ص 231 ، شذرات الذهب حـ 2 ص 227 ميزان الاعتــدال حـ 1 ص 71 ، تاريخ بغداد حـ 5 ص 100 ، حلية الأولياء حــ10 ص 213 ، طبقـات الشـعرانى حـ 1 ص 109 ، طبقـات الصوفية ص 237 .

3- الرسالة القشيرية حـ 1 ص421 .

ودعــوة أوائــل الصــوفية الاستســلام لقضــاء اللــه وأحكامه خاص بالجانب الجبرى فى الفعل المتمثـل فى النتيجة النهائية له ، وليس فى الجانب الاختيارى ، وذلك مفهومهم لوجوب الإيمان بالقدر خيره وشــره كمــا نص عليـه النـبى صـلى اللـه عليـه وسـلم : **(الإيمــان أن تــؤمن باللــه وملائكتــه وكتبــه ورســله واليــوم الآخر والقدر خيره وشره)** (1) .

وهذا التوضيح هام جدا لفهم الموقف النفسى حيال القضاء والقدر حيث ينقسـم هـذا الموقـف عنـدهم إلى ثلاث درجات :

(التوكــل ثم التســليم ثم التفــويض فالمتوكـل يسـكن إلى وعـده ، وصاحــــب

التسليـــم يكتفى بعلمــه ، وصــاحب التفــويض يرضى بحكمه) (2) .

وحيث أن التوكل أخـذ بالأسـباب وسـكون القلب إلى وعد اللـه وليس إلى الأسـباب ، فـإن مبـدأ الفعـل أخـذ بالأسباب مع الاعتماد على تقدير

1- أخرجه مسلم فى كتاب الإيمان ، باب بيــان الإيمــان والإســلام والإحســان بــرقم (8) وأخرجــه أبــو داود فى كتاب السنة ، باب القدر برقم (4695) والترمــذى فى كتــاب الإيمــان بــاب مــا جــاء فى وصــف جبريــل للنــبى الإســلام والإيمــان بــرقم (2610) والنســائى فى كتــاب الإيمان حـ 8 ص 97 وابن ماجه فى المقدمة ، باب فى الإيمان برقم (63) وأخرجــه أحمــد فــى المســند حـ 1 ص 52 ، 53 .

2- الرسالة القشيرية حـ 1 ص 422 .

الله وفاعليته وحـده ، ووسـطه تسـليم أمـره إلى اللـه ليقينه أنه الأعلم والأقدر ، وفى النهاية الرضا بحكم الله وقــدره ، ومن ثم يكــون المقصــود من اســتخدام أصــل الإيمــان بالقــدر خــيره وشــره فى النهايــة وليس فى البداية فيكون ذلك مدعاة للشكر إذا كان خيرا ، معينا على الصبر إذا كان الأمر غير ذلك .

وهذه الـدرجات الثلاث هى مراحــل التوكــل عنــد أبى تراب النخشى :

وأولها : طرح البدن فى العبودية وهذا تعبــير عن تعامل الجوارح والاستطاعة البشرية مع الأسباب وهو يرى فى استسـلام الإنسـان لسـنة اللـه فى الطبيعة أو المادة تحقيقا لعبودية البدن والجوارح .

الثانيــة : تعلــق القلب بالربوبيــة أى إفــراد اللــه بالفاعلية وتقدير الأمور .

الثالثــة : الطمأنينــة إلى الكفايــة فــإن أعطى شكر وإن منع صــبر وذلــك هــو الرضــا والاستسلام لحكم الله (1) .

ويعــبر بشــر الحــافى عن المقــوم الثــالث بقولــه : **(يقــول أحدهم توكلت على الله وهــو يكــذب على اللــه ، لــو توكــل على اللــه لرضــى بمــا يفعــل الله تعــالى به)** (2) .

1- الرسالة حـ 1 ص 418.
2- السابق حـ 1 ص 417.

ولــذلك يشــترط أوائــل الصــوفية موافقــة الكســب للشريعة حــتى يصــبح العمــل تــوكلا على اللــه ، لأن من يلزم نفسه الرضــا بــأمر اللــه الكــونى لا يخــالف بعملــه أمره التشريعى ولو خالف أمره التشــريعى أولى بــه ألا يرضى بأمره الكونى ، فمن سلك سبيلا محرما لا يكون متوكلا عند أوائل الصوفية .

سئل ذو النون المصرى عن التوكل ؟

فقال : خلع الأرباب وقطع الأسبــاب .

فقال السائل : زدنى ؟

فقــال : إلقــاء النفس فى العبوديــة وإخراجهــا مــن الــربوبية (1) .

وهو يقصد بخلع الأرباب عــدم توجــه القلب واعتمــاده على الأســباب المخلوقــة كفواعــل مســتقلة تتحكم فى رزقه ، ويقصــد بإخراج النفس مــن الربوبية أى ربوبية ذاتها على غيرها .

ويعنى ذلك الكبر والاغتراز بــالنفس وادعــاء القــدرة الشــاملة والاســتطاعة الكاملــة مــع تناســى قــدرة اللــه

وفاعليتــه ، ويكــاد يجمــع أوائــل الصــوفية من خلال مرويــاتهم على أن الاعتمــاد على الأســباب وسـكون القلب إليهـا شـرك خفى ، يقـول المكى : **(الشـرك الخفى هـو الاعتـماد**

1- السابق حـ 1 ص 418 .

على الأسـباب) (1) .

وإذا أدركنا أن أوائل الصوفية أثبتوا الأسباب وأنها تـؤدى فعلهـا فى الكـون بقـدرة اللـه سـبحانه وتعـالى وبسبب ما أودع فيها من قوى وتأثير لا ينبع من ذاتها بل بإرادة الله فيها ، كل ذلك من خلال مفهومهم للتوكـل ، والذى يعد مفهوما راقيا من الناحية الإسلامية ، **فإنهم أيضا** قـالوا : لا يعـنى اطـراد الأسـباب بترابـط العلـل والمعلولات فى عالم الواقع حدوث شئ ما أو فعـل مـا خارج عن قدرة الله وفاعليته ، مما يعطى مجالا واسـعا لإثبـات المعجـزات والكرامـات وخـوارق العـادات فى الاعتقـاد الصوفى لأوائل الصوفية .

فــأثبتوا إمكانيــة حــدوث معلــولات بــدون عللهــا المعلومـة ، وفى ذلك يذكر الكلاباذى موقفا لمريم ابنـة عمران إذ وجدت الطعام معلـولا دون علـة ظـاهرة ، وردهـــا ذلـك لطلاقـــة المشـيئة الإلهيـــة فى الـرزق بأسبـاب أو بغير أسباب .

يقــول تعــالى : **{ كلمــا دخــل عليهــا ذكريــا المحراب وجد عندها رزقا قال يـا مـريم أنى لك هذا قالت هــو مـن عنــد الله إن الله يرزق من يشاء بغــير حساب }** (2) .

1- قوت القلوب حـ 4 ص 13 .
2- آل عمران / 37 .

وكذلك ما كان من شأن عيسى عليه السلام حيث شاء الله أن يخالف بميلاده السنة الجارية بمشيئته فى خلق الإنسان من أب وأم فلما بشرت به أمه :

{ قالت ربى أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر قال كذلك الله يخلق ما يشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون } (1) .

فبين الله هنا أنه لا يحتاج إلى إيجاد العلة لإيجاد المعلول وإنما هو إذا أراد شيئا توجهت إليه مشيئته مباشرة فأبدعه بقوله له : **كن** ، فيكون سواء كان ذلك الشئ مقترنا بعلته أو مجردا عنها (2) .

والصوفية الأوائل كما أثبتوا حدوث معلولات بلا عللها المعلومة كذلك أثبتوا أيضا إمكانية حدوث العلة مع تخلف المعلول .

فمن ذلك عندهم على سبيل المثال لا الحصر ما حدث لإبراهيم عليه السلام حين وضعوه فى النار ، إذ يقول تعالى فى شأنه :

{ قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين ، قلنا يا نار كونى بردا وسلاما على إبراهيم ، وأرادوا به كيدا فجعلناهم الأسفلين } (3) .

1- آل عمران / 47 .

2- التعرف لمذهب أهل التصوف ص 88 والرسالة حـ 2 ص 667 بتصرف .

3- الأنبياء / 68 ، 70 .

فالنار حسب السنة الطبيعية فى اطراد العلل والمعلولات علة للإحراق وعلى الرغم من ذلك فقد شاء الله أن يتخلف المعلول مع حدوث العلة (1) .

يقـــول الكلابـــاذى : **(وأجمعـــوا على إثبـــات كرامـات الأوليـاء ، وإن كـانت تـدخل فى بـاب المعجزات كالمشـى على المـاء وكلام البهـائم وطـى الأرض وظهـور الشئ فى غـير موضـعه ووقته وقد جاءت بها الأخبار وصحت الروايـات ونطق بها التنزيل)** (2) .

ثم ضرب أمثلة كثيرة لا حصر لها فى ذكـر معلـولات بغير عللها أوعلل تخلفت عنهـا نتائجهـا ، ومن ثم يمكن أن ننتهى إلى القول بأن الصوفية يرون أن الإيمان بالله خالقا لكل شئ وفـاعلا لكـل شـئ ، يجعـل المعجـزات والكرامات أمرا عاديـا عنـد المؤمـنين ، فـالمؤمن يـرى فى العـالم الطـبيعى حولـه وفى القـوانين الـتى تحكم أجزاءه وتحكمه ككل آية عظيمة من آيـات اللـه ودلالـة بالغة على القدرة المطلقة ، فإذا حدثت معجزة مخالفة للسنن أمام المؤمن ، فإن ذلك لا يثير عجبه أو دهشـــته بقـدر مـا يثـير فيـه دلالتـة على الشـعور بعظمـة اللـه تعالى ، ويرى فيه دلالة على القدرة المطلقة كمـا يـرى فى الأمور التـى تحـدث حسب سنن الله الجارية .

1- التعرف ص 88 .

2- السابق ص 89 .

قـال تعـالى : **{ إن فى خلق السـماوات والأرض واختلاف الليل والنهـار لآيـات لأولى الألبـاب ، الـــذين يـــذكرون اللـــه قيامـــا وقعـــودا وعلى جنـــوبهم ويتفكـــرون فى خلـــق الســـماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار }** (1) .

وفى كلا الحـالين تكـون النتيجـة أنـه يـزداد أيمانـا ويقينا .

يقــول القشــيرى فى هــذا المعــنى : ســألت أحمــدا الطابرانى السرخسى فقلت له : **هل ظهر لك شئ من الكرامات ؟**

فقال : **وأى خطر للكرامات ؟ إنما المقصود منه زيادة اليقين فى التوحيــد** (2) فمن لا يشــهد غــير الله خالقا فى الكون فسواء أبصر فعلا معتادا أو ناقضــا للعادة ، فالأمر ســواء عنــد أهــل اليقين لأن الخــالق فى الأمرين واحد .

ولــذا فــإن الأثــر المــترتب على فهم هــذه النظــرة الإسلامية هو الغايــة عنــدهم من هــذا اليقين كمــا قــال ســهل بن عبــد اللــه : **(أكــبر الكرامــات أن تبــدل خلقا مذموما من أخلاقك)** (3) .

وكذلك يقول أبو يزيد البســطامى لمن قــال لــه : **فلان يمشى فى ليلة إلى**

____

1- آل عمران /189 ، 190.

2- الرسالة حـ 2 ص 665 .

3- السابق حـ 2 ص 679 .

مكــة وفلان يمشــى على المــاء ويطــير فى الهواء .

فقــال : الشــيطان يمشــى فى ســاعة من المشــرق إلى المغــرب فى لعنــة اللــه والطــير يطير فى الهواء والسمك يمر على وجــه المــاء (1) .

فــالأمور عنــده ســواء وإنمــا الغايــة فى اليقين والطاعــة ، ومــدى امتثــال الإنســان فى عبوديــة اللــه سبحانه وتعالى .

وإن من أثر هذا الفهم الإسلامى العظيم أنه يفتح بابا واسعا عند أهل اليقين فى الاســتعانة باللــه على قضــاء حــوائجهم وتــوفيقهم إلى عبادتــه ســبحانه وتعــالى ،

فالنقطة الأساسية التى أراد الصوفية الأوائل أن يوجهوا إليها الأنظار فى آرائهم فى القدر والاستطاعة هى شــد الإنسان إلى الله تعالى وإلزامه اللوذ بـه وضـمان عـدم استبداد الإنسان وتمرده بالاعتمـاد على طاقتـه وقدرتـه وحدهما دون أن يرشدهما هـدى إلهى ويعضـدهما تأييـد ربانى لا يؤيد إلا الحق ولا يرفـع إلا مـا أريـد بـه وجهـه (2) .

* الاستطاعة وعلاقتها بما سبق :

ويمكن القول من خلال ما سبق أن الاستطاعة عنــد أوائل الصوفية تقوم على ركـيزتين ليسـتا فى الحقيقـة سوى لازمين من لوازم الغاية من

1- السابق حـ 2 ص 679 .

2- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 280 بتصرف .

خلق الإنسان :

الأولـــى : ركـيزة خـارج النفس البشـرية وتكمن فى تكـييف الكائنـات والمخلوقـات بالصـورة الـتى تمكن الإنسان فى الأرض ، وفى النواميس الـتى تسير عليها هذه المخلوقـات ، كأسـباب خارجيـة تتدخل فى حياة الإنسان اختبارا وابتلاء (1) .

الثانيـــة : ركـيزة داخليـة وتكمن فى النفس البشـرية ذاتهـا وهى الاسـتطاعة الذاتيـة للإنسـان على الفعل .

 أما عن الركيزة الأولى ، فقـد سـبق فى هـذا الفصـل أن اللـه سـبحانه وتعـالى خلـق المخلوقـات جميعـا خاضعة مسخرة للإنسان كما أقام النواميس الكونيــة الطبيعية وقوانينها المطردة من خلال عملية الترابــط بين الأباب واطراد العلـل والمعلـولات بحيث تسـمح

بقبول فعل الإنسان وتأثيره فيهـا ، وكلمـا مكنـه اللـه من الأسـباب والعلـل أظهـر لـه النتـائج والمعلـولات وذلك من خلال نعمة الله عليه وتسـخير الكائنـات لـه كمـا ذكـر سـهل بن عبـد اللـه مسـتدلا بآيـات سـورة النحل (2) .

وهذه الأسباب الخارجية إنمـا هى للابتلاء ، فالإنسـان كما طلب منـه أن يصـارع النفس عنـد جموحهـا للميـل والانحراف فإنه قد طلب منه ـــــــــــــــ

1- السابق ص 282 .

2- انظر ص 272 من هذا الفصل .

كذلك أن يصارع بفكـرة وقلبـه وسـلوكه كـل مـا يعـوق حسـن آدائـه للعبوديـة فى هـذا العـالم الملئ بوسـائل الاختبار ، والتى تتشكل فى ضداد كثيرة كالفقر والغـنى والصـحة والمـرض والعلم والجهـل وغـير ذلـك من الأسباب .

وأما عـن الركـيزة الثانيـة للاسـتطاعة البشـرية فهى تقوم أساسا فى النفس من جهة حدوثها مع الفعل أو قبلـه أو بعـده ، فأوائـل الصـوفية أثبتـوا للإنسـان اسـتطاعة عاملـه فاعلـة لأعمالـه وأفعالـه ، وقـدرة حقيقيـة لا يمكن إنكارهـا ولا يـؤثر ذلـك مطلقـا على مدى شمول قدرة الله وإرادته .

وأمـا حقيقـة الفعـل البشـرى عنـد أوائـل الصـوفية فيمكن إدراكه من خلال ملاحظاتهم وتحليلاتهم النفسية فى إيضـاح مـذهبهم فى القـدر الإلهى والاسـتطاعة الإنسانية .

فيقول المكى : **(خلق اللـه النفس متحركـة ثم أمرها بالسكون وهذا هو الابتلاء فـإن تـداركها بالعصـمة سـكنت ، وهـذا خصـوص وإن تركهـا**

تحركت بطبعها وجبلتها وهذا هو الخذلان) (1) .

لقد نظر المكى إلى النفس على أنها مصدر للحركات والسكنات فى

1- قوت القلوب حـ 2 ص 11 .

الإنسان وهى فى ابتلاء مستمر بينهما ، فإن سكنت إلى تدبير الله كانت العصمة والتوفيق وإلا فالإضلال والخذلان ، فالأمور النفسية التى تحدث فى الذات الإنسانية والناشئة من مجموع الخواطر والاختيارات الداخلية ، تتحدد الأفعال بناء عليها فى الخارج سواء أكان خيرا أوشرا صلاحا أو فساد حسب النية الداخلية المحركة .

وقد شبه المكى أفعال الإنسان التى تمت باستطاعته بالحب أو الخرز وشبه إرادة العبد بالخيط الذى ينتظم عليه الحب أو الخرز (1) .

وهذا التشبيه بالغ الدقة ، وذلك لأنه مما لا شك فيه أن أى فعل ظاهر يقوم به الإنسان ، يتم كما هو معلوم بالضرورة من الواقع بأعضائه الجسدية أو بالأدوات الخارجية التى يستعين بها على إتمامه ، كما أنه من المعلوم أيضا أن أى فعل يحدث عبارة عن عدة أفعال صغيرة ينتهى كل منها فى حقيقتة إلى حركات وسكنات سواء كانت حركات نفسية أو جسدية أو طبيعية .

هذه الحركات والسكنات تتشكل بالضرورة فى شكل معين بتوقيت معين يفرضهما نوع الفعل المكتسب والغاية منه ، كما أن الفرق بين فعل وآخر وهو اختلاف هذه الحركات والسكنات كما وكيفا زمانا ومكانا .

1- السابق حـ 2 ص 10 .

مثال ذلك : لو فرضنا والدا يؤدب ولده ضربا ، وآخـر يحتضن ولده شفقة وحنانا ، فإن كلا الفعلين يقعان بين فاعـل ومفعـول يسـتخدم كـل منهمـا حركـة الأعضـاء الخارجية فى البدن مع الإحساس الداخلى فى ذات كل منهما ، بينما تتخلل حركة كل من الفاعلين والمفعولين أيضـا سـكنات لا تكـاد تـرى ولا تحس نتيجـة تلاصـق الحركات وتدافعها فى الفعل بسرعة ، إلا أنها موجــودة قبل نهاية كل حركة وقبـل بدايـة الحركـة الـتى تليهـا ، فـالفرق بين الفعلين من حيث صـورة الفعـل الواقعيـة العاديــة وبغض النظــر عن الإرادة الموجهــة للفعــل أو الغاية منـه ، ليس سـوى اختلاف كـل فعـل عن الآخـر من حيث الحركات وكيفيتها رقة وعنفا سـرعة وبطئـا ، وكذلك السكنات المتخللة للحركـات وكيفيـة تباينهـا فى الفعل .

ومن ثم فمجمــوع الحركــات والســكنات ليس فى الحقيقة سوى علة لوجود الفعل المـراد ونتائجـه ، وفى نفس الوقت فإن كل حركـة سـابقة تصـبح علـة وسـببا للحركة التالية المعلولـة ، الـتى مـا تلبث أن تصـبح هى الأخرى علة لمعــلولها الـذى يليهـا ، وهكـذا حـتى تـأتى الحركة الأخيرة التى هى معلول وليست علة .

وعلى ذلـك فالفعـل البشـرى يبـدأ من حالـة نفسـية للفاعل بنية وإرادة وينتهى بعد تفاعلات بين الحركــة والسـكون بحالـة نفسـية لنفس الشـخص أو لغـيره من الناس .

فالفعـل البشـرى علتـه الأولى البـادءة أو علـة بدايتـه داخليــة فى ذات الإنســان ومتمثلــة فى إرادة الفعــل ، ونهايـة الفعـل أو معلولـه الأخـير أيضـا داخلى فى ذات الإنسـان ومتمثـل فى تحقيـق المـراد وإشـباع الإرادة ،

فهو إما ينتهى محققـا لـذة وسـرورا ومتعـة ، أو محققـا ألما وضررا وبؤسا .

ومساحة مـا بين العلـة الأولى والمعلـول الأخـير من العلـل والمعلـولات الخارجيـة فى الفعـل البشـرى فهى من خلق الله وتوفيقه وإمداده وتيسيره وهذه المساحة هى حبات العقد أو الخرز فى المثل الذى ضـربه المكى .

أما قيام العلة الأولى وامتدادها إلى تحصيل المعلول الأخير فهو الخيط الذى ينظم الحب والخرز فى العقد ، وهـذا يطـابق المعـنى المشـار إليـه فى قولـه سـبحانه وتعالى :

{ فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى فسنيسـره لليسـرى وأمـا من بخـل واسـتغنى وكذب بالحسنى فسنيسره للعسرى } (1) .

وكما قال تعالى : **{ والله خلقكم وما تعملون }** (2) .

فالفعل البشرى الاختيارى ليس سوى مجموعة من العلـل والمعلـولات تبـدأ بعلـة أولى وتنتهى بـالمعلول الأخير .

1- الليل / 5 : 10 .
2- الصافات / 96 .

ويمكن القـول أن العلـة الأولى للفعـل البشـرى الاختيـارى عنـد أوائـل الصـوفية هى تحـرك الإرادة المختـارة استجـابة لمـا يسـبقها من دوافـع نفسيـة وخواطر داخلية منبعثة من الروح أو النفس أو الملك أو الشيطان لاختيار هذا الفعل دون غيره .

وعلى ذلـك فالفعـل المختـار نـابع من ذات الإنسـان وهو المسئول عنه تصديقـا لقوله صلى الله عليه وسلم : **(إنما الأعمال بالنيات)** (1) .

وكذلك يمكن القول بأن المعلول الأخـير للفعـل هـو الشـئ المختـار والمقصـد الـذى أراد الإنسـان تحقيقـه واكتسابه ، فالإرادة تتلبس بالفعل وتمتزج بـه من أولـه إلى آخره ، حيث تظل مصاحبة للفعل ومتخللة فيـه بين حركاته وسكناته وموجهـة لعللـه ومعلولاتـه ، حـتى يقـع كما أراد الإنسان حدوثه ووقوعه .

ومن ثم فلا عجب فى تشـــــــــبيه المكى للإرادة البشرية بالخيط الرفيع الذى ينظم الخرز أوحبات العقد فالاســتطاعة أو العلــل والمعلــولات تصــاحب الفعــل مصاحبة الخيط للعقد فكما أن فصوص العقـد موجـودة أصــلا ودور الخيــط تجميــع الفصــوص بــالكم والكيــف والشــكل الــذى يُنتج فى النهايــة شــكلا مرغوبــا أو مكروهـا ، كـذلك دور الإدارة مـع الاسـتطاعة البشـرية فى إتمام الفعل ، فدورها هو تجميع العلـل والمعلـولات وترتيبها

1- تقدم تخريجه ص267 .

بنســب معينـة كمـا وكيفـا ، بحيث يـؤدى هـذا التجميـع المنتظم حسب هذه النسب إلى أفعال مرغوبة ومرادة للفاعل أو مكروهة .

وأهـل اليقين يـرون فى قلادة التوحيـد الـتى يجب أن يتحلى بها المريـد أن خيطهـا هـو الالـتزام بشـرع اللـه واختياره لهم ، وحباتها أو خرزها هو فعل الله بهم سواء بترابط العلل أو بانفكاكها ، وذلك يكون عنـدهم بالرضـا والتسليم المطلق لله فى كل شـئ شـرعه لهم تحقيقـا لمعـنى العبوديـة وفى كـل فعـل قـدره عليهم تحقيقـا لمعنى الربوبية .

*** المبحث الثالث ***

العلاقة بين الفاعلية الإلهية والفاعلية الإنسانية

مر بنا فى المبحثين السابقين أن مشايخ الصــوفية الأوائل أثبتوا قدرة للإنسان واستطاعة على الفعل كمــا

اعترفوا بالمؤثرات الطبيعية كأسباب وعلل خلقها الله عز وجل بحيث تسمح بقبول فعل الإنسان وتأثيره فيها وعلى الوجه الآخر أفردوا الله بالخلق والفاعلية وجعلوا ذلك جوهر التوحيد عندهم حتى يحكى الكلاباذى إجماعهم على ذلك فيقول :

(**وأجمعوا أن الله تعالى خالق لأفعال العباد كلها كما أنه خالق لأعيانهم ، وأن كل ما يفعلونه من خير وشر فبقضاء الله وقدره وإرادته ومشيئته)** (1) .

والسؤال الذى يطرح نفسه علينا الآن هو : كيف ينسب أوائل الصوفية الفعل الحقيقى إلى الله وفى نفس الوقت يعترفون بأثر السبب الطبيعى وبالفاعلية الإنسانية ؟ حتى يقول المكى عن الفواعل والمؤثرات والوسائط بين الفاعلية الإلهية وبين حدوث الفعل أو خلق الشئ :

(فى الأشياء أواسط حق وأسباب صدق) (2) .

1- التعرف ص 60 .

2- قوت القلوب جـ 2 ص 14 .

وذلك فى الوقت الذى أجمعوا على أنه لا فاعل على الحقيقة إلا الله ؟

وهذا يوجب على أوائل الصوفية تقديم حل لتفسير هذا التعارض الظاهرى وثمة حلان يقدمهما الفكر الإنسانى :

أولهما : أن الفعل يأتى من فاعلين الإله والمخلوق .

ثانيهما : أن يقال إن الفاعل الحق هو الله عز وجل وأن ما سواه ليس له أدنى دور فى الفعل (1) .

فإذا كانت الجهمية قـد آثـرت إثبـات طلاقـة الفاعليـة الإلهية ونفى القدرة والفاعلية البشرية ، فـإن المعتزلـة لم تكن إلا المذهب المقابل لهـا ، حيث أصـروا على أن يكون الفعل البشري نتاجا خالصا وأثرا مستقلا للإنسان عن أى أثر خارجى آخـر من فعـل الـرب أو من غـيره ، وهم لا يتهاونون فى هذا الأصل من أصولهم ولا يكادون يختلفون فيـه ، ونعـنى بـه قـدرة الإنسـان على إحـداث الفعل (2) .

بينمـا رفض أوائـل الصـوفية شـأنهم فى ذلـك شـأن الصـحابة والتـابعين من قبـل ، أن يكـون هنـاك خـالق ومحدث للأشياء غير الله سبحانه وتعالى فالحـل الأول مرفوض رفضا تاما ، وذلـك لأن الفعـل عنـدهم لا يـأتى من ــــــــــــــــــ

1- انظر فى ذلك كشف المحجوب ص 333 .

2- انظر القضاء والقدر فى الإسلام د . فارق الدسوقى حـ 2 ص 203 وانظر المحيـط بالتكـاليف ص 381 ومـا بعدها .

فاعلين وإلا كان شركا ، فالفاعل الثانى المظهر للفعـل والذى فعل بيده وأجرى الفعل بواسطتة هو ثان محدث ، والأول القـديم هو الفاعل الأصلى) (1) .

فوقوع الفعل بفاعليتين أعده أوائل الصوفية شـركا ، كمـا أنهم رفضـوا الحـل الثـانى أيضـا إذ يسـتدل المكى على رأى أوائـل الصـوفية في إثبـات الأواسـط ودورهـا كمؤثرات فعالـة من صنـع الله بقوله تعالى :

{ فلا تعجبك أمـوالهـم ولا أولادهم } (2)

وبقوله : **{ علـم بالقلـم }** (3) .

وقال في تثبيت الأملاك وبيعهـا منـه بـالأعواض كرمـا منه وفضلا :

{ إن اللــه اشــترى من المؤمــنين أنفســهم وأموالهم بأن لهم الجنة } (4) .

والحـل الـذى يمكن اسـتنباطه من الكتب الرئيسـية لأوائل الصوفية ومن أقـوالهم ومؤثـوراتهم الـواردة في هذه الكتب يتلخص في الاعتقـاد بـأن الفعـل الواحـد ذو وجهيـن :

1- قوت القلوب جــ2 ص12 وانظـر كشـف المحجـوب ص 333 .
2- التوبه / 55 .
3- العلق /4 .
4- التوبه / 111 .
وانظرالسابق جـ2 ص12 والتعرف ص62 .

[1] - وجـه هـو فيـه محـــدث ومخلــوق على الحقيقـــة بفاعلية الله عـــزوجل وحـــده لا شريك له .

[2] - ووجه آخر باستطاعة الإنسان .

وهـذا الوجـه الأخـير لا يمت بأيـة صـلة إلى إحـداث الفعل أو خلقه ويسمى هذا الوجه كسبا ، والـدليل على ذلك عندهم أن الفعل الواحـد ينسـبه القـرآن الكـريم للخالق قبل الإنسان فعلا باعتبـار أنـه سـبحانه وتعـالى هو الخـالق المحـدث لـه وحـده وليس للإنسـان أى دور فيـه على الإطلاق ، أمـا الوجـه الثـانى وهـو اكتسـاب الإنسـان للفعـل فليس خلقـا أو إحـداثا لـه ، وإن كـان الكســب يثبت دوراً للفاعليــة الإنســانية مترتبــا على الاختيار .

قال تعالى : **{ أفرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون }** (1) .

 وقــال أيضــا : **{ أفــرأيتم مــا تحرثــون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون }** (2) .

فأضاف الإمناء والحرث إلينا لأنها أعمـال ونحن عبيـد عمال ، ولأنها صفاتنا وأحكامهـا عائـدة علينـا ، وأضـاف الخلق والزرع إليه لأنها آيات ________________

1- الواقعة /58 .

2- الواقعة /63 .

عن قدرتــه وحكمتــه واللــه هــو القــادر الحكيم (1) فالأشياء والأحياء والأفعال مخلوقات لله بقدره مكتسبة للعبد باستطاعته .

يقول المكى : **(ألا تـرى أنـك لا تقـول خلقـنى أبى وإن كان هو سبب خلقك ولا تقول أحيانى وأمـاتنى فلان وإن كـان واسـطة في الإحيـاء والقتـل ، لأن هـذا شـرك ظـاهر اشـتهر قبحـه فتـرك)** (2) .

ثم يعقب المكى على هذه الأمثله من الأفعال بقوله : **(وكذلك كـل ما ذكر فى الكتاب من الأعمـال والاكتسـاب أضـيف إلي الجــوارح المجترحـة ونسـب إلى الأدوات المكتسبـة)** (3) .

وهو عنده من كسب العبيد ومن خلق الله وحده .

وبهـذا الحـل استطاع أوائـل الصـوفية إثبـات الفعـل الحقيقى بمعنى الإحداث والخلـق للـه وحـده مسـتندين فى ذلك إلي كتاب الله وسنة رسـوله صـلى اللـه عليـه وسـلم متبعين بــذلك طريقــة السـلف من الصــحابة والمحدثين والفقهاء وأهل السنة والجماعة ، وفى نفس الــوقت وفقــوا بهـذا الحـل فى إثبـــات دور للفــاعلية الإنسـانية يكفى لإثبـات المسـئولية الخلقيـة واسـتحاق

الجزاء ، فهم أقاموا اكتساب العبد بناء علي اختياره ، وقرروا ـــــــــــــــــ

1- قوت القلوب حـ2 ص11 .
2- السابق حـ2 ص11 .
3- السابق حـ2 ص11 .

خلق الله عز وجل استطاعة العبد عند الفعل وتزويده بها ليقدر على اكتساب الفعل وضده أو اكتساب الفعل واكتساب الترك لا ليقدر على إحداث الفعل وخلقه لأن الخالق والمحدث هو الله عز وجل .

فالاستطاعة للكسب وليست للخلق والإحداث ، والله سبحانه وتعالى خالق للفعل فى الحالين سواء كان الفعل المراد للعبد طاعة أو معصية ، ومن ثم فلا يتم شىء فى الكون ولا أثر ولا فعل لهذا الشىء إلا بإذنه الله وخلقه له .

وهذا الحل يتوافق مع الكلمات البليغة للحسن بن على التي أوردها الكلاباذى في باب الاستطاعة **: (إن الله تعالى لا يطاع بإكراه ولا يعصى بغلبة ولم يهمل العباد من المملكة)** (1) .

فأثبت اختيار الإنسان للطاعة والمعصية وبين أن هذا واقع بأمر الله وفى هذا يقول سهل بن عبد الله : **(إن الله تعالى لم يقو الأبرار بالجبر إنما قواهم باليقين)** (2) .

ويرى المكى أن نسبة الفعل إلى السبب أو إلى العبد شركا ، ولا يفرق فى ذلك بين خلق الله وإحيائه وإماتته وبين الكسب فى الرزق فكما أن الله أخبرنا أنه الخالق المحى المميت أخبرنا أنه الرازق ، وقرن بين ـــــــــــــــــ

1- التعرف ص64 .
2- السابق ص 64 .

هذه الأربع فى قرن واحد مـع ترتيب الحكمـة والقـــدرة لظهـور الأسـباب ووجـــود الأواسـط فقـــال تعـالى : **{ اللــه الـذى خلقكم ثم رزقكم ثم يمـتيكم ثم يحيكم }** (1) .

يقـول المكى معقبـا : **(فكمـا ليس فى الثلاثـة جاعـــل ومظهـــر إلا الواحـــد فكـذلك ليس فى الرابعـة مـن رازق إلا هـــو)** (2) .

ثم يلخص الأمر فيقول : **(فظهرت حكمـة اللــه فى الأشياء لعود الأحكام على المظهـرين لهـا وبطنت قدرتـه فى الأشـياء لرجـوع الأمـر كلـه إليه ، وهذه شهـادة التوحيـــد للعارف المتوكـل وهو مقام العلماء الربانيين)** (3) .

وهذا الفكر الـذى يشـرح من خلالـه أوائـل الصـوفية مفهومهم للتوكل وغيره استطاعوا بحـق أن يضـعوا بـه الحل المناسب لتفسير العلاقـة بين فعـل اللـه وكسـب العبـد إلا أننـا نواجـه ســؤالا ضـروريا وهامـا وهـو : **ما علاقـــة الســـبب الطـــبيعى أو غـــير الطـــبيعى الممثل فى وجود الملائكة أو الأسـباب الغيبيـة بالربوبية والفاعلية الإلهية ؟**

وذلك لأن النظريـة الصـوفية للكسـب عنـد الأوائـل خاصة بتفسير ــــــــــــــــــــــــــ

1- الروم / 40 .

2- قوت القلوب جـ2 ص10 .

3- السابق حـ 2 ص 10 .

العلاقة بين الفاعلية الإلهية والفاعليـة الإنسـانية بهـدف إثبات المسؤلية الخلقية واسـتحقاق الجـزاء دون خـرق لمبدا إفراد الله عز وجل بالخلق .

ولكن الأمـــر يختلـــف بالنســـبة للفاعليـــة الطبيعيـــة والأسباب غـير الإنسـانية بصـفة عامـة وهـو مـا يسـمية

أوائـل الصـوفية بصـفة عامـة والمكى بصـفة خاصـة بالأواسط (1) .

ويعنى بها الفاعلية الوسط بين فعل اللـه عـز وجـل وبين المفعول أو الحادث الأخـير فى الفعـل ، **وهى عند المكى نوعان :**

الأول : الأسباب الطبيعية التي تحدث على أثـر حدوثها الظواهر الطبيعية والحيوية .

الثانى : أسبـاب غيبيـــة غـير مرئيـــة ويعنـون بها الملائكــة .

لقـد نسـب أوائـل الصـوفية للإنسـان دورا هامـا فى الفعــل حــددوه بالكســب ، ولكنهم بالنســبة للأســباب الطبيعية والأحوال الغيبية رفضوا أن ينسبوا لهـا أى دور مستقل على الإطلاق ، وفهموا هذه الأواسط على أنهــا مجرد حجـاب تحتجب وتسـتتر بـه الفاعليـة الإلهيـة من ناحية وتظهـر من خلالـه الربوبيـة فيعرفونهـا من ناحيـة أخرى .

فهم يفـردون اللـه بـالخلق والفعـل ، ولكن الكسـب الذى أثبتوه للإنسان

1- انظر كشف المحجوب ص 466 .

ليس إلا اسـتحقاقا للجـزاء وإثباتـا للعـدل الإلهى ، أمـا بالنسبة للطبيعيات أو الغيبيات من الأسـباب والأواسـط فليســـت مســـئولة أو محاســـبة ، ومن ثم فلم يثبت الصـوفية لهـا أى فاعليـة مسـتقلة على الإطلاق ، بـل الفاعلية كلها لله حيث هو الفاعل بها جميعا .

ومبدأ احتجاب الفاعليـة الإلهيـة النافــذة يـتردد على أفواه الكثير مـن أوائل الصوفية (1) فهم ينظــرون إلى الأسباب باعتبارها من مكر الله عز وجـل وابتلاء للعبـاد لإخفاء فاعليته وعملها فلا يراها الناس رؤية مباشرة ولا

يواجهونها مواجهة صريحة ، وهذا المعنى هو ما يفهمه المكى من قوله تعالى : **{ ولا يحيطون بشىء من علمه إلا بما شاء }** (2) .

قيل : الهاء إشارة إلى الله تعالى وقال أبو العباس بن عطاء (3) :

1- انظر كشف المحجوب ص10 ، 11 وانظر طبقات الصوفيه ص 51 ، 344 .

2- البقرة / 255 .

3- هو أبو العباس أحمد بن سهل بن عطاء الآدمى ، من كبار مشايخ الصوفية وعلمائهم وهو من أقران الجنيد بن محمد ، مات سنه 309 وقيل سنة311 هـ ومن أفضل ما حفظ عنه : **(من ألزم نفسه آداب السنة نور الله قلبه بنور المعرفة ، ولا مقام أشرف من مقام متابعة الحبيب صلى الله عليه وسلم فى أوامره وأفعاله وأخلاقه والتأدب بآدابه قولا وفعلا وعزما وعقدا ونية)** انظر فى ترجمته الرسالة القشيرية حـ 1 ص 146 حلية الأولياء حـ 11 ص 302 شذرات الذهب حـ 2 ص 257 البداية والنهاية حـ 11 ص 144 والمنتظم حـ 6 ص 160 .

(ولا يحيطون بشىء من ربوبيته علما ، لأنه لم يظهر شيئا إلا تحت غطاء وتلبيس) (1) .

وهو يقصد بربوبيته فاعلية الله فى الكون ، ومعنى ذلك أنه يقول : إن الله عز وجل هو فاعل كل شىء وخالق كل شىء وما نراه من الأسباب الطبيعية وما نعلمه من الوحى عن الملائكة وما يتم بهما ليس إلا تلبيسا لفاعليته وربوبيته وإخفاء لها اختبارا للعباد .

ويؤكد الواسطى (2) تلبيس الأسباب وحجب صفة القدرة الإلهية من ورائها بقوله :

(إن الله تعالى يحتجب عن خلقه بخلقه ثم عن صنعته بصنعه وساقهم

1- حلية الأولياء حـ 10 ص 305 ومعنى التلبيس عند أوائل الصوفية إخفاء الأمر على سبيل الابتلاء ، حتى يمتحن العبد فى معرفة الله وإثبات الربوبية هل الخالق المدبر هو الله أم ما أبداه لهم من أسباب ؟ سواء كانت مرئية فى الأسباب الطبيعية أو غير مرئية فى الأسباب الغيبية ؟ فأما الموحدون فيعلمون أن الله من وراء الأسباب خالق مدبر وأما المشركون فيعبدون الملائكة والشمس والقمر وغير ذلك من الأسباب .

2- هو أبو بكر محمد بن موسى الواسطى خرسانى من بلد يقال لها : فرغانة ، وهو من أقران الجنيد والنورى ، ومن علماء مشايخ القوم ، مات بمرو سنة 320 هـ وقيل بعدها انظر طبقات الصوفية ص 302 المنتظم حـ 6 ص 262 ، حلية الأولياء حـ10 ص 149 الرسالة القشيرية حـ 1 ص 152 .

بأمره إلى أمره) (1) .

وقال أيضا : **(الموحد لا يرى إلا ربوبية صرفا تولت عبودية محضا)** (2) .

ويثبت المكى احتجاب القدرة الإلهية في فعلها بالأسباب بقوله : **(احتجب عن العموم بالأسباب فهم يرونها)** أى أنهم لضعف توكلهم وإيمانهم يعاينون النتائج والأحداث بها ، بينما لا يخدع الموحدون والمتوكلون بالأسباب لقوة إيمانهم بالله ومعرفتهم بصفاته .

يقــول المكى : **(وحجب الأســباب بنفســه عن الخصوص فهم يرونه ولا يرونها)** (3) .

ويرى الحكيم الترمذى أن كل شىء قائم باللــه ومن الله ، وإن اختفى هـذا الســر وراء الأسـباب الظـاهرة ، فالله قـد جعـل من تـدبيره أن يسـتر أمـوره بالأسـباب والآدمى يرى ما ظهـر عنهـا ابتلاء من اللـه وفى باطنهـا ربوبيته فالحكمـاء عن تـدبير اللـه ينطقـون وكيـف دبـر شأن الآدميين وكيف ركبهم يشكرون (4) .

1- قوت القلوب حـ 1 ص 126 .

2- طبقات الصوفية ص 303 .

3- قوت القلوب جـ2 ص15 .

4- نوادر الأصول للحكيم الترمذى ص 398 .

ويوضح المكى مبدأ احتجاب صفة القدرة بقوله :

(وكذلك أيضا تدخل الشبهة على الغـافلين من ضعف اليقين لشهود المـانعين والمنفقين أوائــل فى الفعــل من قبــل أن اللــه تعــالى أظهــر العطـاء والمنــع بأيــديهم ، فشــهدوهم معطين مـــانعين لنقصـــان توحيـــدهم ، فأشركوا فى أسماء الله) (1) .

وفى هذا النص يتضح لنا من قــول المكى عن الغـافلين أنهم يرون الناس والأسـباب أوائـل فى الفعـل اعتقـاده بـأن الأفعـال المنسـوبة للبشـر والأسـباب ليسـت على وجـه الأصـالة فى الإحـداث ، لأن الفاعـل الحقيقى هـو اللــه وحــده وإنمــا الأسـباب والنــاس ليســوا إلا مجــالا لإظهار فعل الله عز وجل ، وذلك بحجب قدرته الفاعلة بهم حتى يقع أصـحاب الغفلـة فى الشـرك الخفى ابتلاء من الله .

فيقول العبد أعطانى ومنعنى فلان ، وهذا شرك لأن الأسباب تظهر على أيديهم وتجرى بواسطتهم فحجبوا بها عن المسبب واستتر عنهم المعطى المانع (2) .

ومن ثم فالصوفية الأوائل يفهمون علاقة الأسباب بالفاعلية الإلهية باعتبار الأسباب مجرد ستار وحجاب لقدرة الله عز وجل يسدله الخالق ـــــــــــــــــ

1- قوت القلوب جـ2 ص15 .

2- السابق حــ2 ص11 .

رحمة بالناس وبخاصة الضعاف منهم من ناحية ، وابتلاء واختباراً لهم من ناحية أخرى .

ويعتبر التسترى فى هذه النقطة أدق من غيره ، لأن الخلق عنده لا يحجب الخالق وإنما الحجاب من قبل الخلق لا من قبل الخالق ، وذلك لأن ميدان الربوبية فى نظرة أوائل الصوفية هو الميدان الذى تتحقق فيه العلاقة بين الله وخلقه من خلال صفاته سبحانه .

يقول التسترى عن صفة الفعل : **إنها الصفة التى بها احتجب وبها تسمى الله فإذا أبصر الإنسان أشعره الله بمباشرة صفاته وخفى ألطافه آثاراها فى خلقه** وهذا هو استشعار العبودية التى تثمر خوف المقام استمدادا من قوله الله تعالى : **{ وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى }** (1) .

فالوسائط التي هى أثار الصفات الإلهية لا ينظر إليها المؤمن على أنها ضروريات عقليه تدريجية لفهم طبيعة الفعل الإلهى ، ولكن ينظر إليها على أنها سلم يصعد عبرها الإنسان روحيا حتى يستقر قلبه نهائيا مع ربه (2) .

ومن هنـا نشـأ هـذا التنـوع فى موقـف الصـوفية فى وجهين يظهران من
____
1- النازعات / 40 .
2- من التراث الصوفى ص215 .
هذين الدعاءين المختلفين لشـخص واحـد وهـو السـرى السقطى (1) .

- **أحـدهما : ينـادى الصـوفى فيـه ربـه اللهم لا تعذبنا بذل الحجاب** (2)

- **والآخـر : اللهم الطـف بنـا واسـترنا بلطـف الحجاب** (3) .

أما الأول فيقصد أن ينعم بشهود الربوبية والفاعليـة الإلهية ، وأما الآخر فيسأل اللـه التخفيـف حـتى يسـتمر في حياته ليرعى شئون نفسه لأنه لو ظل مشاهــدا لـه وراء كــل شىء يسبـح الله حقيقــة استحــال عليـه أن يفعل الضروريات أو يفكر فى غذائه وصلاح معيشته .
وفى ذلك توجيـه نبـوى للصـحابى أبى ربعى حنظلـة بن الربيع كاتب الوحى فى قوله :
(والذى نفسى بيـده لـو تـدومون على مـا تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكـة على فرشــكم وفى طــرقكم ولكن ياحنظلــة ساعة
____
1- هــو أبــو الحســن ســرى الســقطى خــال الجنيــد وأســتاذه ، من أقــران معــروف الكــرخى وهــو إمــام البغدادين مات سنة 251 هـ انظـر حليـة الأوليـاء حــ1 ص 116 طبقات الصوفية ص 48 تاريخ بغـداد جــ9 ص 187 طبقات الشعرانى جـ1 ص86 شذرات الذهب جـــ 2 ص127 البداية والنهاية جـ11 ص13 .

2- حلية الأولياء جـ10 ص120 .
3- طبقـات الصـوفية ص51 ، وانظـرختم الأوليـاء ص 149.

وساعة ثلاث مرات) (1) .

إذ أن حنظلـة ظن أن الانشـغال بالأسـباب في غـير مجلس الذكر مـدعاة للنفـاق فقـال : **(نكون عنـدك تذكرنا بالنار والجنة كأنا رأى العين فـإذا خرجنـا من عنـدك عافسـنا الأزواج والأولاد والضيعـات نسينـا كثـيرا)** (2) وهـو مـا يعتـبره نفاقا .

وإرشاد النبى صلى الله عليـه وسـلم لحنظلـة يـوحى بأن أهل الحقـائق فى دوام الأحـوال ارتقـوا عن وصـف التأثر بالأواسط والأسـباب ، فهم يباشـرونها فى ظـاهر العيان ويعلمون أن الله من ورائهم محيط قادر فاعـل بلطائف القدرة وخفايا المشيئة (3) .

ونخلص إلى القـول بـأن أوائـل الصـوفية أثبتـوا أن الفعل يحتاج إلى فاعل واحـد فى خلقـه وإنشـائه إذ أن وجود فاعلين يوجب اسـتقلال الواحـد عن الآخـر ، ومن ثم فالفاعـل يتحتم أن يكـون واحـدا فـى الحقيقـة بلا جدال

1- أخرجـة مسـلم فى كتـاب التوبـة ، بـاب فضـل دوام الذكر والفكـر فى أمـور الآخـرة بـرقم (2750) وابن حبـان عن أنس فى كتـاب الـبر، بـاب مـا جـاء فى الطاعات وثوابها برقم (344) وأخرجـة أحمـد عن أنس جـ3 ص 175 وابن المبـارك فى الزهـد عن أبى هريـرة برقم (1075) والهيثمى فى مجمع الزوائد عن أنس جـ 10ص308 .

2- الرسالة القشيرية حـ 1 ص 254 .
3- السابق جـ1 ص 254 .

وهذه الأسباب والأواسط أدوات للقدرة خلقها الله عز وجل لتحقيق علمه فى خلقه ليس لها أثر بـذاتها ولا يمكن أن توجد بنفسها (1) .

يقول الهجويرى : **(ونحن فى هذا الصدد على طـرفى نقيض مـع أصـحاب المـذاهب الثنويـة الذين يقولون بالنور والظلام ، ومـع المجـوس الــذين يعتقــدون بــبزدان وأهــريمن ، ومــع الفلاسـفة الطبيعـيين الـذين يقولـون بـالطبع والقوة ، والفلكـيين الـذين يصـدقون بـالأفلاك السـبعة والمعتزلــة الــذين يقولــون بتعــدد الخالقية والصانع بدون حد)** (2) .

وقـد نبـه سـهل بن عبـد اللـه إلى أن ذلـك لا يعـنى القـول بـالجبر ، لأن قومـا ممن ضـلوا فى هـذا البـاب زعمــوا أنهم يغرقــون فى بحــار التوحيـد ، ولا يثبتــون لنفوسهم حركة وفعلا ويسـقطون ذلـك ظنـا منهم أنهم يفردون اللـه بالفاعليـة فـيزعمون أنهم مجبـورون على الأشياء وأنه لا فعل لهم مع فعل اللـه ويسترسـلون فى المعاصى وكل ما تدعوا النفوس إليـه من تـرك الحـدود والأحكام والحلال والحرم .

1- كشف المحجوب ص333 .
2- السابق ص 333 ، 334 .

*** المبحث الرابع ***

الحكمة من خلق الأواسط والأسباب

إذا كان أوائل الصوفية قد أفـردوا اللـه بخلـق أفعـال العبـاد وأثبتـوا دور الإنسـان فى كسـب أفعالـه الخلقيـة وأكدوا أن الأسباب لا تستقل عن الفاعليـة الإلهيـة بـأى أثـر يـذكر ، فكيـف وعلى أى وجـه تنسـب النتـائج إلى الأسباب ؟ وكيف تكـون الأسـباب بذلـك حقـا وأثـرها صدقـا وهى ليست فاعلة أو مـؤثرة بـذاتها ممـا يجعلهـا أقـرب إلى الـوهم ؟ فـى حيـن أن المكـى يقـول : **(فى الأشياء أواسط حق وأسباب وصدق) ؟!**

وفى الحقيقـة قولـه هـذا يـدل على إثباتـه لحقيقـة الأسـباب ونفى وهميتهـا وبطلانهـا وجوديـا ، إذ أنـه استطرد بعد ذلك مبينـا موقـع هـذه الحقيقـة من قـدرة الله المطلقة فيقول : **(لما كانت الأشـياء بعـد أن لم تكن ولا تكـون بعـد أن كـانت ، أشـبهت الباطل الذى لا حقيقة له أوليـة ، ولا ثبـات لـه آخرية ، وكان الله تعـالى الأول الأزلـى الآخـر الأبدى فهو الحـق ولا هكذا سواه)** (1) .

وهـذا الكلام يبـدوا متناقضـا مـع سـابقه ، حيث أثبت الوجود الحـق للأسباب ثم جعله باطـلا ولكنه لا يعـد فى حقيقه الأمر تناقضا ، وذلك

____

1- قوت القلوب جـ2 ص 14.

لأن الحقيقة التى أثبتهـا للأسبـاب غيـر الحقيقـة الـتى أثبتهـا للـه عـز وجـل ، فاللـه هـو الحق وكل ما سـواه حقائـق نسبيـة أو حقائـق وجوديـة مشروطـة ومتعلقـة بالمشيئـة الإلهية وبقـدرة اللـه وربوبيتـه ورعايتـه ، كمـا قـال سبحـانه وتعـالى : **{ الله خـالق كـل شىء وهو على كل شىء وكيل }** (1) .

فكل ما سوى الله عز وجل باطـل بـالنظر إليـه فى ذاته إذا قيست حقيقته بوجود الحـق سـبحانه وتعـالى ،

ولذلك استدال المكى على هـذه الحقيقـة بقـول النـبى صلى الله عليه وسلم : **(أصدق بيت قاله الشـاعر ألا كل شىء ما خلا الله باطل)** (2) .

يقـول المكى معقبـا على الحـديث : **(وهـو صـلى الله عليه وسلم يعلم أن فى الأشياء أواسـط حـق وأسـباب صـدق ثـم لم يمنعـه ذلـك**

1- الزمر / 62 .

2- هـو أبـو عقيـل لبيـد بن ربيعـة ، قـال ابن حجـر : (المراد بقول الشاعر **ما عدا الله** أى مـا عـداه وعـدا صفاته الذاتية والفعلية ، فكـل شـىء سـوى اللـه جـائز عليه الفناء لذاتة حتى الجنة والنار ، وإنما يبقيان بإبقـاء الله لهما وخلق الدوام لأهلهما ، والحق على الحقيقة لا يجـوز عليـه الـزوال) انظـر فتح البـارى جــ7 ص188 والحديث أخرجـه البخـارى فى كتـاب منـاقب الأنصـار ، باب أيام الجاهلية برقم (3841) ومسلم فى كتاب البر والصلة والآداب برقم (63) وأحمد فى المسند حـ3 ص 248 .

أن قال : أصدق بيت قـاله الشاعر كـذا ، إيثـاراً منه للتوحيـد وتـوحيداً للمتـوحد) (1) .

وعلى هـذه النظرة العميقة ، فإن الأغيار والأسـباب إنما هى حق بالنظر إلى القدر الإلهى ، وباعتبار مشـيئة الله تعالى فى وجودهـا وبقائهـا وتأثيرهـا ، وبهـذا النحـو الذى فسر به المكى علاقة الأسباب أو الأغيار بالله عـز وجل من حيث الوجـود فسـر بـه أيضـا علاقـة فاعليـة الأسـباب والأواسـط بفاعليـة اللـه عـز وجـل وربوبيتـه فيقول :

(ومثلـه الأسـباب أيضـا فى ثوانيهـا وأواسـطها إلى جنب الأول المسـبب مثـل مـا

يقول فى القرآن قال الله كذا ، ولك أنه تقول : قال نوح وقال يوسف كذا فكل صواب) (2) .

فالأسباب فاعليتها إذا بالقياس إلى فاعلية الله باطلة ولا حقيقة لفعلها فى ذاتها وإن كانت لها فاعلية واقعة بإذن الله وخلقه لها .

فالسبب والنتيجة مخلوقان له واقعان بفاعليته ، ومن ثم تكون فاعلية السبب ليست حقيقية وليست مجازية ، بل ليست فاعلية على الإطلاق لأنه فى كل مرة يقع منه أثره يكون هذا الأثر بخلق الله وإرادته وقدرته كشأنهم فى إضافة الاستطاعة للإنسان يخلقها الله عز وجل فى السبب

1- السابق حـ2 ص 14 .

2- السابق حـ2 ص 14 .

مرة بمرة وفعلا بفعل ، فلا يكون السبب فيها فاعلا فى الحقيقة ، أو مستقلا بفاعليته برؤية وحتمية بينة كعلة وبين الفعل التابع له كمعلول بل هو مؤثر ليس بالنظر لذاته ولكن بالنظر إلى خالقه وخالق معلوله على السواء .

ويستدل المكى على ذلك فيقول : **(وقال فى إثبات الأسباب ورفع حقائقها : { وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى }** (1) .

فنسب الرمى لله عز وجل وليس لرسوله حين رمى ، وقال تعالى فى ذكر الأواسط : **{ فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها }** (2) .

فالأموال والأولاد علل وأسباب وأواسط ، يظن الكافر أنها أوائل ذات فاعلية مستقله لإسعادهم ، ولكن

القدرة الإلهية احتجبت وراءها ليعذبهم الله بها ، وذلك يدل على أنها ليست فاعلة على الإطلاق حقيقة أو مجازا لأنها لو كانت كذلك لما كانت سببا فى عكس ما توهم الكافرون أنها سبب له ، وكذلك يضرب المكى مثلا بالفعل يخلقه الله ويكسبه العبد يقول :

1- الأنفال / 17 .
2- التوبة / 55
وانظر السابق حـ2 ص 12وانظر كشف المحجوب ص304، ص305 وقارن .
وكذلك قال سبحانه فى التفصيل والأمر **: { فاقتلوا المشركين }** (1) وقال فى مثله عند ذكر واسطة الأمر : **{ قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم }** (2) .
ثم قال التوحيد : **{ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم }** (3) .
وكل ذلك دليل على أن الله عز وجل هوالخالق والفاعل بالأسباب أو بالناس فهو يعذب الكافرين بأيدى المؤمنين ويخلق النتيجة بسببها وهو قادر على أن يفعل النتيجة بلا سبب والمعلول بلا علة ، ولكنه شاء أن يحجب قدرته بإيجاد المعلول بالعلة تحقيقا لمعنى الابتلاء وإظهارا لقدرة العبد على القتل فينال الأجر والثواب .
أما بالنسبة للأسباب الطبيعية فيورد المكى قوله تعالى : **{ أفرأيتم ما تحرثون أأنتم تزرعونه أم نحن الزارعون }** (4) .
فذكر الأواسط ثم قال : **{ أنا صببنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شقا }** (5) .

1- التوبة / 5 .

2- التوبة / 14 .
3- الأنفال / 17 وانظر السابق حـ 2 ص 12 وكشف المحجوب ص 305 .
4- الواقعة / 63 .
5- عبس / 25 ، 26 وانظر السابق حـ 2 ص 12 .

أى أنه أثبت للإنسان حرثا وهو سبب غير مؤثر بذاته لإثبات الزرع بل مؤثر بأمر الله وبخلقه عز وجل للإنبات ، كما أثبت لنفسه خلق الأسباب أيضا بإنزال الماء وشق الأرض .

وهكذا فهو الفاعل للعلة والمعلول على الحقيقة ومن ثم يثبت أوائل الصوفية الأسباب كستار لحجب القدرة الإلهية فقط .

يقول المقدسى : **(إن الإنسان إذا انكشف عن بصيرته أن لا فاعل سوى الله ، فإنه لا ينظر إلى غيره ، فلا يعتمد على المطر فى خروج الزرع ، ولا على الغيم فى نزول المطر ، ولا على الريح فى سير السفينة ، فإن الاعتماد على ذلك جهل بحقائق الأمور)** (1) .

ويمثل المكى العلاقة بين فاعلية الأسباب وفاعلية الله بقوله :

(ومثل الأواسط مثل الآلة بيد الصانع ألا ترى أنه لا يقال الشفرة حذت النعل ولا الصوت ضرب العبد) وذلك لافتقار الشفرة والصوت إلى المشيئة والعلم والاختيار ، مما ينفى كونها فاعلة .

ومن ثم يقول المكى : **(إنما يقال الحذاء حذ النعل وفلان ضرب عبده بالسوط وإن كانت هذه الأواسط مباشرة للأفعال إلا أنها آلة بيد صانعها)** (2) .

1- مختصر منهاج القاصدين ص 346 ، 347 .
2- قوت القلوب حـ 2 ص 13 .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الخليقة يباشرون الأسباب فى ظاهر العيان والله من ورائهم محيط وهو القادر الفاعل بلطائف القدرة وخفايا المشيئة .

أما بالنسبة للأسباب الغيبية أى الملائكة ، فإن العلاقة بين فاعليتهم والفاعلية الإلهية هى نفس العلاقة بين العلل الطبيعية وفاعلية الله عز وجل ، ذلك أن الملائكة : **{ لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون }** (1) .

وهم وإن كانوا يعملون فى حدود ما أوكل الله إليهم أعمالا ، إلا أنهم ليسوا أصحاب إرادة واختيار كالإنسان بحيث لا يحدث منهم ما هو مخالف للأمر بعبودية الله عز وجل ، ومن ثم تصبح أفعالهم تنفيذا وإمضاءا لأمر الله عز وجل وقدرته ومشيئته .

فيكون الفعل لله عز وجل على الحقيقة ، والملائكة ليسوا سوى حجاب أو ستار ثان للربوبية عن الناس ، وذلك باعتبار أن العلل الطبيعية ستار أولى ، ويدلل المكى على ذلك أيضا بالكثير من الأمثلة الواردة فى كتاب الله عز وجل مثل قوله تعالى : **{ قل يتوفاكم ملك الموت الذى وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون }** (2) .

1- التحريم / 6 .
2-السجدة / 11 .

فهنا يثبت الفعل الإلهى محتجبا بالملائكة كأسباب غيبية ، وأظهر نفسه سبحانه فقال : **{ الله يتوفى**

الأنفس حين موتهـــــا والـــــتى لم تمت فى منامها } (1) .

وبالنسبة لخلق الإنسان ونفخ الروح فيه قال تعالى : **{ فأرسلنا إليها روحنا }** (2) .

ثم قـــال فى التوحيـــد : **{ فنفخنـــا فيـــه من روحنا }** (3) .

وكـان النـافخ جبريـل (4) ولكن الفعـل لا يقـع من جبريل ومن كل الملائكة إلا حسب مشيئة اللـه وإرادتـه وقدرته ، لأن جبـريل والملائكة من خلق الله عـز وجـل فـإن الفعـل لله وحده ، ولذلك نسـبه لنفسـه على هـذا النحـو وأثبت وقوعـه من جبريـل كسـبب غيـبى تحتجب وراءه القـدرة الإلهية .

ويرفض المكى القول بخلق القـرآن بمبـدأ العلـل أو الوسائط والأسباب الثـوانى الـتى تحتجب بهـا الفاعليـة الإلهيـة فيقـول : **(إذا قلت : قـال اللـه سـبحانه وتعالى كذا فهـو القائـل الأول قبـل القـائلين متكلما بوصفه مخبرا**

1- الزمر / 42 وانظر قوت القلوب حـ 2 ص 13 .
2- مريم / 17 .
3- التحريم / 12 .
4- السابق حـ 2 ص14 .

عن علمه بغير وقت لموقت ولا حد لمحدود ولا حد ثان .

وإن قلت : قال صالح وقـال شـعيب فقـــد قالـوه بأنهم ثوان فـى القـــول وأواسط به ، قالوا ذلك عنـه بحـدوث أوقـات وظهـور أسباب) (1) .

أى أن كل ما أخبر الله عز وجل به ، فهو قوله القديم دون تحديد لوقت وعندما حدث فى الزمان صالح وشعيب ، قال كل منهما قوله باعتباره مجرد علة تظهر من خلالها كلمات الله عز وجل .

فالأنبياء والرسل قالوا ذلك عنه بحدوث أوقات وظهور أسباب فشأن الرسل في ذلك شأن العلل الطبيعية والعلل الغيبية حيث أنه ليس لهم إرادة واختيار خاص مستقل إزاء ما أراده الله عز وجل وأمرهم به من فعل وتبليغ .

كما قال سبحانه عن نبينا صلى الله عليه وسلم :

{ وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى علمه شديد القوى } (2) .

وقال عن الأنبياء جميعا : **{ وإذا أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم وأخذنا منهم ميثاقا غليظا ليسئل الصادقين عن صدقهم وأعد للكافرين**

1- السابق حـ 2 ص 14.

2-النجم / 3 : 5 .

عذابا أليما } (1) .

- وقال عن نبيه صلى الله عليه وسلم : **{ ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين ثم لقطعنا منه الوتين }** (2) .
- ويعقب المكى على النص السابق بما يفيد هذا المعنى ويقرره فيقول : **(وكذلك الأسباب وأواسطها ثوان عن الأول المبدئ)** (3) .

ويعلـل المكى قـول المبتـدعين بخلـق القـرآن بـأنهم نسـبوا فاعليـة ذاتيـة مسـتقلة للأسـباب والإنسـان ممـا جعلهم ينسـبون أقـوال الأنبيـاء والرسـل إليهم أولا ، ثم إخبـار اللـه عنهم بـذلك ثانيـا ، فاضـطروا إلى القـول بحدوث القـرآن وخلقـه من حيث احتوائه على حـوادث يقول :

(ومن هنـا وفى مثلـه دخلت الشـبهة على المبتدعين فقالوا بخلق القرآن) (4) .

ويرى المكى أنهم وقعوا فى أشـنع ممـا هربـوا منـه حيث أثبتـوا كلام المحـدثين قبـل كلام رب العـالمين القديم الأزلى .

وقد دخل الشبهة أيضا على أمثـال هـؤلاء المبتـدعين فوقعوا فى الشرك

____

1- الأحزاب / 7 ، 8 .

2- الحاقة / 44 : 46 .

3- السابق حـ 2 ص 14 .

4- السابق حـ 2 ص 15.

الخفى أيضا من حيث شهدوا المانعين والمنفقين أوائـل فى الفعل من قبل أن الله تعالى أظهر المنـع والعطـاء بأيـديهم (1) وجهلـوا حقيقـة سـتر الفاعليـة الإلهيـة بالأسباب والـوسائط ، وهـو شـرك خفى نتيجـة ضـعف اليقين والغفلـة والجهـل وذلـك لا يخـرج عـن المـلة عندهم .

وفى هذا المعنى يقول الواسطى فيمن نسب الفعل إلى السـبب أو الفاعليـة ونسـى نسـبته إلى اللـه عـز وجل :

(ادعى فـرعـون الربوبيـة علـى الكشـف وادعت المعتزلـة علىالسـتر تقـول : ما شـئت فعلـت) (2) .

ولذلك يرى أوائل الصـوفية وجـوب اعتقـاد المسـلم بأن الله هو الفاعل الخالق وحده لأن ذلك عندهم أصـل من أصول التوحيد .

وقال بعضهم : **(التوحيـد هـو إضـافة كـل شئ إلى الأصل ، وإن كان الله فعل ذلك فى الفرع)** (3) .

وهو يقصد بالأصل فعل الله تعالى بكلمة كن ويقصد بالفرع ظهور الفعل أو نتيجته بالأسباب واحتجاب قدرته الخالقة والمحدثة والفاعلة بـالكن وراء هـــذه الأسـباب بدليل قوله بعد ذلك :

1- السابق حـ 2 ص 15 .
2- الرسالة حـ 2 ص 35 .
3- كشف المحجوب ص 246 .

(لا تنظر إلى أهل الأعراض والغفلـة بادعـاء ما ليس لهـــم فى دعواهم بحق .

- **قـال فـرعــون : { أليس لى ملــك مصــر }** (1) .
- **وقـــال قـــارون : { إنمـا أوتيتـه على علم عندى }** (2) .
- **وقـــال المنـــافقون : { شـــغلتنا أموالنـــا وأهلونا }** (3) .

وكلها نمـاذج قرآنيـة للتـدليل على أن نسـبة الفعـل على سبيل الإيجاد إلى السبب أو الإنسان باطلـه ، لأنـه تجاهل للفاعلية الحقة فى الوجود .

ثم يبين بطلان هذه الفاعليـات والأسبـاب بقولـه : **ثم لمـا رجـع الفـرع إلى الأصـل قـال عـز وجـل :**

{ لمن الملك اليوم } (4) **فخرست الألسن ولم يجترئ أحد على دعوى الملك فقال الله تعالى : {لله الواحد القهار }** (5) **.**

وهـذا يتمشـى مـع قـولهم باحتجـاب القـدرة الإلهيـة حيث أنها الأصـل فى حـدوث الأشـياء والأحيـاء والعـالم كله ، ثم احتجابها بالأسباب على

____

1- الزخرف / 51 .

2- القصص /78.

3- الفتح /11 .

4- غافر / 16 .

5- غافر / 16 وانظر السابق ص 247 .

سـبيل الاسـتثناء ، وهـذا الاسـتثناء لحكمـة شـاءها اللـه تعالى .

ويدلل المكى على نسبة الفعل بكماله إلى اللـه عـز وجل سـواء وقـع بالأسـباب أو بـدونها فيقـول : هب أن الله تعالى أمر رسوله بالدعوة إليه فدعا لقوله تعـالى : **{ ادع إلى سـبيل ربـك بالحكمـة والموعظـة الحسنة وجادلهم بـالتى هى أحسـن }** (1) فمن الذى أسـمع الآذان دعوتـه وفتح أقفـال القلـوب ووفـق للاستجابة أليس ذاك الله ؟ واحد فى صنعه (2) .

أى إذا عرفنا فاعلية الله عز وجل من خلال الوسائط فذاك التفصيل أما التوحيـد فهـو تخطى هـذه الأسـباب إلى فاعليتـه ، وهـذا هـو توحيـد الربوبيـة ، والنظـر إلى الحالتين يتوقف على وجهة الناظر .

وقال بعضهـم : **(إذا نظرت إلى التفصيل أثبت الوسائط والرسل وإذا نظرت إلى التوحيد لـم تر فى الـدارين مع الله أحـــدا غـيره)** (3) .

أى أن الله عز وجل واحد لا يتغير فى ذاتـه وفعلـه ، واحد فى قدرته منفـرد بالفعـل أولا وأخـيرا ، والاختلاف بين الأصـل والفـرع يرجـع إلى النـاظر ودرجتـه من التوحيـد ليس إلا ، ويعلـق ابن القيم على هـذه القضـية

1- النحل / 125 .
2- قوت القلوب حـ 2 ص 13 .
3- السابق حـ 2 ص 14 .

بأن الأسباب مخلوقة لله وليست لهـا أفعـال مسـتقلة ، فالفعل الذى لا يعقل الناس سواه هو الفعل الاختيـارى الإرادى الحاصل بقدرة الفاعل وإرادتـه ومشـيئته ، ومـا يصدر عن الذات من غير قدرة منها ولا إرادة لا يسـميه أحد من العقلاء فعلا ، وإن كان أثرا من آثارهـا ومتولـدا عنهـا كتـأثير النـار فى الإحـراق والمـاء فى الإغـراق ، والشـمس فى الحـرارة ، فهـذه آثـار صـادرة عن هـذه الأجسام وليست أفعالا لها ، وإن كـانت بقـوى وطبـائع جعلها الله فيها ، فالفعـل والعمـل من الحى العالـم لا يقـع إلا بمشيئته وقدرته (1) .

وهنا نجد أنفسنا أمام سؤال هام لا نتجاهله وهو : **ما الحكمة التى شاء اللـه عـز وجـل من أجلهـا أن يحجب قدرته وفاعليتـه المطلقـة خلـف العلـل والأسباب سواء كانت مشهودة أو غيبية ؟**

والجواب على ذلك عندهم ينبع من كتـاب اللـه عـز وجـل ، حيث بين اللـه سـبحانه وتعـالى أن الحكمـة من مشـيئة ذلـك هى الحكمـة من خلقـه للـدنيا والآخـرة والإنسان والجان ، هذه الحكمة هى الابتلاء .

فاللـه سـبحانه وتعـالى ربـط الأسـباب بمسبباتـها شـرعا وقدرا ، وجعل الأسباب محـل حكمتـه فى أمـره

الـــدينى الشـــرعى ، ومحـــل ملكـــه وتصـــريفه فى

1- شفاء العليل ص 188 بتصرف .

أمره الكونى القدرى ، فإنكار الأسباب والقوى والطبائع جحد للضروريات ، وقـــدح فى العقـول والفطـر ، فقـد جعل الله سبحانه مصالح العباد فى معاشـهم ومعـادهم والثواب والعقاب والحدود والكفارات والأوامر والنواهى ، كل ذلك مرتبطا بالأسباب قائما بها .

بل العبـد نفسـه وصـفاته وأفعالـه سـبب لمـا يصـدر عنه ، بل الموجودات كلهـا أسـباب ومسـببات والشـرع كلـه أسـباب ومسـببات والمقـادير أسـباب ومسـببات والقدر جار عليها متصرف فيها ، فالأسباب محل الشرع والقدر ، يقـــول الترمـذى : **(فهـــذه كلهـا أسـباب والآدمى يرى ما ظهـر عنهـــا وفى باطنهـــا ربـوبـيـتـة ، وهو الذى دبر هـذا كلـه من القـدر وأمضى التدبير بمشيئته تحقيقا للابتلاء)** (1) .

والقرآن مملوء من إثبـات الأسـباب وتعليـق الأحكـام عليها بالتكليف والابتلاء .

- قال تعالى : **{ كلوا واشربوا هنيئا بما أسـلفتم فى الأيام الخالية }** (2) .

وقال تعالى : **{ فبظلـم من الـذين هـادوا حرمنـا عليهم طيبـات أحلت لهم وبصـدهم عن سـبيل اللـــه كثـــيرا وأخذهـــم الربـــا وقـــد نهـــوا**

1- نوادر الأصول ص 397 .

2- الحاقة / 24 .

- **عنه وأكلهم أموال النـاس بالباطـل و أعتـدنا للكافـرين منهـم عـذابا أليـما }** (1) .

والآيات كثيرة فى هذا البـاب لا تكـاد تحصـى ، وكلهـا تدل على أن الأسباب إنما جعلت لحكمة وغاية .

- قال تعـالى : **{ أفحسـبتم أنمـا خلقنــاكم عبثـا وأنكـم إلينا لا ترجعــون فتعـالى اللـه الملـك الحـق لا إلـه إلا هـو رب العــرش الكـريم }** (2) .
- وقال تعالى : **{ وما خلقنا السماء والأرض ومـا بينهما لاعبين ما خلقناهما إلا بالحق }** (3) .
- يقول ابن القيم : **(والحق هو الحكمة والغايــات المحمودة التى لأجلها خلق ذلك كله)** (4) .

وذكر من هذه الحكم والغايات :

1- أن يعرف الحق سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وأفعاله وآياته0

2- أن يحب ويعبد ويشكر ويذكر ويطاع .

3- أن يأمر وينهى ويشرع الشرائع .

1- النساء / 160 ، 161 .

2- المؤمنون / 115 .

3- الدخان / 38 : 39 .

4- شفاء العليل ص 189 ، وانظر قـوت القلـوب حـ 2 ص 4 .

4- أن يدبر الأمر ويتم القضاء ويتصرف فى ملكه بأنواع التصرفات .

5- أن يـثيت ويعـاقب فيجـازى المحســن بإحسانه والمسئ بإسـاءته فيوجـد أثــرا لعدلـه وفضـله موجـودا مشـهودا فيحمـد على ذلــك ويشــكر ، إلى غــير ذلــك من

الحكم الـتى تضـمنتها الأسـباب فى خلـق السماوات والأرض (1) .

- وقال تعالى : **{ وما خلقنا السماء والأرض ومـا بينهما بـاطلا ذلـك ظن الـذين كفـروا فويـل للذين كفروا من النار }** (2) .

ومن أوائل الذين انتبهـوا إلى هذه الحقيقة سـهل بن عبد الله التسترى حــيث يقــول : **(إن الله عز وجل خلق الخلق وفطرهم على معـرفته وابتلاهـــم بنفســـه وقهرهــــم بقدرتــه وأمضــى فيهـــم حكمه وهو فى علاه قائـم عليهــم)** (3) .

وفضلا عن ذلـك فـإن التسـترى يـرى أن أوامـر اللـه ونواهيـــه إن هى إلا ابتلاء حقيقى وامتحـــان خطـــير للإنسان (4) .

1- السابق ص 189 بتصرف .
2- ص / 27 .
3- من التراث الصوفى ص 268 .
4- السابق ص 269 .

وهذا الابتلاء يظهر من تصريف الحـق لجميـع الخلـق حيث أنـه منشـئ ذواتهم ومجـرى صـفاتهم ، وبـالابتلاء نـوعهم فريقـا أسـعدهم ، وفريقـا أبعـدهم وأشـقاهم ، وفريقـا هـداهم ، وفريقـا أضلهـــم وأعمـــاهم وفريقـا حجبهم عنـه ، وفريقـا جـذبهم إليـه ، وفريقـــا آنسهـــم بوصله ، وفريقـا أيسـهم من رحمتـه ، وأنـواع أفعالـه لا يحيط بها حصر ، سـواء احتجب عنهم بالأسـباب ابتلاء ، أو شاهدوا قدرته من خلفها (1) .

ولكن مـــا علاقـــة الحكمـــة من احتجـــاب القــــدرة بالابتـلاء ؟ يقـول الدكتور جعفر :

(إن سهلا لا يعترف بحقيقة الاستطاعة وفقط ، بل يرى كذلك أنها محـل البلاء ومحـك الابتلاء ، ولقد صرح فى مواضع كثيرة أن خلـق الإنسان فى الأصل بدأ بالابتلاء ، فالخلائق فى نظره وجهوا للابتلاء فتحركت نفوسـهم نحـو التدبير لصالحها) (2) .

وعلى ذلك فإن الإنسان إذا تعامـل مـع هـذه القـدرة وجها لوجه ، فإن ذلك سيبطل معنى الابتلاء ، فـالابتلاء بمعنى الامتحان والاختبار يقتضى وجود عالم غـائب عن الإنسـان تحتجب فيـه القـدرة الإلهيـة ، فليس من المعقـول أن يكـون على الأرض ابتلاء ، والإنسـان المبتلى يستطيع أن يرى

____

1- الرسالة القشيرية حـ 1 ص 226 .

2- من التراث الصوفى ص 268 .

النار وعذابها ، أو يحسها أو يسمع صـراخ المعـذبين فى القبور أو يرى رب العزة والجلال ، وبرهـان ذلـك قولـه صلى الله عليه وسلم :

(إن العبد إذا وضع فى قبره ، وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع قرع نعالهم ، أتاه ملكـان فيقعدانـه ، فيقـولان لـه : مـا كنت تقـول فى هذا الرجل لمحمد صلى الله عليه وسلم ؟ فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسـوله ، فيقال لـه : انظـر إلى مقعـدك من النـار ، قـد أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، فيراهما جميعا .

قال قتادة : وذكر لنا أنه يفسح فى قـبره ، ثم رجع إلى حديث أنس فقال : وأمـا المنـافق أو الكافر فيقال لـه : مـا كنت تقـول فى هـذا الرجـل ؟ فيقـول : لا أدرى ، كنت أقـول مـا

يقـــول النـــاس ، فيقـــال : لا دريت ولا تليت ويضــرب بمطــارق من حديــد فيصــيح صــيحة يسمعها من يليه غير الثقلين) (1) .

والشاهد فى هـذا الحـديث ، أن كـل الكائنـات الحيـة على الأرض تسمع ________________

1- أخرجــه البخــارى فى كتــاب الجنــائز ، بــاب الميت يسمع خفق النعال برقـم (1338) وأخرجـه مسـلم فى كتاب الجنة ، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار وإثبــات عــذاب القــبر والتعــوز منــه بــرقم (2870) والنسائى فى كتاب الجنائز ، باب مساءلة الكــافر حـ 4 ص 97 ،ـ 98 وابن حبان فى كتـاب الجنـائز فصـل فى أحوال الميت فى قـبره بـرقم (3120) وأخرجـه أحمـد فى المسند حـ 3 ص 126 .

صــوت المعــذب إلا الإنس والجن ، لأنهمـا المخلوقــان المبتليــان على الأرض أمــا مــا عــداهما من الأحيــاء فليســوا واقعين تحت الابتلاء ولم يخلقــوا لــه ومن ثم فهم يعيشون بغير هذا الغطـاء الكـونى الـذى يمنـع عن الثقلين معرفــة الأمــور الغيبيــة الــتى تقــع فى الأرض ، كصراخ المعذبين فى القبور وكرؤية الملائكـة المحيطـة بالإنسان ورؤية الشياطين الملتفة حوله ، لأنه لو حــدث ذلك للإنس والجن لآمنوا جميعا ، وما كـان هنـاك فضـل منهم ولا مبــادرة ولا اجتهــاد لمجتهــد يســتحق عليــه الثـواب ولمـا تـبين الظـالم من المحسـن حيث يكـون إيمــانهم جميعــا كنتيجــة مباشــرة لاطلاعهم على هــذه الأمور الغيبية .

ولذلك فإن هذا الغطاء يرفـع عن الإنسـان بمجــرد انتهـاء فـترة الابتلاء الخاصـة بـالمخلوق المبتلى فيقـال للكافر حين ذاك : **{ لقد كنت فى غفلة من هــذا**

فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حـديـد } (1) .

وعلى ذلك فلا يصح امتحان الإنسان إلا بستار القدرة المطلقة ، حتى يظهر إيمان الإنسان بالغيب أو كفــره ، ومن ثم جعل الله فعله غيبيا غيبة عنا بالعلل والأسـباب وتوالى النتائج والمعلولات .

ويؤكد المكى على رأى التسـترى فى إثبـات الابتلاء ومعانى الحكمة

1- ق / 22 .

فيذكر أن اللـه عـز وجـل ذو قـدرة وحكمـة ، فـأظهر أشـياء عن وصـف القـدرة ، وأجـرى أشـياء عن معـانى الحكمة ، فلا يسقط المتوكل ما أثبت من حكمته لأجـل ما شهد هو من قدرته .

وذلك من قبل أن الله تعالـى حكيم فالحكمة صفته ، ولا يثبت المتوكل الأشـياء حاكمـة جاعلـة نافعـة ضــارة فيشرك فى توحيده .

ومن قبل أن الله قـادر والقـدرة صـفته ، وأنـه حـاكم جاعل ضار نافع لا شـريك لـه فى أسـمائة ولاظهـير لـه فى أحكامه .

- كما قال عز وجل : **{ إن الحكم إلا لله }** (1) .
- وقال تعالى : **{ ولايشرك فى حكمه أحدا }** (2) .
- وكما قال تعـالى : **{ وما لهم فيهمـا من شـرك وما له منهم من ظهير }** (3) .

والظهـــير المعين على الشـــئ ، فالمتوكـــل مــع مشاهدته قدرة الله على الأشياء ، وأنه منفـرد بالتقـدير والتدبير قائم بالملك ، والمملوك هو أيضا عـالم بوجـوه الحكمـــة فى التصـــرف والتقليب بإظهـــار الأســـباب والأواسط لإظهار الأشخاص والأشباح ، لإيقـاع الأحكـام على المحكوم ، وعـود

1- يوسف / 67 .
2- الكهف / 26 .
3- سبـــأ / 22 .

الثـــواب والعقـــاب على المرســـوم ، من حيث كـــــان المتوكـل قائمـا بأحكـام الشـريعة ملتزمـا لمطالبـات العلم ، مـع تسـليمه الحكم الأول للـه واعترافـه أن كلا بقدر الله إذ سمع الله تعالى يقول : **{ لا يسئل عمـا يفعل وهم يسئلون }** (1) .

ثم يروى عن ابن مسعود رضى الله عنـه مـا يوضـح الحكمة من إخفـاء فاعليـة اللـه عـز وجـل وحجبهـا عن العباد بالأسباب فيقول ابن مسعود :

(فى إعطـاء هـذا المـال فتنـة وفى منعـه فتنـة ، فـإن أعطـاه عبـدا مـدح غـير الـذى أعطاه وإن منعه عبدا ذم غير الذى منعه) (2) .

ومـراد اللـه من ذلـك أن يختـبر المنكـرين للخـير والغـافلين لينظـر كيـف يعملـون ، أمـا أهـل اليقين فيعتـبرون بالأسـباب ويعجبـون من المسـبب فـيزدادون بذلك هدى وإيمانا لشهودهم المعطى المـانع واحـدا فى العطاء والمنع ، وفوزهم فى هذا الابتلاء أو هـذه الفتنـة هو معرفتهم بجريان الحكمة فيمـا جـاءت بـه الشـريعة فتثبت لهم مقامات الشـكر للـه والصـبر عليـه (3) أمـا الغـــافلون الخاســـرون فى الابتلاء والفتنـــة فيغـــترون

بنظــرهم إلى الأســباب والأيــدى فيمــدحون المعطين ويذمون المانعين (4) .

1- الأنبياء / 23 .
2- قوت القلوب حـ 2 ص 10 بتصرف .
3- السابق حـ 2 ص 11 . 4- السابق حـ 2 ص 12 .

ومن ثم فإن الأسـباب الماديـة الطبيعيـة والغيبيـة مـا جعلها الله إلا فتنة للناس وابتلاء ، وهذا هو مكر الله عز وجل يخفى به قدرته ويستر فاعليته لكل شئ لينكشف الكافــر من المـؤمن ، ولـذلك يعقب المكى بعـد ذلـك بقوله : **(لقد صار المال فتنة للفريقين يكشـف إيمـانهم ويمتحن للتقـوى قلـوبهم)** (1) وهـو لا يقصـد المـال وحـده ولكنـه يقصـد كـل الأسـباب وعلى رأسها المال .

ويذكر المحاسـبى أن اللـه يسـتدرج بالمـال من أراد أن يهلكه ويعذبه من خلال الابتلاء به وبغـيره فيقـول : **(أخبرنـا اللـه أن الـدنيا فتنـة وبلـوى واختبـار وأنها ليست بدليل على رضى الله عن عبـاده)** (2) .

ثم يستدل بقوله تعـالى : **{ فأمـا الإنســان إذا مـا ابتلاه ربــه فأكــرمه ونعمــه فيقــول ربى أكـرمن وأمـا إذا مـا ابتلاه فقـدر عليـه رزقـه فيقــول ربى أهـانـــن كـــلا بـــل لا تكرمـــون اليتيم }** (3) .

فكذبهما الله جميعا ونفى أن يكون فى هذا كرامتـه أو فى ذاك إهانته فالكريم من أكرمه الله بطاعتـه على أى حال كان ، فقيرا أو غنيا والمهان من أهانه بمعصيته

على أى حـــال كـــان فقـــيرا أوغنيـــا ، فـــاغتر

1- السابق حـ 2 ص 12 .
2- الرعاية حـ 2 ص 13 .
3- الفجر / 15 ، 16 .

الكافرون بظاهر نعم الله عز وجل وظنـوا أن ذلـك من كرامتهم على الله فقال فى وصــفهم : **{ أيحسبــون أنمــا نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم فى الخيرات بل لا يشعرون }** (1) .

فالأســباب فتنــة ، تحتجب قــدرة اللــه بســتارها ، والمؤمن صامد لا يتاثر بها كما جـاء فى حـديث صـهيب أنه صلى الله عليه وسلم قال :

(عجبــا لأمـر المؤمن إن أمره كله خـير ، إن أصـابته سـراء شكـــر فكـان خـــيرا لـــه ، وإن أصـابته ضــراء صبر وكان خـــيرا له وليس ذلك إلا للمؤمن) (2) .

ويذكر أبو سعيد الخراز أن أهـل الصـدق إذا ملكـوا شـيئا من الأسـباب فهم يعتقـدون أن الشـئ للـه لا لهم وأن اللـه خـولهم فيهـا ، وهم مبتلـون بـه حـتى يقومـوا بالحق فيه ، لأن النعمـة بلاء حـتى يقـوم العبـد بالشـكر فيهـا ويسـتعين بهـا على طاعـة اللـه تعـالى ، وكـذلك البلوى والضراء هو اختبار وابتلاء حتى يصبر عليه ويقوم بحق الله تعالى فيه .

1- المؤمنون / 55 .
2- أخرجه مسلم فى كتاب الزهد ، بـاب المـؤمن أمـره كله خير برقم (2999) وأخرجه أحمـد فى المســند حـ 4 ص 332 ، 333 ، والدرامى فى سننه حـ 3 ص 375

، وابن حبان فى كتاب الجنائز ، باب ما جـاء فى الصـبر وثواب الأمراض برقم (2896) .

ودليله فى ذلك قولـه تعـالى : **{ ولنبلونكم حـتى نعلم المجاهـــدين منكم والصـــابرين ونبلـــو أخباركم }** (1) .

والخلاصـة أن أوائـل الصـوفية يعتـبرون حقيقـة العلـل وحـدوث الأسـباب وتعلـق معلولاتهـا بهـا وجـودا وعدما هى مصدر كل ابتلاء .

والناظر فى تاريخ الأمم السـابقة الـتى قص علينـا القرآن الكريم أخبارها يجد أن البـاب الـذى دخـل فيـه الشر على هذه الأمم هو إيمـانهم بحتميـة العلاقـة بيـن العلة والمعلـول كسيـف صـارم يعلـو قـدرة الله تعـالى فعبـادة الكـواكب والأفلاك والشـمس والقمـر أولهـا الاعتراف بفعلهـا وكـذلك مـا كانت الأوثان المعبـودة إلا رموزا لفاعليات متعددة لها آثارها فـى حيـاة الناس (2) .

وكذلك الأمر بالنسبة للملائكة كعلل غيبية حيث وقـع كثـير من الأمم فى عبادتهـا من دون اللـه عـز وجـل ومنهم العـرب قبـل الإسـلام ، والبـاب الـذى أدى بهم إلى ذلـك هـو إثبـاتهم فاعليـة مسـتقلة لهم عن فاعلية الله .

ولا شـك أن انتبـاه الصـوفية الأوائـل إلى حقيقـة العلاقـة بين الفاعليـة الإلهيـة وبين الأسـباب الطبيعيـة والبشـــرية من ناحيـــة ، وإلى معرفـــة حقيقـــة

1- محمـد / 31 وانظـر الصـدق لأبى سـعيد الخـراز ص 34 .

2- كشف المحجوب ص 245 .

الأسباب والاستطاعة البشرية من ناحية أخرى ، كان له أثـر كبـير فى تثـبيت قاعـدة هامـة من قواعـد التوحيـد الإســلامى ، ممــا كــان لــه دوره الواضــح فى إبعــاد المسلمين عن مزالق الوثنية التى وقع فيها غـيرهم من الأمم أو بتعبير أدق نقــول : إن أوائـل الصـوفية قـدموا أسبابا واضحة فى هذا كله .

الفصل الثانى

الحـريـة ومنهـج العبــودية

وقــــد اشتمــــل علـى أربعــة مباحــث :

المبحث الأول : العقــــل والعلـــــم مـــــن مقومـات الحرية

المبحــــت الثانـــــى : الحــــرية فــــى الاصــــطلاح الصــوفــى

المبحث الثـالــــث : المقـــامات الصـوفيــــة وإرادة الحريــة

المبــحث الرابــــع : الأحــوال الصـوفيـــة وثمــــرة الحــــريـــة

*** المبحث الأول ***

العقل والعلم من مقومات الحرية

من المقومـــات الأساســـيةعند أوائـــل الصوفية لتكامل مسألة القدر والحرية ضرورة وجود العقل والعلم بالنسبة للعابد ، فكمـا أنهم أثبتـوا لـه إرادة حـرة واسـتطاعة على تحقيـق مراده فى حـدود مـا منحـه اللـه وخولـه فيـه ، فــإنهم أيضــا آمنــوا بضــرورة وجــود العقـــل واستخدامه فى العلم بالله سبحانه وتعالى .

يقول ابن خفبف : **(ونعتقد أن العبودية لا تسقط عن العبد ما عقل وعلم ما له ومــــا عليــــه على أحكـــــام القـــــوة والاسـتطاعة ، إذ لم يسـقط اللـه ذلـك عن الأنبيـــاء والصـــديقين والشـــهداء والصالحين ، ومن زعم أنه قد خرج عن رق العبوديـــــة إلى فضـــــاء الحريـــــة بإسقـــــاط العبوديـــــة والخـــــروج إلى أحكام الأحدية المسدية بعلائق الآخريــة فهو كافـــر لا محالة إلا من اعتراه علــة أو رقــة فصــار معتوهــا أو مجنونــا أو مبرسـما وقـد اختلـط عقلـه أو لحقـه غشـية ارتفـع عنـه بهـا أحكـام العقـل وذهب عنــه التميــيز والمعرفــة فــذلك خارج عن الملة مفارق للشريعة)** (1) .

فـــالتزام المـــرء بالعبوديـــة يتطلب مقومـــات أساسية حددها عبد الله بن ـــــــــــــــــ

1- الفتوى الحموية الكبرى لشيخ الإسلام ابن تيميـة ص 48 ، 49 .

خفيف فيما يأتى :

1- وجود الاختيـار الـذى يـؤدى إلى التزام العبودية أو إسقاطها .

2- وجود الاسـتطاعة والقـوة على إتمام الفعل المختار .

3- وجـــود العقـــل والعلم ليحـــدد الطريق للسالكين .

وهـــذه المقومـــات ليســـت منفصـــلة عن بعضـها إلا فى عـالم الـذهن فقـط أمـا فى عـــالم الواقـــع والحقيقـــة فالحـــرية الإنســـانية تتجلى واضحـة فى الفعل الاختيارى واســتجابة العبـد للسـلوك الخلقى المعين ، فكمـا علمنـا ممـا سـبق أن الاختيـار البشـرى عنـد أوائـل الصوفية يوجـد متلبسـا وممتزجـا بالاسـتطاعة ومصاحبا لها فى الفعل كذلك العقـل والعلـم .

فالعقـــل مقـــوم أساســـى من مقومـــات الحريـــة كـــالإرادة والاســـتطاعة وحيث أن الســـلوك الخلقى لا يمكن أن يقـــوم بـــدون أحدهما فهو أيضا لا يقوم بـدون إدراك صـاحبه ووعيـه ، لأنـه إذا كـانت الاسـتطاعة مرتبطـة بالعلل والمعلولات والأسـباب والنتـائج ، **فإنـه**

يلـزم أن يكـون لديـه العلم الضـرورى بالأسـباب ومـا تنتجـه من مسـببات أوبالعلـل ونتائجهـا من ناحيـة ، وأن يكون لديه المعرفة الضرورية بـالأخلاق المحمـودة والمذمومـة من الأفعـال المختارة من ناحية أخرى .

ومن ثم فمقومـات الحريـة الإنسـانية فى نفس الإنسان عند أوائل الصوفية إنمـا هى قـوة ذاتيـة واحـدة وإن كـانت ذات شـعب ثلاث ، وإذا كان أوائـل الصـوفية أثبتـوا اختيـارا واستطاعة للإنسان فما موقفهم من العلم ؟

هـذا الموقـف يتجلى من خلال نظـرتهم للغاية من خلق الإنسـان ، فكمـا انبثـق الاختيـار وظهـرت الاسـتطاعة من معـنى الابتلاء والاستخلاف ، كذلك ينبثق العلم عندهم .

فاللـه سـبحانه وتعـالى علم آدم الأسـماء كلها وفضله على غيـره بهـا إذ سـأل الملائكـة عنهـا فـأقرت بعجزهـا ، والـتزمت أمـر ربهـا وسجدت لآدم بسببها (1) .

قال تعالى : **{ وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضـهم على الملائكـة فقـال أنبئونى بأسماء هؤلاء إن كنتم صادقين قالوا سبحانك لا علـم لنا إلا مـا علمتنـا إنـك أنت العليم الحكيم ، قـال يـا آدم**

أنـــبئهم بأســـمائهم فلمـــا أنبـــأهم بأسمائهم قـال ألم أقـل لكم إنى أعلم غيب الســـموات والأرض وأعلم مـــــا تبدون وما كنتم تكتمون } (2) .

يقول الترمذى معقبا على تلك الآية :

1- انظر الحكيم الترمذى ونظريته فى الولايـة ص 325 نقلا عن علم الأوليـــاء للحكيم الترمـــذى ص 41 ب مخطوطة بمكتبة الجمعية الأسيوية برقم 1056 .

2- البقرة / 30 ، 33 .

(فأبرز الله فضيلة آدم عليه السلام على الملائكة بمـا علمـه من الأسـماء ، ولـو كـان سـوى الاسـم شـئ من العلم يحتاج إليه لعلمـه آدم صـلى اللـه عليـه وسلم ، فلما علمه الأسماء كلها علمت الملائكة أن جميع العلم داخـل فيهـا) (1) .

والاسم لفظ يطلق على شئ لتمـيزه عن شئ آخر ، فالأسماء هنا معناها الأشياء وأسماء الأشـــياء ، ففى علم اســـم الشـــئ علم بخصائصه ، لأن الخصائص لهـا أسـماء ، وبهـذا العلم يحقق الإنسـان معرفـة الخـالق سـبحانه وتعــالى ومعرفــة الخلــق من أشــياء وأحيــاء وخصائص وأفعال وتأثيرات .

ويذكر الترمذى أن جميع العلم فى الأسماء ، والأسماء دالة على الأشياء ، وليس من شئ إلا وله اسم ، واسمه دليل على ذلك الشئ والاسم مأخوذ من السمة وكل اسم دليل على صاحبه حتى إن نفس الإسم دليل على الاسم ، فليس من شئ إلا وقد وسمه الله باسم يدل على مكنون ما فيه من جواهر وأوصاف (2) .

فمن علم الأسماء وعلم دلالاتها فقد علم جميع العلوم ، وعلى ذلك فإن أسماء الله تعالى تدل على ذاته وصفاته ، وأسماء خلقه تدل على ما

1- السابق ص 325 نقلا عن علم الأولياء مخطوط ص 40 ب وأبواب فى صفة العلم ص 2 ا .

2- السابق ص 321 نقلا عن علم الأولياء ص 39 ا وأبواب فى صفة العلم ص11

أودع فيهم من أفعالهم وصفاتهم (1) .

ويرى الترمذى أن الله الذى خلق الخلق وكونهم بما هو به أعلم وسم كل شئ من خلقه بسمته ، ووضع الحروف التى تشير إلى هذه الخاصية أو هذه السمة ، وتدل عليها دلالة كاملة بالمطابقة ، ثم ركب منها كيف شاء وعلى الهيئة التى أراد أسماء لهذه المخلوقات ، لذلك كانت هذه الأسماء الأصلية التى وضعها الله لمخلوقاته هى التى

تدل على جـوهر مسمياتها ، ومكنون ما فيهـــا (2) .
وفضلا عن كونـه الأسـماء وضـعت للدلالـة على مسـمياتها عنـد الترمـذى فإنـه يـرى أن أسماء الله هى مبتدأ العلم ومنها خـرج الخلـق والتـدبير فى أحكـام اللـه وحلالـه وحـــرامه ، فأسماء الله دلت على صفاته وصـفاته تابعـة للموصـــوف فالاســم يعــود إلى الموصـــوف ، ولكن الموصوف لا يدرك فى الدنيا ، ولا سبيل إلى إدراكــه إلا لمعرفــة صــفاته ، وصــفاته لا يمكن كـذلك معرفتهـا إلا بمـا يبـدوا لهـــم من آثارها ، ولا التعبير عنها إلا بأسماء تدل عليهـا ، فتعرف الصفة عنـد ذكـر اسـمها ، كمـا يعـرف

1- السابق ص 321 .
2- نوادر الأصول ص 185 ، 186 بتصرف وانظر اللمع للسراج الطوسى ص 125.

الموصوف بصفته (1) .
يقول الترمذى : **(إن ربنا تبارك اســمه لا يدرك حسا ولا مسا ولا ذوقا ولا شما ولا رؤيــة ، فـأخرج للعبـاد من قبـل أن يخلق الخلق صفات ولكـل صـفة نــوع من الصـــنع والفعـــل والعمـــل ، ثـــم**

جعــل لكـل صفة سمة بحـروف مؤلفـة وجعـــل فى كـل حـرف منها مـا وضـع فيـه مــن الصنــع ، ثم ألفهــا فصـارت اسما لتلك الصفة) (2) .

ثم يذكر الترمذى أن الأسماء من أجل ذلك رجعت إلى الصـــــفة والصـــــفة رجعت إلى الموصــوف لأنهــا منــه بــدت ، فالموصــوف موجودة عنده تلـك الصـفة ، فـإذا نظـرت إلى الصفة تراءت لعيون القلوب الصافية الطـاهرة كل صفة على حدتها باسمها وبحروفها المؤلفة ، وإذا نظرت إليه سبحانه غابت صفـات الخلق عن عين قلبك لأنه وقعت فى البحر الذى منــه خرجت الأنهار (3) .

وقــد آثــار بعض المتصــوفة والمتكلمين فى شــــأن الأســـــماء والصـــــفات قضـــــايا

1- الحكيم الترمـذى ونظريتـه فى الولايـة ص 324 نقلا عن خلق هذا الآدمى للحكيم الترمـذى مخطـوط مكتبـة ولى الدين برقم 770 ص 95.
2- المخطـوط السـابق ص 95 ا ـــ ب وانظـر الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ص 324 .
3- السابق ص 324 .

جدلية فى كون الاسم هـو المسـمى أو هـو غيره ، وقد حكى الكلاباذى اختلافهم فى ذلك (1) .

غـير أن الترمـذى يـرى أن الصـفة قائمـة بالموصوف والاسم دال على المسمى منطبق عليه ولا يقال الاسم هو المسمى أو هـو غـير ، وهو مع ما سبق ينفى نظرية الفيض والصـدور ويلتزم بإثبات المباينـة بين الخـالق والمخلـوق والصـانع والمصـنوع ، ولا يقصـد إلا الاعـتراف للخالق جل شأنه بأثره المباشر فى كـل شـى وعنايته ولطفه بخلقه .

ويـبين الترمـذى بـدو أسـماء المخلوقـات وصفاتها من أسـماء اللـه عـز وجـل وصـفاته ، بأنه سبحانه أعطانا الحياة من حياته ، والرأفـة من رأفتـه والعلم من علمـه ، وكـل شـئ من هذه الأشياء التى هى ممدوحة ، والتى تليق به أبرزها صفة من نفسه وهى أنوار ، فنـور منهـا للحياة ونور للرحمة ونور للـرأفة ونـور للفـرج ونـور للصـبر ونـور للرضـا ونـور للكـبر ونـور للعظمـة ونـور للسـلطان ونـور للمحبـة ونـور للغنى فهذه أنوار كل نور صار مُلكا على حدتـه ، كل ملك خرج منه ذلك الشئ الذى ظهـر فى الخلق ، وهـذه كلهـا خـرجت من مالـك الملـك من باب القدرة والوحدانية

فهو واحد فرد أحد ولقد جعل الله فى أسـمائه تعالى قضاء حوائج عباده

1- التعرف لمذهب أهل التصوف 54 .

ولعل السـر فى تعـدد الحـوائج لـدى العبـاد لاعتبار التعدد فى أسمائه سبحانه وتعالى التى تعرف بها إلى خلقه (1) .

يقـول الترمـذى : **(فـأخرج إلى العبـاد من كل اسم حوائجهم ، ومن كل اسـم أهدى إليهم ما وضع فى ذلك ، لأنه من أجلهم أخـــرج لهم الأســـماء ، فينبغى على العبد مراعاة المعانى فى أسـمائه تعالى عنـد الدعاء ومن نال هذا العلم فقـــد نـــال العلم الـــذى تقضـــى بـــه الحوائج)** (2) .

- وقـد ورد أن رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم قال **:**

(إن للـه تسعة وتسعـين اسما مـــن أحصاها دخـل الجنة) (3) .

- وقال صلى الله عليه وسلم :

(أسألك بكل اسـم هـو لـك سـميت بـه نفســـك أو أنـــــزلته فى كتابـــك

1- الصـــلاة ومقاصـــدها للحكيم الترمـــذى ص 165 ، تحقيق الأستاذ حسنى نصر زيدان طبعـة القـاهرة سـنة 1965م ، نوادر الأصول للحكيم الترمذى ص 395 .

2- نوادر الأصول ص 188 ، وانظر فى ذلك أيضا اللمـع ص 124 .

3- الحديث أخرجه البخارى فى كتاب التوحيد ، بـاب إن لله مائـة اسـم إلا واحـدا برقـــم (7392) ومسـلم فى

كتـاب الـذكر والـدعاء والتوبـة والاسـتغفار ، بـاب فى أسماء اللـه تعـالى وفضـل من أحصـاها بـرقم (2062) والترمــذى فى كتـاب الـدعوات بــرقم (3506) وابن ماجه فى كتاب الدعاء ، باب أسماء الله عز وجل برقم (3860) .

أو علمتـــــه أحـــــدا من خلقـــــك أو استأثرت به فى علم الغيــب عنـدك) (1) .

- وأمرنا الله أن نتوسل إليه بأسـمائه وصـفاته فقال تعالى : **{ ولله الأسماء الحسـنى فادعـوه بها }** (2) .
- وقال أيضا : **{ قل ادعـوا اللـه أو ادعـوا الـرحمن أيـا مـا تـدعوا فلـه الأسـماء الحسنى }** (3) .

ويفرد المحاسبى كتابا للعقل وشرح جـوهره وماهيته ووظائفـه وفائدتـه فى إدراك الأسـماء ومـدلولاتها وارتبـاط التكليـف بفهمهـا ودوره الأساســى فى المعرفــة وتحقيــق العبــادة ، ويفرق بين دورين للعقل أو مجالين لعمله :

1- المجـــال الأول : ويتمثـــل فى عـــالم الشهادة بما فيه من ثبات للسـنن وآيـات مرئيــة وإبــداعات إلهيـــة ، يحصــل من خلالها معرفة ربانية وآثار إيمانية .

1- الحديث رواه احمد عن ابن مسعود حـ 1 ص 394 ، 452 والحـاكم فى المسـتدرك حـ 1 ص 519 والهيثمى

فى مجمع الزوائد حـ 10 ص 136 وصـححه ابن القيم فى شفاء العليل ص 274 والشيخ الألبانى فى تحقيقه للكلم الطيب ص 73 .
2- الأعراف / 180 .
3- الإسراء / 110 .

يقول المحاسبى : **(دعا العقول إلى النظـر فى آياتـه والفكـر فى عجـائب صــنعه ، لأن فى ذلــك ســبيلا لهم إلى معرفتـــه ، وإلى العلم بأنـــه الخـــالق الـرازق الإلـه الواحـد سـبحانه وأن من دونـــه خلـــق لـــه ، وأن الخلـــق كلهم مـــألوهون مســـتعبدون لا يملكـــون لأنفســهم نفعــا ولا ضــرا ولا يملكــون موتا ولا حياة ولا نشورا)** (1)

ويسـتدل لـذلك بقولـه تعـالى : **{ إن فى خلق السموات والأرض واختلاف الليــل والنهــار لآيــات لأولى الألبــاب الــذين يـــذكرون اللـــه قيامـــا وقعـــودا وعلى جنـــوبهم ويتفكـــــرون فـــى خلـــق السماوات والأرض ربنـا مـا خلقت هـذا باطــلا سبحـانك فقنا عـذاب النـــار }** (2) .

وبقـــــوله : **{ ســـنريهم آياتنـــا فى الآفـاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنـه الحق }** (3) .

فعقل عـن الله آياته فى تدبيره وحكمته فى آثار صـنعته ، ودلائـل حسـن تقـديره فعلم أنـه بقدرة نافذة قدرها وبحكمة كاملة أتقنها وبعلم محيـط اخترعهـا وبسـمع نافـذ سـمع حركتهـا وببصر مدرك لها دبر لطائف

1- ماهيـة العقـل ومعنـاه للحـارث المحاسـبى تحقيـق الدكتور حسين القوتلى ص 164 طبعة بيروت ، سـنة 1972 ، وانظر اللمع ص 154 .

2- آل عمران / 190 : 191 .

3- فصلت / 53 .

خلقها وغوامض كوامنهـا ، فاسـتدل بـذلك أنـه الإله العظيم الـذى لا إلـه غـيره ولا رب سـواه فكأن جميع الأشياء عين يعتبر بها (1) .

ويـرى المحاسـبى أن العقـل من مقومـات الحرية وإسقاطه يلغى دور الإنسان فى تحقيق الغايـــة من خلقـــه أو مســـاءلته عن أفعالـــه المكتسبة (2) .

يقـول المحاسـبى : **(العقـل غريـزة فى قلـوب الممتحـنين من عبـاده أقـام بـه على البالغين الحجـة ، يولـد العبـد بهـا ثـم يزيد معنـى)** (3) .

ويسـتدل علـى ذلـك بحـديث ابـن عبـاس حيث قال : **مر على بن أبى طالب رضـى**

اللـه عنـه بمجنونـة بـنى فلان قـد زنت أمر عمـر بن الخطاب برجمها .

فردهـــا على وقـــال لعمـــر : يـــاأمير المؤمنين ، أترجم هذه ؟

قال : نعم .

قال : أو ما تذكر أن رسول الله صــلى الله عليه وسـلم قـال : رفـع القلم عن ثلاثـــة : عن المجنـــون المغلـــوب على عقله ، وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبى حتى يحتلم .

1- السابق ص 68 بتصـرف ، وانظـر سـيرة بن خفيـف ص 355 .

2- أعمـال القلـوب والجـوارح للحـارث المحاسـبى ص 237 .

3- القصد والرجوع إلى الله للحارث المحاسبى ص 58 مسألة فى بيان العقل وصفته

قال : صدقت فخلى عنها (1) .

فالمجنون فقد عقله فلا يميز بين الأشياء أو أسـماءها ، كمـا أن النـائم مسـلوب العقـل والإرادة حال النوم ، أما الصبى فعلمه محـدود وعقله لا يستوعب الأسـماء دفعـة واحـدة كمـا علمهـا اللـه لآدم عليـه السـلام أو لعيسـى بن مريم حين خرج من بطن أمه ، وإنما يستوعب

الأسماء ومدلولاتها على مـدار الفـترة الزمنيـة بين ولادته وسن بلوغه الرشد .
يقول المحاسبى : **(فالعقل الذى منحنـا الله قادرا على التفكـير وعلى معرفـة مـا أنـزل اللـه وكـل إنسـان بلـغ سـن الرشد فقـد تحمـل مسـئولية ناتجـة من أنه عاقل)** (2) .
وقـال فى موضـع آخـر من كتابـه ماهيـة العقل :
(والله لا يهلك قومـا إلا ويـذكرهم ويخاطب عقلهـم بما يفهم من عبر ، وإذا كـان اللـه قـد من علينـا بالعقـل فلكى

1- أخرجـه أبـو داود فى كتـاب الحـدود ، بـاب فى المجنون يسرق أو يصب حدا برقم (4401) والنسـائى عن عائشة فى كتـاب الطلاق ، بـاب من لا يقـع طلاقـه من الأزواج حـ 6 ص 156 وابن ماجـه عن عائشـة فى كتـاب الطلاق ، بـاب طلاق المعتـوه والنـائم والصـغير بـرقم (2041) وأحمـد فى المسـند حـ 6 ص 144 والحاكم فى المستدرك حـ 2 ص 59 .
2- ماهية العقل ص 105 .

يخاطبنـا بواسطتـه) (1) .
وإذا كان مجال العقـل فى الـدنيا هـو عـالم الشهادة ، والعمل فى فهم السنن والنـواميس الموضوعة بحيث يتمكن منهـا ويسـيطر عليهـا ويقـوى أفعالـه بهـا ويزيـد من قدرتـه

واستطاعته ، فإن أوائل الصوفية ربطوا العقل بزيادة المعرفة بالله والنظر خلف الأسباب لإظهار قدرته على تسييرها ليزدادوا بذلك إيمانا ، فالعلوم الدنيوية طلبها عندهم لا لذاتها ولكن للتقوى بها على طاعة الله .

يقول الهجويرى : **(اعلم أن المعرفة واسعة ، والحياة قصيرة لذلك لم يفرض علينا تعلم كل الفنون ، كالفلك والطب والرياضة وعلم البديع وغيرها ، بل وجب أن نأخذ من كل علم ما نحن بحاجة إليه فى إقامة فرائض الشريعة السمحاء فمن الفلك علم مواقيت الصلاة مثلا ، ومن الطب ما يمنعنا من الوقوع فى التهلكة ، ومن الرياضة ما يمكننا من قسمة المواريث واحتساب العدد وغيرها)** (2) .

1- السابق ص 206 ، 207

2- كشف المحجوب ص 14 ، 15 .

فالمعرفة مفروضة لسلوك طريق الحق وما دون ذلك فهو مذموم لأن الله ذم قوما اشتغلوا بزائف المعرفة إذ قال تعالى : **{ ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم }** (1) .

وكما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **(اللهم إنى أعـــوذ بـــك من علم لا ينفع ، وعمل لا يرفع ، وقلب لا يخشـع وقول لا يسمع)** (2) .

ويقســم الهجــويرى المعرفــة على منهج المحاســبى فهى عنــده على نــوعين لمجــال العقل :

[1]- المعرفة الإنسانية ومجال العقل فيها النظر والقياس لمعرفة نظام صنعه والظـواهر المحيطـة بـه ، وهـذا يحصـله الإنسان بجهـده فينمـو ويتطـور مـع نمـو البحث وزيادة الخبرة فى مختلف العلوم كالفلــك والطب والهندســة والرياضــة وغير ذلـك ممـا يكسـب الإنسـان قـوة وهذا متاح لكل إنسان سواء كـان مؤمنـا أو كافرا فالأكثر

1- البقرة / 102 .

2- أخرجــه النســائى فى كتــاب الاســتعاذة ، بــاب فى الشــقاق والنفــاق وســوء الأخلاق حـ 8 ص 264 ، وأحمـــــد فى المســـــند حـ 3 ص 283 والحـــــاكم فى المســتدرك حـ 1 ص104 وعبــد الــرزاق فى مصــنفه برقم (19635) وأبو نعيم فى الحلية حـ 6 ص 252 .

خبرة فى هذا المجال العقلى هو الأكثر قــوة ومنعة .

[2] - المجال الثانى لعمل العقـل والـذى يحدده المحاسبى فى كتابه ماهيـة العقـل هـو مجـال العمـل فى معرفـة النقـل أو الــوحى ، أو مــا يــذكره الهجــويرى فى كشف المحجـوب بأنـه مجـال العقـل فى المعرفـــة الربانيـــة كمعرفـــة ذات اللـــه ووحدانيتـــــه ومعرفـــــة العلم بصـــــفاته وأحكامها ومعرفة العلم بأفعاله وكلمتـه ، ومعرفة الشريعة بأركانها الثلاثة :

1- معرفة الكتاب لقوله تعالى : **{ منه آيات محكمات }** (1) .

2- معرفة السنة لقولـه تعـالى : **{ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا }** (2) .

3- معرفة إجماع الأمة لقوله صلى الله عليه وسلم : **(لا تجتمع أمـــــتى على ضـــــلالة وعليكم بالسواد الأعظم)** (3) .

1- آل عمران / 7 .

2- الحشر / 7 .

3- كشـف المحجـوب ص 18 ، 19 ، 20 بتصـرف والحديث رواه ابن ماجـه فى سـننه كتـاب الفتن ، بـاب السـواد الأعظم بـرقم (3950) ونص الحـديث : **(إن إمتى لا تجتمع على ضلالة ، فإذا رأيتم اختلافـا فعليكم بالسواد الأعظم)** والحديث فى إسناده أبو

خليفة الأعمى وهـو ضـعيف ، انظـر ابن ماجـه حـ 2 ص 133 .

ويــرى المحاســبى أن دور العقــل وعملــه حيال الوحى أو الأمور الغيبيـة يجب أن يقتصـر على التلقى والتسليم ثم الدعوة والتبشير بمــا أنزل اللـه لا أن يسـتبد بـالفكر ويقـدم الـرأى على كتـاب اللـه ، ولكن يثبت صـحة مـا أنـزل الله من خلال الرواية والدراية (1) .

ومن ثم فالمعرفــة الدينيــة ليس للعقــل البشـــرى من دور حيالهـــا ســـوى التلقى والفهم ، وهـذه المعرفـة ضـرورية لاسـتكمال معنى الحريـة عنـد أوائـل الصـوفية ، ذلـك لأن السـلوك الخلقى يتم بمقـومين أساسـين همـا الاختيار والاستطاعة ، فالاختيار كمـا سـبق هـو تحرك إرادة العبد وعقـد النيـة وتحديـد القصـد لفعل من ضدين أحدهما حسـن والآخـر قـبيح ، ومن ثم فيلزم لصحة الاختيـار وتمـام شـروطه فى الإنســان أن تكــون المعرفــة بالحســن والقبيح أو الخير والشر مصاحبة لهـذا الاختيـار وهاديـة لـه تبيينـا وتوضـيحا وترشـيدا ، وبـذلك تكون المعرفـة الـتى يتلقى العقـل من الـوحى موضوعاتها ، ويعرف منها الحلال والحـرام هى دليل الاختيار البشرى وهذا ما يؤكـده عبد الله بن خفيف بقوله :

(ينبغى أن يعتقـد العبـد أن النبـوة والرسـالة حـق ، وأنهـا الحجـة على الخلـق من جن وإنس ، وحجـة ناصـعة ، قاطعة للعذر ، أى لم يبق لشـخص قـط عـذر كـأن يقـول : لم أعلم كـذا ، أو لـم يبلغنى

1- ماهية العقل للحارث المحاسبى ص 108 .

ذلك أن الأنبيـاء قـد أتـوا وبينـوا جميعـا بين الخلـق أحوال الـدنيا والآخـرة من الخير والشر ، ومـا ينبغى فعلـه ومـا لا ينبغى ، وما ينبغى قوله ومـا لا ينبغى ، وما ينبغى التفكير فيه وما لا ينبغى) (1) .

فاللـه سـبحانه وتعـالى جعـل العلم من مقومات الحرية فى اختيـار فعـل على آخـر أو منهج على آخر حـتى يتحقـق العـدل الإلهى إذا عـذب الكـافر ويظهـر الفضـل إذا أنعم على المؤمن .

- قال تعالى : **{ ولو أنا أهلكنـاهم بعـذاب مـن قبله لقالوا ربنـا لـولا أرسـلت إلينا رسولا فنتبع آياتـك من قبـل أن نـذل ونخـزى قـل كـل مـتربص فتربصـوا فسـتعلمون مـن أصـحاب الصراط السوى ومن اهتدى }** (2) .

فالــدين بكليتــه ســواء العقائــد النظريــة أو الشــعائر التعبديــة أو التنظيمــات الاجتماعيــة والأسرية كل ذلـك يـدخل تحت منهج العبوديـة والمعرفــة الدينيــة الــتى هى هاديــة للاختيــار البشرى ، ولا مجال للعقل فيها ، بل الشرع هو القائد الموجه للعقل .

يقول ابن خفيــف : **(العقل لا يحســن ولا يقبح والشرع حاكم على العقل)** (3) .

1- سيرة الشيخ الكبير عبد الله بن خفيف ص 352 .
2- طه / 134 ، 135 .
3- السابق ص 359 .

ولقد فصل رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم بين المجالين فى عمل العقل .

- **مجال المعرفة الدينية التى هى دليــل الاختيار ومصدر المعرفة للخير والشر .**
- **مجــال المعرفــة الدنيويــة الــتى هى دليل الاســتطاعة ومعرفــة الآثــار فى الأشـــياء بـــالخبرة والتفاعـــل مـــع الأسباب ونتائجها .**

فقد مر رسول الله صلى الله عليه وســلم فى المدينة على قوم يؤبرون النخل فقال : **لو لـم يفعـلوا لصلـح له فامتنع القوم عن**

تلقيح النخل ذلـك العـام ظنـا منهم أن ذلك من أمر الوحى .
فلمـا لم ينتج النخـل إلا شيصـا ، سـأل رسول الله عما حدث له ؟
فقالوا : قلت كذا وكذا .
قال : أنتم أعلم بأمور دنياكم .
وفى رواية قال : إن كان ينفعهم ذلـك فليصـنعون فـإنى إنمـا ظننت ظنـا فلا تؤاخذونى بالظن ولكن إذا حـدثتكم عن الله شيئا فخذوا به (1)

____

1- الحـديث أخرجـه مسـلم فى كتـاب الفضـائل ، بـاب وجوب امتثال ما قاله شرعا دون مـا ذكـره صـلى اللـه عليه وسلم من معايش الدنيا على سبيل الرأى بـرقم (2361) وابن ماجــه في كتــاب الرهــون ، بــاب تلقيح النخل برقم (2471) وأحمد فى المسند حـ 6 ص 123 .

فأمور الدنيا والعلم بها موكـول إلى العقـل البشـرى وبحثـه وتنقيبـه فأصـحاب النخـل قـد عرفوا بالتجربة أنه لا بـد من تلقيحـه كـل عـام ليثمر وبذلك عرفوا علة الإثمـار فى النخـل ، وعلى ذلك يصبح إثمار النخـل من اسـتطاعتهم أمـا نصـيحة الرسـول لهم أو تعليقـه على فعلهم ، فلم يكن عن وحى من الله وإنما كـان اجتهاد شخصى ولـذلك قـال لهم : **أنتم أعلم بأمور دنياكم** .

وفى هذه العبـارة الصـغيرة تفـويض كامـل من الله ورسوله أن يعتمد اعتمادا كليا على ما أوتى من أجهزة الإدراك والعلم البشــرى فــى البحــث والتنقيــب فى كــل مــا علــى الأرض والعمل فى سبيل العلم بحرية تامـة بعيـدا عن منهج العبودية أو تحريمات الدين وتعليماته .

ويمكن القول بنـاء على التوافـق الصـوفى النبوى أن المجالين الموضوعين لعمـل العقـل وتحصـيل المعرفـة ينحصـران فى نـوعين من العلوم :

1- علوم مـؤثرة فى قـوة الأفعـال وزيادة الوسع والاستطاعة .

2- علوم مؤثرة فى توجيه الأفعـال بالإرادة والاختيار .

وكلا النوعين إن لم تكن الغاية منهما عبودية الله ومعرفته فلا قيمة لهما عند أوائل الصوفية لأنهم من أزهد الناس فى الدنيا وما يتبعهـا من علوم مادية .

وهم أيضــا من أبعــد النــاس عن تحكيم غــير منهج الله وشرعه فى أنفسهم .

فحقا وصدقا أن العاقل من صحح اعتقـاده حتى لا يخجل حينما يلقى الله تعـالى ، ويخلص نيته ويصفيها حتى يشـرع فى أعمالـه وأفعالـه طاهرا كما ينبغى أن يكون ، ويشتغل بالأعمـال

الحسنة ويمضى أيامه فى الطاعة حـتى يكـون ذلك عونا له وذخرا فى الغد حين تقوم الساعة .

وينبغى أن يعلم العبــد أن اللــه تعــالى لم يخلقه عبثا ، ولن يتركه سدى فمـا دام كـذلك ينبغى عليه أن يجتهـد ويكـافح فى تثـبيت دينـه وأحكامـه وتصـفية اعتقـاده وأعمالـه وأفعالـه وتصحيح عبادته حتى تتم له العبودية (1) .

ويذكر المحاسبى أن العاقل هـو من عقـل أى رب يعبـــد ، وأى ثـــواب يطلب ، ومن أى عقـــاب وعـــذاب يهـــرب وأى نعيم يشـــكر ، والشكر أيضا ممن هو ، ومن منَّ به فإذا عقـل ذلـك كلـه عن ربـه اسـتقل واستصـغر جميـع دؤوبـه واجتهـاده لعظيـــم مـــا عقـــل مـــن جميــع ذلــك (2) .

- فمعرفة الصانع ضرورة ، لا يستطيع المـؤمن أن يعرف الصانع الخالق

____

1- سيرة الشيخ الكبير عبد اللــه بن خفيـف ص 431 ، 432 بتصرف .

2- ماهية العقـل للحـارث المحاسـبى ص 221 ،ـ 229 بتصرف .

دون أن ينتبـه ويعمـل العقـل والفكـر بالتـدبير والتفكير (1) .

- ومتابعة النبى صلى الله عليه وسلم ضــرورة لاحتياج المؤمن إلى طريق الهداية (2) .

- فـدلهم اللـه على الاهتـداء باتباعـه فقـال : { **واتبعوه لعلكم تهتدون }** (3) .
- ووعـدهم الهدايـة بطاعتـه فقـال : **{ وإن تطيعوه تهتدوا }** (4) .
- وحـذرهم الفتنـة والعـذاب الأليم إن خـالفوا أمره فقال تعالى :

{ فليحذر الذين يخـالفون عن أمـره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم } (5) .

وعلى الرغم من أن الهداية الشرعية مقـوم من مقومات الاختيار وضـرورة لتحقيـق معـنى الحريـة ، إلا أنهم أجمعـوا أن جميـع مـا فـرض الله تعالى على العباد فى كتابه وأوجبه رسـول الله صلى الله عليه وسـلم فـرض واجب وحتم لازم على العقلاء البـالغين من صـديق وولى وعارف

1- السابق ص 222 بتصرف .
2-سـيرة الشـيخ الكبـير عبـد اللـه بن خفيـف ص 355 بتصرف .
3- الأعراف / 158 .
4- النور / 54 .
5- النور /63 وانظر اللمع للسراج الطوسى ص 131 .

وإن بلـغ أعلى المـراتب وأعلى الـدرجات وأشرف المقامات وأرفـع المنـازل (1) وأنـه لا مقام للعبـد تسـقط معـه آداب الشـريعة ، من إباحة ما حذر الله أو تحليل ما حـرم اللـه ، أو

تحريـم مـا أحل الله ، أوسقوط فرض من غير عذر ولا علـة ، والعـذر والعلـة مـا أجمـع عليـه المسلون وجاءت به أحكام الشريعة (2) .

يقول عبد الله بن خفيف : **(والحرية من العبوديــة باطلــة ، أى إذا تصــور امـرؤ أن العبـد يجـوز لـه فى حياتـه أن يتمرد من قيـد العبوديـة وأن تسـقط عنه التكاليف الشرعية فهو باطل)** (3) .

وقد أنشأ أوائـل الصـوفية مصـطلحا خاصـا للحرية قرنـوه بعبوديـة اللـه والـتزام منهجـه ظاهرا وباطنا وضبطوا الحرية فى اصــطلاحهم على ذلك المعنى ، لعلمهم أن الوحى جـاء بمـا يصــح أن تعيــه العقــول من الأخلاق الحميــدة والسلوك القويم وأنـه دعـا إلى فضـائل تيسـر الحيــاة ونهى عن رزائــل تحيــل الإنســان إلى الدرك الحيـوانى والتـدنى الخلقى ، وكـان هـذا الاهتمام بالإنسان ليتحمل مسئوليته فى عمارة الكون وضبط ـــــــــــــــــــــ

1- التعرف لمذهب أهل التصوف ص 75 ، 76 .
2- السابق ص 76 .
3- سيرة الشيخ الكبير عبد الله بن خفيف ص 361 .

حركته (1) .

وعلاقـة الأفـراد ببعضـهم بـدءا من الأسـرة ومـرورا بـالمجتمع وانتهـاء بآصـرة الإنسـانية تحتـاج إلى ضـوابط أخلاقيـة كى لا تتعـارض الحريات وتتصادم الرغبات والمصالح (2) .

والله فطر الناس على ضـرورة ذلـك ، فمـا العقد الاجتماعى والاتفاق الصامت الكـائن بين أفراد الجماعة الواحـدة إلا مظهـر من مظـاهر هذا الضـبط ، لأن حركـة الفـرد يجب ألا تمثـل قيـدا على الآخـر ، ومصـلحة الفـرد يجب ألا تكـون اسـتغلالا للآخـرين فلا تسـتقيم حيـاة الأفـراد ، أو علاقـات الجماعـات والأمم بـدون ضـوابط تحكم الحريـات ، فالإنسـان تحكمـه عوامل متعددة بعضها خـير وبعضـها نـزوع إلى الشر من أجل هـذا كـانت حاجـة الإنسـان إلى نظـام يحـد من حركتـه ويحكم علاقاتـه ويقـود خطـاه ويضـع قواعـد سـلوكه على المنهج السليم .

ولقـد أحسـن أوائـل الصـوفية عنـدما ربطـوا معنى الحرية عند الإنسان بعبودية الله سبحانه وتعالى ، وهذا ما سيأتى فى المبحث التالى .

1- الفكـر الأخلاقى دراسـة ومقارنـة ، تـأليف د. محمـد عبـد اللـه الشـرقاوى ص 17 بتصـرف مكتبـة الزهـراء سنة 1987 م .

2- الأخلاق بين العقـل والنقـل تـأليف د. أبـو اليزيـد العجمى ص 27 بتصرف ، دار الثقافة العربيـة القـاهرة سنة 1988 م .

*** المبحث الثانى ***

الحرية فى اصطلاح أوائل الصوفية

انفرد أوائل الصوفية عن غيرهم باصطلاح خـاص للحريـة ومـدلول معين للكلمـة يختلـف تمامـا عن اصـطلاح المتكلمين ، فـالمتكلمون تناولوا فى بحثهم مدى حريـة الإرادة الإنسـانية وموقعهـا من المشـيئة والإرادة الإلهيـة ثم الاسـتطاعة الحادثـة وعلاقتهـا بالقـدر الإلهى ، وهذا المصطلح الصـوفى وإن كـان يحمـل فى طياته تكامل المذهب الصوفى فى فهم القـدر وعلاقتـه بالحريـة إلا أنـه أضـاف معـنى جديـدا للفكر الإسلامى ، فقد ربطـوا الحريـة بالعبـادة بحيث تصبح العبادة هى الوجه الآخـر للحريـة ، أو بمعـنى آخـر تصـبح الحريـة والعبـادة وجهين لحقيقة واحدة .

وهذا الاصطلاح مـع كونـه من حيث الفكـرة يعـد سـبقا فكريـا وإضـافة جديـدة للـتراث الإسلامى ، فإن النصوص الثابتة فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسـلم تؤيـده ولا تعارضه ، بشرط أن يكون منهج العبودية معبرا عن المنهج الإسـلامى الخـالص ، كمـا يمكن القـول إن هـذا الاصـطلاح الصـوفى لأوائـل

الصـوفية يصلـح أن يقـدم كمفهـوم عصـرى لدعاة الحرية والمتشدقين بها .

فالحريـة عنـد الأوائـل تضـع الإنسـان فى موضـعه الصـحيح الـذى يحقـق بـه الغايـة من خلقه ويصل من خلاله إلى مرضـاة ربـه وذلـك يكـون بتحقـيق العبـودية لله كمـا قال سـبحانه وتعـالى : **{ ومـا خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون }** (1) .

يقـول أحمـد بن خضـرويه (2)ـ : **(فى الحريـة تمـام العبوديـة وفى تحقيـق العبودية تمام الحرية)** (3) .

وهذا الاصطلاح الصوفى يـؤثر فى موضـوع البحث من وجهين :

[1] - الوجـه الأول : تكامـل المـذهب الصـوفى فى فهم الحريـة ومقوماتها .

[2] - الوجـه الثـانى : إبـراز الحريـة كسـلوك علمى ودسـتور صـوفى يمكن أن ينفـذ فى أرض الواقع .

* أما عن الوجه الأول فاصطلاح الحرية بمعنى العبوديـة يحمـل فى طياتـه كـل المقومـات اللازمة لتحقيـق الحريـة الإنسـانية ، إذ الحريـة فى هذا الاصطلاح ليست مسألة نظريـة محـل دراسـتها فى الأذهـان ، ولكنهـا

1- الذاريات / 56 .
2- أحمد بن خضرويه البلخى كنيتـه أبـو حامـد وهـو من كبار المشايخ بخرسان ومن قرناء أبى تـراب النخشـبى وأبى يزيد البسطامى توفى سنة 240 هـ انظر ترجمتـه التفصيلية فى تاريخ بغـداد حـ 4 ص 137 حليـة الأوليـاء حـ 10 ص 42 صـفة الصـفوة حـ 4 ص 137 الرسـالة القشيرية حـ 1 ص 103 .
3- اللمع للسراج الطوسـى ص 448 طبقـات الصـوفية ص 104 .
تطـــبيق عملى يـــؤثر على القلب واللســـان والجوارح والأركان ، ومن ثم فـإنهم بـإخراجهم لهـذا المصـطلح آمنـوا بوجـود الإرادة الحـرة والاختيـار الـذاتى للإنسـان إذ لـو كـان مجـبرا لانتـفى معناه وانعـدم تحقيقه ، وآمنـوا بقـدرة الإنسـان على تنفيـذه وآدائـه كـواجب يسـعى المرء بكل سبيل إلى بروزه فى سلوكه وعمله ولـو لم تكن لـديهم الاسـتطاعة على تنفيـذه لأصـبح فكـرة عالقـة فى الـذهن لا حقيقـة لهـا ولما أصـبحت الحريـة سـلوكا ملموسـا يتحقـق بالعبودية لله .

كما أنهم أثبتوا بهذا الاصطلاح المقوم الثالث من مقومات الحرية وهو العلم بنوعيه :

1 ـــ علم التميـيز والإدراك إذ يسـقط التكليـف عن الأطفـال حـتى يصـلوا إلى سـن الرشـد والبلـــوغ ، كمـــا يســـقط أيضـــا عن النـــائم والمجنـــون يقـــول الكلابـــاذى : **(لا يعـــذب**

الله بالنـار إلا بعـد لـزوم الحجـة على من عاند وكفر ووجبت عليه الأحكام ، ولا تجب الأحكـــــام إلا على العقلاء البالغين) (1) .

2 ـ وعلم الهداية والإرشـاد لطريـق العبوديـة ، والممثل فى العلم بمنهج

1- التعـرف على منهج أهـل التصـوف ص 75 ،ـ 76 وانظر اللمع ص 116 وسيرة الشيخ الكبير عبد الله بن خفيف ص 351 .

التكليف الذى جـاءت بـه الرسـل ، ولـو انعـدم هـــذا العلم لاختلفت الضـــوابط وتصـــادمت الحريـات ، ولمـا تحققت عبوديـة اللـه ، فهـذا العلم هــو الوسـيلة للحريــة وهــو شــرط فى الوصول إليها قال تعـالى : **{ يا أيهـا الـذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسـيلة }** (1) .

وقال أيضا : **{ وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا }** (2) .

* أمــا عن الوجــه الآخــر للحرية فى الاصــطلاح الصوفى لأوائل الصـوفية فهى تتطـبيق علمى لقيـام الإنسـان بـدوره فى الحيـاة والالـتزام بعبودية الله كما أداها رسـول اللـه صـلى اللـه عليه وسلم .

يقـول صـاحب اللمـع : **(الحــرية عنـد الصوفية ألا يملكك شئ من المكونات ، وغيرها فتكون حـرا إذا كنت للـه عبــدا فلا يكــون العبــد عبــدا حقــا ويكــون لمـا سـوى اللـه مسترقـا)** (3) .

فالحريـة إبـراز لتوحيـد العبـادة على وجـه الكمــال ، أو دعــوة لعـــدم الخضــوع والــذل والطاعـة لأحـد سـوى اللـه ، فهى قائمـة على القاعدة الأساسـية لـدعوة الرسـل جميعـا فى إفراد الله بالعبودية قال تعالى :

{ وما أرسـلنا من قبلـك من رسـول إلا نـــوحى إليـــه أنـــه لا إلـــه إلا أنـــا

1- المائدة / 35 .

2- الإسراء / 15 .

3- السابق ص 450 .

فاعبدون } (1) .

ويقول أيضا : **{ ولقـد بعثنـا فى كـل أمـة رســـولا أن اعبـــدوا اللــــه واجتنبـــوا الطاغوت }** (2) .

والطاغوت هو كل ما عبد من دون الله (3) .

فـــالحر فى المفهـــوم الصـــوفى لأوائـــل الصوفية هو المتحرر من عبودية الدنيا وعبودية النفس والشيطان وكـــل مـا اسـترقه وصـرفه

عن عبودية الله أو هو المتحرر من عبادة الطاغوت كما قال الله تعالى :

{ فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها } (4) .

وعلى ذلك فإن الصوفية الأوائل أبعد ما يكون عن الشرك بالله وصرف شئ من أقوالهم أو أفعالهم الباطنة والظاهرة لغير الله بعكس ما نرى من أحوال الصوفية فى الواقع المعاصر الذين قيدوا أنفسهم بالخوف والرجاء من ساكنى الأضرحة والقبور فعلقوا دعاءهم بهم وأخضعوا أنفسهم لهم ولم يتحرروا لله كما فعل اللأوائل ، وقد تقدم موقف

1- الأنبياء / 25 .

2- النحل / 36

3- المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى ص 305 .

4- البقرة / 256 .

الأوائل من النظر إلى الأسباب فى الفصل السابق وأن الاعتماد عليها شرك خفى يقع فيه الغافلون لضعف اليقين فى التوكل على الله ، فإذا كان هذا موقفهم من الشرك الأصغر فما بالنا بموقفهم من دعاء الأموات والتوسل بهم وصرف العبادة إليهم كالاستغاثة والنذر والذبح

والطـواف والركـوع والسـجود وغـير ذلـك من ألوان الشـرك الأكـبر ممـا يحـدث فى مختلـف الطـرق الصـوفية المتتشـرة فى البلاد ، وإنمـا ذكرت ذلـك حـتى لا يكـون البحث بمعـزل عن الواقــع وليتجلى الفــرق بين معتقــد الأوائــل ومعتقد الصوفية فى العصر الحاضر .

فالصـوفية الأوائـل أنشـأوا مصـطلح الحريـة رغبــة فى تأصــيل العبــادة وإظهــارا لــدقائق التوحيــد ، وفى المقابــل التنبيــه على دقــائق الشـرك وخفايـا الريـاء ، ووجـوب التحـرر من الضروريات النفسـية والطبيعيـة الـتى تسـترق الإنسان ، قال أبـو على الـدقاق (1)ـ :ـ **(أنت عبــد من أنت فى رقــه وأســره ، فــإن كنت فى أســـر نفســـك فـــأنت عبـــد نفسك ، وإن كنت فى أسر دنياك فأنت عبد دنياك)** (1) .

1- هــو أبــو على الحســن الــدقاق النيســابورى أســتاذ القشـيرى صـاحب الرسـالة بـرع فى العلـوم الصـوفية وفى الفقه واللغة وتوفى ودفن بنيسـابور سـنة 410 هـ انظـر وفيـات الأعيـان لابــن خلكـان حـ 2 ص 375 ، طبقات الشافعية حـ 3 ص 112 والكواكب الدريـة فى تراجم السادة الصوفية لعبـد الـرؤف المنـاوى حـ 1 ص 225 طبعة القاهرة .

لقد أوجب الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم التخلص من رق معبـــودات الـــدنيا ، وبين أن التعلق بها على حساب عبوديـة اللـه اسـترقاق

منها للإنسان ، لأنه يوالى فيهـا ويعـادى فيهـا ، ويجعل رضاه مرتبطا بهـا وهـذه أوصـاف تـؤثر فى عبوديته لله ، فوجب عليه التحرر منها .

قال صلى الله عليه وسـلم : **(تعس عبـد الدينار ، تعس عبد الـدرهم تعس عبـد الخميصـــة ، تعس عبـــد الخميلـــة ، إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ، وإذا شيك فلا انتقش ، طـوبى لعبـد آخـذ بعنـان فرسـه فى سبيل الله أشعث رأسه مغبرة قـدماه ، إن كـــان فى الحراســـة كـــان فى الحراسـة ، وإن كـان فى السـاقة كـان فى الساقة ، إن استأذن لم يـؤذن لـه ، وإن شفع لم يشفع له)** (2) .

1- الرسالة حـ 2 ص 430 .

2- أخرجه البخارى فى كتاب الجهاد ، باب الحراسة فى الغرز وفى سبيل الله برقـــم (2886) وأخرجـه مسـلم فى كتاب البر والصلة ، باب فضل الضـعفاء والخـاملين برقم (2622) وابن ماجـه فى كتـاب الزهـد ، بـاب فى المكثرين برقم (4135) وابن حبان فى كتـاب الزكـاة ، باب جمع المال من حله وما يتعلق بذلك برقم (3218) وأخرجه البيهقى فى سـننه حـ 9 ص 159 وتعس دعـاء عليه بـالهلاك أى انكب وعـثر والخميصـة ثـوب خـز أو صوف معلم ، والخميلة ثياب لها خمل من أى شئ كان

، وإذا شيك فلا انتقش أى إذا أصابته شوكة فلا أخرجت منه .
فسماه النبى صـلى اللـه عليـه وسـلم عبـد الـدينار وعبـد الـدرهم ، لأن رضـاه لغـير اللـه وسخطه لغير اللـه فهـو عبـد لمـا يهـو اه وهـو رقيق له .
فـالرق والعبوديـة فى الحقيقـة تبـدأ بـرق القلب وعبوديتــه ثم يظهــر أثرهــا فى البــدن والجوارح .
أمـا مـا يحتاجـه العبـد من طعـام وشـراب وملبس ومنكح ومسـكن فهـذا يطلب من اللـه ويستعين بـه عليـه من خلال أخـذه بالأسـباب ، فيكون المال عنده يستعمله فى حاجته بمنزلة الدابة التى يركبها وبساطه الـذى يجلس عليـه من غـير أن يسـتعبده أو يكـون هلوعـا بقصـده فرحــا بحصــوله لأن هــذه الضــروريات لا بــد منهـا ، إذ أن اللــه أوجـد حـاجتهم إليهـا بـأمره الكــونى فى تركيبهـــم وقدرتــه ســبحانه فى إظهار ابتلائهم ، وجعلهـــا مجالا لإظهار فضـله على أوليائه وسخطه على أعدائه .
فما لا يحتاج إليه العبـد من أمـور الـدنيا فلا يعلق قلبه به ، وإذا فعل صار مستعبدا ومقيــدا بهــذه الأمــور لا يبقى خالصــا على حقيقـــة العبودية لله أو على حقيقـة التوكـل على اللـه بل فيه شعبة من العبادة لغير الله .

وهذا هو المستحق لدعاء النبى صلى الله عليه وسلم عليه بالتعاسة والانتكاسة .

ويرى الجنيد بن محمد أن الحرية آخر مقام للعارف ، وقلما يصل إليه إلا المخلصون الصادقون فقال متمنيا أن يرى عابدا بحق :

أتمنى على الزمان محالا : أن ترى مقلتاى طلعة حر (1) .

فالحرية يقطع العابد فيها أشواطا من المجاهدة فى التزام الشرع والتعبد بالنوافل وفى كل مرحلة يؤدى فيها شيئا من العبادة ، ينحل عنه قيد من قيود الرق لغير الله حتى يصل بأدائها إلى انفكاك جميع القيود ، كالعبد المكاتب يظل عبدا وإن دفع إلى سيده كل ما كاتب عليه واستثنى درهما واحدا ، فلا بد من دفع الكل حتى يخرج إلى الحرية .

سئل الجنيد عن لم يبق عليه من الدنيا إلا مقدار مص نواة ، أيكون حرا ؟ فقال : **(المكاتب عبد ما بقى عليه درهم)** (2) .

ولا شك أن هذا المفهوم ارتقاء بالذات الإنسانية إلى مرتبة الكمال فدخول الإنسان فى عبودية الله اختيارا هو السبيل الوحيد للمحافظة على حريته وتحقيق ذاته ، وهذا يتطلب سلوكا يناظر سلوك النبى صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى للمسلمين ، ومتابعته

فى كـل صـغيرة أو كبـيرة ، وكلام الجنيـد يــأتى فى المرحلــة النهائيــة من التــدرج فى المقامات الصوفية ، وهذا المقام يدل على أنه على قــدر كبــير من الحريــة لأنــه قطــع فى الإيمـان والعمـل أشـواطا ومجاهـدات ، ينهيهـا بالتخلص من

1- الرسالة حـ 2 ص 461 .
2- السابق حـ 2 ص 462 .

قيود الصغائر والشرك الخفى ومـا شـابه ذلـك مما يخفى على العامـة ولا يخفى عليهم ، قـال بشــر بن الحــارث للســرى الســقطى : **(إن الله تعالى خلقك حرا فكن كما خلقك ، لا ترائى أهلك فى الحضـر ولا رفقتــك فى الســفر ، اعمـــل للــه ودع عنــك الناس)** (1) .

ويبين فى موضع آخــر أن الإخلاص وتطهـير السريرة بين العبد وربـه يجعـل الإنسـان حـرا من الأغيار وعبوديتها ، حرا بـآداء العبوديـة للـه من جانب آخـر ، يقـول بشـر : **(من أراد أن يـــذوق طعم الحريــــة ويســــتريح من العبودية** [لغـير اللـه] **فليطهر السـريرة بينه وبين الله تعالى)** (2) .

* حرية الباطن وحرية الظاهر :

ولما كانت الحرية مرتبطـة بالعبوديـة عنـد أوائل الصوفية ، فإن عبودية الباطن هى حريـة

الباطن وهى التخلص من كـل القيـود النفسـية والنوازع الداخلية وهـذا الجـانب قـد نـال حظـا وفيرا من الدراسة عندهم ، أما عبودية الظاهر فهى مرتبطـة بمـدى الحريـة الـتى تتحقـق فى البـاطن ، فهى مبنيـة عليهـا لقولـه صـلى اللـه عليه وسلم :

(ألا إن فى الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا ـــــــــــــــــــــ

1- اللمع ص 450 .

2- الرسالة القشيرية حـ 2 ص 262 .

فسـدت فسـد الجسـد كلـه إلا وهـى القلب) (1) .

وينبغى الإشـارة إلى أن حريـة البـاطن والظاهر عند أوائل الصوفية ما هى إلا محاولـة منهم لتحقيـق العبوديـة فى أعمـال القلـوب والجـوارح على المنهج الإسـلامى والمفهـوم الشـرعى ، ولا يقصـدون التحلـل من الشـرع تحت شعار الشـريعة لأهـل الظـاهر والحقيقـة لأهل الباطن أو بأى وجه من الوجوه ، ولذا نبه أغلب الصـوفية على ضـرورة الفهم السـليم لمعنى الظاهر والباطن .

يقول السراج الطوسى : **(أنكرت طائفة من أهل الظـاهر وقـالوا : لا نعـرف إلا علم الشـريعة الظـاهرة الـتى جـاء بهـا**

الكتــاب والســنة وقــالوا : لا معــنى لقولكم علم الباطن وعلم التصــوف) (2) .

فأجاب بأن علم الشريعة واحد ، والشــريعة دعت إلى الأعمال الظـاهرة والباطنـة ، والعلم مـــادام فى القلب فهـــو بـــاطن فيـــه إلى أن يجرى ويظهر على اللســان والجــواراح فيكـون ظاهرا ، فعلــم الشريعة فيه عبوديـة ظـاهرة متعلقــة باللســان والجــوارح وعبوديــة باطنــة متعلقة بالقلـب (3) .

1- انظر اللمع ص 43 والحديث سبق تخريجه ص 164 .

2- اللمع ص 43 .

3- السابق ص 43 ، 44 .

ومن ثم فلا يجوز بحال من الأحوال التحــرر من عبودية الله عندهم .

قال عبـد اللـه بن خفيـف : **(والحريـة من العبودية باطلة : أى إذا تصـور امـرؤ أن العبد يجوز له فى حياتــه أن يتحــرر من قيد العبودية وأن تسقط عنه التكــاليف الشرعية فهو على باطل)** (1) .

ثم يــبين أنــه يجــوز لــه أن يتحــرر من رق النفوســـية الباطنـــة فقـــال : **(ولكن التحـــرر جـــائز من رق النفوســـية ، أى**

يجوز للعبد أن يتحـرر من قيـد نفسـه وغلها والرق والعبودية لا يسقطان من العبـد بحـال ولا يسـقط عنـه اسـم العبودية) (2) .
وقـد أخطـأ بعض السـالكين فى فهم الحريـة والعبودية :
[1] - فمنهم من استهجن معنى الحرية
معللا أن الحـــر إذا عمـــل عمـــل لطلب العوض والجزاء فلا تخلـو معاملـة الأحـرار عن طلب الأعواض والعبد ليس لـه طلب جـزاء ولا عـوض ولكن سـيده إذا أعطـاه أعطـاه متفضـلا وإن لم يعـط لم يسـتحق عليه شيئا (3) وقد بين السـراج الطوسـى خطـأهم ، لأن اسـم الحريـة أطلقــه مــن أطلقـه

1- سيرة الشيخ الكبير عبد الله بن خفيف ص 361 .
2- السابق ص 361 .
3- أصول الملامتيه وغلطات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى تحقيق د. عبد الفتـاح أحمد الفاوى ص 184 .

لتحقيق العبودية لله على النهج النبوى (1) أمـا الزهد فى الجنة فليس من زهد الأوائـل ، ولـذا لم يوفق القشيرى فى قوله :
(وأن الذى أشار إليه القـوم من الحرية هو ألا يكون العبد تحت رق شـئ

من المخلوقات لا من أعراض الدنيا ولا من أعراض الآخـرة فيعبده فردا لفرد) (2) .

إذ أنه سحب هذا القول على عامة الأوائـل من الصوفية وهو مصروف لبعضهم فقط .

[2] - وممن أخطــــأوا فى فهم الحرية

من توهم أن العبـد مـا دام بينـه وبين اللـه تعبـد فهـو مسـمى باسـم العبوديـة ، فـإذا وصل إلى اللـه صـار حـرا وإذا صـار حـرا سـقطت عنـه العبوديـة وأمكنـه عنـد ذلـك التحلل من الشرع وإسقــاط التكاليـــف (3) .

يقول الحلاج :

(اعلم أن المرء قائم على بساط الشريعة مـا لم يصــل إلــى التوحيـــــد ، فــــإذا وصـــل إليـــه سقطــت مــن عينـه ، وصـــارت

1- السابق ص 185 .

2- الرسالة حـ 2 ص 461 .

3- اللمع ص 531 .

عنده هوسا) (1) .

وقد بين السراج الطوسى ضـلالهم من قِبـل أنهم خفيت عليهم أن العبـــــد لا يكــــون فى

الحقيقة عبدا حتى يكون قلبه حـرا من عبوديـة الأغبار (2) ولذا قـال الشـبلى : (الحــرية هى حـرية القلب لا غـير) (3) .
* حرية الباطن والتحرر من الضرورات النفسية :
يــرى أوائــل الصــوفية فى الضــرورات النفسـية الـتى ركبهـا اللـه فيهم بابـا واسـعا للمنازلـة والمجاهـدة وتطهـير النفس ، فهـو يقاومهـا ويحـاول محاولـة ملحـة التحـرر منهـا بكسـر شـهوتى البطن والفـرج ، وهـذا دليـل حازم على رفضه الخضوع لتلك الضروريات .
قال سهل بن عبد الله : **(لما خلـق الله تعالى الدنيا جعل فى الشـبع المعصـية والجهــل وجعــل فى الجـــوع العلـــم والحكمـة)** (4) .
فالشبع والجوع من الأمور الضـرورية الـتى تواجـه الإنسـان بـأمر اللـه وليس لهمـا وجـودا ذاتيا وإن كـان لهمـا قيامـا وأثـرا فى الوجـود ، ولكنهمـــا عن إرادة اللـــه وفعلـــه فى ميـــدان الربوبيـــة ابتلاء للإنســـان ، ومن ثم فـــإن

1- أخبار الحلاج نشرة ماسينون ، بـول كـرواس مكتبـة باريس سنة 1936 ص 55 .
2- ا للمع ص 532 .
3- طبقات الصوفية ص 343 .
4- الرسالة حـ 1 ص 373 .

الاحتماء أو الحمية كما يسميها أوائل الصــوفية وسـيلة الإنســان فى مكافحــة شـهوتى البطن ومخالفة الهوى وسائر الشهوات .

قــال الــدقاق : **(إن أهــل النــار غلبت شهوتهم حميتهم فلذلك افتضحوا)** (1)

ويــذكر الســلمى من عيــوب النفس أنــك لا تحييها حتى تميتها (2) ويقصــد بــذلك لا تحييهــا للآخرة حـتى تميتهـا عن الـدنيا ، ولا تحى باللــه حـتى تمـوت عن الأغيـار ، فـإذا أمـات مـذموم الأوصــــاف فى النفس تحـــررت النفس من عبودية الأغيار .

قال يحى بن معاذ (3) : **(من تقرب إلى الجنــة بتلــف نفســه حفـظ اللــه عليــه نفسه)** (4) وذلك أن يمنعها شهوتها ويحملها على مكارهها ـــــــــــــــــــــــــ

1- السابق حـ 1 ص 78 .

2- عيوب النفس لأبى عبد الـرحمن السـلمى ، تحقيـق مجدى فتحى السيد ص 9 طبعة مكتبة الصحابة .

3- هو يحى بن معاذ بن جعفر الـرازى يكـنى أبـا زكريـا من الزهــاد والعبــاد ســمع من اســحاق بن إبــراهيم الرازى ، ومكى بن إبراهيم مات فى نيسابور سنة 258 هـ انظر حليـة الأوليـاء حـ 1 ص 51 ، صـفة الصـفوة 4 ص 17 الرسالة القشيرية حـ 1 ص91 تـذكرة الأوليـاء حـ 1 ص 298 نفحات الأنس ص 56 وفيات الأعيـان حـ 2 ص 396 تاريخ بغداد حـ 14 ص 218 شذرات الذهب حـ 2 ، ص 138 .

4- عيوب النفس ص 9 .

فالنفس لا تألف الحق أبدا .

ويبين السلمى أن خلاصها من هـذه الآفـة يكمن فى السـهر والجـوع والظمـأ وركـوب مخالفة الطبع والنفس ومنعها عن الشـهوات ، فالجوع طعام به يقوى الله أبـدان الصـديقين (1) .

ومن ثم فـإن الصـوفى عنـدهم يقـف من الاشتهاء موقـف الـرافض محـاولا التغلب على الضرورات النفسية بعد أن استجاب لها .

قيل لبعضهم : ألا تشتهى ؟

فقال : أشتهى ولكن أحتمى (2) .

فهـو لا ينكـر وجـود الشـهوة والرغبـات فى نفسـه ولا يـزعم القضـاء عليهـا تمامـا ولكنـه يقف منها موقفا إيجابيا لا سلبيا فيمنع ذاته من أن تسـتجيب لكـل الشـهوات إلا بالقـدر الـذى يرغـم النفس ، حـتى وصـل البعض منهم فى ذلـك إلى محاولـة منـع النفس من مجـرد الاشتهاء .

قال أبو على الدقاق :

قيل لبعضهم : ألا تشتهى ؟

فقـال : أشتهى ألا أشتهى ؟ (3) .

1- السابق ص 9 .

2- الرسالة حـ 1 ص 378 .

3- السابق حـ 1 ص 378 .
فهم يعلمـون أن اللـه ابتلاهم بالاشـتهاء للابتلاء وأراد منهم التحرر منه .
يقول القشيرى معلقا على المقولة السـابقة **: (وذلـك أكمـل فى المجاهـدة ، وأتم فى كسب الضروريات)** (1) .
وهذا موقف شديد الإيجابيـة ، لأنـه لا يحـرر الشهوة ذاتها ولكنه يحارب مبـدأها ، ولإن كـان أوائل الصوفية يرون فى الجوع وترك الشـهوة نوعا من الحريـة ومقاومـة للضـرورة النفسـية فإنهم أيضا دعوا إلى حث النفس على التواضع والخشـوع والقناعـة فى مقابـل تـرك الريـاء والكبر والعجب والطمـع والعظمـة وغـير ذلـك من الأوصـــاف المذمومـــة ، وأفـــردوا لـــذلك مســـاحات كبـــيرة من كلامهم تـــذخر بهـــا مصنفاتهم .
يقول إبرهيم ابن شيبان (2) **: (الشرف فى التواضع والعز فى التقوى والحرية فى القناعة)** (3) .

1- السابق حـ 1 ص 379 .
2- هو أبواسحاق إبراهيم بن شـعبان القرميسـنى عابـد زاهد ، له مقامات فى الورع والتقوى وكان شديدا على المـدعين متمسـكا بالكتـاب والسـنة لازمـا للطريقـة الصوفية تـوفى سنة 330 هـ انظر حليـة الأوليـاء ، حـ 10 ، ص 361 شذرات الذهب حـ 2 ص 344 الرسـالة

القشـيرية حـ 1 ص 174طبقـات الشـعرانى حـ 1 ص 132 .
3- الرسالة حـ 1 ص 386 .

وفي مجمـوع هــذه المعـانى يقـول : **(من أراد أن يكـون حـرا من الكـون فليخلص فى عبـادة ربـه فمن تحقـق فى عبـادة ربه صار حرا مما سواه)** (1) .

* مخالفة النفس رأس العبادة ومظهر الحرية :

ويكاد يجمع أوائل الصوفية على أن مخالفة النفس رأس العبادة ومظهـر الحريـة فـالنفس تجرى بطبعها فى ميدان المخالفة والعبد يردها بجهدها عن سوء المطالبة ، فمن أطلق عنانهـا فهو شريك معها فى فسادها .

قال تعالى : **{ وأما من خاف مقام ربـه ونهى النفس عن الهــوى فــإن الجنــة هى المأوى }** (2) .

ويصـف المحاسـبى رغبتهـا وسـوء تصـرفها فيقول : **(فإذا غضبت فطلبت منه الحلم امتنعت منه فظهر منها السفه والحقـد وســوء الخلــق ولــو طلبت الإخلاص هـاجت شـهوتها بالريـاء ، وعنـد طلب الرضــا تمتنـــع منـــه وتهيج للجـــزع والتســخط ، وعنــد الزهــد والتوكــل والصدق جاشت الشهوات فى ضد ذلـك كله)** (3) .

1- طبقات الصوفية ص 404 .
2- النازعـات /40 :41 وانظـر الرسـالة حـ 1 ص 394 وأعمال القلوب والجوارح ص 64 .
3- الرعاية ص 260 .

ويـرى المحاسـبى أن الحـذر من نوازعهـا يكون بمخاصمتها إلى الكتـاب والسـنة وإقامـة الحجة عليهـا والتفـتيش عن عيوبهـا وقيودهـا ، وذكـر خبثهـا وكـذبها ، فـإذا أذعنت بـالإقرار والاعتراف بالحق وانقطعت معاذيرها وحججهـا الكاذبـة ، فـإن انقـادت إلى الحـق ، وإلا رفـع أمرها وهمهـا إلى النـار وتـوهم شـدة عـذابها ، وأنـه واجب عليهـا فى نـزع المـوت وكربـه وسكراته وغمه وقلقه (1) .

ويجمـع السـلمى عيـوب النفس وقيودهـا والسبيل إلى مداواتها والتحـرر منهـا من خلال ما ورد فى الشـرع مقرونـا بالأدلـة فيـذكر من عيوبها :

[1] - الفتور فى الطاعة ، وعلاج ذلـك بـدوام الالتجاء إلى اللـه وملازمـة ذكـره وقـراءة كتابه .

[2] - عدم الشعور بلذة الطاعـة ، ومـداواتها فى الإخلاص وملازمة السـنة فى الأفعـال وتصحيح مبادئ أموره ليصح منتهاها .

[3] - النفس لا تــألف الحــق ، ومـــداواتها الخروج منها بالكلية إلى ربها .

[4] - النفس تــألف الخــواطر الرديئـــة ، ومداواتها فى الاستعاذة بالله والاستغفار

[5] - طلب الرياســة بـــالعلم والتكـــبر ، ومداواتها فى رؤية منة اللـه عليـه فى أن جعله وعاءا لأحكامه .

1- انظر السابق ص 263 كتاب التوهم للمحاســبى ص 7 .

[6] - الرضا عند المدح والغضب عنـد الـذم ، ومــداواتها فى قولــه صــلى اللــه عليــه وسلم : **(احثوا فى وجوه المـادحين التراب)** (1) .

[7] - الخــوض فى أســباب الــدنيا بلا ضــرورة وعلاجها فى قول النـبى صـلى اللـه عليـه وسلم :

(من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه) (2) .

ويستمر الســلمى فى عـرض آفـات النفس والسبل الشرعية فى مداوتها إلى أن يقــرر أن إصلاح الظـاهر والبـاطن يمكن فى اتبـاع سـنة النبى صلى الله عليـه وسـلم فى كـل الأفعـال والأقوال والأسـباب والمقامـات والأحـوال ثم قال :

(وإيـاك ومخالفـة السـنة ، فيمـا دق وجل ، واقتدى بسـيرة السـلف الصـالح من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، وابدأ فى ذلك بنفسك

1- أخرجـه أبـو داود فى الأدب ، بـاب كراهيـة التمـادح بـرقم (4804) والترمـذى فى الزهـد ، بـاب كراهيـة المدحـة والمـداحين بـرقم (2505) وابـــن ماجـه فى كتـاب الأدب ، بـاب المــدح بـرقم (2420) وأحمـد فى المسند حـ 6 ص 56 وأبو نعيم فى الحلية حـ 6 ص 99 .

2- انظـــر عيـوب النفـــس للسـلمى من ص 9 :ـ 19 واحديث أخرجه الترمذى فى الزهد برقم (3419) وابن ماجه فى الفتن ، باب كـف اللسـان فى الفتنـة بـرقم (2420) والبغوى فى شرح السنه حـ 14 ص 320 .

وأوصـيك بايثـار طاعـة اللـه والإقبـال عليــه بالكليــة والرجــوع فى كـــل هم ونائبة إليه) (1) .

* حرية الظاهر والتحرر من الضروريات الطبيعية :

وإذا كـان جهـد أوائـل الصـوفية ينصـب فى المقــام الأول على إصــلاح البــاطن والعمــل لتحريـــر القلب من آفـــات النفس وعيوبهـــا ، فذلك لكون القلب هو المحرك الفعلى للسـان والجوارح ، فـإذا انصـلح القلب وتحـرر البـاطن بالعبودية فإن الجسد تابع له فى الحرية ، وقـد سبق قول أبى بكر الشبلى : **(الحرية حريـة القلب لا غير)** (2) .

ويذكر المكى فى ترابط القلب مع أعمــال اللسان والجوارح أن الإسلام هو ظاهر الإيمان وهــو أعمــال الجــوارح ، فالإيمــان فى القلب والإســلام أعلام الإيمـــان ، والإيمـــان عقـــود الإســلام ، فلا إيمــان إلا بعمــل ولا عمــل إلا بعقد ، ومثل ذلك مثل العلم الظـاهر والبـاطن أحـدهما مرتبـط بصـاحبه من أعمـال القلـوب وأعمال الجوارح ، ويسـتدل بقولـه صـلى اللـه عليه سلم : **(إنما الأعمال بالنيات)** (3) .

ويؤكـد السـلمى على هـذه الحقيقـة ، وأن الأعمال الظاهرة لا تحصل

1- عيوب النفس ص 14 ص42 .

2- طبقات الصوفية ص 343 .

3- قوت القلوب حـ2 ص 129 والحديث تقـدم تخريجـه ص 163 .

بها التقوى وإنما تحصل بما يقع فى القلب من عبودية الله وخشـيته ومراقبتـه ، فـإذا تم ذلـك فإن الأعمال الظاهرة ستكون هى المعبرة عن تقوى القلوب فالاعتبار فى هـذا كلـه بـالقلب (1) .

أما دليلـه فى ذلـك فهـو قولـه صـلى اللـه عليـــه وســـلم : **(إن اللـــه لا ينظـــر إلى صــوركم ولا إلى أمــوالكم ولكن ينظــر إلى قلوبكم)** (2) .

وكما جعل الله الضرورات النفسية قى القلب ابتلاء كـذلك جعـل أعمـال الظـاهر ، فأعمـال الجـوارح ضـرورة يجب إخضـاعها لطاعـة اللـه وعبوديتـه فاللسـان من ضـرورته الكلام وقـد يكب الناس فى النار على مناخرهم بسبب مـا حصده من الكلام (3) والعاقل هو الذى يتحـرر من سوء أفعاله .

فالإنسـان يـزرع بقولـه وعملـه الحسـنات والسيئات ثم يحصد يوم القيامة ما زرع ، فمن زرع خـيرا من قـول أو عمـل حصـد الكرامـة ، ومن زرع ـــــــــــــــــــ

1- عيوب النفس ص10 واللمع ص 44 .

2- أخرجه مسلم فى كتاب الـبر والصـلة ، بـاب تحـريم ظلم المسلم وخذلـه بـرقم (121) وأخرجـه أحمـد فى المسند حـ2 ص285 وابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب القناعـة بـرقم (4143) والبغـوى فى شـرح السـنة حـ 14ص141 .

3- رسالة المسترشدين ص 116 .

شرا من قول أو عمل حصد الندامة (1) .

ويضـــرب المحاســـبى مثلا لعبوديـــة القلب والجوارح وكيفية الترابط بينها بأن القلب مثل بيت له ستة أبواب والعبد يجب عليه الحـذر ألا يدخل عليه من أحد هذه الأبواب شـئ فيفسـد عليـه الـبيت ، فـالقلب هـو الـبيت والأبـواب : العينـان واللسـان والسـمع والبصـر واليـدان

والـرجلان فمـتى انفتح بـاب من هـذه الأبـواب بغير علم ضاع البيت (2) .
وهذه الأمثلة والمحـاولات الـتى يسـعى من خلالها أوائل الصوفية لتجسـيد العبـادة وكيفيـة إظهارها فى أعمال القلوب والجوارح ، مـا هى إلا محاولـة للتحـرر من الضـروريات الداخليـة والخارجية فى ذاته ، ويكمن القـول إن الحريـة الـتى يبغى أوائـل الصـوفية تحقيقهـا تكمن فى استسـلام القلب واللسـان والجـوارح لمنهج العبوديـة بكـل جزئياتـه ومحتوياتـه وأحكامـه ومعاملاتـه الـتى تنمحى كـل ضـرورة أو إرادة تخالف منهج العبودية .
ولقد بلغ ذلك إلى حد أن يبحثوا فى الأحكام التى تتعلـق بكـل جزئيـة من البـاطن والظـاهر فى القلب واللسان والجوارح .

1- جامع العلـوم والحكم للحافـظ بن رجب الحنبلى ص 242طبعة مصطفى البابى الحلبى ص1369 بتصرف .
2- رسالة المسترشدين ص115 .

ويحـــاول ابن القيم فى شـــرحه لمنـــازل السائرين أن يحصى قواعد العبادة فى أعمـال الظاهر والبـاطن أو المنهج الـذى يحـدد معـنى العبودية لله وكيف يحققه الإنسان على نفســه فيقول :

(العبـــادة منقســـمة على القلب واللسـان والجـوارح ، والأحكـام الـتى للعبودية خمسة واجب ومستحب ومباح ومكروه ومحـرم ، وهن لكـل واحـد من القلب واللسان والجوارح) (1) .

* عبوديات القلب واللسان والجوارح :

القلب اللسان الجوارح

واجب مستحب مباح مكروه محرم

[شكل توضيحى لقواعد العبادة فى تصوير ابن القيم لها]

1- مدارج السالكين حـ 1 ص 109 .

ولكـل قاعـدة من هـذه الأعمـال الظـاهرة والباطنـة علم وفقـه وبيـان وفهم وحقيقـة ووجد ، ويـدل على صـحة كـل عمـل منهـا من الظاهر والباطن آيـات من القـرآن وأخبـار عن

الرسول صلى الله عليه وسلم علمه من علمه وجهله من جهله (1) .
*الغلو فى العبادة وموقف أوائل الصوفية منه :
وقد نزل كثير من أوائل الصوفية كثـيرا من أنـواع الأحكـام على سـبيل الحتم والإلـزام ، فجعل المستحب فى منزلة الواجب والمكـروه فى منزلـة المحـرم لا من حيث الرغبـة فى تبـديل الأحكـام والابتـداع فى دين اللـه ولكن من حيث التشـدد فى الوصـول إلى الحريـة والتحـرر من كـل مـا سـوى اللـه والعمـل فى مرضـاته على وجـه الاضـطرار ، وهـذا وإن دل على علـو الهمـة إلا أن المنهج النبـوى فى العبـادة فيـه مجـال للتنفيس وانسـجام مـع الضروريات يؤدى إلى القيام بما عهد به المـرء على نفسه .
يقول الشبلى : **(كنت فى أول بدايتى إذا غلبـنى النـوم أكتحـل بـالملح ، فـإذا زاد على الأمر أحميت الميل فأكتحل به)** (2) .
فهو يؤدى قيام الليل على أنـه ملـزم ، وإن أدرك أن حكمـه الاسـتحباب ، ولكنـه كصـوفى ينزل المندوب منزلة الواجب .

1- اللمع ص44 وانظـر فى تفصـيل هـذه الأركـان عنـد المحاســبى أعمــال القلــوب والجــوارح ، ورســالة المسترشدين .   2- اللمع ص 204 .

* الموقف النبوى : ووجه المخالفة يظهـر عنـده بحديث أنس رضى الله عنـه إذ قـال : **(دخل النبى صلى اللـه عليـه وسـلم المسـجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين فقال : ما هذا الحبل ؟**

قـالوا : هـذا حبـل لـزينب إذا فـترت تعلقت به .

فقال النـبى صـلى اللـه عيـه وسـلم : حلوه ليصـل أحـدكم نشـاطه فـإذا فـتر فليرقد) (1) .

ولو أمرها النبى بالاكتحـال لكـانت المشـقة الـتى يعـز على العبـد أن يـداوم عليهـا إلا على حساب التقصير فى أمور أخـرى سـوف تـؤدى إليها الضرورة الفطرية فى خلق الإنسان .

قال إبراهيم بن شـيبان للشـبلى : كم فى خمس من الإبل ؟ أى مقدار الزكاة فيها .

فقال الشبلى : فى واجب الأمر شـاة ، وفيما يلزمنا كلها .

1- أخرجه البخارى فى كتاب التهجد ، باب ما يكـره من التشديد فى العبادة برقم (1150) ومسـلم فى كتـاب صـلاة المسـافرين ، بـاب أمـر من نعس فى صـلاته أو

استعجم عليه القرآن أو الذكر بـأن يرقـد أو يقعـد حـتى يذهب عنه ذلك برقم (784) وأبو داود فى كتاب الصلاة ، باب النعاس فى الصلاة برقم (1312) وابن ماجه فى كتاب الصلاة ، باب ما جاء فى المصـلى إذا نعس بـرقم (1371) وأحمد فى المسند حـ3 ص101 .

فقال له إبراهيم : ألك فى هذا إمام ؟

قال : نعم أبو بكر الصـديق رضـى اللـه عنـه حيث خـرج من مالـه كلـه فقـال النبى صلى الله عليه وسلم : ما خلفت لعيالك ؟

فقال : الله ورسوله (1) .

ولا شك أن الضرورة قد تدعو المسـلم إلى التضحية بما يملك فى بعض الأوقات والأزمات كما فعل أبو بكر الصديق رضى الله عنه ولكن التضحية على الدوام وفى أوقات الرحـاء بكـل ما يملك مخالفة لسنة النـبى صـلى اللـه عليـه وسـلم لمـا ثبت عنـه من حـديث سـعد بن أبى وقـاص حيث قـال : **(جـاءنى رسـول اللـه صلى الله عليه وسلم يعودنى عام حجة الوداع من وجع اشتد بى .**

فقلت : يارسـول اللـه إنى قـد بلـغ بى الوجع ما ترى ، وأنا ذو مال ولا يرثـنى إلا إبنة لى ، أفأتصدق بثلثى مالى ؟

قال : لا .

قلت : فالشطر يارسول الله ؟

فقال : لا .
قلت : فالثلث يارسول الله ؟

1- اللمع ص210 .

قـال : الثلث والثلث كثـير ــ أو كبـير ـ إنك إن تذر ورثتك أغنيـاء خـير من أن تذرهم عالة يتكففـون النـاس وإنـك لن تنفـق نفقـة تبتغى بهـا وجـه الله إلا أجرت عليها حتى مـا تجعـل فى فى امــرأتك) (1) .

فلو كان خروجه من جميع المال فيه صلاح لــه لأمره النبى بذلك .

فالسـنة فيهـا مرعـاة للضـروريات بالقـدر الــذى يتناســب مـع ماهيــة الإنســان وتركيبــه الــذاتى ، فالإنســان لايعتــاد شــيئا إلا ويشــعر بالسآمة من تكراره ومزاولتـه فهى ضـرورة فطرية ترويضها يكون على الطريقة النبوية .

وقد جعل الله فطرة الإنسان ميدانا للربوبية ، وجعل المنهج النبوى ميدانا لتحقيـق العبوديـة على ما يسـتطيعه الإنسـان ويطيقـه ، ومن ثم كـان النـبى صـلى اللــه عليــه وســلم يتخــول أصــــحابه وهم خـــــير النــــاس فى خـــــير

1- أخرجه البخارى فى كتاب الوصايا ، باب أن يترك ورثته أغنياء برقم (2742) ومسلم فى كتاب الوصية ، باب الوصية بالثلث برقم (1628) والترمذى فى كتاب الوصايا ، باب الوصية بالثلث برقم (2117) والنسائى فى كتاب الوصايا ، باب الوصية بالثلث برقم (3656) وابن ماجه فى كتاب الوصايا ، باب الوصية بالثلث برقم (2708) .

القرون بالموعظة مخافة السآمة (1) .

وكان يقول لحنظلة بن الربيع رضى الله عنه : **(والذى نفسى بيده لو تدومون على ما تكونون عندى وفى الذكر لصافحتكم الملائكة على فرشكم وفى طرقكم ، ولكن ياحنظلة ساعة وساعة ثلاث مرات)** (2) .

وقال لعمرو بن العاص : **صم وافطر وقم ونم ، فإن لجسدك عليك حقا ، وإن لعينك عليك حقا ، وإن لزوجك عليك حقا .**

فلما قال عمرو : إنى أطيق أفضل من ذلك .

قال : لا أفضل من ذلك .

وقد صدق عمرو قول النبى فى آخر حياته لأنه لم يقو على ما

____

1- أخرجه البخارى فى كتاب العلم ، باب ما كان النبى صلى الله عليه وسلم يتخولهم بالموعظة والعلم كى لا

ينفروا برقم (68) ومسلم فى كتاب صـفات المنـافقين وأحكامهم ، باب الاقتصاد فى الموعظة بــرقم (1696) والترمــذى فى كتــاب الأدب بــرقم (73) وأحمــد فى المسند حـ1ص377 .
2- أخرجـه مسـلم فى كتـاب التوبـة ، بـاب فضـل دوام الذكر والفكر فى أمـور الآخـرة والمراقبـة وجـواز تـرك ذلك فى بعض الأوقات والاشتغال بالدنيا برقم (2750) والترمذى فى كتاب صـفة القيامـة بـرقم (2513) وابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب المداومة على العمل برقم (4239) وأحمد فى المسند حـ2 ص305.
كان يطيقه فى شبابه فقال :
قال النبى صـلى اللـه عليـه وسـلم : إنك لا تدرى لعلك يطول بك العمـر ، ثم قال : فلما كبرت وددت أنى كنت قبلت رخصة نبى الله صلى الله عليه وسلم (1) .
وقــال صــلى الــه عليــه وســلم فى شــأن المغــالين فى العبــادة : **(أمــا واللــه إنى لأخشــاكم للــه وأتقــاكم لــه ، ولكــنى أصـوم وأفطـر وأصـلى وأرقـد وأتـزوج النســاء ، فمن رغب عن ســنتى فليس منى)** (2) .
ومعلــوم أن الشــمولية فى فهم العبــادة وصف لا يلحق إلا من سلك السبيل النبوى فى كل متعلقات الحياة ، وعمل فى نظام الحكــام على ـــــــــــــــ

1- أخرجه البخارى فى كتاب الصوم ، باب صوم الـدهر برقم (1976) ومسـلم فى كتـاب الصـيام ، بـاب النهى عن صـوم الـدهر بـرقم (1059) وأبـو داود فى كتـاب الصوم ، باب فى صوم الـدهر تطوعـا بـرقم (2427) وأحمد فى المسـند حــ2 ص201 والنسـائى حــ2 ص 22 وابن حبان فى كتـاب الـبر والإحسـان ، بـاب الأمـر بإتيان الطاعات على الرفق من غـير تـرك حـظ النفس فيها برقم (352) والبيهقى فى سننه حـ3 ص16 .
2- أخرجه البخارى فى كتاب النكاح ، باب الـترغيب فى النكاح برقم (5063) ومسـلم فى كتـاب النكـاح ، بـاب استحباب النكـاح لمن تـاقت نفسـه إليـه ووجـد المؤنـة برقم (1401) والنسائى فى كتاب النكاح ، بـاب النهى عن التبتل حـ6 ص60 وأحمد حـ3 ص 241 ، والــبيهقى فى سننه حـ7 ص77 .

مـراد رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ، فــالتوازن قــائم ومنســجم فى كــل النــواحى المتعلقة بأحكام العبودية ، فإذا بـالغ العبـد فى آداء جانب سيظهر تقصيره فى جانب آخر دون أن يشعر ، فالطاقة والوسـع مجالهمـا محـدود وهمـا من أمـور القـدر الـذى يحكمنـا فى كـل وقت .

ومن ثم فإن بعض أوائل الصوفية لما بـالغوا فى تحقيــق العبوديــة وتكلفــوا أمــور الســعة والتخيير على وجه الإلـزام ، وأسـقطوا النظـر إلى الــدرجات الحكميــة الســابقة ، لم تطــرد المبالغـة ولم تنسـحب على مختلـف الأحكـام فـبرز جـانب على حسـاب آخـر ، ففى الـوقت

الــذى ظهــرت المغــالاة فى بعض العبــادات كالصــلاة والصــوم والــذكر وبعض النــواحى الأخــرى لم تظهــر همتهم فى تعبيــد الــدنيا واســتخلافها وإعــداد القــوة لإرهــاب العــدو والجهــاد فى ســبيل اللــه وتنظيم الروابــط الأسرية والاجتماعية بل أثروا الربـاط والخلـوة والسـياحة فى البـوادى وقـام بـالأمور الأخـرى غيرهم .

والقصــد من ذكــر هــذا الكلام التنبيــه على ضرورة اتباع السنة فى تحقيـق معـنى الحريـة والالتزام بمنهج العبودية بمختلـف أحكامـه وأن هـذا هـو الوضـع الأمثـل لتحقيـق السـعادة فى الدارين كما قـال سـبحانه : **{ فإما يـأتينكم منى هدى فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى ومن أعرض عن ذكـرى فـإن لـه معيشـة ضـنكا ونحشـره يـوم القيامـة أعمى }** (1) .

1- طه /123 .

وأن بعض أوائــل الصــوفية جعــل **العبوديــة اضطرارا لاختيار فيه** (1) .

أو كمـا قـال الآخـر : **(من ادعى العبودية وله مراد باق فيه فهو كاذب فى دعواه)** (2) .

* العبادة وتعلقها بالقلب واللسان والجوارح حال الغلــو :

الأمـــــــــــــــــــــــــر النهى

القلب اللســـــــــان الجوارح

1- قائل هذه العبارة هو عبد اللــه بن محمــد بن منــازل وكنيتــه أبــو محمــد صحب حمــدون القصــار وأخــذ عنــه طريقتــه وأســند الحــديث مــات بنيسابورســنة 329 هـ انظر طبقات الصوفية ص336 والرسالة القشيرية حـ1 ص163 وشذرات الــذهب حــ2 ص330 وانظــر فى قوله السابق طبقات الصوفية ص 368 .
2- القائل هو عبد الله محمد بن اسماعيل شيخ إبراهيم الخواص وإبراهيم بن شيبان عاش مائة وعشرين ســنة ومات على جبل الطــور بســيناء أســند الحــديث وتــوفى ســنة 299 هــ انظــر طبقــات الصــوفية ص242 حليــة الأوليــاء حــ1 ص335 والبدايــة والنهايــة حــ11 ص117 والمنتظم حـ6 ص113 وانظر فى قوله السابق طبقات الصوفية ص44 ، 245 .

يقصدون بذلك الالــتزام بــالأمر والنهى على ســبيل الحتم والإلــزام ســواء كــان الأمــر على ســبيل الوجــوب أو على ســبيل الاســتحباب والإباحـــة وســـواء كـــان النهى على ســـبيل

التحـريم أو الكراهـة ، وكـل ذلـك مغـالاة فى حب الله ليس إلا ، ورغبة منهم فى القرب منه والحصـول على مرضـاته وإن تنكبـوا الطريـق وأخطأوا فى ذلك .

وقد نبه السراج الطوسـى على أن كـل من ترسم برسوم هذه العصابة الصوفية ، أو أشار إلى نفسه بـأن لـه قـدما فى هـذه القصـة ، أو توهم أنه متمسـك ببعض آداب هـذه الطائفـة ، ولم يحكم أساسه على ثلاثة أشياء فهو مخدوع ولو مشى فى الهواء ونطق بالحكمة أو وقع له قبول عند الخاصة أو العامة وهذه الثلاثة أشياء :

- **أولها : اجتناب جميع المحارم كبيرهـا وصغيرها .**
- **والثانى :أداء جميع الفرائض عسـيرها ويسيرها .**
- **الثالث : ترك الدنيا على أهلها قليلهـا وكثيرها إلا ما لا بد للمؤمن منها .**

وهو ما روى عن النـبى صـلى اللـه عليه وسلم أنه قال : (أربعة فى الدنيا وليست هى من الدنيا :

1- كسرة تسد بها جوعتك .

2- وثوب توارى به عورتك .

3- وبيت تكن فيه .

4- وزوجة صالحة تسكن إليها (1) .

فأما سوى ذلك من الجمع والمنع والإمساك وحب التكاثر والمباهاة فجميع ذلك حجاب قاطع يقطع العبد عن الله (2) .

فلا يصح الدخول فى السعات إلا لمن قام فى الأسباب بحقوقها لا بحظوظها ، فإذا أذن الله لهم بالإنفاق أنفقوا ، وإذا أذن لهم بالإمساك أمسكوا ، فمن لم يعرف الإذن ولم يكن من أهل الكمال والنهايات غلط عند دخوله فى السعات بالغرور والتأويلات (3) .

ويشير السراج إلى غلط طائفة تعلقوا بالتقشف والتقلل واعتادوا الدون من اللباس والقليل من القوت ، وظنوا أن كل من رفق بنفسه أو تناول شيئا من المباحات أو أكل شيئا من الطيبات ، أن ذلك علة وسقوط من المنزلة ، وكل حال غير الحال الذى هم عليه عندهم ذلة

1- الحديث ورد بالمعنى فى مسند أحمد حـ1 ص168 وفى الحلية حـ1 ص388 وأخرجه الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد حـ12 ص 99 والبزار فى مسنده برقم (1412) والحاكم فى المستدرك حـ2 ص162 والطبرانى فى المعجم حـ1 ص329 والهيثمى فى مجمع الزوائد حـ10 ص 289 .

2- اللمع ص516،517 .

3- السابق ص523.

وقــد غلطــوا فى ذلــك ، لأن العلــة كائنــة فى التقشف والتقلل كما أن العلة كائنة فى الترفع والترفه) (1) .

1- السابق ص523 .

*** المبحث الثالث ***

المقامات الصوفية وإرادة الحرية

ترتبــط الحريــة فى الاصــطلاح الصــوفى بالعبودية ودرجتها فى الإنسـان فالعبوديـة هى الوجـه الآخـر للحريـة ، وتتجلى العبوديـة عنـد الصـوفية فيمـا يسـمى بالمقامـات والأحـوال ، فالمقامات تفسر لنـا منـازل الحريـة ودرجـات العبودية الـتى يمـر بهـا الصـوفى فى تجربتـه ،

فالمقام من الإقامة وهو عمل كسبى يقوم بــه العبد ويلتزم به لا يتجاوزه إلى مقام آخر إلا إذا استوفى شروط إقامته به (1) .
ويســـتمر العبـــد فى انتقالـــه بين منـــازل السـائرين كلمـا انتقـل إلى مـنزل جديـد علت عبوديتـه وازدادت حريتـه وقلت قيـوده إلى أن يصــل إلى آخــر مقــام للعــارفين عنــد أوائــل الصوفية وهو مقام الحرية .
قـال الجنيـد بن محمـد : **(الحـرية آخــر مقـام للعارف)** (2) .
ويمكن القـــول أن المقامـــات الصـــوفية درجات إيمانية تزيد وتنقص كما هو معتقد أهل السـنة والجماعـة فى الإيمـان ، وكـل درجـة إيمانية ثمثل بوجه آخر درجة الحرية التى عليها العبـد أو درجتـه فى عبوديـة اللـه ، فانتقالـه

1- الرسالة حـ 1 ص 204 .
2- السابق حـ 2 ص 461 .

بين هذه الدرجات يكون بقدر المجاهدة وبـذل الهمة فى الترقى إلى أعلى مقام ممكن .
أمـا الأحـوال الصـوفية فهى عنـدهم ثمـرة للجهـد الكسـبى المبـذول فى المقامـات وهى لوائح تحل بالقلب وسـرعان مـا تـزول ولكنهـا من العوامل المسـاعدة لتخطى الـدرجات فى المقامـات وانتقـال العبـد من مقـام إلى مقـام

أعلى فهى كـــالمرجح الـــداعى إلى الانتقـــال والتدرج .
يقـول الجرجـانى : **(الحـال عنـد أهـل الحق معنى يرد على القلب من غـير تصنع ولا اجتلاب ولا اكتساب من طرب أوحـــزن أو قبض أو بســـط أو هيبـــة ويـزول بظهـور صـفات النفس ، فـإذا دام وصـــار ملكـــة يســـمى مقامـــا ، فالأحوال مواهب والمقامات مكاسـب ، والأحـــوال تـــأتى من عين الجـــود والمقامات تحصل ببذل المجهود)** (1) .
ويذكر ابن القيم أن هذه المقامات الـواردة والمنازل المتعددة لها عندهم أسـماء باعتبـار أحوالها ، فتكون لوامـع وبـوارق ، ولـوائح عنـد ظهورها كما يلمع البرق ، ويلوح عن بعد ، فإذا نازلته وباشرها فهى أحوال ، فـإذا تمكنت منـه وثبتت له من غير انتقال فهى مقامات (2) .

1- التعريفات لعلى بن محمد بن على الجرجانى طبعـة مصطفى الحلبى القاهرة سنة 1938م ص 145 .
2- مدارج السالكين حـ 1 ص 35 .

ويرى السراج الطوسى أن المقام هو مقام الرجل بظاهره وباطنه فى حقـائق الطاعـات ، والحال ينزل بالقلوب فلا يـدوم ، وليس الحـال من طريق المجاهدات والعبادات كالمقامـات ،

ولكنـه ثمـرة إيمانيـة واستشـعار بحلاوة الجهـد الإيمانى المبذول فى سلم المقامات (1) .
ويمكن حصـــر آراء أوائـــل الصـــوفية فى مبحث المقامـات واتجاهـاتهم فيهـا ثم ترتيبهـا بصورة تقريبية إلى حـد مـا فى ظـل تقسـيمها إلى المقامات الآتية :
[1] - التـــــــوبة : فهى أول منـــازل الطريـــق عندهم ، وأول مقام من مقامات الطالبين فى تعبـير القشـيرى (2) وأول مقـام من مقامــات المنقطعين إلى اللــه فى تعبــير الســراج الطوســى (3) ويجعــل الهــروى اليقظة فى مقدمة التوبة ، فهى قومه للـه من الغفلــة ، ونهـوض عن ورطــة الفــترة وهى أول مــا يســتنير قلب العبــد بالحيــاة لرؤية نور التنبيه (4) .

1- اللمع ص 66 .
2- الرسالة حـ1ص 275 .
3- اللمع ص 68 .
4- مدارك السالكين حـ 1 ص 178 .

وإذا كــانت التوبــة فى لغــة العــرب تعــنى الرجـــوع (1) أى الرجـــوع عن المـــذموم فى الشــرع ، فـإن الرجـوع لا يكـون إلا بعـد تيقـظ لسوء ما وصل إليه الإنسـان وإدراك لضـرورة التغيــير ، وإحســاس بالحاجــة إلى هــذا التغــير

وبمقدار ما تشتد الحاجة تكون سرعة الرجــوع واللهفة على النجاة .

والقشـيرى أدخـل اليقظـة ضـمن محتـوى التوبــة وفى بدايــة مراحلهــا يقــول : **(أول التوبـة انتبـاه القلب عن رقـدة الغفلـة ورؤية العبد ما هو عليـه من سـوء الحال ، أما التوبة فبـدايتها الحقيقيـة ، النــدم وتــرك الزلــة فى الحــال والعــزم على ألا يعـــود إلى مثـل مـا عمل من المعاصى)** (2) .

ويمكن القول أن التوبة هى نقطـة الانطلاق والبـدء للسـير فى طريــق الحريــة ، والــركن الأساسى فيها حـل عقــدة الإصرار عن القلب ، ثــم القيـام بجميـع حقـوق الأمـر على وجـه الاستقصاء (3) .

ويقـول الطوسـى فى تعلقـات التوبـة الـتى يتحرر منها بتركها :

(شتان بين تـائب وتـائب فتـائب يتـــوب عن الـــذنوب والســـيئات

1- المفردات للراغب الأصفهانى ص 76 .

2- الرسالة حـ 1 ص 276 .

3- السابق حـ 1 ص 277 .

وتائب يتوب من الزلل والغفلات وتائب يتـــوب من رؤيـــة الحســـنات والطاعـات) (1) .

والتوبة مع كونهـا أول مقـام من المقامـات عنـدهم إلا أنهـا لا تـزول بالانتقـال إلى مقـــام آخر ولكنها محمولة معه ضـمنا مجموعـة تحت لوائه وهكذا القول فى سائر المقامات ، فكل مقـام يحمـل فى طياتـه المقامـات السـابقة ، ومن ثم فقـد اعتــبر ابن القيم منزلــة التوبــة أوسط المنازل وآخرها كما أنهـا أولهـا ، وذلـك لأن العبد السالك لا يفارقها ولا يـزال فيهـا إلى الممات ، وإن ارتحل إلى مـنزل أو مقـام آخـر ارتحل به واستصحبه معه ونـزل بـه يقـول ابن القيم :

(فالتوبة هى بداية العبد ونهايته وحاجته إليها فى النهاية ضرورية كمـا أن حاجته إليهـــا فى البدايـة كـذلك) (2) .

ودليـل ذلـك عنـده مـا قالـه الحـق سـبحانه وتعالــى مخاطبا المؤمنيـن التائبيــن :

{ وتوبـــوا إلى اللـــه جميعـــا أيهـــا المؤمنون لعلكم تفلحون } (3) .

1- اللمع ص 69 .

2- مدارج السالكين حـ 1 ص 178 .

3- النور / 31 .
وقـال أيضا : **{ يا أيها الذين آمنـوا توبـوا إلى الله توبة نصوحا }** (1) وإنما أراد من التائبين الاستمرار فى التوبـة عنـد الـترقى فى سلم المقامات (2) .
ومن ثم فإن التوبة مفتاح باب المقامـات ، فتوجب للتائب آثارا عجيبـة لا تحصـل بـدونها ، فتوجب له من المحبة والرقة واللطـف وشـكر الله وحمده ورضا عنه عبوديات أخـر ، فإنه إذا تـاب إلـى الله تقبل الله توبته ، فرتب له على ذلك القبول أنواعـا من النعم ، لا يهتـدى العبـد إلى تفاصـيلها ، بـل يـزال يتقلب فى بركتهـا وآثارها مالم ينقضها ويفسدها (3) .
وفى هذا يقول تعالى عن نوح عليه السلام وهـو ينصـح قومـه بالتوبـة لكـثرة بركاتهـا : **{ فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا يرسل السماء عليكم مـدرارا ويمـددكم بأموال وبنين ويجعل لكم جنات ويجعل لكم أنهارا }** (4) .

1- التحريم / 8 .
2- السابق حـ 1 ص 178 .
3- مفتـاح دار السـعادة ومنشـور ولايـة العلم والإرادة لابن القيم الجوزيـــة حـ 1 ص294 مكتبـــة المتنـــبى القاهرة بدون تاريخ .
4- نوح / 9 : 12 .

والتـائب عليـه أن يعيش فى صـراع دائم مـع نفسه ، دون أن يكون الجسد موضع احتقـار أو تعـذيب أو إهانـة ، فلـه أن يباشـر مـا احلت الشريعة من زواج ونسل وغير ذلك (1) .

وربمـا يصـيب التـائب فى بدايتـه أن ينتابـه اليأس إذا حدث أن عاد إلى المعصية ذات مرة فينبغى ألا يقنط فى حمـل إرادتـه على تجديـد التوبة مرة بعد مرة لـيرد الانتكاسـة ويبـدأ من جديد فالرسول صلى الله عليه وسلم هو سـيد العابدين التائبين ومع ذلك يقول : **(إنه ليغان على قلـبى فأسـتغفر اللـه فى اليـوم سبعين مرة)** (2) .

فكان من سنته صلى اللـه عليـه وسلم دوام الاستغفار (3) .

فإذا استوفى العبد مقام التوبة ووصـل إلى نهاية الطريق فيه انتقل إلى المقام الـذى يليـه وهو مقام الورع .

1- الرسالة حـ 1 ص 277 .

2- أخرجـه مسـلم فى كتـاب الـذكر والـدعاء ، بـاب استحباب الاستغفار والاسـتكثار منـه بـرقم (3702) وأبو داود فى كتاب الصلاة ، باب فى الاستغفار بـرقم (1515) والنسائى فى عمل اليوم والليلـة بـرقم (442) وأحمـد فى المسـند حـ 4 ص 260 والطبرانـى فـى المعجـم برقـم (888) .

3- الرسالة حـ 1 ص 287 .

قال السراج الطوسى : **(والتوبـة تقتضـى الورع)** (1) .

وفى انتقاله إلى الورع يستصحب معـه مقـام التوبـة ويـرتقى درجـة فى طريقـه إلى مقـام الحرية .

[2] - الــــورع : وهومقـام بين التوبـة والزهـد ، فبعـد أن سـلم المـرء نفسـه للـه بالتوبـة الصادقة والأسـى على مـاض ضـاع منـه فى معصية الله يعزم عزما أكيدا على تجنب مــا حرم الله والتمسك بما أحـل وأبـاح وبعدئـذ يـرتقى درجـة إيمانيـة أخـرى وهى أن يعتـاد قياس الحلال والحرام بمقاييس فيها تشـديد وقـوة هـذه المقـاييس هى مقـاييس الـورع فليس كـل الحلال فى نظـر الـورع سـواء ، فهنـاك حلال لا يعصـى اللـه فيــه وحلال لا ينسى اللـه فيـه ، وهنـاك حلال بين ، وحلال فيه اشتباه وينبغى على العبد أن يتــورع عن كل ما فيه دخن (2) .

فـالورع هـو الأسـاس والأصـل وعليـه يـدور الأمـر كلـه وهـو أعـز الصـفات وأجلهـا وأولاهـا بالرعايـات وهـو أجـدرها ، لأنـه وصـف ذاتى لا يمكن اسـتعارته أو الوصـول إلى تحصـيله من جهة الغير (3) .

1- اللمع ص 70 وانظر الرسالة حـ 1 ص 287 الصـدق لأبى سعيد الخراز ص 29
2- الرسالة حـ 1 ص 287 بتصرف .
3- فضـــائح الباطنيـــة لأبى حامـــد الغـــزالى ص 187 بتصرف تحقيق وتقديم د . عبـد الـرحمن بـدوى ، نشـر الدار القوميـة للطباعـة والنشـر بالقـاهرة سـنة 1383 هـ .

* الورع درجات فى موطنه :

ويقسـم السـراج الطوسـى الـورع إلى ثلاث مراحل ذاتية يقطعها الصوفى لينتقل من مقام التوبة إلى مقام الزهد (1) :

- **أولهـا** : تـورع عن الشـبهات الـتى اشـتبهت عليه وهى ما بين الحرام البين والحلال البين وفيهـا قولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم : **(الحلال بين والحـرام بين وبينهمـا أمـور مشـتبهات لا يعلمهـا كثـير من النـاس فمن اتقى الشـبهات فقـد استبرأ لدينـه وعرضـه ومن وقـع فى الشـبهات فقـد وقـع فى الحـرام كالراعى يرعى حول الحمى يوشـك أن يقع فيه)** (2) .

ثانيهـــا : تورع عما يقف عنده القلب ويؤلم الصدر ، فـإذا حـاك فى صـدره شـئ لم يقـدم على إتيانه يقول السراج : **(وهذا لا يعرفـه إلا**

1- اللمع ص 70 ، 71 بتصرف .
2- أخرجه البخارى فى كتاب الإيمان باب فضل من استبرأ لدينه وعرضه برقم (52) وأخرجه مسلم فى كتاب المساقاة ، باب أخذ الحلال وترك الشبهات برقم (1599) وأبو داود فى كتاب البيوع ، باب فى اجتناب الشبهات برقم (3329) والنسائى فى كتاب البيوع باب اجتناب الشبهات فى الكسب حـ 7 ص241 وابن ماجه فى كتاب القتن ، باب الوقوف عند الشبهات برقم (3984) وأحمد فى مسنده حـ 4 ص 269.

أرباب القلوب والمتحققون) (1) .

وهو كما يروى عن النبى صلى الله عليه وسلم : **(والإثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس)** (2) .

فالرسول جعل الإنسان حارسا على نفسه ومصدرا من مصادر الرقابة على ذاته ومميزا للحلال والحرام ، إضافة إلى ما سبق فى المرحلة الأولى من مقاييس التميز المنقولة والمعقولة .

- **ثالثها** : تورع عن كل ما شغل عن الله وهو ما سئل عنه الشبلى

فقيل له : يا أبا بكر ما الرع ؟

فقال : أن تتورع ألا يتشتت قلبك عن الله طرفة عين (3) .

فإذا ألف العبد بمرور الأيام هذا اللون من التربية المتفوقة فى مراحل الورع أمكن عند ذلك أن يدخل فى صف الزاهدين حيث الدنيا

بأسرها لا تساوى شيئا ، فـالقلب متعلـق باللـه ومجمـــــوع على طاعتـــــه ، وهنـــــا يكـــــون

1- اللمع ص70 .
2- أخرجه مسلم فى كتاب الـبر والصـلة ، بـاب تفسـير البر برقم (2553) والترمذى فى كتاب الزهد ، باب مـا جاء فى البر والإثم برقم (2389) وابن حبان فى كتـاب البر والإحسـان ، بـاب الإخلاص وأعمـال السـر بـرقم (397) وأحمد فى المسند حـ 4 ص 182 والبيهقــى فى سـننه حـ 10 ص 192 وأبــو نعيم فى الحليــة حـ 2 ص 3 .
3- اللمع ص 71 .

المرء قد ارتقى درجة أخرى فى طريق الحرية عند أوائل الصـوفية فيستصـحب مقـام الـورع بما حمل من التوبة إلى مقام الزاهدين .
قــــال الســــراج الطوســــى : **(والــــورع يقتضـى الزهد)** (1) .
[3] - الزهـــــــــــد :
هـــو أشـــهر المقامـــات الصـــوفية لأنـــه يتوسطها (2) فهو بمثابـة المرحلة الوسـط فى طريق الحرية ، فكل ما سبقه من تيقظ وتوبـة وورع يجعل العبد طموحـا فى التخلى عن متـع الــدنيا والتقليــل من طيبهــا رغبــة فى تصــفية النفس ، وكل ما يتلوه من صبر وتوكـل ورضـا هى بمثابة الضمانات التى تحفظ هذه النتيجة ، وقــد نتج عن توســط الزهــد للمقامــات أنــه

احتوى معانيها جميعـا ، حـتى سـلك كثـير منهم فى تعريفه سبلا مختلفـة ، أشـبه بـدرجات فى ميدانه أكثر من كونها اختلافا فيه .

فكـل تعريـف يعـبر عن المنزلـة الـتى يقـف عندها الصوفى أو التى تشد اهتمامـه أكـثر من غيرهـا ، فمـرة يعـرف بالزهـد بالتوكـل ومـرة بالرضا ومرة بالشكر أو الصبر (3) .

1- السابق ص 71 .

2- مـدخل إلى التصـوف الإسـلامى للـدكتور أبـو الوفـا التفتازانى ص 60 .

3- الرسالة القشرية حـ 1 ص 325 : 330 .

فالزهـد يتسع لكثـير مــن المعـانى ويتقبـل العديد من وجهــات النظر وأصوب الآراء فيــه ما كان مرتبطا بفهم الكتاب متسقا مـع السـنة ملاصقا للدليل .

ويرى المحاسبى أن الزهد لا يعنى الســلبية فى مواجهة الحياة ، فالحياة دار ابتلاء وامتحان يخوض المرء فيها تجارب متعـددة يقلبهـا اللـه له فى كل وقت ، فالغنى قد يكـون زاهـدا فى غناه والفقير قد يكون راغبا حال فقره (1) .

فالغنى الصادق المطيع خازن من خزان الله ليس حبسه للأمـوال ضـنا بهـا وحرصـا عليهـا ، فهـو زاهـد وإن كـثر عنـده المتـاع ، فالرسـول صلى الله عليه وسلم نال حظوظا تسعد وتبهج

من الـزواج واللبس والمظهـر وكـان يسـتدين لحوائجه ويرهن فى مقابل الدين ويأكـل اللحم والحلوى وغير ذلك من المباحات وكان صلى الله عليه وسلم قدوة للزاهـدين لا زهـد يفـوق زهده (2) .

يقـــول المحاســـبى : **(واعلم أن محبـــة الغنى مع اختيـار اللـه لعبـده الفقـر تسخط ومحبـة الفقـر مـع اختيـار اللـه لعبــــده الغـــــنى جــــور ، وكــــل**

1- أعمال القلوب والجوارح ص 44 .
2- صيد الخاطر لابن الجوزى ص 27 مطبعة دار الفكـر بدمشــق ســوريا ســنة 1380 وانظــر الــرزق الحلال وحقيقة التوكل على الله ص 101 : 109 .

ذلـك هــرب من الشـكر لقلـة المعرفـة وتضييع للأوقـات من قصـر العلم) (1) .

ويذكر المحاسبى أنه لا يأمر بالشبع فالزهـد واجب فيـه ، ولكنـه يحـرم الجـوع الـذى ينهـك القوى ويضـعف الجسـد ، فـإذا ضـعف الجسـد ضعفت العبادة (2) .

فمن دعا الناس إلى الجوع فقد عصى اللــه سبحانه وتعالى ، فالله رغب فى الصوم ، وقــد فــرض رمضــان على نبيــه ولم يفــرض عليــه

الجوع ولا العطش فالذى ينال جوعا أو عطشا بلا صوم فليس بمأجور (3) .
فالزهد عند المحاسبى عبودية وتربية روحية من خلال المعرفة والالتزام بالأحكام التكليفية (4) وهو مرتبط عند المحاسبى بالمقام السابق وهو مقام الورع ، فالورع ليس سوى مرتبة فى تدرج القيم الروحية تعلوه

1- رسالة المسترشدين ص 163 .
2- تلبيس إبليس لابن الجوزى ص 216 نشر دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان بدون تاريخ .
3- المسائل فى الزهد للحارث المحاسبى ص 227 .
4- فصول فى التصوف للدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعى ص 105 نشر دار الثقافة للنشر والتوزيع القاهرة سنة 1991 ، 1992 .

مرتبة أخرى هى الزهد ، فمحاسبة النفس لتمييز الحلال الطيب من الحرام أو المشتبة فى أمره عمل لا جدال فيما يعود به من نفع على العبد ولكن خيار منه أن يترك العبد الدنيا ويزهد فيها .
فالدنيا ليست سوى بلاء لا عودة إليه والاشتغال بالدنيا ابتعاد عن الله والتحرر من الدنيا وسيلة إلى التقرب من الله والتفرغ لعبادتة فلا قيمة لها فى الحقيقة ولذا وجب الزهد فيها (1) .
* الزهد عند أبى سعيد الخراز :

لا تختلـف نظـرة الخـراز عن نظـرة المحاسبى للزهـد ، فـالقلب الزاهـد هـو الـذى استحيا من اللـه أن يـرى نفسـه خادمـا للـدنيا فضن بنفسه على خدمتها ، فرمى بها عن قلبه وأعتق نفسه من رق عبوديتها واعتز أن يكــون خادما لهـا بعـزة العزيـز الـذى أعـزه بـالاعتزاز عنها (2) .

فإذا كانت حريته منها تزيده قربـة وعبوديـة لله ، كانت الدنيا طوع يديـه لا تـؤثر فيـه مهمـا بلــغ عنــده مقــدارها ، لأن قــانون الإخضــاع والاستعلاء عليها سيسرى فى هذه الحالة على الـذهب والحجـر فيسـتويان فى نظـر المـؤمن وهـذه الحقيقـة يعـبر عنهـا أبـو سـعيد بقولـه : **(لايكون العبـد زاهـدا مسـتكمل الزهـد حتى يستوى عنـده الحجـارة والـذهب ، عندها**

____

1- استاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبى للـدكتور عبد الحليم محمود ص 293 .

2- الصدق لأبى سعيد الخراز ص 43 .

تخرج قيمة الأشياء من قلبه) (1) .

وذلك أخذا من قوله صـلى اللـه عليـه وسـلم : **(مــا يســرنى أن لى مثــل أحــد ذهبــا أنفقـه فى سـبيل اللـه تعـالى ، تـأتى على ثالثـة يكـون منـه عنـدى شـئ إلا دينار أرصده لدين على)** (2) .

فمن ملك من أهل العمل والصدق شيئا من الدنيا فهو معتقد أن الشئ لله عز وجل لا له ، وأن الله خوله فيه وهو مبلى به حتى يقوم بالحق فيه ، فالنعمة بلاء حتى يقوم العبد بالشكر فيها ويستعين بها على طاعة الله ، وكذلك البلوى والضراء اختبار وابتلاء حتى يصبر ويقوم بحق الله فيه (3) .

فالأنبياء صلوات الله عليهم والصالحون من بعدهم الذين أشعرهم الله بأن أبلاهم فى الدنيا بالسعة وخولهم ، كانوا إلى الله عز وجل

1- السابق ص 32 .

2- أخرجه البخارى فى كتاب الرقاق ، باب قول النبى صلى الله عليه وسلم : **(ما يسرنى أن عندى مثل أحد ذهبا)** برقم (6445) ومسلم فى كتاب الزكاة ، باب تغليظ عقوبة من لا يؤدى الزكاة برقم (991) وابن ماجه فى كتاب الزهد ، باب فى المكثرين برقم (4231) وابن حبان فى كتاب الزكاة ، باب جمع المال من حله وما يتعلق بذلك برقم (3213) وأحمد فى المسند حـ 2 ص 467 وانظر السابق ص 44

3- السابق ص 33 .

ساكنين لا إلى الشئ وكانوا خزانا لله جل ذكره فى الشئ الذى ملكهم ينفذونه فى حقوق الله تعالى غير مقصرين ولا مفرطين ولا متأولين على الله ، وكانوا غير متلذذين بما

ملكـوا ولا مشـغولى القلـوب بمـا ملكـوا ولا مستأثرين به دون عباد الله (1) .

* الزهـد عنـد المكـى : أمـا المكى فيسـتند فى معرفة الزهد فى الدنيا إلى مفهـوم الـدنيا فى القرآن الكريم فيقـول : **(لا يمكن لعبـد أن يعرف الزهد حتى يعرف الدنيا أى شـئ هى فقد قال النـاس فى الزهـد أشـياء كثيرة ، ونحن غـير محتـاجين إلى ذكـر أقـوالهم بمـا بين اللـه تعـالى وأغـنى بكتابه الذى جعل فيه الشفاء والغنى)** (2) .

ويعتمـــد المكى فى معرفـــة الـــدنيا على مجموعة من الآيات يخـتزل فيهـا أوصـاف كـل آية ثم يسلمها إلى آية أخرى إلى أن يصـل إلى وصف واحد يبين حقيقــة الدنيا .

1- الآية الأولى : **{ زين للناس حب الشهوات من النســـاء والبـــنين والقنـــاطير المقنطرة من الذهب والفضـة والخيـل المسومة والأنعـام والحـرث ذلـك متـاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المـآب }** (3) .

1- السابق ص 34 .

2- قوت القلوب حـ 1 ص 245 .

3- آ ل عمـــران / 14 .

فهذه سبعة أوصاف هى جملة متاع الدنيا ، ومـا تفـرع من الشـهوات رد إلى أصـل من أصـول هـذه الجمـل ، فمن أحب جميعها فقـد أحب جملـة الـدنيا ومن أحب أصـلا منهـا أو فرعـا من أصـل فقـد أحب بعض الـدنيا (1) .

يقول المكى : **(فعلمنـا بنص كلام اللـه أن الشهوة دنيا ، وفهمنـا من دليلـه أن الحاجـات ليسـت بـدنيا لأنهـا تقـع ضرورات ، فإذا لم تكن الحاجة دنيـا دل أنهـا لا تسـمى شـهوة وإن كـانت قـد تشتهى)** (2) .

2- الآيـة الثانيـة : **{ اعلمـوا أنمـا الحيـاة الدنيا لعـب ولهـو وزينـة وتفـاخر بينكم وتكاثر فى الأمـوال والأولاد }** (3) فـرد الأوصاف السبعة إلى خمسة معان .

3- الآيـة الثـالثـة : **{ إنمـا الحيـاة الـدنيا لعـب ولهـو }** (4) فاختصـر الخمسـة فى معنين منهما جامعان .

4- الآيـة الرابعـة : **{ وأمـا مـن خـاف مقـام ربـه ونهـى النفس**

1- السابق حـ 1 ص 245 .
2- السابق حـ 1 ص 246 .
3- الحديد / 20 .

4- محمد / 36 .

عن الهــوى } (1) .

فصارت الدنيا طاعــة النفس للهــوى ، فمن نهى نفسه عن الهوى فهو لم يؤثر الـدنيا ، وإذا لم يؤثر الدنيا فهـذا هـو الزاهـد الـذى لا يفـرح بعاجل موجود من حـظ النفس ولا يحـزن على مفقود من ذلـك ، يأخـذ الحاجـة من كـل شـئ عند الحاجة إلى الشئ ، ولا يتناول عند الحاجة إلا سـد الفاقــة ، ولا يطلب الشــئ قبـل الحاجـة ، فـأول الزهـد دخـول غم الآخـرة فى القلب ثم وجـود حلاوة المعاملـة للـه تعالــى ، ولا يدخل هم الآخرة حتــى يخـرج هـم الدنيـــا ولا تدخـــل حـــلاوة المعاملـــة حتـــى تخـرج حـلاوة الهــوى (2) .

وإذا كــان رأى أغلب المشــايخ من أوائــل الصـوفية فى مسـألة الزهـد معـبرا عن الزهـد فى الإسلام فإن بعضهم جعل الزهد فى صورة تبرز نوعا من الغلـو والرهبانيـة الـتى لم تكتب علينا فخلـط بين الاسـتمتاع بنصـيب من الـدنيا لســد الضــروريات وبين التكــالب عليهــا ممــا دفعهم إلى التنحى عنهــا وضــرورياتها بالكليــة وأســاءوا لا إلى التصــوف وحســب بــل إلى روح الإسلام .

1- النازعات /40 .
2- السابق حـ 1ص 246 .

فهـذا أبـو بكـر الشـبلى ربمـا يلبس الثيـاب المثمنة ثم ينزعها ويضـعها فـوق النـار أو يأخـذ السكر واللوز ويحرقهما بالنار (1) .

وهـذا أبـو الحسـين النـورى يأخـذ ثلاثمائـة دينار ثمن عقار بيع له ثم يصعد قنطرة ويرمى بها واحدا واحدا إلى الماء قائلا : **حبيبى تريد أن تخدعنى منك بمثل هـذا** (2) وغيرهمـا ممن وضعوا النـواة الـتى أنبتت أشـكالا غريبـة وبدعا عجيبة فى الزهد والتصوف .

وقد رأينا كيف نهى الرسول صلى الله عليه وسـلم عن الغلـو والمسـالك المتشـددة الـتى التزم بهـا الملـتزمون ، وأنـه رأى فى تعـذيبهم لأبـــدانهم وفى عـــزوفهم عن الـــزواج والنـــوم والطعام رهبانية لا تمثل روح الـدين ولا تمتثـل لـــه فلم يحمس على ذلـــك ونهى عنـــه ، لأن أبسط نتائجـه أن يزبـل العـود وينحـل الجسـم وتضعف القوة فيقعد الإنسان عن العمل ويمـد يده بالسؤال تـرده اللقمـة واللقمتـان ، **ونحن نـرى فى عصـرنا اجتماعـا لمثـل هـذه**

النوعيـة حـول المسـاجد والأضـرحة لا يعملـــــون ولا يضـــــربون فى الأرض بالســـعى على أرزاقهم ومعاشـــهم ، متظـاهرين بالتنسـك والتعبـد مـدعين التزهـد والتصـوف حيث أصـبحوا عالـة على

1- اللمع ص 483 .
2- السابق ص 493 .

المجتمـع ووصـمة عـار على الإسـلام والتصـوف فهـل تكـون الزهـادة على حساب الكرامة ؟

لا ... مـا هكـذا أراد مشـايخ الصـوفية الأوائل أو دعى الإسـلام وكـل مـا أرادوه أن يعرف المؤمن الدنيا وأن يعلم أنها دار فنـاء فيقطـع الطمـع فيهـــا ودار ابتـــلاء فيقاومهــا بالمجاهـدة والفلاح فيهـا ومحاولـة التحـرر من قيودها وعوائقها .

فإذا قطع الصوفى عنـدهم مرحلـة الزهـد فى رحلـــة الحريـــة انتقـــل إلى مقـــام الصـــبر مستصحبا ما سبق من المقامات .

[4] - الصبـــــــــر :

فعندما يزهد الانسان فيما سوى الله يكون قد قطع منتصف الطريق ولهذا كان لازما أن توضـع إرادتـه على المحـك وأن يختـبر مـدى احتمالـه لمشـقة الرحلـة فالرحلـة قـام بهـا الكثير ، ولكن القليل هم الـذين اسـتمروا فيهـا ووصلوا إلى منتهاهـا .. إلى مقـام الحريـة وإن كان صعبا ، ولكن بمقدار صـعوبة المسـير فيـه يكون الشعور بقيمة الحرية .

والبلايا التى تلم بالعبـد لا تقصـد لـذاتها ولكن لاختبـار مـدى القـدرة على الاحتمـال ولتجديـد العزيمة وشحذ الهمة على مواصلة السـير فى طريق التقوى قال تعالى :

{ لـــن ينـــال اللـه لحــومهــــا ولا دمـــاؤها ولكـــن ينـــاله التقــوى منكــم } (1) .

يقول الخواص (2) :

(الصبر هو الثبات على أحكام الكتاب والسنة) (3) .

وقال عمرو بن عثمان المكى (4) :

(الصبر هــو الثياب مـع الله سبحانه وتعالى وتلقـى بلائه بالــرحب والــدعة) (5) .

1- الحج / 37 .
2- هــو أبــو اسـحاق إبـراهيم بن أحمــد بن إسـماعيل الخــواص من أقــران الجنيــد والنــورى لــه سـياحات ورياضات وباع كبير فى التصوف ، مات فى جامع الرى سنة 291 هـ انظر حلية الأولياء حـ 1 ص 325طبقـات المنــاوى ص 184 ، تــاريخ بغــداد حـ 6 ص7 طبقــات الشعرانى حـ 1 ص 325 صفة الصفوة حـ 4 ص 80 .
3- الرسالة حـ 1 ص 455 .
4- هــو أبــو عبـد اللــه عمــر بن عثمــان بن كــرب بن غصص ، صحب الجنيد وأبا سـعيد الخـراز وغيرهمـا من المشايخ ، له كلام حسـن فى الزهـد والتصـوف ، مـات ببغداد سـنة 297هــ انظـر تـاريخ بغـداد حـ 2 ص 223 شذرات الذهب حـ 2 ص 225 حليـة الأولياء حـ 10 ص 291 طبقــات الشــعرانى حـ 1 ص 104 المنتظم حـ 6 ص 93 صفة الصفوة حـ 2 ص 248 .
5- الرسالة حـ 1 ص 455 .

* والصبر له درجات فى موطنه :

[1] - أولهـــا : الصبر على آداء فرائض الله تعالى على كـــل حـــال فى الشـــدة والرخـــاء والعافية والبلاء طوعا وكرها .

[2] - ثانيهــا : الصبر عن كل مـا نهى اللــه تعـالى عنه ، ومنع النفس من كل ما مالت إليــه

بهواها مما لا يرضى الله وهذه الدرجة وما سبقها هما فرض على العباد أن يعملوا بهما .
[3] - ثالثها : الصبر على النوافل ، وأعمال البر وما يقرب العبد إلى الله تعالى فيحمل نفسه على بلوغ الغاية للذى رجاه من ثواب الله عز وجل .
[4] - رابعها : الصبر على قبول الحق ممن جاء به من الناس ودعا إليه بالنصيحة فيقبل منه ، لأن الحق رسول من الله جل ذكره إلى العباد ولا يجوز لهم رده فمن ترك قبول الحق ورده فإنما يرد على الله تعالى أمره .
[5] - خامسها : الصبر على احتمال مكروه النفس فإذا وقع بها ما تكرهه تجرع العبد ذلك وترك البث والشكوى وكتم ما نزل بها كما قال تعالى : **{ والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس }** (1) .

فالعبد كتم ما كره وشق على نفسه احتماله فصار بذلك صابرا (2) .

فالصبر درجات يقطع الصوفى فيه أشواطا يلتزم فيها بالثبات والثقة مع الله وهو مقام صعب المنال سريع الزوال إلا على من ثبت الله قلبه .

يقول الجنيد بن محمد :

(المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن ، وهجران الخلق فى طاعة الله تعالى شديد ، والمسير من النفس إلى الله تعالى صعب شديد ، والصبر مع الله أشد) (3) .

فالله إذا ابتلى العبد بقدر مفاجئ فيه ألم وبلوى ثم ثبت عند أول الصدمة ولم يهتز وتجرع البلاء من غير شكوى ولم يعترض بقلبه على قضاء الله وقدره فإنه يصل بذلك إلى منتهى المقام فى الصبر (4) .

وفى هذا يقول النبى صلى الله عليه وسلم : **(إنما الصبر عند**

1- آل عمران / 134 .

2- انظر فى درجـات الصـبر كتـاب الصـدق لأبى سـعيد الخراز ص 19 : 21 بتصرف
3- الرسالة حـ 1 ص 454 .
4- السابق حـ 1 ص455 .

الصدمـــة الأولى) (1) .
فإذا صبر على بداية البلوى فإن مـا بعـدها يقويه ويثبته ويزيـد من عبوديتـه وبـذلك يقطـع مرحلة أخرى فى طريـق الحريـة ينتقـل بعـدها إلى تفـويض الأمـور للـه لعلمـه بـأن الحادثـات كلهـا حاصـلة من اللـه تعـالى ولا يقـدر على الإيجاد غيره .
[5] - التوكـــــــــــل :
وهـــو الاســتعانة باللـــه فى الثبـــات على طـــريق الحريـة ، فيختـار اللـه وكيلا لـه ولن يكـون هـذا إلا بقطـــع العلائــق عن الــدنيا والخلائق والخلــوص منها إلى الثقة التامـة فى كفيلـــه ووكيلـــه حيث يتـــولى اللـــه أحوالـــه ويصرفها على ما يشـاء ويختـار (2) وإذا تـولى أمر عبد بجميل عنايته كفاه كـل شـغل وأغنـاه عن كل غير ، فلا يستكثر العبد حوائجـه لعلمـه أن كافيـه مـولاه ، ومن جعـل اللـه عـز وجـل وكيله لزمه أن يكون ـــــــــــــــــــ

1- أخرجه البخارى فى كتــاب الجنائز ، باب الصبر عند الصــدمة الأولــى برقــم (1302) ومســلم فى كتــاب الجنائز ، باب البكاء على الميت برقم (923) وأبـو داود فى كتـــاب الجنـائز ، بـاب البكـاء على الميت بـرقم (3125) والترمذى فى كتـاب الجنـائز ، بـاب الصـبر فى الصدمة الأولى برقم (987) والنسائى فى الجنائز بـاب شـق الجيـوب (1870) وابن ماجـه فى الجنـائز ، بـاب الصبر إلى المصيبه برقم (1596) .

2- الصدق لأبى سعيد الخراز ص 48 بتصرف .

وكيلا للـــه على نفســه فى إقامــة حقوقــه وفرائضه وكل مـا يلزمـه فيخاصـم نفسـه فى ذلك ليلا ونهارا لا يفتر لحظة ولا يقصر طرفه (1) .

وفــى هذا سأل رجل ذا النون المصرى : ما التوكل ؟

فقال : خلع الأرباب وقطع الأسباب .

فقال السائل : زدنى ؟

فقـــال : إلقـــاء النفس فى العبوديـــة وإخراجها من الربوبية (2) **.**

وهـذا يعـنى أن التوكـل تـرك السـكون إلى أســباب الــدنيا ونفى الطمــع من المخلــوقين والإيــاس منهم لأنهم لا وصــف لهم بالربوبيــة فالمنفرد بالخلق والتدبير هو اللـــه ، فحين علم

المتوكل أنه صائر إلى المعلـوم المقـدر رضـى بالله تعالى وعلم أنه لا يدرك بالتوكـل تعجيـل ما أخر الله تعالى ولا تـأخير مـا عجـل ، ولكنـه اكتسـب إسـقاط الهلـع والجـزع واسـتراح من عذاب الحـرص وراض نفسـه بـآداب الشـريعة وألقاها فى العبودية وانشغل
بها وأيقن أن ما قدر سيكون ، وما يكون فهــو آت (3) .

* التوكل درجات فى موطنه :

والتوكــل لــه درجــات فى موطنــه يقطعهــا الصـــــوفى بالمجاهـــــدة ليصـــــل إلى

1- الرسالة حـ 1 ص 418 بتصرف .

2- السابق حـ 1 ص 420 .

3- الصدق ص 53 بتصرف .

المقام الأعلى الذى يليه :

- **فأولهــــا :** سـكون القلب بضـمان الـرب فيتجــرد عن الأشــياء لأن اللــه صــدقه فى ضمانه ، فيسكن قلبه عند فقد الأسباب ثقــة منه بوعد ربه وهذه بداية التوكل (1) .
- **وثانيهــا :** درجة التسليم حيث يـوقن العبـد بعلم اللـه بحالـه ، فيشـتغل بمـا أمـره اللـه

ويعمل على طاعته ولا يراعى إنجاز موعده (2) .

- **وثالثهــا** : درجة التفويض حيث يكـل أمـره إلى اللــه ولا يختــار فيســتوى عنــده وجــود الأسباب وعدمها ويشتغل بـآداء مـا ألـزم بـه ولا يفكر فى حـال نفسـه ويعلم أنـه مملـوك لسيده ، والسيد أولى بعبده من نفسه فهـذه هى حالة التفويض .

وإذا ارتقى عن هـذه الدرجـة فوجـد الراحـة فى المنع واستعذاب ما يستقبله من الرد فقــد وقـع فى مقـام الرضـا (3) وقـد تقـدم موقـف أوائل الصوفية من النظر إلى الأسباب وأبرزوا دورها بما يكفى لعدم الإطالة .

[6] - الرضـــــا : وهو يقـع عنـد كثـير من أوائـل الصوفية بعد التوكل

1- الرسالة حـ 1 ص 422 .
2- السابق حـ 1 ص 422 .
3- الرسالة ص 422 .

ويشمل فىطياتـه المقامـات السـابقة ، فالعبـد لما صدق مع الله فيمـا سـبق ووقـع بينـه وبين الله التسـليم والتفـويض زالت عن قلبـه التهم

وسكن إلى حسن اختيار الله له ، ونـزل فى حسن تدبيره وذاق طعم الوجـود بـه فـامتلاء قلبـه فرحـا ونعمـا وسـرورا ، فغلب ذلـك ألم المصائب والمكروه والبلوى ، وصار اسـم البلـوى خزانـة يسـتخرج منهـا إذا نـزل بـه أمورا كثيرة :

1- فتارة يتنعم بعلم الله به إذ علم أنه يراه فى البلوى .

2- وتارة يعلم أنه ذكره فابتلاه ولم يغفـل عنه .

3- وتارة ولاه الله من أمره ما فيه الصلاح ففوض الأمـر إلى اللـه وطمـع أن يـراه راضـيا عنه كما قـال جـل ذكـره : **{ يأيتهـا النفس المطمئنـة ارجعى إلى ربـك راضـية مرضية }** (1) فخرجوا من الرضا إلى الرضـا (2) .

ويصـف القشـيرى المشـاعر الـتى تحـدث لصاحب الرضا بأنه يحصل له فوائد ولطائف لا تحصـل لمن دونـه من الحلاوة عنـد وجـود المقصود وهو لا يجد الراحة فى المنع فقط بل يشـعر بزوائـد الأنس ونسـيان كـل أرب

1- الفجر / 27 ، 28 .
2- الصدق ص 66 بتصرف .
وحلاوة الطاعة تتصاغر عند حلـول لـذة الرضـا حتى يؤخذ العبد عن جملتـه بالكليـة وهـذا عين التوحيد ومقام الحرية (1) .
ويتضح جليا أن مقـام الرضـا ينهى سلسـلة المقامــات ، فالرضــا نهايــة الجهــود وبــذل المجهــود من قبــل الإرادة فى الوصــول إلى الحريــة والــتى عــبر عنهــا الجنيــد بقولــه : **(الحريـــة آخـر مقام للعــارف)** (2) .
وفى الوقت ذاته تبدأ رحلة جديد من أحوال الجـود من منـة المعبـود وقـد اختلـف أوائـل الصوفية فى ترتيب الرضا أهو آخـر المقامـات أم أول الأحـوال ؟ **فقال بعضـهم : الرضـا من جملة المقامات وهو نهايـة التوكـل فالرضا كسبى ، وقال بعضهم : الرضـا من جملـة الأحـوال وليس ذلـك كسـبا للعبد بل هو نازلة تحل بالقلب .**
قـــال القشـــيرى : ويمكن الجمـــع بين اللسـانين فيقـال : **بدايـة الرضـا مكتسـبة للعبد وهى من المقامات ونهايته بدايـة الأحوال** (3) .

ووقوع الرضا فى هذا الموقـع يـدل على أن كــل المقامــات الســابقة كــانت مجاهــدات ومكابدات القصد منهـا قطـع كـل طريـق على النفس حتى لا تستروح متع الحياة ، أو تستكن لمطالبهـــــا وأطيابهـــــا وأن يســــــتعد

1- الرسالة حـ 1 ص 423 .
2- سبق تخريجه ص 395 .
3- الرسالة حـ 1 ص 423 .

القلب للامتلاء بعبوديـة اللـه وحـده أو بالوجـه الآخر يستعد للامتلاء بالحرية من كل مـا سـوى الله .

فالرضا محصـلة نهائيـة لقـوتين متصـارعتين مختلفتين فى الاتجاه ، اتجاه يمثل عبودية اللـه والحريـة ممـا سـواه ، واتجـاه يمثـل عبـودة المخلوق والتحرر من منهج الله ويقاس مقـدار الرضا بمقدار تفوق القوة المتجهة نحـو الحـق على القوة الجاذبة إلى الخلق .

وهذا فى حد ذاتـه اثبـات للحريـة بمقوماتهـا وأصــالتها فى الــذات الإنسـانية من جــانب ، وتحقيق للذات الإنسانية بالوصول إلى الكمـال البشرى من جانب آخر .

فالرضا عند أوائل الصـوفية يعـد من أحسـن الحلول التى تقدم لحل المشـاكل الـتى آثارهـا المتكلمـون حـول الجـبر والاختيـار أو الفعـل الإلهى والفعل الإنسانى وغير ذلـك ممـا حمـل العقول ما لا تطيق .

فـإن الراضـى حين يسـلم نفسـه وعمـره لخالقه قد أقر بحريته وإرادته المحضة فى هذا الاستسـلام وأدى غايتـه القصـوى فى الحيـاة باتباعـــه الكامـــل لمنهج اللـــه واستســـلامه لتدبيره .

قال تعالى : **{ فإما يأتيانكم منى هـدى فمن اتبـع هـداى فلا يضـل ولا يشـقى ومن أعرض عن ذكرى فإن لـه معيشـة ضنكا ونحشره يوم القيامـة أعمى قـال رب لمـــا حشـــرتنى أعمى وقـــد كنت بصيرا قال كـذلك أتتـك آياتنـا فنسـيتها وكذلك اليوم تنسى }** (1) .

* شكل تلخيصى للمقامات الصوفية وإرادة الحرية :

[الحــرية آخر مقـام للعـــارف]

(نهايــة الرحلة)
[7]
ـــــــــــ الحرية
الطـــريـــــــــــق [6]
ـــــــــ الرضـا
إلى مقــــام الحريــــــة [5]
ـــــــــ التوكـل
[4] ـــــــــ
الصــبر
[3] ـــــــــ الزهـــد
[2] ـــــــــ الـــورع
[1] ـــــــــ التوبـــة
ـــــــــــــــ
(بدايـــــــــــــة الرحلـــــــــــــة)
[نهايــة المقـامـات]
[بـــداية
الأحـــوال]

1- طه / 123 : 125 .

*** المبحث الرابع ***

الأحوال الصوفية وثمرة الحرية

يمكن القـــول أن المقامـــات الصـــوفية السابقة هى بمثابة الإعداد النفسـى والـروحى الـــذى يهـــيئ العبـــد من خلال المجاهـــدات والرياضات لكى تصح بدايته وتنصـقل إرادتـه ، وهذه المهمة تعد وصـفا للمبتـدئين والمريـدين عند أوائل الصوفية ، وللسراج الطوسى عبارة يمكن أن تلخص تلك المرحلة حثن يوضح تدرج المبتـدئ والمريـد فى طريقهمـا إلى الانقطـاع إلى الله والتحرر مما سواه حيث يقول :

(المبتدئ هو الذى يبتدئ بقوة العزم فى ســلوك طريــق المنقطعين إلى اللــه ويتكلــف لآداب ذلــك ، ويتــأهب بالخدمـة والقبـول من الـذى يعـرف الحال الذى ابتدأ بـه وأشـرف عليـه من بدايته إلى نهايته والمريد هو الذى صح لـه الابتـداء ودخـل فى جماعـة جملـة المنقطعين إلى الله تعالى وشهدت لـه قلوب الصادقين بصحة الإرادة) (1) .

وهو فى كل مرحلة يقطعها تنفك عنه القيود شيئا فشيئا حتى تتلاشـى بوصـوله إلى عبوديـة الله أو الحرية الـتى هى آخـر المقامـات ، وأيـا كان اختلافهم فى ترتيب المقامات ، فإن هــذه المرحلة تعتمد على الجهود

1- اللمع ص 47 ، 48 .

الكسبية الـتى يمارسـها العبـد ، فـإذا اسـتوفى العبد شرائطها وأحكامها يصبح مستحقا لاجتناء ثمارها ، فكما يشعر العابـد بحلاوة الطاعـة إذا قام بما فرض عليه من عبـادات ، وكمـا يشـعر الإنسان براحـة الضـمير إذا نهض بعمـل من أعمــال الخــير ، كــذلك يستشــعر المزيــد إذا خلصــت إرادتــه بــذوق مــا يجــد من المعــانى الروحيــة الســامية والــتى تتمثــل فى حلاوة الإيمان وثماره .

* الثمرة الأولــى للحرية :

وأول هذه الثمار عند أوائل الصـوفية **ثمـرة الحب** يقول المحاسبى :

(المحبـة ميلـك إلى الشـئ بكليتـك ثم إيثارك له على نفسـك وروحـك ومالـك ثم موافقتك له سـرا وجهـرا ثم علمـك بتقصيرك فى حبه) (1)

وقال محمــد بن الفضــل (2)ـ :ـ **(المحبة ســقوط كـــل محبـــة من القلب إلا محبة الحبيـب)** (3) .

1- الرسالة حـ 2 ص 618 .

2- هو أبـو عبـد اللـه محمـد بن الفضـل بن العبـاس بن حفص البلخى ، سـكن سـمرقند وأصـله من بلخ ، وهـو من كبار المشايخ بخراسان ، صحب أحمد بن خضــرويه وغيره من المشايخ توفى سنة 319 هــ انظـر شـذرات

الذهب حـ 2 ص 282 ، المنتظم حـ 6 ص 239 ، حليـة الأولياء حـ 10 ص232 ، معجم البلدان حـ ص 713 .
3- انظر الرسالة حـ 2 ص 617 .

وللحب أحوال تبـدأ بعـد تمـام الرضـا ، أو قبيـل أن يتم الرضـا بـوقت لأن بدايـة الرضـا عندهم من المقامات ونهايته من الأحـوال كمـا سبق .

فإذا اجتاز العبد منطقة الرضا ، وثبت حبـه على أسـاس يلتقى فيـه الصـدق والتجـرد عما سوى اللـه أصـبح جـديرا بـأن تنهـال عليـه أحوال الحب .

ومن لطف الله أن كـل حـال يـؤدى بالعبـد إلى الابتلاء يعقبــه حــال من الرخــاء وكشــف البلاء **فبعـد الهجـر وصـل وبعـد القبض بسط وبعـد الهيبـة أنس وبعـد الخـوف رجاء وبعد الفقر وجد وبعد البعـد قـرب** وهكــذا مجموعـــة مـــن الثنائيـــات تتســمى بحسب التغيرات النفسية التى تعقبها وتتفاوت فيها المسميـات وتختلـف فيها أنظـار العابـدين فكل يعبر عن حاله وعن إحساسـه وشـعوره ، وكل ذلـك يرجـع إلى أن اللـه يقلــب القلــوب فى جهتيـن بيـن إصبعيـن من أصابعه (1) .

وفى الأحــوال تتجــدد مــذاقات العــارفين لحلاوة الإيمان ، فلكل مذاق طعم يزيـد على سابقه شيهة وحلاوة .

- **ويمكن أن نصـل إلى تـرتيب الأحـوال عند أوائــل الصوفية بصــورة**

1- عــوارف المعــارف ص 327 ، لطــائف الإشــارات للقشيرى ص 109 .
2- الرسالة حـ 1 ص 112 .

تقريبية إلى حد ما من خلال ما يأتى :

- أولا : الخــوف والرجــاء

ويعتبـرهما القشيـرى من أحـوال البدايـة أى من أحـوال الدرجـة الأولى فى مجـال الحب إذ يخــاف العبــد من العقوبــة ويرجــوا من اللــه المثوبة (1) ويترجم يحى بن معاذ هذا الشـعور والإحساس بقوله مخاطبا ربه :

(يكاد رجائى لك مع الـذنوب يغلب رجائى لـك مـع الأعمـال لأنى أجـدنى أعتمــــد فى الأعمــــال على الإخلاص ، وكيــف أحفظــه وأنــا بالآفــة معـروف وأجــدنى فى الذنــــوب أعتمــــد على عفــــوك ، وكيــف لا تغفــــرها وأنــــت بالجــود موصوف) (2) .

والخوف والرجاء هما كجنـاحى الطـائر إذا استويا استوى الطائر وتم الطيران ، وإذا نقص أحــدهما وقــع فيــه النقص ، وإذا ذهبنــا صــار الطائر فى حد الموت (3) .

وعنـدما ينتقـل العبـد من درجـة إلى درجـة أعلى فى حـال الحب يأخـذ الخـوف والرجـاء معـانى جديـدة عنـدهم تتفـق وهـذا الانتقـال ، وفى ذلك يقول الواسطى : **(إذا ظهر الحق على الســرائر لا يبقى فيهــا فضــيلة**

1- السابق حـ 1 ص 110 .
2- السابق حـ 1 ص 358 .
3- السابق حـ 1 ص 357 .

لرجاء أو لخوف) (1) وذلـك لأنـه ينتقـل إلى حال أعلى من حالى الخوف والرجاء .

 ثانيا : القبــض والبســط

وهما حالان بعد ترقى العبد عن حال الخوف والرجـاء ، فـالقبض للعـارف بمنزلـة الخـوف للمريـد والبسـط للعـــارف بمـــنزلة الرجـاء (2) .

ومـن اجتهـادهم فى الفصــــل بيــن القبض والخـوف والبسـط والرجـاء أن الخـوف إنمـا يكون من شئ فى المستقبل إما أن يخاف من فوت محبوب أو هجوم محذور وكـذلك الرجـاء إنمـا يكـون بتأميـل محبـوب فى المسـتقبل أو بتطلع زوال محذور وكفاية مكـروه فى المريـد المسـتأنف ، أمــا القبض فلمعـنى حاصـل فى الــوقت وكــذلك البســط ، فصــاحب الخــوف والرجاء تعلق قلبه فى حالتيـه بآجلـه وصـاحب

القبض والبسـط أخـذ وقتـه بـوارد غلب عليـه عاجله (3) .

ويذكر الجنيد بن محمد أن القبض والبسط بمعــنى الخــوف والرجــاء ولكن الاختلاف فى تعلقهما بالآجل أو العاجل (4) .

1- السابق حـ 1 ص 349 .
2- السابق حـ 1 ص 209 .
3- السابق حـ 1 ص 209 واللمع ص 419 .
4- اللمع ص 420 .

وتتفــاوت أوصــافهم فى القبض والبســط حسب تفاوتهم فى أحـوالهم فمن وارد يـوجب قبضا ولكن يبقى مساغا للأشياء الأخر لأنه غير مسـتوف ، ومن مقبـوض لا مسـاغ لغـير وارد فيه لأنه مأخوذ عنه بالكلية بوادره .

وذلك كمــا قــال بعضــهم : **(أنـــا ردم)** بمعنـى مردوم أى لا مساغ فــيه (1) .

وكذلك المبسوط قد يكون فيه بسـط يسـع الخلق فلا يستوحش من أكـثر الأشـياء ويكـون مبسوطا لا يؤثر فيه شئ بحـال من الأحـوال (2) .

 ثالثا : الهيبـــــة والأنـــــس

وهما درجتان فى أحوال الحب أعلى قــدرا من الخــوف والرجــاء ومن القبض والبسـط ، فالهيبــة أعلى من القبض وحــق الهيبــة عنــد

القشيرى الغيبــة ، فكـل هائب غائب ، والأنس أتم من البسط وحق الأنس صحو بحق ، فكــل مستأنس صاح ، ثم يتباينون حسب تباينهم فى الشرب (3) .

قال الجنيد : كنت أسمع السـرى السـقطى يقول : **(يبلغ العبد إلى**

1- الرسالة حـ 1 ص 210 .
2- السابق حـ 1 ص 210 .
3- السابق حـ 1 ص 213 .

ربه إلى حد لو ضرب وجهه بالسـيف لم يشعر) وكان فى قلبى منه شئ حتى بان لى أن الأمر كذلك (1) .

فالهيبة تنشأ من القبض الناشئ من الخوف لأن من خـاف اللـه وعـرف تقصـيره فى حقـه تعالى انقبض قلبه وبقى مشغولا بالله فتحصل لـه الهيبـة منـه ومن أمـل وصـوله إلى الخـير بالرخــاء انبســط قلبــه ، وبقى مشــغولا باللــه فيحصـل لـه الأنس بـه ، وحـال الهيبـة والإنس وإن جلتــا ، فأهــل الحقيقــة يعــدونهما نقصــا لتضمنهما تغير العبد ، فإن أهل التمكين سمت أحوالهم عن التغيير والتلوين (2) .

 رابعا : التواجد والوجد والوجود

[1] - التواجـــــــد : يقــــول القشــــيرى : فالتواجد استدعاء الوجد بضرب

1- السـابق حـ 1 ص 213 قلت : الأمـر عنـد أوائـل الصـوفية فى المقامـات والأحـوال مبـنى على التجربـة الإيمانية ووصف أدائهم للعبودية ، فأحـدهم يعـبر ببعض الألفاظ عن إحساس ما وجده فى الصـلاة مثلا أو قيـام الليل أو الذكر أو غير ذلك ، والآخر يفعـل مثلـه كـذلك ، فقد يتفقوا فى الرأى وقد يختلفوا وهكذا حـتى تتشـكل ألفاظ الصوفية ومصـطلحاتهم فى الأحـوال والمقامـات بالقاسـم المشـترك عنـد أغلبهم ، فكلام السـرى السقطى دليله فيه العقل والتجربة الإيمانيـة واسـتبيان الجنيـد من كلامـه ثم تصـديقه إيـاه دليلـه أيضـا العقـل والتجربة ، وهذا الكلام قد يصح أو لا يصح لأنه رأى بشر قابل للخطأ والصواب ، أما إذا عارض الـدليل الشـرعى فلا .

2- السابق حـ 1 ص 214 .

اختيـار ، وليس لصـاحبه كمـال الوجـد إذ لو كان ، لكـان واجـدا (1) فهـو أقـرب ما يكون إلى الكسـبيات الـتى تـؤدى إلى الأحوال وفى هـذا يـذكر القشـيرى حـديثا نبويـا : **(ابكـوا فـإن لـم تبكـوا فتباكـوا)** (2) .

[2] - الوجـــــد :

وهو ما يصادف القلب ويـرد عليـك بلا تعهـد ولا كلفـة ، وهـو يعقب التواجـد فى الدرجـة (3) ويربـط الـدقاق بين **الوارد والـورد** أى بين البـاطن والظـاهر ليثبت ارتباط مذاقات الحب بالطاعـات ، وبـأن الكسـبيات وسـائل لاسـتجلاب الوهيبـات

فيقول : **(من لا ورد له بظاهره ، لا وارد له فى سـرائره وكمـا أن مـا يتكلفه العبد من معاملات ظاهـــرة يـوجب لـه حلاوة الطاعـات ، فمـا ينازله من أحكام باطنـة يـوجب لـه المواجيـــد ، فـــالحلاوة ثمـــرات المعـــاملات والمواجيـــد نتـــائج المنازلات)** (4) .

1- السابق حـ 1 ص 215 وانظر اللمع ص 418 .
2- رواه ابن ماجه فى كتاب الزهد برقم (19) .
3- الرسالة حـ 1 ص 217 .
4- السابق حـ 1 ص 217 .

[3] - أما الــوجــود : فهـو حالـة أرقى من الوجـد ، ولا يكـون وجـود الحـق إلا بعـد خمود البشرية لأنه لا يكون للبشرية بقـاء عند ظهور سلطان الحقيقـة .

وهذه الدرجات الثلاث يشـبهها القشيرى بمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحـر ، فالتواجـد بداية والوجود نهايـة والوجـد واسـطة بين البداية والنهاية (1) .

فالعبد يغرق فى بحـار الحـب حتـى يصـل إلــى الثمــرة الثانيــة وهى محصلـة لطريقيـن :

الأول : الطـريق إلى الحرية وهو طريق الجهــد والكسـب من خلال المقامــات الــتى يــدفع فيهــــــا كـــــــل محاولــــــة لاســترقاقه .
الثانى : طريق الحب وهـو ثمـرة للطريــــــق الأول يـــــؤثر فى العبد من خلال الأحوال .

1- السابق حـ 1 ص 217 .

* شكل تلخيصى للثمرة الأولى من ثمرات الحرية :

(الثمـــــرة الأولى للحرية)

[5] ـــــــــــــــ الفنـاء والبقــــــــاء
[4] ـــــــــــــ التواجد والوجد والوجود
[3] ـــــــــــــــــــ الهيبـــــــة والأنـــــــس
[2] ـــــــــــــــــــ القبــــــض والبســـــط
[1] ـــــــــــــــــــ الخـــــوف والرجــــــاء

[طريـق الحب] [نهايـة الحـــب بداية الفنـــاء]

* الثمرة الثانية للحرية : أحوال الفناء

انتهينا إلى أن أوائل الصـوفية وصـلوا إلى درجة فى الحب يغرق المـرء فيهـا فى بحـار ه لوجـود الإيمـان بـالحق سـبحانه وتعـالى وفى المقابل نرى خمود البشرية وفنائها ، فالعبد قد يكون عالما بالتوحيد من خلال الاستدلال بالآثار ولا يكـون واجـدا لـه مستشـعرا لحلاوتـه فى القلب فوجـوده الحقيقى لا يبقى للعبـد معـه إحساس بنفسه فضلا عن علمه بـه واسـتدلاله عليـه ، فـترتيب أمـر الأحـوال للوصـول إلى المعرفـة بتوحيـد اللـه يفصـح عنـه القشـيرى بقوله :

وتـرتيب هـذا الأمر **قصـود ثم ورود ثم شـهود ثم جمـود ثم خمـود وبمقـدار الوجود يحصل الخمود .**

وصاحب الوجود لـه صـحو ومحـو فحـال صـحوه بقـاؤه بـالحق وحـال محـوه فنـاؤه بالحق ، وهاتان الحالتـان أبـدا متعاقبتـان عليـه فإذا غلب عليه الصحو بالحق ، فبه يصول وبـه يقـول قال صلى الله عليه وسلم فيما أخـبر عن الحق :

(فبــــى يسمــــع وبــــى يبصـــــر) (1) .
وهـــذا الكلام يعــنى أنـــه بمقـــدار تضـــاؤل إحساس العبد بنفسه يكون الوجود الحق للعبد .
وفى ســبيل أن يوضــح القشــيرى موقــف المشايخ من تـدرج هـذا التضـاؤل شـيئا فشـيئا عــرض لنــا نمــاذج من الأحــوال الــتى تتــآلف كـــأحوال الحب من أزواج تبـــدأ من الفنـــاء وتنتهى عند التحقق .
[1] - أولهـــا : الفنـــاء والبقـاء :
ويمكن القول أن أوائل الصوفية يميزون بين نوعين من الفناء :
1- أحدهما يمكن اكتسـابه بـالمران المنظم والتدريب الـروحى ويكـون ذلـــك بالجهـــد المســـتمر فى المقامات (2) .

1- السابق حـ 1 ص 219 .
2- السابق حـ 1 ص 218 .

2- والثانى لا ينال بمران بل يطرأ على القلب ويـأتى قـاهرا جبـارا يفقـد الإنسان إحساسه بالعالم من حوله (1) .

* فالأول : فناء فى امتثال الأمر التشريعى الذى يعرف به المحمود والمـذموم من الأفعـال يقول فيه القشيرى :

(أشار القــوم بالفنـاء إلى سـقوط الأوصـاف المذمومـة وأشـاروا بالبقـاء إلى قيـام الأوصاف المحمـودة) (2) .

ومعلـوم أنـه إذا لم يكن أحـد القسـمين كان القسم الآخر لا محالة وهـذا يتوقـف أساسـا على دور الإرادة نحـو أى منهمـا ، فـالوجود الـذاتى للإنسـان كـائن من خلال اختياره الحر للتصرف المحمود فى أفعاله وبقائه دائما على الصفات الحميدة .

فمن ترك مذموم أفعاله بلسـان الشريعة يقال :

(إنه فـنى عن شـهواته ، فـإذا فـنى عن شـهواته بقى بنيتـه وإخلاصه فى عبوديته ومن زهد فى دنيـاه بقلبـه فـنى عن رغبتـه ، ومن فـنى عن رغبتـه فيهـا بقى بصـدق إنابتـه فيكـون بـذلك فانيـا بأفعالـه ، ومن عـالج أخلاقـه فنفى عن قلبـه الحسـد والحقـد والبخـل والشـح والكـبر والعجــب

1- التعريفات للجرجانى ص 185 .
2- الرسالة حـ 1 ص 229 .

وأمثـال هـذا مــن رعــونات النفــس فإنه بـذلك يكـون فانيــا بأخـلاقـــــه) (1) .

* أما الثـــانى : فهو فناء فى الأحوال ، وفلسفته أن من شـاهد الربوبيـة فى جربـان القــدر وتصـاريف الأحكـام فـنى عن أى حسـبان ، فإذا فـنى عن تـوهم الآثـار من الأغيـار بقى بصفات الحق ، فلا يشهد من الأغيار عينــا ولا أثــرا ولا رســما ولا طللا لانعــدام أثرهــا عليه وعند ذلك يقـال فى عـرفهم : **(إنـه فنــى عـــن الخلــق وبقــى بالحــق)** (2) .

وهــذا الفنــاء لا يعتــبر مســلكا ســلبيا أو انمحاء مطلقا للذات الإنسانية فالصـوفى لا يصـل إلى النـوع الثـانى إلا إذا اجتـاز النـوع الأول من خلال المقامات السـابقة ومن ثم نبــه القشــيرى إلى أن الفنــاء الصــوفى لا يــؤدى إلى الحلـول أو إلى الاتحــاد بالــذات الإلهية ، **فإذا قيل :** فنى عن نفســه وعن الخلق فنفسه موجـودة والخلـق موجـودون ولكنه لا علم له بهم ولا به ولا إحســاس ولا خـــبر فتكـــون نفســـه موجـــودة والخلـــق

موجـــودين ولكنـــه غافـــل عن نفســـه وعن الخلق أجمعين (3) .

1- الرسالة ص 229 بتصرف .
2- السابق ص 229 بتصرف ، وانظر التعـرف ص 152 ، 152 .
3- السابق حـ 1 ص 330 بتصرف .

وهذا وإن كان يحدث للبعض إذا دخـل على ســـلطان من أهـــل الـــدنيا فيصـــيبه الذهول وتهيمن عليـه الدهشـة حـتى يغفـل عن مجلسه وهيئته ، وإذا سئل بعد خروجـه عن شـئ كـان فى موقفـه لمـا تمكن من الجواب ، فإذا كان هذا تغافـل مخلـوق عن أحواله عند لقاء مخلوق ، فما الظن لو أنـه فنى عن كل شـئ فجـأة إذا كاشـفه شـهود الحق حال الذكر والطاعة (1) .

ويـرى سـهل بن عبدالله التسـترى أن الفنـــاء نـــوع من الاتصـــال الـــدائم باللـــه لإحسـاس العبـد بمعيـة اللـه فى كـل وقت أخذا من قوله صـلى اللـه عليـه وسـلم فى الحديث الصحيح : **(أن تعبـــــد اللـــــه كأنك تـــراه)** (2) .

فـالأقوال والأفعـال يحـددهما الشـعور المتصـــــل بمراقبـــــة اللـــــه فى كـــــل آن

1- السابق حـ 1ص 330 بتصرف .
2-الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الإيمـان ، بـاب بيـان الإيمـان والإسـلام والإحسـان بـرقم (8) وأبـو داود فى كتاب السـنة ، بـاب فى القـدر بـرقم (4695) وأخرجـه الترمذى فى كتاب الإيمـان ، بـاب مـا جـاء فى وصـف جبريل للنبى الإسلام والإيمان برقم (2610) والنسـائ حـ 8 ص 97 وابن ماجه فى المقدمة ، باب فى الإيمان برقم (63) وابن حبان فى كتـاب الإيمـان ، بـاب فـرض الإيمان برقــم (168) وأحمد فى المسند حـ 1 ص52 .
وانظر التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 311 .

من خلال التزامـــه بالعبوديـــة على وجههـــا الأمثل ، يقول سهل بن عبـد اللـه : **(مـن لم يكـن يعبد الله كـأنـــه يــــراه أو علم العـبد بأن اللـه يراه فهـو غافـل)** (1) .

ومن ثم فإن العلاقة بين الفـانى وبين ربـه هى علاقة مشاهدة ومراقبة تدفعه إلى مزيـد من الحرية والانضباط فى العبوديـة دون خلـط بين العبد وربه .

ومن صـفات الفـانى عنـد سـهل بن عبـد اللـه ، أنـه عبـد لا يغفـل عن ذكـر حبيبـه آنس نفســه بـأن اللـه مشـاهده فوقـع بصـره على مقامـه من إيمانـه حـتى اسـتمكن مقامـه من القــرب منـه ، وأوصـل أذنـه بالاسـتماع إليـه وصير لسانه رطبا من ذكـره ، وطلب مرضـاته وأقام عروقه وعصبه وأعضاءه وعظامه وجميع جوارحه وحركاته وسكونه بطاعتة حـتى أدركـه

المدد بالمزيد من ربـه فصـار قلبـه فى رحمـة الله كما قال عــز وجل :
{ إن الذيــن هم مـــن خشـية ربهــم مشفقــون } (2) .
فاسـتغراق العبـد من ذكــر محبوبـه يجعلـه منصـرفا عن كـــل لفـظ يـردده اللسـان إلى حضور قلبى ينسى الذاكر فيه نفسه ، ويتـأنس بحضوره مع

1- السابق ص 312 .
2- المؤمنون / 57 .
وانظر تفسير التسترى ص 10 .

ربه فيفـنى عن نفسـه ببقائـه مـع ربـه ، يقـول سـهل : **(حياة الــروح بالذكـــر ، وحيـاة الذكر بالذاكر ، وحياة الذاكر بالمذكور)** (1) .
ويلاحظ أن كلام التسـترى فى الفنـاء يـدور فى فلــك المحبــة واقتطــاف الثمــرة الأولى للحرية من جهة واتباع السنة والارتقاء بالنفس البشرية إلى مكانها الصحيح من جهة أخرى .
فعنـــد التستـــرى أن مـــن اقتـــدى بـالنبى صـلى اللـــه عليـه وسـلم لم يكــن فى قلبـــه اختيـار لشئ من الأشـياء سـوى مـا أحب اللـه ورسوله (2) .

وإذا كـان الفنـاء عنـد التسـترى مرتبطـا بالمحبة وأثـره قـائم عليهـا ، يظهـر ذلـك مـن أفعال المحب ، وأثر المحبة على الجـوارح فى اتبـاع أوامـر المحبـوب واجتنـاب نواهيـه بحيث تتحد رغبـة المحب مـع رغبـة المحبـوب ، فـإن الفناء عند الجنيد يأخذ طريقا آخر حيث يرتبـط الفناء بالتوحيـد بصـورة تتسـق فى النهايـة مـع مفهوم التسترى .

فالفناء الذى دعا إليه لا علاقـة لـه بفنـــاء الحلــول والاتحــاد ، وإنمــا يحتفــظ بالصــحو ويرفض الشطح ويؤثر البقاء (3) .

وذلــك لأنــه دعــا فى التوحيــد إلى تطــابق الإرادات ، **إردة العبد وفنائه**

1- حلية الأولياء حـ 10 ص 190 مرآة الجنـان حـ 2 ص 148 .

2- من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة ص 19 .

3- الرسالة حـ 1 ص 584 .

مع إرداة الله الدينيـة الشـرعية ، وذلـك يدخـل تحت إرادة الله الكونية وهـو نهايـة التوحيد الحقيقى الذى عبر عنه بقوله :

(أن يكـون العبـد شـبحا بين يـدى اللــه ســبحانه وتعــالى ، تجــرى عليــه تصــاريف تــدبيره فى مجــارى أحكــام

قدرته ، فى لجج بحار توحيـده بالفنـاء عن نفسه وعن دعوى الخلق لـه ، وعن استجابته بحقائق وجوده ووحدانيته فى حقيقـة قربـه بـذهاب حسـه وحركتـه لقيام الحق سبحانه فيما أراد منه) (1) .

وهو يشير بذلك إلى الحديث القدسى :

(فـإذا أحببتـه كنت سـمعه الـذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويـده التى يبطش بها ، ورجلـه الـتى يمشـى عليها) (2) .

وإذا أضفنـا لقولـه السابـق قولـه : **(التـوحيـد هـو إفـراد القديـم عـن الحـدث)** (3) .

علمنا بأنه إنما يريد التحـرر من رق الأغيـار وشـهودها لاسـتغراق القلب فى الـذكر والمداومـة عليـه بغيـة الوصـول إلى نهايـة العبودية والتحقق .

1- الرسالة حـ 1 ص 584 .

2- سبق تخريجه .

3- انظر ص 87 .

وقد بين ذلك باستفاضة فى كتابه الفنـاء (1) .

ومن ثم فهو لا يعـنى إسـقاط الإرادة الدينيـة لرؤيتـة للإرادة الكونية وإنما يعنى تمام القيـام

بالإرادة الدينية التى يخضع من خلالها للـه كمـا تخضع سائر الأشياء لإرادته الكونية .

وقد دافع الكلاباذى والسراج الطوسى عن مفهـوم الصـوفية للفنـاء حـتى القـرن الرابـع الهجرى ، وردوا أى خروج عن الحـد السـابق ، بـل أعلنـوا بـراءتهم ممن قـال بفنـاء الحلـول والاتحاد ، ووصفوه بالجهل والضلال (2) .

وتجـدر الإشـارة إلى حقيقـة هامـة فى فهم السـبب الـذى أدى إلى القـول بـالحلول أو الاتحـاد ، ففى مرحلـة شـرح التجربـة الـتى خاضها الصوفى فى آدائه العبودية الله والتعبير عنهـا كنظريـة مطعمـة بالعناصـر الفلسـفية ، شـاع الاضـطراب والخلـط والتعقيـد ممـا نجم عنه أخطاء وانحرافات فكرية جمة .

فمثلا كان يقصـد بالصـفات الإنسـانية الـتى يجب أن تقتلع أو تهجـر ويجب على الصوفى أن يتحرر منها ويفنى عنها ، تلك الصفات الـتى تحـول بين الإنسـان وكمالـه الـروحى ، تلـك الصفات التى تشد الإنسان

____

1- كتاب الفناء للجنيد ص 350 ضمن نصـوص صـوفية إسـلامية نشـرها د. كمـال جعفـر فى كتابـه التصـوف طريقة وتجربة ومذهبا .

2- التعرف ص 151 واللمع ص 541 : 544 .

إلى الرغبة والشـهوة والطمـع ، وتجعلـه يخلـد إلى الأرض ويتبـع هـواه ، وإلى هـذا الحـد

فالهـدف قرآنى محض لا اعتراض عليه ، ولكن سرعان ما فهم المقصـود بالصـفات الإنسـانية هنـا الطبيعـة البشـرية ، ومن ثم فقـد ادعى بعضـهم أن بالإمكـان الانسـلاخ من الطبيعـة البشرية والتحقق بالصفات الإلهية ، وقد يـؤدى هذا إلى تأليه الإنسان وجعله إلها آخر (1) .

ويفرد السـراج الطوسـى بابـا فى ذكـر من غلـط فى فنـاء البشـرية بين فيـه أن الـذين غلطـوا فى فنـاء البشـرية سـمعوا كلام المتحققين فى الفنـاء فظنـوا أنـه فنـاء البشرية ، فوقعـوا فى الوسوسـة ، فمنهم من ترك الطعام والشراب وتوهم أن البشـرية هى القـالب والجثـة إذا ضـعفت زالت بشـريتها ، فيجـوز أن يكـون موصـوفا بصفـات الإلهيـة (2) .

يقـول السـراج : **(ولم تحس هـذه الفرقـة الجاهلـة الضـالة أن تفـرق بين البشرية وأخلاق البشرية ، لأن البشرية لا تزول عن البشر كمـا أن السـواد لا يزول عن الأسـود ولا لـون البيـاض عن الأبيض ، وأخلاق البشرية تتبدل وتتغـير بمـا يـرد عليهـا من أنـوار الحقـائق ، وصـفات البشـرية ليسـت هى عين البشرية)** (3) .

1- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 231 .
2- اللمع ص 543 .
3- السابق ص 543 .

وتعد هذه النقطة من النقـاط الهامـة الـتى تفصل بين معنى إرادة الحرية وتنقية الأوصاف البشرية المذمومة بالفنـاء عنهـا وبين الجبريـة وانعـدام الإرادة الإنسـانية أو انمحـاء الطبيعــة البشريــة .

[2] - ثانيها : الجمـــــــع والفـــــــرق :

فـالجمع فى تعريـف أبى على الـدقاق مـا سلب عنك والفرق ما نسب إليـك (1) ومعـنى ذلــك أن مــا يكــون كســبا للعبــد من إقامــة العبودية وما يليق بأحـوال البشرية فهـــو فرق ، ومـا يكـون من قبـل الحـق من إبـداء معـان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع ، فمن أشهده الحــق ســبحانه وتعــالى أفعالــه من طاعاتــه وانتقـاء مخالفاتـه فهـو عبـد بوصـف التفرقـة ، ومن أشـهده الحـق مـا يوليـه من أفعــال فهـو عبـد بشـاهد الجمـع ، فإثبـات الخلـق من بـاب التفرقـة ، وإثبـات الحــق نعت الجمـع ، ولا بـد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ومن لا جمع له لا معرفـة له (2) .

ويطبق القشيرى فكرة الجمع والفرق فى تفسـير قولــه تعــالى : **{ إيـــاك نعبـد**

وإيـــاك نستعيــن } حيث يقـول : **(إيـاك نعبد إشارة إلى الفرق وإياك نستعين إشارة إلى الجمع)** (3) .

1- الرسالة حـ 1 ص 218 . 2- السابق حـ 1 ص 222 بتصرف .
3- لطائف الإشارات ص 226 .

فــالفرق إبـــراز لتوحيـــد العبـــادة على وجـــه الكمـال ، والجمـع إبـراز لتوحيـد الربوبيـة على وجه الكمال ، يقول القشيرى :

(فالفرق صفة العبودية والجمع نعت الربوبية ، وكل فـرق لم يكن مضـمنا بجمع وكل جمع لم يكن فى صفة العبد مؤيدا بفرق فصاحبه غير سديد الوتيرة ، وإن الحق سبحانه وتعالى يكل الأغيار إلى ظنـــونهم فيـــتيهون فى أوديـــة الحسـبان ويتوهمـون أنهم منفـردون بـإجراء مـا منهم وذلـك منـه سـبحانه وتعالى مكر بهم) (1) .

وهو يغمز الجبريـة والقدريـة ويـدعوا إلى السلفية وإلى إثبات الحرية الإنسانية ، وتعويـل المسئولية على أفعال الإنسان واعتقـاد خلقهـا لله من جانب آخر ، وقد تقدم جواب سـهل بن عبد الله لمـا سـئل عن الجمـع والفـرق فقيـل له :

ما تقول فى رجل يقول : أنا مثل الباب لا أتحرك إلا أن يحركونى ؟
فقال سهل : هذا لا يقوله إلا أحد رجلين : إما رجل صديق وإما رجل زنديق (2) .

ويذكر السراج الطوسى أن المعنى فيما قال سهل رحمه الله أن الصديق يرى قوام الأشياء بالله ويرى كل شئ من الله تعالى ويرجع فى

1- السابق ص 226 .
2- اللمع ص 549 .

كل شئ إلى الله عز وجل ، مع معرفة ما يحتاج إليه من الأصول والفروع والحقوق والحظوظ والمعرفة بين الحق والباطل ومتابعة الأمر والنهى وحسن الطاعات والقيام بشرط الأدب وسلوك المنهج على حد الاستقامة .

وأما معنى قول الزنديق بهذه المقالة فإنما يقول ذلك حتى لا يزجره شئ عن ركوب المعاصى ، وأنه أداه جهله إلى الجسارة والاعتداء بإضافة أفعاله وجميع حركاته إلى الله تعالى ، حتى زال اللائمة عن نفسه فى ركوب المآثم بغواية الشيطان وتسويله وتأويله الباطل (1) .

ولذلك عاب السراج الطوسى على جماعـة غلطوا فى عين الجمع فلم يضيفوا إلى الخلـق مـا أضـاف اللـه تعـالى إليهم ، ولم يصـفوا أنفسهم بالحركة فيمـا تحركـوا فيـه وظنـوا أن ذلك منهم احتراز حتى لا يكـون مـع اللـه شـئ سوى الله عز وجل فـأداهم ذلـك إلى الخـروج من الملة وترك حـدود الشـريعة لقـولهم إنهم مجبورون على حركاتهم حتى أسقطوا اللائمـة عن أنفسـهم عنـد مجـاوزة الحـدود ومخالفـة الاتبـاع ومنهم من أخرجـه ذلـك إلى الجسـارة على التعدى والبطالة وطمعته نفسـه على أنـه معـذور فيمـا هـو عليـه مجبـور ، وإنمـا غلـط هؤلاء لقلة معـرفتهم بالأصـول والفـروع ، ولم يعـرفوا الجمع والتفرقة ، فأضافوا إلى الأصـل ما هو ـــــــــــــــ

1- السابق ص 549 بتصرف .

مضاف إلى الفرع ، وأضافوا إلى الجمع ما هو مضـاف إلى التفـرقة فلم يحسـنوا وضـع الأشياء فى مواضعها فهلكوا (1) .

وهـذا الاتجـاه الصـوفى يكشـف عن تـأثير مصطلح الحرية فى التوفيق بين القـدر واتبـاع الشرع ، وفى حل المشـكلات الـتى اسـتمرت بين طوائف المتكلمين وأثقلت المسلمين دون جدوى أو طائل .

[3] - ثالثها : الغيبة والحضـور :

حالان متقابلان أرقى نوعـا مـا ممـا سـبق ، فالغيبة هى غيبة القلب عن علم ما يجــرى من أحوال الخلق ، لاشتغال الحس بما ورد عليــه ، ثم قد يغيب إحساسه بنفسه وغـيره بـوادر من تذكر ثواب أو تفكر عقاب والحضور قد يكــون حاضرا بالحق لأنـه إذا غـاب عن الخلـق حضـر بالحق على معنى أنه يكون كأنه حاضر ، وذلك لاسـتيلاء ذكـر الحـق على قلبـه فهـو حاضـر بقلبـه بين يدى ربه .

وعلى حســب غيبتــه عن الخلــق يكــون حضوره بالحق ، فإن غاب بالكلية كان الحضور على حسب الغيبة ويكون مكاشفا فى حضوره على حسب رتبته بمعان يخصه الحـق سـبحانه بها (2) .

1- السابق ص 549 ، 550 بتصرف .
2- الرسالة حـ 1 ص241 .

[4] - رابعها : المحــــو والإثبــــات

وهما على نوعين :

[1- محو وإثبات يتعلقـان بالمقـامـات :

فالمحـــو رفـع أوصـاف العـادة ، والإثبـات إقامــة أحكــام العبــادة فمن نفى عن أحوالــه الخصال الذميمة وأتى بدلها بالأفعال والأحــوال

الحميـدة فهـو صـاحب محـو وإثبـات ، وتـدخل ضــمن الخصــال الذميمــة الزلــة فى الظــاهر والغفلــة فى الضــمائر والعلــة فى الســرائر ، وعلاجهـــا باثبـــات المعـــاملات والمنـــازلات والمواصلات فالمحو والإثبـات هنـا لهمـا صـبغة أخلاقية مكتسبه للعبد .

[2 - محو وإثبـات يتعلقـان بالأحـــوال :

فحقيقـــة المحـــو والإثبـــات فى الأحـــوال صادرة عن القدرة ، فـالمحو مـا سـتره الحـق ونفـاه ، الإثبـات مـا أظهـره الحـق وأبـداه ، والمحو والإثبات مقصورات على المشـيئة (1) قال أبو الحسين النورى : **(الخـاص والعـام فى قميص العبوديـــة إلا مـــن يكـــون منهم أرفع ، جذبهم الحق ومحـاهم عن نفوسهـــم فى حركـاتهم وأثبتهم عنـد نفسه بنظرهـم الى قيام الله لهـم فى أفعالهـم وحركاتهـم)** (2) .

1- السابق حـ ص 242 .
2- اللمع ص 431 .

ومحو الحق لكـل أحـد وإثباتـه على مـا يليـق بحاله (1) .

[5] - خامسها : التلـــوين والتمكـين

وهمـــا حـــالان يلقيـــان الضـــوء على أربـــاب المرحلـــة الختاميـــة من مراحـــل الســـفر فى

التجربـة الإيمانيـة لأوائـل الصـوفية ، فـالتلوين صــفة أربــاب الأحــوال والتمكين صــفة أهــل الحقـائق ، فمـا دام العبـد فى الطريـق فهـو صاحب تلوين ، لأنه يـرتقى من حـال إلى حـال وينتقـل من وصـف إلى وصــف ، ويخـرج إلى مرحلـة أخـرى ، فـإذا وصـل تمكن ، وصـاحب التلـوين أبـدا فى الزيـادة ، وصـاحب التمكن وصل ثم اتصل ، وأمارة أنه اتصل ، أنه بالكلية عن كليته بطل (2) .

يقول القشيرى :

(العبد مادام فى الترقى ، فصاحب تلـوين يصـح فى نعتـه الزيـادة فى الأحوال والنقصـان منهـا ، فـإذا وصـل إلىالحق بانخناس أحكام البشـرية مكنـه الحـق سـبحانه وتعـالى بـألا يـرده إلى معلولات النفس فهـو متمكن فى حالـه على حسب حاله واستحقاقه) (3) .

فـــالتمكين يـــدل على مقـــام الســـالك الروحـــــانى فى أفــــق الكمـــــال وأعلى

1- الرسالة حـ 1 ص 242 .
2- السابق حـ1 ص 252 .
3- السابق حـ ص 255 .

الدرجات ، فمن كانوا فى مقامـاتهم وأحـوالهم أمكنهم الانتقال من مقـام إلى آخـر ومن حـال

إلى آخر ، لكن صاحب التمكين ثـابت لا ينتقـل فالمقام رتبة أهل البداية ، والتمكين هو سـكن أهل النهاية (1) .

يقـول الهجـويرى مشـبها حـال التمكين ومـا قبلـه : **(المـاء يجـرى فى مجـرى النهـر حـتى يصـل إلى المحيـط ، فـإذا وصـل إلى المحيط وقف تياره وتغير طعمــه ، فمن طلب الماء لشربه ابتعد عنه ، أمـا فى طلب اللؤلـؤ فإنــه يجاهــد نفســه ويضع حبـل الطلب فى رأسـه ويغـوص تحت الماء برأسه مجدا فى نيـل اللؤلـؤ فإما يجده وإما يفقــد نفسه العزيـزة)** (2) .

ففى التمكين رفـع التلـوين (3) لأن العبـد انتقــل إلى درجــة النهايــة الــتى يتلقى فيهــا الأفضال الإلهية التى لا نهاية لها (4) .

* بين الفنـــــــاء والتحقــــق :

يوضــح الهجــويرى موقــع مرحلــة الفنــاء بالنسبة للمراحل التى تسـبقه والـتى تليـه فى السلســـلة المتدرجـــة للتصـــوف فيقـــول : **(الفناء درجـة كمـال يبلغهـا العـارفون الــذين تحـــرروا من آلام المجاهــدات وخلصوا من سجن**

____

1- كشف المحجوب ص 450 بتصرف .
2- السابق ص 450 .

3- السابق ص 451 .
4- الرسالة حـ 1 ص 255 .
المقامـــــات والأحـــــوال وانتهى بهم الطلب إلى الكشـــــف والحقيقـــــة فرأوا كل مرئى وسمعوا كـل مسـموع وأدركـوا كـل أسـرار القلب وأعرضـوا عن كــل شـئ وفنــوا عن مقصـدهم ، فثبت فى هذا المقصد كل مقاصدهم) حتى ظهـر فيهم قولـه : **(كنــت لـه سـمعا وكنـت له بصـرا)** (1) .

فالفنـاء بدايتـه نهايـة طريـق الحب ويـزادد بالأحوال السابقة قوة حـتى تـذهب المحـدثات فى شـهود العبـد وتغيب فى أفـق العـدم كمـا كانت قبل أن توجد ويبقى الحق تعالى كمـا لم يزل (2) .

وقد نبـه الهجـويرى إلى الاحتفـاظ بالكينونـة الذاتيـــة للإنســـان دون تلاشـــى أو اضـــمحلال فقــال : **(إذا قــالوا إن إرادة العبــد قــد فنيت فى إرادة الله فليس معـنى ذلـك فناء وجود العبد فى وجود اللـه ، تمامـا كما يذوب الحديـد فى النـار ، لأن النـار قـد تـؤثر فى صـفات الحديـد ولكنهـا لا تمس جوهره أو تغيره)** (3) .

فهو ينفى عن الفناء كـل مـا من شـأنه أن يمس الذات الإلهية من قريب أو بعيد ، فالفناء

فنـاء شـهودى ذوقى وليس فيـه أثـر لتـداخل البشرية

1- كشف المحجوب ص 243 .
2- مدارج السالكين حـ 1 ص 80 .
3- كشف المحجوب ص 243 .

فى الذات الإلهية على أية صـورة من الصـور ، ونهاية الفناء تؤدى إلى التحقق ، والتحقـق هـو المرحلـة النهائيـة فى الحيـاة الصـوفية ، ومـا كانت المرحلتان السـابقتان إلا مقـدمتين لهـذا التحقيق .

* فالمـــرحلة الأولــــــى :

مرحلـــة المقامـــات الـــتى تنتهى بمقـــام الحريـة ، حيث يبـدأ الصـوفى اجتيـاز الطريـق بالرياضـيات والمجاهـدات وتصـفية النفس من كدورتهـا ومحو الأوصـاف الذميمـة عنهـا حـتى يتحرر من رقها .

* المرحلـــــــــة الثـانيـة :

مرحلة الأحـوال والتـذوق حيث يجـنى منهـا الصـــوفى ثمـــرة المرحلـــة الأولى فيستشـــعر حلاوة الإيمـــان من خلال الأذواق والمواجيـــد التى تظهر فى طريق الحب ثم طريق الفناء .

وبعـد مـا تهيـأ الأمـر إلى أن خضـعت حياتـه الروحيـة بأسـرها لحقيقـة واحـدة اسـتوعبته وأخضعته لسلطانها قلبا ولسانا وجوارحا أصـبح مستحقا لتلقى المعارف والحقـائق الـتى ينـور

الله بهـا قلبـه ، فـيرى بنـور اللـه ويتحـرك فى ولايته .

* شكل تلخيصى للثمرة الثانية من ثمرات الحرية

[طـــريق الفناء]
[6] ـــــــــــــ الحقيقة والشريعة
[5] ـــــــــــــ التلوين والتمكين
[4] ـــــــــــــ المحـو والإثبـــات
[3] ـــــــــــــ الغيبة والحضور
[2] ـــــــــــــ الجمع والفـرق
[1] ـــــــــــــ الفنـاء والبقـاء
ـــــــــــ
[بداية الطريق] [نهاية الفنــاء بداية الحقيقة]

* الحقيقـــــــة والشريعـــــــة :
تتضـح ملامح الشخصـية النموذجيـة الـتى يســعى أوائــل الصــوفية لتحقيقهــا من خلال الترابـط بين الحقيقـة والشـريعة ، فالشـريعة أمــر بــالتزام العبوديــة والحقيقــة مشــاهدة الربوبيـة ، والشـريعة أن تعبـده والحقيقـة أن

تشـهده ، والشـريعة قيـام بمـا أمـر والحقيقـة شهود لما قصى وقدر (1) .

1- الرسالة حـ 1 ص 261 .

وليس معـنى هـذا أن الشـريعة فى جـانب والحقيقــة فى جــانب آخــر ولكنهمــا يلتقيــان ويرتبطان ويترتب أحدهما على الآخر ، فكلاهما واجب بأمر الله ، فلن يصل العبـد إلى مرضـاة اللـه إلا إذا سـلم بنـوعين من تـدبير اللـه فى ملكه ، وفيهما ملتقى سعى أوائل الصوفية :

1- أن يسلم بتدبيره الشرعى .

2 - أن يسلم بتدبيره الكونى .

ففى تــدبيره الشــرعى كــانت محــاولات الأوائل فى نفى تدبيرهم إلى تدبير اللـه ، ومن هنا يظهر الكمال فى تحقيـق الحريـة بإسـقاط التدبير واتباع الشريعة .

وفى تدبيره الكونى يظهر الرضا بقضاء الله وقـدره ، ليشـاهدوا الحقيقـة الربانيـة في فهم العلـة الغائيـة من خلقـه وخلـق العـالم بأسـره وليدرك إبداع الله فى صنعه فى تـرتيب الابتلاء وتدافعه وتلاحقه على العبد .

يقـول القشـيرى : **(كـل شـريعة غـير مؤيـدة بالحقيقـة فغـير مقبـول كـل حقيقـة غـير مقيـدة بالشـريعة فغـير محصـول ، والشـريعة جـاءت بتكليـف**

الخلق والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، وإذا علم أن الشريعة حقيقة من حيث أنهـا وجبت بـأمره ، فالحقيقـة أيضـا شـــريعة من حيث أن المعـــارف بـــه سبحانه وتعالـى وجبت بأمره) (1) .

1- السابق حـ 1 ص 261 .

فالحقيقـة والشـريعة ركنـان أساسـيان فى الحياة عند أوائـل الصـوفية يـدوران على فلـك الحريـة ، حريـة عقائديـة فى فهمهم لخلقهم وتـركيبهم وإبـداعهم أحـرارا بوصـف الحريـة ، وحريـة عمليـة تطبيقيـة فى الـتزامهم بمنهج العبودية .

فالأمر إفراد للـه وتوحيد لـه فى العبوديـة ، وإفراد للـه وتوحيـد لـه فى الربوبيـة والتزامـا بقولـه تعـالى : **{ إيـــاك نعبـــد وإيـــاك نستعـــين }** فإياك نعبد حفظ للشريعة وإياك نستعين إقرار بالحقيقة (1) .

وإذا كـانت الحقيقـة الصـوفية مبنيـة على المشاهدة والمعرفة ، والمشاهدة فيهـا أحـوال ومعان صادقة ، والمعرفة فيها صفة من عرف الحق سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وصـدق فى معاملاته ، فالأمر كلـه لا يخـرج عن الغايـة السـابقة فـإذا صـار العبـد من الخلـق أجنبيـا ، ومن آفـــات النفس بريـــا ومن المســـاكنات

والملاحظات نقيا ، وصار ملهما من قبل الحــق سبحانه وتعـالى بمعرفـة أسـراره فيمـا يجريـه من تصـاريف أقـداره فإنـه يسـمى عنـد ذلـك عارفا ، وتسمى حالته معرفة (2) .

وإلى هنا فيما أعتقد ينكشف مفهـوم القـدر والحريــة عنــد أوائــل الصــوفية فــإن وفقت فالحمد لله وإن أخطأت فأستغفر اللـه لـذنبى وأدعـو اللـه أن يهئ الأسـباب لخدمـة الكتـاب والسنة .

1- السابق حـ 1 ص 261 . 2- السابق حـ 2 ص 600 .

الخــاتمـــة

قائمة المراجع

فهرس الموضوعات

*** الخــاتمة ***

بعــد عرض مفهوم القدر والحرية عند أوائل الصوفية سـواء كـان من الناحيـة الاعتقاديـة أو الناحية العملية السلوكية ، فإن البحث جاء فى مقدمة وثلاثـة أبـواب ، كـل بـاب اشـتمل على فصـلين ، ففى المقدمـة بيـان سـبب اختيـار البحث وأهــمية الموضــوع ثم منهج الـبحــث وخطـته .

وفى البـــاب الأول تعرفنــــا على مفهوم الحرية وواقـع أوائـل الصـوفية من خلال فصلين :

أولهما جــاء فيــه نســبة التصـــــوف ومعنــاه ودراسـة العوامـل الـتى أسـهمت فى ظهوره ثم موضوع التصــوف وأهـم قضاياه .

وثانيهما جاء فيـه معـنى الحريـة لغـة وشـرعا ثم الحريـة فى تـاريخ الفكرالإسـلامى وكيف تكون منهجا للحيـاة الإسـلامية الفاضـلة فى شتى المجالات 0

وفى البــاب الثــانى تعرفنــا على الحريـة مــن الجـانب الاعتقـــادى عنـد الصــوفية من خلال مفهــوم القضــاء

والقدر وعلاقته بالحرية ، وقد جاء ذلـك فى فصلين :

أولهما عن موقــف أوائــل الصــوفية من صفـات الله وعلاقته بموضـوع القـدر والحريـة وجــاء فيــه منهج أوائــل الصــوفية فى فهـــم المســـائل الاعتقـــادية ومـوقفهم من صـفات الذات وصفات الفعـل وكيـف كـان إفـراد اللـه بالفاعليـة من خلال فهمهم لمـــراتب الإيمـــان بالقـــدر هو أساس العقيـدة عندهم .

وثانيهما عن الحرية وأصـالتها فى الـذات الإنسـانية عنـد أوائـل الصـوفية من خلال ذكـر مفهـــوم الـذات الإنسـانية عنـدهم ، وكيـف أن الإرادة الحرة أصيلة فى الإنسان ؟ ثم دوافـــع الإرادة وموضـــوع الاختيـــار البشـــرى ومجالـــه عندهم ، وكيف يفسرون العلاقـة بين المشـيئة الإلهية المطلقة والإرادة الإنسانيـة الحادثة ؟

وفى البـــاب الثـــالث تعرفنـــا على الحريــة من الجــانب العملى الســلوكى من خلال فصلين أيضا :

أولهما عن الاستطاعة البشرية والفاعلية الإلهيــة ، وقـــد جـــاء فيـــه أن الاســـتطاعة من مقومات الحرية عنـد أوائـل الصـوفية ، وكيـف فسروا علاقتها بالعلل والأسباب ؟ وكيف تكون العلاقة بين الفاعلية الإلهية والفاعلية الانسانية ؟ وما هى العلة من خلق الأواسط والأسباب ؟

وفى الفصـل الثـانى جـاء الحـديث عن الحــــرية ومنهــــج العبــــودية من خلال اعتبارهم للعقل ومـا يحصـله من علم ضـرورة لقيـام معـنى الحريـة ، ثم بيـان الحــــرية فى الاصــطلاح الخــاص الــذى قرنــوه وكيــف أن المقامات الصوفية فيها إرادة الحرية والأحوال الصوفية فيها ثمار الحرية ؟

**** نتائج البحث وأهم التوصيات :***

*أولا : نتـــائج البحــث

يمكن تقسيم النتائج التى توصلت إليها إلى نوعين :

* النـــــــوع الأول : نتـــائج على مســـتوى موضوع البحث ، فمن خلال ما ورد فى أبــواب الرسالة وفصولها وما يتعلـق بموضـوع الحريـة يمكن أن نصل إلى النتائج الآتية :

[1] - اتفـاق المنهج الصـوفى لأوائـل الصـوفية مع المنهج السـلفى فى دراسـة موضـوعات العقيـدة ، فكلاهمـا أعطى نصـوص الـوحى الأولويـة والصـدارة فى تقريـر العقيـــدة ، وجعلــوا العقــل فى منزلــة المتلقى الــذى يستوعب ما جاء فى النقـل دون اعـتراض ، لأنهم أيقنوا أن الله الـذى خلـق العقــل من المحال أن يوحى إليه ما يصادمـه أو يعارضه ، كما أنهم جعلـوا العقل حارسـا على النقـل يســير معــه فى اتجــاه واحــد ، فلم يمنعــوا

إعمال العقل فى خدمة الكتاب والسنة ، ولكنهم منعوا أن يستخدم النقل للعقل مطية يوجهها هوى الإنسان كما فعل كثير من المتكلمين والفلاسفة .
[2] - أن أوائل الصوفية أثبتوا القدم فى صفات الأفعال كما أثبتوا القدم فى صفات الذات ولم يفرقوا من حيث وحدة المنهج بين صفة هى صفة ذات أو صفة هى صفة فعل ، فالقول فى صفات الذات كالقول فى صفات الأفعال ، ولا يلزم من ذلك القول بقدم العالم أو القول بأبدية المفعولات ، فالمقاييس العقلية التى تخضع لها المخلوقات لا تحكم الخالق بحال من الأحوال .
[3] - أنهم أثبتوا معية الله لخلقه فى مجال الصفات وإن شذ بعضهم وقال بالحلول والاتحاد ، إلا أن أغلب أوائل الصوفية قبحوا هذا القول وفندوه بالردود المختلفة وبيان الحق .
[4] - أنهم أفردوا الله بالخلق والفعل وجعلوا ذلك أساسا لعقيدة التوحيد وركيزة للإيمان بقضاء الله وقدره ، ومن ثم أفردوا الله بخلق أفعال العباد سواء كانت طاعة أو معصية ، كما أنهم قالوا بالتدرج فى ظهور الأشياء من كونها معلومة فى علم الله فى

الأزل إلى تـدوينها فى اللـوح المحفـوظ ثم انتقالهـا إلى القـدر فى الخلـق بالمشـيئة والقضاء .
[5] - أنهم أثبتوا الاختيار الإنسانى كمقـوم أول من مقومات الحريـة وذلـك من خلال وجـود الإرادة الحـرة وأصـالتها فى الإنسـان ، حيث تعمـــل فى مجـــال محـــدد بين طـــريقين معروضـين لحظـة الاختيـار أحـدهما يمثـل طريق الخير والآخر يمثل طريق الشر .
[6] - أنهم آمنـوا بوجـود زوجين متقـابلين من الخواطر والبواعث الداعيـة إلى حث الإرادة وحضـها على الحركـة والعمـل ، وأن هـذه الخـواطر مصـدرها وجـود نـازعين نفسـيين متقـــابلين ومتضـــادين ، وهمـــا النفس فى مقابـل الـروح ، ثم وجـود هـاتفين بلمـتين ودعوتين وهما الملك فى مقابل الشـيطان ، حيث يتشـــكل حـــديث النفس من متابعـــة العقل لهـذه الأركـان ، كمـا أنهم فرقـوا بين حـديث النفس وكسـب الإرادة بالنيـة وعقـد القلب ، كـل ذلـك إثباتـا لحريـة الإنسـان ، وتوقيعا للمسؤلية على أفعاله .
[7] - أن أغلب أوائل الصوفية جعلـوا موضـوع الاختيار البشـرى الجنـة فى مقابـل النـار أو تفضيل الآخـرة على الـدنيا ، وجعلـوا مجـال الاختيار محصورا فى اتباع السنـــة والالـتزام

بأحكام التكليف ، وأن بعضهم جعل موضـوع الاختيار البشرى ذات الله فى مقابل التخلى عن الــدنيا والآخــرة وأن تكــون العبــادة مقطوعة عن العوض وقد خطـاهم كثـير من أقرانهم .
[8] - أنهم فرقـوا بين مشـيئة اللـه وإرادتـه ، فالمشـيئة عنـدهم لا تكـون إلا كـونية ، أمـا الإرادة فهى على وجهين وجـه كـونى ووجـه تشــريعى فالعلاقــة بين الوجــه الكــونى والأفعـال الإنسـانية علاقـة إيجـاد وإنفـاذ فلا تتخلف فإذا أراد الله شـيئا أن يقـول لـه كن فيكون ، أمـا العلاقـة بين الوجـه التشـريعى والإرادة الإنسانية فهى علاقة تكليــف وابتلاء فقــد تتخلــف فــالإرادة الكونيــة والإرادة التشريعية تجتمعـان فى المـؤمن وتفترقـان فى الكافر .
[9] - أن أوائــل الصــوفية أثبتــوا اســتطاعة الإنسـان الذاتيـة على تنفيـذ الفعـل المختـار وجعلوا ذلك من مقومات الحرية وأنها تكون مع الفعل لا تتقدمه ولا تتأخر عنه ، وأن الله سخر الأشياء للإنسـان بحيث تسـمح بقبـول فعل الإنسان وتأثيره فيها واستعلائه عليهـا ، ليتحقق معنى الابتـلاء باستخلافه فى الأرض .

[10] - أن عقيدة الصوفية الأوائل فى التوكـل تنفى عنهم تهمـة التواكـل والاعتمـاد على الجبرية الإلهيـة ، فهم نظـروا للأسـباب على أنهـا أدوات بيـد القـدرة لتنفيـذ مـراد اللـه ، فليس لهـا فاعليـة مسـتقلة عن فعـل اللـه ولكن اللـه نظمهـا لإبـراز الحكمـة من خلـق السـماوات والأرض فجعـل فى الأشـياء أسـباب حـق وأواسـط صـدق تحتجب من خلالها صفاته الفاعله عن الخلق ليبتليهم .

فـالجوارح تتوجـه عنـدهم إلى الأسـباب والقلب يتوجـه إلى اللـه على الـدوام راضـيا بمـا سـيمنحه اللـه لـه من خـزائن القـدرة ، ومن ثم فإن نفوسهم تسـكن إلى اللـه قبـل كل شئ سواء كان الـرزق بأسـباب أو بغـير أسباب ، وهذا المفهوم يعد بحـق معـبرا عن عقيدة السلف الصـالح المبنيـة على القـرآن والسـنة فى إظهـار دقـائق التوحيـد ونفى الشـرك الجلى والخفى فى السـكون إلى الأسباب أو نسبة الإيجاد والامداد إليها .

وكما أنهم أثبتوا وجهين لإرادة الله كذلك أثبتوا وجهين للأفعال البشرية ، وجـه الفعـل فيه مخلـوق لله ، ووجه الفعل فيه مكتسب للعبـد يمثـل سـلوكا خلقيـا لـه ، **فبالوجـه الأول** يظهـر معـنى كـونهم مربـوبين للـه ،

وبالوجــه الثـانى يظهــر معــنى كــونهم متعبدين بمنهج الله .

وكل ذلك موافقة لقوله تعـالى : **(فأمـا مـن أعطى واتقى وصـدق بالحسـنى فسنيسـره لليسـرى وأمـا من بخــل واســتغنى وكـــذب بالحسنـــى فسنيســره للعسـرى)** (1) .

[12] - أنهم أثبتوا العلم كمقوم ثالث للحريـة ، فالإنسـان معـذور بجهلـه عنـدهم حـتى يعلم الأحكـــام ويعقـــل مـــدلول الكلام ، وفى إيمانهم بتعليم الله لآدم الأسماء دعــوة إلى العلم والبحث والنظـر واستخـــدام العقـول لخدمة دين الله وبمـا يعـود على العبـد مــن الوصــول إلى مرضاة الله .

[13] - أن أوائــل الصــوفية لهم الســبق فى إنشــاء اصــطلاح للحريــة يغــاير المفــاهيم الفلسفية والكلامية ويحمل فى طياته تكامل المـذهب فى إثبـات الحريـة بالعبوديـة للـه والتحرر مما سواه ، سواءا كانت الحرية فى القلب أو اللســان أو الجــوارح ، فمقـــدار الحرية فى الإنسان يتحـدد بمقـدار العبوديـة لله والخروج من عبودية ما سواه .

[14] - أن أوائــل الصــوفية رســموا طريقــا للحرية من خلال المقامات

1- الليل / 5 : 10 .

والمجاهدات التى تزيد الإيمان شـيئا فشـيئا حتى يصل إلى الكمـال فيـه ويبـدأ الطريـق بمقــام التوبــة ثم الــورع والزهــد والصــبر والتوكل والرضـا وينتهى بالحريـة ، فالحريـة عندهم آخر مقام للعارف ، ثم جعلـوا لحلاوة الإيمــان مذاقـــا يتمثــل فى طريــق الحب وطريــق الفنــاء إلى أن يصــل العــارف إلى التحقق ، وكل ذلـك ليس نحتـا من أذهـانهم لخدمة قضايا الإيمان وفقط ولكن تعبيرا عن وجدانهم وتجربتهم التى خاضوها ، فأسفرت عن هــذه المعــانى والحقــائق ، وعلى ذلــك فـإنهم وفقـوا إلى التخلص من المتناقضـات واللــوازم فى العلاقــة الــتى تربــط بين اللــه وبين الإنســان من ناحيــة وبين اللــه والعــالم من ناحيـــة أخـــرى بحيث يمكن القـــول إن مــذهب أوائــل الصــوفية يعــبر بصــدق عن حقيقة هذه العلاقة ، فهو لا يختلـف إلى حـد مــا عن منهج الكتــاب والســنة فى عــرض الموضوع ، فالعلاقة بين اللــه وبين الإنســان هى علاقة عبودية يؤديها الإنســان لربـــه من خلال معـنى الابتلاء فى الأرض والاسـتخلاف فيها ، والله سبحانه وتعـالى كيفـه بالصـورة التى تمكنه من تحقيق هذه الغاية ووهبه كل مقومـات الحريـة السـابقة ليعــى دوره فى

الحيـاة ، ويعقـل الأشـياء عن اللـه ويتحمـل المسـئولية عن أفعالـه الخلقيـة ، فيتحقـق معنى العدل والجزاء .
كمـا أن العلاقـة بين اللـه والعـالم فى تصورهـم هى علاقة ربوبيـة فالخلـق كلـه مـربوب للـه انفرد الله بإيجاده وتسييـره بقدرته وانفرد برعايته وعنياته ولطفـه ، فلم يخلق الخلق وينعزل عنه كما هو الحال عنـد الفلاسفة أو خلقـه وجعـل عقولا فعالة تنفرد بتسييره وتدبير حاله من دونه كما هو الحال فى اعتقاد غلاة الصوفية فى الأقطاب الـتى تتحكم فى الكـون بتفـويض من اللـه ، أو أن الطبيعـة هى الـتى تحكم قدرتـه سـبحانه وتعالى فلا يفعل إلا من خلال قوانينها وكـل هـذه المنزلقـات الفكريـة ردهـا أوائـل الصوفيـة وأمنـوا بـأن الأسـباب الموضـوعة فى الكون سواء كانت أسبابا غيبية أو أسبابا مشـهودة مـا هى إلا مجـرد أدوات فى يـد القـدرة يفعل الله بها أو بغيرهـا .
فمن جانب ينصر بها أولياءه على أعدائـه فيؤيدهم بالأسباب وغيرها فتظهر المعجزات للرسـل والكرامـات للأوليـاء ، ومن جـانب ينظرون فى بـديع الصـنع فـيزدادون إيمانـا ، كـل ذلـك يضـاف إلى أن اللـه خلـق الـدنيا وسيلة إلى الآخرة وليست غاية ، فـإذا أدرك

الإنسان ذلك جعل اهتمامه منصبا فى الغاية من خلقه ، وتملكته عبودية ربـه فلا يحـزن لفوت لذة أو يفرح بتحصيل عاجل لعلمه أن الله يقلب الأمور ويصـرفها ابتلاءا واختبـارا ، فيعمـل للإعـداد لـدار البقـاء حيث النعيم المقيم والفرح الدائم الذى لا ينقطع .

إن الحريـة الحقيقيـة للـذات الإنسـانية لا تـؤتى ثمارهـا عنـد أوائـل الصـوفية إلا إذا أدرجت فى الحسبان موقفها من الموت وما بعده فالـذى يـرى المـوت عـدما يحـاول أن يغتنم الحيـاة كـدار للنعيم يلتهم منهـا على قـدر مـا يسـتطيع ويغفـل الجـانب الحقيقى لمعنى الحياة والحكمة الإلهية من إنشـائها ، فيتخبط فى سلوكه مرة بين الحسرة ومـرة بين التناسـى ، ولا بـد من حتميـة اللقـاء المـرتقب الـذى حـاول أن يتملص منـه بالهروب إلى هوى النفس والخضوع له .

ومن ثم يمكن القـول أن خلـق الإنسـان بـإرادة حـرة يمثـل عنـد أوائـل الصـوفية وسيلة لإبراز هذه الغاية الحقيقية فى ميدان العبودية والمجاهدات أو ميدان إرادة الحرية .

فالكمـال الإنسـانى يكمن فـى ارتقـاء الانسـان إلى مـا فـوق سـلطان الشـيطان والشـر والنفس ، ودخـول الانسـان فى

عبودية الله بإرادته هو السـبيل الوحيـد عنـد أوائــل الصــوفية للمحافظــة على حريتــه وتحقيق ذاته ، إذ أنه يضع نفسه فى موقعــه الصحيح بين الكائنات فينضم إليها ويشاهدها عابدة بحقيقة الربوبيـة فينخـرط معهـا بنفى تدبيره إلى تدبير الله ، وخضـوعه وإخضـاعه لمـا منحـه اللـه من نعم وفضـل ممـا يجعـل الإنسان كائنا على قمة الكائنات .

وإذا كانت المطالب الإنسـانية إمـا ماديـة تخــدم حاجـات الانســان الجســمية كالأكـل والشرب والملبس وغيرها أو مطالب روحية تخــدم حاجــة الــروح فى الاسـتقامة وراحــة الضـمير ، فإن أوائل الصوفية بينوا الموقـف الصــحيح من خلال رؤيتهم للخلاص من كــل الضروريات النفسية والطبيعية الــتى ابتلاهم اللــه بهــا وقــدموا رؤيــة ناجحــة لاســتعلاء الإنسان على الحياة وحفظ كرامته بين خلق اللــه ، وذلــك من خلال اختيــاره لربــه دون غيره ليسلم له نفسه وماله وكل ما يملك .

* النــــــوع الثــــانــــــى :

نتــائج على مســتوى موضــوع التصــوف ، فمن خلال البحث عن مــــادة الموضــــوع فى تراث التصوف يمكن استخلاص النتائج التاليــة :

[1] - أن العلوم الموروثة عن أوائـل الصـوفية نتاج للتعبيرات الوجدانية الناشئة من دخـول المسـلم للمعامـل الإيمانيـة ، فهـو اجتهـاد لطائفـة من المسـلمين الأوائـل فى شـرح طبيعـة الحالـة الإيمانيـة عنـد المـرور بهـا أو الوصول إلى منتهاها ، فهـو فكـر قـائم على خدمة العقـل والوجـدان لإبـراز مصـطلحات خاصـة بالمراحـل الإيمانيـة ممثلـة فى المقامـات والمـذاقات الإيمانيـة ممثلـة فى الأحـوال ، وهذا الفكر قد يلتقى مـع الـوحى وقد يفترق عنه شأنه فى ذلك شأن العلـوم الأخـرى ، ومن الخطـأ الكبـير أن يتصـور البعض أن فكر أوائل الصـوفية هـو الإسـلام فالإسـلام فاضـت منـه العلـوم بغـزارة كـان التصوف واحدا من تلك العلوم .

ومن ثم فـإن التصـوف من حيث المبـدأ أصـيل المنشـأ فى البيئـة الإسـلامية ، فلا مؤثرات أجنبية ملحوظة حتى القرن التـالث الهجـرى على الأقـل ، فـالأمر طالمـا أنـه اجتهـاد لخدمـة الـدين وتجسـيد لمـذاقات العبودية فى صورة نظرية فمن المعقول أن يختلف الأمر من شخص إلى آخر ومن مذاق إلى آخر ، ومن ثم فسـوف يأخـذ منـه ويـرد وسـوف يخضـع لعوامـل التطـور واحتمـال الخطأ والصواب والنقد والمخالفة .

[2] - أن التوحيـد الصـوفى عنـد أغلب أوائـل الصـوفية لا يجـافى التوحيـد السـنى بـل يتـآزران فى التعبـير عن عقيـدة الكتـاب والسـنة فالتوحيـد الصوفى لأوائل الصوفية شـدد على ضـرورة التخلص من خفايـا الشـرك والريـاء والكـبر وعبوديـة الـدرهم والـدنيار والنفس والشـيطان ، ولم يثبت عن واحد منهم أنه بنى مسـجدا على قـبر شـيخ من شـيوخه أو أقـام مولـدا أوفعـل مـا يفعلـه كثـير من أصحاب الطرق الصـوفية فى العصـر الحاضر من دعـاء الأمـوات والعكـوف على قبـور المشـايخ والنـذر لهم والاسـتعانة بهم والتوكـل عليهم أو شـد الرحـال إليهم بـل أقـوالهم فى التوحيد تدل على السمو فى تحقيقه وتجسيده .

[3] - مقاومـة أغلب أوائـل الصـوفية بصـورة شـديدة للتقصـير فى العبـادات بـدعوى الإنمحاء وسقوط أوصاف البشرية ، وكـذلك منعـوا النظـر إلى الأحـداث والإجتمـاع بهم ورأوا أن ذلك محرم وكل من أجاز ذلك

فهو مشرك على حد تعبـير الهجـويرى فى كشف المحجوب (1) .
وكـذلك قـاوموا بشـدة مرافقـة النسـوان والاختلاط بهم والاســتتار تحت المرقعـــات والتواكـل وسـؤال النـاس والـذكر بـالرقص المعهود على عكس ما هو قائم فى الطـرق الصـوفية حاليـا وأنـه لا أسـاس للـرقص فى الدين ولا فى طريق أوائل الصوفية ولا قـال به أحد من المشـايخ .
وكذلك قاوموا كل مـا يحـدث فى مجـالس السماع من حركات تحت اسم الانجــذاب أو الولايـــة فالتصــوف كــان يحمــل المعـــانى الإيجابية ويحض على الاتباع دون الإبتداع .
[4] - أن السلبيات الصوفية التى وجـدت عنـد الأوائـــل وأثـــرت على الزيـــادة فى زاويـــة الانحراف عبر القرون ثتمثل فيما يأتى :
ا - الغلـو فى الطاعـة والالـتزام بمـا ليس بلازم من الأحكـــام ، فكثـــير منهم نـــزل المندوب منزلة الوجوب وشق على نفسه فى كثير من النـواحى الـتى جعـل الشـرع فيهـــا مندوحـــة وســـعة فأصـــبحت هـــذه الالتزامات سنة عند المتـأخرين لا يسـعهم الخروج عنهـا وكـل طريقـة شـددت على المريدين فى الالتزام بمنهجها الخاص وإن

لم ينسجم مع السنة فى كثير من النواحى .

ب ــ اتباع الكثير من العامة للتصوف عن جهل بحقيته فتشبهوا ـــــــــــــــــــ

1- كشف المحجوب ص 502 .

بالمشـــــايخ فى ظـــــاهر اللبــــاس ومعظم الشـطحات والـزلات ثم اجتهـدوا فى نمـاء ذلك بجهلهم فضلوا وأضلــوا وحسـب ذلـك على التصوف .

وقد كان لهذا العامل مـن التأثير ما فتــح البــاب لــدخول عوامــل الهــدم والمكيــدة للإسـلام والمسـلين تحت عبـاءة التصـوف فدخلت المؤثرات الأجنبية واختلطـت الأمور .

جــ ـــ وجـود بعض الآراء المتطرفـة الـتى ألصقها الناس فى أذهـانهم بعامـة الصـوفية دون بعضـهم ، فـآراء الحلاج وشـطحات أبى يزيد البسطامى والشبلى والنـورى وغـيرهم جعلت النـــاس يرفعونهـــا على حســـاب التصــوف من ناحيــة ، وإهمــال الموقــف الإيجابى للمشايخ فى التـبرؤ منهـا وتقبيحهـا من ناحية أخرى وممـا زاد فى الصـاق هـذه الأفكار بهم أنها وجدت قوة لتثبيتهـا وإظهـار شـــوكتها عنـــد ابن عـــربى وابن الفـــارض

وغيرهما فأثمرت هذه الآراء علقمـا وحنظلا ذاق المسلمون مرارته .
د ـ الاستغلال السيئ لبعض المصـطلحات الصوفية من قبـل المرتسـمين بالتصـوف أو المعـادين لـه ، فمن خلال عـرض أوائـل الصـوفية لأقـوال المخطـئين فى فهم هـذه المصطلـحات ، يسـتطيع البـاحث أن يـرى مدى الجهد المبـذول لكشـف المقصـود فى اسـتعمال المصـطلح المعين من ناحيـة ، وفهم الأثـر السـيئ لهـذه المصـطلحات والجهد المطلوب لرده من ناحية أخرى .
* ثانيا أهـــم التوصيـــات
[1] - أوصى المسلم أن يتبع الشـرع بمـيزان الاعتـدال ، لأن الغلـو ابتـداع فى دين اللـه وقدح فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم ووصـف لأصـحابه بالتقصـير فى الالتزام ولـذلك قـال حذيفـة بن اليمـان : **(كل عبادة لـم يتعبـد بهـا أصـحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم ، فلا تتعبدوا بهـا فـإن الأول لم يـدع للآخر مقالا ، فـاتقوا اللـه يامعشـر القـراء خـذوا طريـق من كـان قبلكم)** (1) .
كمـا أن الغلـو فى جـانب سـوف يـؤدى إلى التقصـير فى جـانب آخـر على وجـه

الضـرورة ، فاسـتطاعة الإنسـان محـدودة وقدرتـــه مهمـــا بلغت تتـــأثر بضـــعفه فى النــواحى الأخــرى ، واللــه سـبحانه كلفنــا بمنهج يتناسب مع فطرتنـا فقـال سـبحانه: **{ لا يكلـــــف اللـــــه نفســـــا إلا وسعهـــــا }** (2) فالمنهـــج الإســـلامى فيــه الخير

1- انظـر شـرح أصـول اعتقـاد أهـل السـنة والجماعـة للالكائى حـ 1 ص90 ، وحلية الأوليـاء حـ 1 ص 280 ، وأخـرج البخارى نحوه عن حذيفة رضى الله عنـه انظـر كتاب الاعتصـام بالكتـاب والسنـــة بـاب الاقتـداء بسـنن رسول الله صلى الله عليه وسلـم برقم (7282) .
2- البقرة / 286 .

ولا خير أفضل منه .

[2] - وجوب الاعتدال فى النظر إلى التصوف ورجـــاله ، فكـل يأخـذ من كلامـه ويـرد ولا يصح التحامـل عليهم مطلقـا ولا الموافقـة لهم مطلقا صحيح أن الواقع الصـــوفى فى العصـر الحاضـر يكـوِّن صـورة بغيضـة عن الصوفية وأبناء جنسهم مطلقـا ، لكن اللـه أمرنا بالعـدل فقـال سـبحانه : **{ يا أيهـا الـــذين آمنـــوا كونـــوا قـــوامين للـــه شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قـــوم على ألا تعـــدلوا اعـــدلوا هـــو**

أقرب للتقوى واتقـوا اللـه إن اللـه خبير بما تعملون } (1) .

فمشايخ الصـوفية الأوائـل لهم كلام بـديع يعبر عن حقيقة الدين ولبعضهم شـطحات فى بعض الأوقات تخرج عن حد الدين .

قد أحسن شيخ الإسلام ابن تيميـة حين قال : **(تنازع النـاس فى طريقتهم ، فطائفـة ذمت الصـوفية والتصـوف وقالوا : إنهم مبتدعون خارجون عن السنة ، وطائفة غالت فيهم وادعـو أنهم أفضـل الخلـق وأكملهم بعـد الأنبيـاء ، والصـواب أنهم مجتهـدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهـل طاعـة اللـه ففيهم السـابق المقرب بحسـب اجتهـاده ، وفيهـم المقتصـد الـذى هـو مـن أهـل اليمـين ، وفـى كـل مـن الصنفـين مـن قـد يجتهـد**

1- المائدة / 8 .

فيخطئ ، وفيهم من يـذنب فيتـوب أو لايتوب (1) .

[3] - ضـرورة إبـراز المعـانى الاسـلامية من خلال مصطلح الحرية للشباب المسلم فى العصـر الحاضـر حـتى يتمكن من فهم

الطريقــة الســليمة للتفكــير فى الحيــاة واجتيـاز عوائقهـا إلى السـعادة فى الـدنيا والآخرة فقد نجح الصوفية الأوائل عندما ربطوا الحرية بالعبودية فى رفـع الضـغوط النفســية والتحــرر منهــا ، ورفــع تــأثير الضــــروريات الماديــــة عن ســــلوكهم وحياتهم ، ومن جـانب آخـر حققـوا الغايـة من خلقهم ووضعوا أنفسـهم فى الموضـع الصحيح من هذا الكون حيث قال تعالى :

{ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون } (2) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينـا محمـد وعلى آله وصحبه وسلـم

** ** **

1- الصوفية والفقراء ص 6 ، 7 .
2- الذاريات / 56 .

*** مراجع الرسالة ***

1- الإبانة عن أصول الديانـة ، للإمـام أبى الحسـن الأشعرى تحقيق الدكتورة فوقية حسين محمـود ، طبعـة دار الأنصار ، القاهـــرة سنة 1397 هـ .

2- الإحسان فى تقريب صـحيح ابن حبـان ، تـأليف الإمام ابن أبى حـاتم محمـد بن حبـان البسـتى ، تحقيـق شعيب الأرنؤوط ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت سنة 1988م .

3- إحياء علوم الدين ، للإمام أبى حامد الغــزالى ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الحلبى ، القاهرة سنة 1377 هـ ، 1957م .

4- أخبـــار الحلاج ، جمـــع الأســـتاذين : لـــويس ماســـينيون ، وبـــول كـــراوس طبـــع فى بـــاريس ســـنة 1936م .

5- آداب المريدين ، تأليف أبى النحيب ضياء الدين السهروردى تحقيق فهيم محمد شلتوت ، طبعة دار الوطن العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

6- آداب المريدين وبيان الكسب ، للإمام الحكيم الترمذى ، تحقيق الدكتور عبد الفتاح عبدالله بركة ، طبعة مطبعة السعادة ، القاهرة بدون تاريخ .

7- أدب النفس ، للإمام الحكيم الترمذى ، تحقيق الأستاذ ج أربرى والدكتور على حسن عبد القادر ، طبعة مصطفى البابى الحلبى القاهرة سنة 1974 م

8- أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبى ، تأليف الدكتور عبد الحليم محمود ، طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة سنة 1973م .

9- الاستقامة ، لإبى العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، طبعة مؤسسة قرطبة الطبعة الثانية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

10- أصول الدين ، تأليف عبد القادر بن طاهر البغدادى ، طبعة استانبول ، تركيا سنة 1346 هـ ، 1928م .

11- أصول الملامتية وغلطات الصوفية ، تأليف الإمام أبى عبد الرحمن السلمى ، تحقيق الدكتور عبد الفتاح أحمد الفاوى محمد طبعة مطبعة الإرشاد ، القاهرة سنة 1405 هـ ، 1985م .

12- الاعتبار ببقاء الجنة والنار ، تأليف الإمام أبى الحسن تقى الدين السبكى ، تحقيق الدكتور طه الدسوقى حبيشى ، طبعة مطبعة الفجر الجديدة ، القاهرة سنة 1407 هـ ، 1987م .

13- الاعتصام ، لأبى اسحاق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الشاطبى ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

14- الاعتقاد على مذهب السلف أهل السنة والجماعة ، للإمام أبى بكر أحمد بن الحسين البيهقى ، تحقيق أحمد عصام الطالب ، طبعة دار الأوقاف الجديدة ، بيروت بدون تاريخ .

15- الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء والنساء من العرب والمستعربين فى الجاهلية والإسلام ، تأليف خيرى الدين الزركلى ، طبعة المطبعة العربية ، القاهرة ، سنة 1927م .

16- أعمال القلوب والجوارح ، لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، طبعة دار التراث العربى القاهرة ، سنة 1400هـ ، 1980م .

17- الاقتصاد فى أصول الاعتقاد ، تأليف الإمام أبى حامد الغزالى طبعة دار الأمانة ، بيروت ، سنة 1969م .

18- اقتضاء الصراط المستقيم لمخالفة أصحاب الجحيم ، تأليف شيخ الإسلام تقى الدين أحمد بن عبد

الحليم بن تيمية ، تحقيق الـدكتور ناصـر بن عبـد الكـريم العقــل ، طبعـــة مؤسســة العبيكــان ، الريــاض ســنة 1404هـ ، 1986م .

19- الأمـر بالاتبـاع والنهى عن الابتـداع ، للحافـظ جلال الدين السيوطى ، تحقيق مشهور حسن سـليمان ، طبعة دار الأرقم ، الدمام سنة 1410هـ ، 1990م .

20- الأم ، للإمام محمد بن إدريس الشافعى ، طبـع بعناية محمد زهرى النجار ، طبعة دار المعرفـة ، الطبعـة الثانية ،بيروت ، لبنان سنة 1393هـ .

21- الانتصار والرد على ابن الروندى الملحـد ، لأبى الحسين الخياط ، نشرة الدكتور نيـبرج ، طبعـة القـاهرة سنة 1344هـ ، 1925م

22- البدايــة والنهايــة ، لأبى الفــداء إســماعيل بن عمرو بن كثير القرشى الدمشـقى ، طبعـة المطبعـة السلفية ، القاهرة سنة 1351 هـ 1932م .

23- الـــبراهين الســـاطعة فى رد بعض البـــدع الشائعة ، تأليف الشيخ سـلامة العـــزامى تقـديم الشـيخ الكوثرى ونجم الدين الكردى ، طبعـة مطبعـة السـعادة ، القاهرة سنة 1366 هـ ، 1948م .

24- تـاريخ الإسـلام وطبقـات المشـاهير والأعلام ، لأبى عبـد اللـه محمـد بن أحمـد الـذهبى ، طبعـة مكتبـة القدس ، القاهرة سنة 1367 هـ .

25- تـاريخ بغـداد ، تـأليف أبى بكـر أحمـد بن على الخطيب البغـدادى ، طبعـة مطبعـة السـعادة ، القـاهرة 1349هـ ، 1931م .

26- تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهايـة القرن الثانى للدكتور عبد الرحمن بـدوى ، طبعـة وكالـة المطبوعات ، الكويت ، سنة 1975 م .

27- تـاريخ التصـوف فى الإسـلام ، تـأليف قاسـم غـنى ، ترجمـه عن الفارسـية صـادق نشـأت ، طبعـة النهضة المصرية ، القاهرة سنة 1390هـ ، 1970م .

28- تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمـد بـن جرير الطبرى تحقيـق أبو الفضـل إبـراهيم ، طبعـة دار المعارف ، القاهرة سنة 1383هـ ، 1964م .

29- التـاريخ الكبـير ، لأبى عبـد اللـه محمـد بن إسـماعيل البخـارى طبعـة مطبعـة دائـرة المعـارف النظامية ، حيدر آباد ، الهند ، سنة 1360هـ .

30- تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية للإمام محمد أبـو زهـرة ، طبعـة دار الفكر العربى ، القاهرة بدون تاريخ .

31- تذكـرة الأوليـاء ، لفريـد الـدين العطـار ، القاهرة ، بدون تاريخ

32- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ، تأليف الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفـر طبعـة دار الكتب الجامعيـة ، القاهرة سنة 1390هـ 1970م .

33- التصوف فى الإسلام وأهم الاعتراضات الواردة عليه تأليف الدكتور عبد اللطيف محمد العبد ، طبعــة دار الثقافة العربية ، القاهرة سنة 1407 هـ ، 1986م .

34- التصوف فى تراث ابن تيميــة ، تــأليف الــدكتور الطبلاوى محمود ســعد ، طبعــة الهيئــة المصــرية العامــة للكتاب ، القاهرة سنة 1405 ، 1984 م .

35- التعرف لمذهب أهل التصوف ، لأبى بكر محمد الكلاباذى تحقيق محمود أمين النـــواوى ، طبعــة مكتبــة الكليات الأزهرية ، القاهرة سنـة 1400 هـ 1980م .

36- التعليقــات ، وهى رســالة ضــمن أحــد عشــر رسـالة للفـارابى طبعـة دائـرة المعـارف العثمانيـــة ، حيدر آباد الهند ، سنة 1354هـ .

37- تفسير القرآن العظيم ، لأبى الفـداء إسـماعيل بن كثــير القرشــى الدمشــقى ، طبعــة دار إحيــاء الكتب العربية ، القاهرة بدون تاريخ .

38- تفسير القــرآن العظيم ، لأبى محمـد سـهل بن عبد اللــه التســترى طبعــة دار الكتب العربيــة الكــبرى ، القاهرة سنة 1329هـ .

39- تلــبيس إبليس ، لأبى الفــرج عبــد الــرحمن بن الجــوزى ، طبعــة مطبعــة القــاهرة الحديثــة للطباعـــة ، القاهرة ، سنة 1391هـ ، 1971م .

40- التنوير فى إسـقاط التـدبير ، تـأليف ابن عطـاء السكندرى تحقيق موسى محمد على المــوشى ، وعبـد العال أحمد العرابى القاهرة بدون تاريخ .

41- تهافت الفلاسفة ، لأبى حامد الغزالى ، تحقيــق سـليمان دنيـا طبعــة دار المعــارف ، الطبعــة الثالثــة ، القاهرة ، سنة 1972م .

42- تهــذيب الكمـــال فى أســماء الرجـــال ، لأبى الحجاج يوسف بن عبد الـرحمن بن يوسـف الدمشـقى ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة بدون تاريخ .

43- توحيـد الربوبيـة ، ضـمن مجمـوع فتـاوى شـيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الــرحمن بن قاســم وابنـــه محمـــد طبعـــة دار الإفتـــاء بالمملكة العربية السعــودية ، الرياض ، سنة 1381هـ .

44- جــامع البيــان عن تأويــل القــرآن لأبى جعفــر محمد بن جرير الطبرى ، طبعة دار المعرفــة ، بـيروت ، لبنان ، سنة 1398هـ 1978م .

45- الجامع الصحيح ، للإمام أبى عبد الله محمد بن إسـماعيل البخــارى ، تحقيـق وتـرقيم محمـد فـؤاد عبـد البـاقى ، مـع فتح البـارى طبعـة دار الريـان للـتراث ، القاهرة سنة 1407 هـ ، 1986 م .

46- الجـامع الصـحيح ، للإمـام مسـلم بن الحجـاج القشيرى ، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعة المكتبة السلفية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

47- جـــامع العلـــوم والحكم ، للإمـــام ابن رجب الحنبلى ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، سـنة 1369هـ ، 1948 م .

48- الحريـة فى الإسـلام ، تـأليف الشـيخ محمـد الخضر حسين طبعة دار الاعتصام للطباعـة الإسـلامية ، القاهرة ، سنة 1403 هـ 1982م .

49- الحريـة فى الإسـلام ، تـأليف الدكتـــور عبـد الواحـــد وافـى ضمن سلسلـــة كتاب اقرأ .

50- الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ، للـدكتور عبد الفتاح عبدالله بركه طبعة مجمـع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف القاهرة سنـة 1391هـ ،1971م .

51- حليـة الأوليـاء وطبقـات الأصـفياء ، لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهـانى ، طبعة مطبعـة السـعادة ، القاهرة سنة 1351هـ .

52- الحيـاة الروحيـة فى الإسـلام ، تـأليف الـدكتور محمد مصـطفى حلمى ، طبعـة الهيئـة المصـرية العامـة للكتاب ، القاهرة سنة 1984م .

53- ختم الأولياء ، تأليف الشيخ أبى عبد الله محمـد بن الحسن الحكيم الترمـذى ، تحقيـق عثمـان إسـماعيل يحى ، طبعة المطبعة الكاثوليكيـة ، بيروت ، 1965م .

54- خلق أفعال العباد ، للإمام محمد بن البخــارى ، تحقيـق على سـامى النشـار وعمـار الطـالبى ، طبعـة منشأة المعارف ، الإسكندرية سنة 1971م .

55- درء تعارض العقل والنقل ، لشـيخ الإسـلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، طبعة جامعــة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، السعودية سنة 1403 هـ 1983م .

56- دراســات فى الفلســفة الإســلامية ، تــأليف الدكتور محمود قاسم طبعـة مكتبـة القـاهرة الحديثـة ، القاهرة سنة 1972م .

57- الـدر المنثـور فى التفسـير بالمـأثور ، للحافـظ جلال الدين عبـد الـرحمن السـيوطى طبعـة دار الفكـر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

58- الـرد على الجهميـة ، تـأليف عثمـان بن سـعيد الدارمى ، تحقيق على سامى النشار ، وعمار الطـالبى ، ضمن عقائد السلف ، القاهرة بدون تاريخ .

59- الرد على الزنادقة والجهمية ، للإمـام أحمـد بن حنبــل ، نشــرة قصــى محب الــدين الخطيب ، طبعــة المطبعة السلفية ، القاهرة ، سنة 1399هـ .

60- الــرزق الحلال وحقيقــة التوكــل على اللــه ، للحــارث بن أســد المحاســبى ، تحقيــق محمــد عثمــان الخشت ، طبعة مطبعة القرآن القاهرة سنة 1405هـ ، 1984م

61- الرسالة العرشية ، وهى رسالة ضمن مجموعة تسع رسائل لابن سينا ، طبعة مطبعة كردستان العلمية ، سنة 1328هـ .

62- رسالة فى سر القدر ، لابن سينا ، ضمن الرسائل السابقة .

63- الرسالة القشيرية ، للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف ، طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة سنة 1974م .

64- الرياضة وأدب النفس ، للحكيم الترمذى ، تحقيق الأستاذ ج أربرى والدكتور على حسن عبد القادر ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة سنة 1947م .

65- زاد المسير فى علم التفسير ، لأبى الفرج جمال الدين بن الجوزى ، تحقيق محمد عبد الرحمن عبد الله ، طبعة دار الفكر الإسلامى ، القاهرة سنة 1987 م

66- السلوك ، ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد ، طبعة دار الإفتاء ، المملكة العربية السعودية ، سنة 1381هـ .

67- سنن ابن ماجه لأبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى بن ماجه ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعة عيسى الحلبى ، القاهرة سنة 1372هـ ، 1952م .

68- سنن أبى داود ، لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة سنة 1369هـ .

69- سنن الترمذى ، لأبى عيسى محمد بن عيسى الترمذى ، تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف ، طبعة مطبعة المدنى ، القاهرة سنة 1384هـ 1964م .

70- سنن الدارمى ، لأبى محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل الدارمى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، طبعة دار إحياء السنة النبوية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

71- السنن الكبرى ، لأحمد بن الحسين البيهقى ، طبعة دار الفكر العربى ، دمشق سوريا ، ومعه الجوهر النقى لابن التركمانى ، بدون تاريخ .

72- سنن النسائى ، شرح السيوطى ، لأبى عبد الرحمن بن شعيب بن على النسائى طبعة المطبعة المصرية ، مصطفى الحلبى القاهرة ، سنة 1383هـ ، 1964م

73- السياسة الشرعية ونظام الدولة الإسلامية فى الشئون الدستورية والخارجية والمالية للشيخ عبد الوهاب خلاف ، طبعة دار الأنصار ، القاهرة سنة 1977م .

74- سير أعلام النبلاء ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

75- سيرة الشيخ الكبير أبىعبد الله محمد بن خفيف الشيرازى ، تأليف أبى الحسن على بن محمد الديلمى ، تحقيق الدكتور إبراهيم الدسوقى شتا ، طبعة مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، القاهرة سنة 1397هـ ، 1977م

76- السيرة النبوية ، لأبى محمد عبد الملك بن هشام ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد ، طبعة مطبعة المدنى ، القاهرة سنة 1383هـ .

77- شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ، لأبى الفلاح عبد الحى بن أحمد الصالحى المشهور بابن العماد الحنبلى ، طبعة مكتبة القدسى ، القاهرة ، سنة 1350هـ .

78- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، تأليف أبى القاسم هبة الله بن الحسن بن منصور الطبرى اللالكائى ،تحقيق الدكتور أحمد سعد حمدان طبعة دار طيبة ، الرياض سنة 1409هـ ، 1988م .

79- شرح السنة ، للإمام الحسين بن مسعود الفراء البغوى ، تحقيق زهير الشاويش وشعيب الأرناؤوط ، طبعة المكتب الإسلامى ، القاهرة 1396 هـ .

80- شرح العقيدة الطحاوية ، لابن أبى العز على بن على الحنفى ، تحقيق الشيخ محمد ناصر الدين

الألبانى ، طبعة المكتب الإسلامى القـاهرة سنــة 1392 هـ .

81- الشريعة ، لأبى محمد بن الحسين بن عبد اللـه البغدادى الأجـرى ، تحقيـق الشيخ محمـد حامـد الفقى ، طبعة أنصار السنة المحمدية ، القاهرة 1369 هـ .

82- شــفاء العليــل فى مســائل القضــاء والقــدر والحكمـة والتعليـل ، تـأليف الإمـام شـمس الـدين محمد ابن القيم الجوزيـة ، طبعـة دار الفكـر ، القـاهرة ، سنة 1398 هـ ، 1978 م .

83- صحيح ابن حبـان ، لأبـى حـاتم محمـد بن حبـان بن أحمد بن حبان التميمى تحقيق الشيخ أحمـد شـاكر ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، سنة 1372 هـ .

84- صـحيح الجـامع ، للشـيخ محمـد ناصـر الـدين الألبـانى ، طبعــة المكتب الإســلامى ، الطبعــة الثانيــة ، دمشق ، سوريا ، سنة 1399هـ .

85- الصـفدية ، لأبى العبـاس تقى الـدين أحمـد بن عبــد الحليم بن تيميــة ، تحقيــق الــدكتور محمــد رشــاد سالم ، طبعـة دار الإفتـاء بالمملكـة العربيـة السـعودية ، الرياض ، سنة 1406 هـ .

86- صفة الصفوة ، للإمام جمال الـدين أبى الفــرج عبـد الـرحمن بن على بن الجـوزى ، طبعـة دار الصـفا ، القاهرة سنة 1411هـ .

87- الصلاه ومقاصدها ، لأبى عبد الله محمد بن الحسن الحكيم الترمذى ، تحقيق الأستاذ حسنى نصر زيدان ، طبعة القاهرة سنة 1965م .

88- الصوفية والفقراء ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تقديم الدكتور محمد جمسل غازى ، طبعة مكتبة المدنى ، جدة ، السعودية ، بدون تاريخ .

89- صيد الخاطر ، للإمام جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى ، طبعة دار الفكر العربى ، دمشق ، سوريا سنة 1380هـ .

90- طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين عبد الوهاب بن على السبكى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحى ، طبعة المطبعة الحسينية ، القاهرة ، 1324هـ .

91- طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ، تحقيق نور الدين شريبه ، طبعة مكتبة الخانجى ، القاهرة سنة 1372 هـ .

92- الطبقات الكبرى ، لعبد الوهاب بن أحمد بن الشعرانى ، طبعة بولاق ، القاهرة سنة 1914م .

93- طبقات المعتزلة ، لأحمد بن يحى بن المرتضى ، تحقيق سوسنه ديفشلد فيلزر ، طبعة المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، بدون تاريخ .

94- الطـرق الصـوفية فى مصـر نشـأتها ونظمهـا ، للـدكتور عـامر النجـار ، طبعـة مكتبـة الأنجلـو مصـرية ، القاهرة ، سنة 1987م .

95- طريــق الهجــرتين وبــاب الســعادتين ، تـأليف شـمس الـدين بن القيم الجوزيـة تحقيـق محب الـدين الخطيب ، طبعـة المكتبـة السـلفية ، سـنة 1407 هـ .

96- الطواسين ، لأبى المغيث الحسـين بن منصـور الحلاج ، نشره الأستاذ لويس ماسـينيون ، طبعـة بـاريس سنة 1913 م .

97- عـوارف المعـارف ، للإمـام شـهاب الـدين أبى حفص بن عمر السهروردى ، تحقيق الدكتور عبــد الحليم محمــود والــدكتور محمــود بن الشــريف طبعــة مطبعــة السعادة القاهرة سنة 1971 م .

98- العواصــم من القواســم فى تحقيــق مواقــف الصحابة بعد وفاة النبى صلى اللـه عليـه وسـلم ، تـأليف القاضى أبى بكر بن العربى ، تحقيـق محب الـدين الخطيب ، طبعة المكتبـة السـلفية ، الطبعـة الخامسـة ، القاهرة ، سنة 1399 هـ .

99- العواصـم والقواسـم فى الـذب عن سـنة أبى القاسم ، لابن الوزير، تحقيق شـعيب الأرنـاؤوط ، طبعـة مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ .

100- عيـوب النفس ، لأبى عبـد الـرحمن السـلمى ، تحقيق مجدى فتحى السيد ، طبعة مكتـبى الصـحابة ، طنطا ، مصر ، سنة 1408هـ ، 1987م .

101- فتح البـارى شـرح صـحيح البخـارى ، للإمـام الحافـظ أحمـد بن على بن حجـر العسـقلانى ، تحقيـق محمـد فـؤاد عبـد البـاقى ، طبعـة دار الريـان للـتراث ، القاهـرة سنة 1407 هـ ، 1986م .

102- فتح القـدير الجـامع بين فـنى الروايـة والدرايـة من علم التفسـير ، للأمـام محمـد بن على بن محمـد الشوكانى ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة سنة 1383هـ .

103- الفتوحات المكية ، لأبى بكر محى الدين محمد بن على بن محمد الشـهير بـابن عـربى ، طبعـة بـولاق ، القاهرة ،سنة 1293 هـ .

104- الفتوى الحموية الكبرى ، تـأليف شـيخ الإسـلام ابن تيمية ، طبعة روضة الفسـطاط ، القـاهرة سـنة 1398هـ .

105- الفرق بين الفرق ، تأليف عبد القادر بن طـاهر بن محمد البغدادى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بـيروت ، لبنان ، سنة 1405هـ ، 1985م .

106- الفصـل فى الملـل والأهـواء والنحـل ، تـأليف الإمـام أبى محمـد على بن أحمـد بن حـزم الظـاهرى ، تحقيـق الـدكتور محمـد إبـراهيم نصـر والـدكتور عبـد

الرحمن عميرة ، طبعة دار الجبل ، بيروت ، لبنان سنة 1405هـ ، 1985م

107- فصول فى التصوف ، تأليف الدكتور حسن محمود عبد اللطيف الشافعى ، طبعة دار الثقافة للنشر والتوزيع ، القاهرة سنة 1991هـ .

108- فضائح الباطنية ، للإمام أبى حامد الغزالى ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ، طبعة القاهرة ، سنة 1964م .

109- فوات الوفيات ، لابن شاكر الكتبى ، تحقيق محمد بن محى الدين عبد الحميد طبعة بولاق ، القاهرة ، سنة 1951م .

110- الفهرست ، تأليف محمد بن اسحاق بن النديم ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، سنة 1348هـ .

111- القصد والرجوع إلى الله ، لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى ، تحقيق عبد القادر أحمد عطا ، طبعة دار التراث العربى ، القاهرة ، سنة 1400هـ ، 1980م .

112- القضاء والقدر فى الإسلام ، تأليف الدكتور فارق أحمد الدسوقى ، طبعة دار الدعوة ، الإسكندرية ، سنة 1984هـ .

113- قضية التصوف المنقذ من الضلال ، للدكتور عبد الحليم محمود ، طبعة دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة سنة 1985 م .

114- قوت القلوب فى معاملة المحبوب ، للشيخ أبى طالب محمد بن أبى الحسن على بن عباس المكى ، طبعة مكتبة المتنبى ، القاهرة سنة 1310هـ .

115- الكامل فى التاريخ ، لعلى بن محمد بن الأثير ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة سنة 1303هـ .

116- كتاب التوهم ، لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى طبعة دار التراث العربى القاهرة سنة 1400 هـ ، 1980 م .

117- كتاب الصدق لأبى سعيد أحمد بن عيسى الخراز ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة سنة 1975 م .

118- كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، لإسماعيل بن محمد العجلونى ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان سنة 1351 هـ .

119- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، تأليف مصطفى بن عبد الله المشهور بحاجى خليفة ، نشرة المستشرق جوستاف فلويجل طبعة مكتبة المثنى بغداد ، بدون تاريخ .

120- كشـــف المحجـــوب ، لأبى الحســـن على بن عثمان الهجويرى ، تحقيـق الـدكتور إبـراهيم الدسـوقى شـتا ، طبعـة دار الـتراث العـربى ، القـاهرة 1394 هــ ، 1974 م

121- الكواكب الدرية فى تـراجم السـادة الصـوفية ، تـأليف عبـد الـرؤوف المنـاوى ، نشـر منـه جـزء واحـد ، القاهرة ، سنة 1357 هـ .

122- اللؤلؤ والمرجـان فيمـا اتفـق عليـه الشـيخان ، وضـعه محمـد فـؤاد عبـد البـاقى ، طبعـة دار الحـديث ، القاهرة سنة 1993 م .

123- اللبـاب فى تهـذيب الأنسـاب ، لعلى بن محمـد بن الأثير طبعة مكتبة القدسى ، القاهرة سنة 1375 هـ .

124- لسـان العـرب ، لمحمـد بن مكـرم بن منظـور الإفريقى طبعة دار المعارف ، القاهرة ، سنة 1307 هـ .

125- لطـائف الإشـارات ، للإمـام أبى القاسـم عبـد الكـــريم القشـــيرى ، طبعـــة دار الكتب الحديثـــة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

126- اللمـــع فى التصـــوف ، لأبى نصـــر الســـراج الطوسى ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور ، طبعة دار الكتب الحديثـة ، القـاهرة سـنة 1960 م .

127- اللمـع فى الـرد على أهـل الزيـغ والبـدع ،لأبى الحسـن على بن اسـماعيل الأشـعرى ، تقـديم الـدكتور محمـود غرابـة ، طبعـة مطبعـة مصـر ، القـاهرة سـنة 1955 م .

128- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لعلى بن أبى بكر الهيثمى طبعة مطبعة القدسى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

129- المحيـــط بالتكـــاليف ، لقاضـــى القضـــاه أبى الحسن عبد الجبار الأسـد ابـادى تحقيـق عمـر عـزمى ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة سنة 1965م .

130- مختصـــر الصـــواعق المرســـلة على الجهميـــة والمعطلـــة تـأليف شـمس الـدين بن القيم الجوزيـة ، طبعة مكتبة المتنبى ، القاهرة سنة 1981 م .

131- مختصـر العلـو للعلى الغفـار ، تـأليف الحافـظ شـمس الـدين الـذهبى ، تحقيـق محمـد ناصـر الألبـانى ، طبعة المكتب الإسلامى دمشق ، سـوريا ، سـنة 1401 هـ ، 1981 م .

132- مختصر منهاج القاصدين ، تأليف أحمد بن عبـد الرحمن بن قـدامى المقدسـى ، طبعـة مكتبـة الإيمـان ، المنصورة ، مصر ، سنة 1994 م .

133- مدارج السـالكين بين منـازل إيـاك نعبـد وإيـاك نستعين ، تأليف شمس الدين بن القيم الجـوزى ، طبعـة دار الفكر العربى ، القاهرة سنة 1375 هـ .

134- مدخل التصوف الإسلامى ، تـأليف الـدكتور أبـو الوفـا التفتـازانى ، طبعـة دار الثقافـة ، القـاهرة سـنة 1983م .

135- مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، للإمـام أبى عبـد اللـه محمـد بن عبـد اللـه بن أسـعد اليـافعى ، طبعـة حيدآباد ، الهند سنة 1338 هـ .

136- المسـتدرك على الصـحيحين ، لأبى عبـد اللـه محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى ، طبعة حيدر آباد ، الهند سنة 1342 هـ .

137- المسند ، للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر طبعة دار المعارف ، القاهرة ، سنة 1374 هـ ، 1955 م .

138- المسند ، للإمـام أبى يعلى الموصـلى ، تحقيـق حسين سليم أحمد ، طبعـة المكتب الإسـلامى ، القـاهرة سنة 1410 هـ ، 1989 م .

139- المصنف ، لعبـد الـرزاق بن همـام الصـنعانى ، تحقيـــق حـــبيب الـــرحمن الأعظمى ، الطبعـــة الأولى ، القاهرة سنة 1392 هـ .

140- معجم البلـــدان فى معرفـــة المـــدن والقـــرى والعمار والسهل والوعر من كل مكان ، لياقوت بن عبـــد الله الرومى الحموى ، طبعة مطبعة السـعادة ، القـاهرة سنة 1323هـ .

141- معرفـة السـنن والآثـار عن الإمـام الشـافعى ، تصـنيف أحمـد بن الحسـين الـبيهقى ، طبعـة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .

142- المعارضـــة والـــرد على أهـــل الفـــرق وأهـــل الدعاوى فى الأحوال ، تأليف سهل بن عبد الله التسترى ، تحقيق الدكتور محمد كمال جعفر ، طبعـة دار الإنسـان سنة 1980م .

143- المغنى للإمام موفق الدين بن قدامـة ، ومعـــه الشرح الكبير طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، سنة 1393هـ 1973 م .

144- مفتاح دار السـعادة ، للإمـام شـمس الـدين بن القيم الجوزيـــه طبعـــة دار الكتب العلميـــة ، بـــيروت ، لبنان ، بدون تاريـخ .

145- مفتاح السـعادة ومصـباح السـيادة ، لأحمـد بن مصطفى طاش كبـرى زاده ، طبعة دار الكتب الحديثـة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

146- المفـــردات فى غـــريب القـــرآن لأبى القاســـم الحسين بن محمـد الـراغب الأصـفهانى ، تحقيـق محمـد سيد كيلانى ، طبعة مصطفى البابى الحلبى القاهرة سنة 1324هـ .

147- مقالات الإسـلاميين واختلاف المصـلين ، لأبى الحسن الأشعرى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد

، طبعة مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة 1389 هـ ، 1969 م .

148- المقدمة ، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، طبعة لجنة البيان العربى سنة 1960م .

149- الملل والنحل ، على هامش الفصل لابن حزم ، لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ، تحقيق محمد السيد الكيلانى ، طبعة القاهرة سنة 1961م .

150- من التراث الصوفى لسهل بن عبد الله التسترى ، للدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر طبعة دار المعارف ، القاهرة سنة 1974م .

151- المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، سنة 1412هـ ، 1992م .

152- المنقذ من الضلال ، للإمام أبى حامد الغزالى ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، طبعة دار الكتب الحديثة الطبعة الخامسة ، القاهرة سنة 1385هـ .

153- من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب ، للدكتور محمد السيد الجليند ، طبعة مطبعة التقدم ، القاهرة سنة 1406 هـ ، 1985 م .

154- المنية والأمل فى شرح كتاب الملـل والنحـل ، لأحمد بن يحى بن المرتضى ، تحقيـق توماسـى آرتولـد ، طبعة حيدر آباد الهند سنة 1316 هـ .

155- ماهيـة العقـل ، للحـارث بن أسـد المحاسـبى ، تحقيق الدكتور حسين القوتلى ، طبعة بيــروت ، لبنــان ، سنة 1972هـ .

156- موقف الصوفية من العقـل حـتى نهايـة القـرن الرابع الهجـرى للـدكتور محمـد عبـد اللـه الشـرقاوى ، رسالة ماجسـتير ، مخطـوط بكليـة دار العلـوم ، جامعـة القاهرة .

157- ميزان الاعتدال ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الذهبى تحقيق على محمـد البجــاوى ، طبعـة دار إحيـاء الكتب العربية ، بيروت سنـة 1282هـ ، 1963م .

158- نشـأة الفكـر الفلسـفى فى الإسـلام ، للـدكتور على سامى النشار ، طبعة دار المعـارف ، القاهرة سنة 1969هـ .

159- نقد المنطق ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الشيخ محمد بن عبد الـرزاق حمــزه ، سـليمان بن عبـد الـرحمن الصـفع ، طبعـة دار الكتب العلميـة ، بـيروت ، لبنان ، سنة 1370 هـ ، 1951 م .

160- نهايـــــة الإقـــــدام فى علم الكلام ، لأبى الفتح محمــد بن عبــد الكــريم الشهرســتانى ، تحقيــق ألفردجيوم ، طبعة اكسفورد سنة 1934م .

161- نوادر الأصول فى معرفة أخبار الرسـول ، لأبى عبد الله محمـد بن الحسـن الحكيم الترمـذى ، طبعـة استانبول ، تركيا سنة 1293 هـ .

162- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان تحقيق محمـد محى الـدين عبـد الحميـد ، طبعـة مكتبـة النهضة المصرية ، القاهرة سنة 1367هـ ، 1948م .

** ** **

*** المبحث الرابع ***

الأحوال الصوفية وثمرة الحرية

يمكن القـــول أن المقامـــات الصـــوفية السابقة هى بمثابة الإعداد النفسـى والـروحى الـــذى يهـــيئ العبـــد من خلال المجاهـــدات والرياضات لكى تصح بدايته وتنصـقل إرادتـه ، وهذه المهمة تعد وصـفا للمبتـدئين والمريـدين عند أوائل الصوفية ، وللسراج الطوسى عبارة يمكن أن تلخص تلك المرحلة حثن يوضح تدرج

المبتـدئ والمريـد فى طريقهمـا إلى الانقطـاع إلى الله والتحرر مما سواه حيث يقول :

(المبتدئ هو الذى يبتدئ بقوة العزم فى ســلوك طريــق المنقطعين إلى اللــه ويتكلــف لآداب ذلــك ، ويتــأهب بالخدمـة والقبـول من الـذى يعـرف الحال الذى ابتدأ بـه وأشـرف عليـه من بدايته إلى نهايته والمريد هو الذى صح لـه الابتـداء ودخـل فى جماعـة جملـة المنقطعين إلى الله تعالى وشهدت لـه قلوب الصادقين بصحة الإرادة) (1) .

وهو فى كل مرحلة يقطعها تنفك عنه القيود شيئا فشيئا حتى تتلاشـى بوصـوله إلى عبوديـة الله أو الحرية الـتى هى آخـر المقامـات ، وأيـا كان اختلافهم فى ترتيب المقامات ، فإن هــذه المرحلة تعتمد على الجهود

ـــــــــــــــــــــــــــــ

1- اللمع ص 47 ، 48 .

الكسبية الـتى يمارسـها العبـد ، فـإذا اسـتوفى العبد شرائطها وأحكامها يصبح مستحقا لاجتناء ثمارها ، فكما يشعر العابـد بحلاوة الطاعـة إذا قام بما فرض عليه من عبـادات ، وكمـا يشـعر الإنسان براحــة الضـمير إذا نهض بعمـل من أعمــال الخــير ، كــذلك يستشــعر المزيــد إذا خلصــت إرادتــه بــذوق مــا يجــد من المعــانى

الروحيـــة الســـامية والـــتى تتمثـــل فى حلاوة الإيمان وثماره .
* الثمرة الأولــى للحرية :
وأول هذه الثمار عند أوائل الصـوفية **ثمـرة الحب** يقول المحاسبى :
(المحبـة ميلـك إلى الشـئ بكليتـك ثم إيثارك له على نفسـك وروحـك ومالـك ثم موافقتك له سـرا وجهـرا ثم علمـك بتقصيرك فى حبه) (1)
وقال محمـد بن الفضـل (2)ـ :ـ **(المحبة ســقوط كـــل محبـــة من القلب إلا محبة الحبيـب)** (3) .

1- الرسالة حـ 2 ص 618 .
2- هو أبـو عبـد اللـه محمـد بن الفضـل بن العبـاس بن حفص البلخى ، سـكن سـمرقند وأصـله من بلخ ، وهـو من كبار المشايخ بخراسان ، صحب أحمد بن خضـرويه وغيره من المشايخ توفى سنة 319 هــ انظـر شـذرات الذهب حـ 2 ص 282 ، المنتظم حـ 6 ص 239 ، حليـة الأولياء حـ 10 ص232 ، معجم البلدان حـ ص 713 .
3- انظر الرسالة حـ 2 ص 617 .

وللحب أحوال تبـدأ بعـد تمـام الرضـا ، أو قبيـل أن يتم الرضـا بـوقت لأن بدايـة الرضـا عندهم من المقامات ونهايته من الأحـوال كمـا سبق .

فإذا اجتاز العبد منطقة الرضا ، وثبت حبه على أساس يلتقى فيه الصدق والتجرد عما سوى الله أصبح جديرا بأن تنهال عليه أحوال الحب .

ومن لطف الله أن كل حال يؤدى بالعبد إلى الابتلاء يعقبه حال من الرخاء وكشف البلاء **فبعد الهجر وصل وبعد القبض بسط وبعد الهيبة أنس وبعد الخوف رجاء وبعد الفقر وجد وبعد البعد قرب** وهكذا مجموعة من الثنائيات تتسمى بحسب التغيرات النفسية التى تعقبها وتتفاوت فيها المسميات وتختلف فيها أنظار العابدين فكل يعبر عن حاله وعن إحساسه وشعوره ، وكل ذلك يرجع إلى أن الله يقلب القلوب فى جهتين بين إصبعين من أصابعه (1) .

وفى الأحوال تتجدد مذاقات العارفين لحلاوة الإيمان ، فلكل مذاق طعم يزيد على سابقه شيهة وحلاوة .

- **ويمكن أن نصل إلى ترتيب الأحوال عند أوائل الصوفية بصورة**

1- عوارف المعارف ص 327 ، لطائف الإشارات للقشيرى ص 109 .

2- الرسالة حـ 1 ص 112 .

تقريبية إلى حد ما من خلال ما يأتى :

أولا : الخــوف والرجــاء

ويعتبـرهما القشيـرى من أحـوال البدايـة أى من أحـوال الدرجـة الأولى فى مجـال الحب إذ يخــاف العبــد من العقوبــة ويرجــوا من اللــه المثوبة (1) ويترجم يحى بن معاذ هذا الشـعور والإحساس بقوله مخاطبا ربه :

(يكاد رجائى لك مع الـذنوب يغلب رجائى لـك مـع الأعمـال لأنى أجـدنى أعتمــــد فى الأعمــــال على الإخلاص ، وكيــف أحفظــه وأنــا بالآفــة معــروف وأجــدنى فى الذنــــوب أعتمــــد على عفــــوك ، وكيــف لا تغفــــرها وأنــــت بالجــود موصوف) (2) .

والخوف والرجاء هما كجنـاحى الطـائر إذا استويا استوى الطائر وتم الطيران ، وإذا نقص أحــدهما وقــع فيــه النقص ، وإذا ذهبنــا صــار الطائر فى حد الموت (3) .

وعنـدما ينتقـل العبـد من درجـة إلى درجـة أعلى فى حــال الحب يأخــذ الخــوف والرجــاء معـانى جديـدة عنـدهم تتفـق وهـذا الانتقـال ، وفى ذلك يقول الواسطى : **(إذا ظهر الحق على الســـرائر لا يبقى فيهــا فضــيلة**

1- السابق حـ 1 ص 110 .

2- السابق حـ 1 ص 358 .
3- السابق حـ 1 ص 357 .

لرجاء أو لخوف) (1) وذلـك لأنـه ينتقـل إلى حال أعلى من حالى الخوف والرجاء .

 ثانيا : القبـــض والبســـط

وهما حالان بعد ترقى العبد عن حال الخوف والرجـاء ، فـالقبض للعـارف بمنزلـة الخـوف للمريـد والبسـط للعـــارف بمـــنزلة الرجـاء (2) .

ومـن اجتهـادهم فى الفصـــل بيـــن القبض والخـوف والبسـط والرجـاء أن الخـوف إنمـا يكون من شئ فى المستقبل إما أن يخاف من فوت محبوب أو هجوم محذور وكـذلك الرجـاء إنمـا يكـون بتأميـل محبـوب فى المسـتقبل أو بتطلع زوال محذور وكفاية مكـروه فى المريـد المسـتأنف ، أمـا القبض فلمعـنى حاصـل فى الـوقت وكـذلك البســط ، فصــاحب الخــوف والرجاء تعلق قلبه فى حالتيـه بآجلـه وصـاحب القبض والبسـط أخـذ وقتـه بـوارد غلب عليـه عاجله (3) .

ويذكر الجنيد بن محمد أن القبض والبسط بمعــنى الخــوف والرجــاء ولكن الاختلاف فى تعلقهما بالآجل أو العاجل (4) .

1- السابق حـ 1 ص 349 .

2- السابق حـ 1 ص 209 .
3- السابق حـ 1 ص 209 واللمع ص 419 .
4- اللمع ص 420 .

وتتفــاوت أوصــافهم فى القبض والبســط حسب تفاوتهم فى أحــوالهم فمن وارد يــوجب قبضا ولكن يبقى مساغا للأشياء الأخر لأنه غير مســتوف ، ومن مقبــوض لا مســاغ لغــير وارد فيه لأنه مأخوذ عنه بالكلية بوادره .

وذلك كمــا قــال بعضــهم : **(أنـــا ردم)** بمعنـى مردوم أى لا مساغ فــيه (1) .

وكذلك المبسوط قد يكون فيه بسـط يسـع الخلق فلا يستوحش من أكـثر الأشـياء ويكـون مبسوطا لا يؤثر فيه شئ بحـال من الأحـوال (2) .

 ثالثا : الهيبـــــة والأنـــــس

وهما درجتان فى أحوال الحب أعلى قــدرا من الخــوف والرجــاء ومن القبض والبســط ، فالهيبــة أعلى من القبض وحــق الهيبــة عنــد القشيرى الغيبــة ، فكـل هائب غائب ، والأنس أتم من البسط وحق الأنس صحو بحق ، فكــل مستأنس صاح ، ثم يتباينون حسب تباينهم فى الشرب (3) .

قال الجنيد : كنت أسمع السـرى السـقطى يقول : **(يبلغ العبد إلى**

1- الرسالة حـ 1 ص 210 .
2- السابق حـ 1 ص 210 .

3- السابق حـ 1 ص 213 .
ربه إلى حد لو ضرب وجهه بالسيف لم يشعر) وكان فى قلبى منه شئ حتى بان لى أن الأمر كذلك (1) .

فالهيبة تنشأ من القبض الناشئ من الخوف لأن من خاف الله وعرف تقصيره فى حقه تعالى انقبض قلبه وبقى مشغولا بالله فتحصل له الهيبة منه ومن أمل وصوله إلى الخير بالرخاء انبسط قلبه ، وبقى مشغولا بالله فيحصل له الأنس به ، وحال الهيبة والإنس وإن جلتا ، فأهل الحقيقة يعدونهما نقصا لتضمنهما تغير العبد ، فإن أهل التمكين سمت أحوالهم عن التغيير والتلوين (2) .

 رابعا : التواجد والوجد والوجود

[1] - التواجد : يقول القشيرى : فالتواجد استدعاء الوجد بضرب

1- السابق حـ 1 ص 213 قلت : الأمر عند أوائل الصوفية فى المقامات والأحوال مبنى على التجربة الإيمانية ووصف أدائهم للعبودية ، فأحدهم يعبر ببعض الألفاظ عن إحساس ما وجده فى الصلاة مثلا أو قيام الليل أو الذكر أو غير ذلك ، والآخر يفعل مثله كذلك ، فقد يتفقوا فى الرأى وقد يختلفوا وهكذا حتى تتشكل ألفاظ الصوفية ومصطلحاتهم فى الأحوال والمقامات بالقاسم المشترك عند أغلبهم ، فكلام السرى السقطى دليله فيه العقل والتجربة الإيمانية واستبيان

الجنيـد من كلامـه ثم تصـديقه إيـاه دليلـه أيضـا العقـل والتجربة ، وهذا الكلام قد يصح أو لا يصح لأنه رأى بشر قابل للخطأ والصواب ، أما إذا عارض الـدليل الشـرعى فلا .
2- السابق حـ 1 ص 214 .

اختيـار ، وليس لصـاحبه كمـال الوجـــد إذ لو كان ، لكـان واجـدا (1) فهـو أقـرب ما يكون إلى الكسـيبات الـتى تـؤدى إلى الأحوال وفى هـذا يـذكر القشـيرى حـديثا نبويـا : **(ابكـــوا فـإن لـــم تبكـــوا فتباكـوا)** (2) .

[2] - الوجـــــــــــد :

وهو ما يصادف القلب ويـرد عليـك بلا تعهـد ولا كلفـة ، وهـو يعقب التواجـد فى الدرجــة (3) ويربــط الــدقاق بين **الوارد والـورد** أى بين البـاطن والظـاهر ليثبت ارتباط مذاقات الحب بالطاعـــات ، وبـأن الكسـبيات وسـائل لاستجلاب الوهيبـات فيقول : **(من لا ورد له بظاهره ، لا وارد له فى سـرائره وكمـا أن مـا يتكلفه العبد من معاملات ظاهـــرة يـوجب لـه حلاوة الطاعـات ، فمـا ينازله من أحكام باطنـة يـوجب لـه المواجيــــد ، فـــالحلاوة ثمـــرات**

المعـــاملات والمواجيـــد نتـــائج المنازلات) (4) .

1- السابق حـ 1 ص 215 وانظر اللمع ص 418 .
2- رواه ابن ماجه فى كتاب الزهد برقم (19) .
3- الرسالة حـ 1 ص 217 .
4- السابق حـ 1 ص 217 .

[3] - أما الــوجــود : فهــو حالــة أرقى من الوجــد ، ولا يكــون وجــود الحــق إلا بعــد خمود البشرية لأنه لا يكون للبشرية بقــاء عند ظهور سلطان الحقيقـة .

وهذه الدرجات الثلاث يشـبهها القشيرى بمن شهد البحر ثم ركب البحر ثم غرق فى البحـر ، فالتواجـد بداية والوجود نهايـة والوجـد واسـطة بين البداية والنهاية (1) .

فالعبد يغرق فى بحـار الحـب حتـى يصـل إلــى الثمــرة الثانيــة وهى محصلـة لطريقيـن :

الأول : الطـريق إلى الحرية وهو طريق الجهــد والكسـب من خلال المقامــات الــتى يــدفع فيهـــــا كـــــل محاولـــــة لاســترقاقه .

الثانى : طريق الحب وهـو ثمـرة للطريـــق الأول يـــؤثر فى العبد من خلال الأحوال .

1- السابق حـ 1 ص 217 .

* شكل تلخيصى للثمرة الأولى من ثمرات الحرية :

(الثمـــرة الأولى للحرية)

[5] ـــــــ الفنـاء والبقـــــاء

[4] ـــــــ التواجد والوجد والوجود

[3] ـــــــ الهيبـــــة والأنـــــس

[2] ـــــــ القبـــــض والبســـــط

[1] ـــــــ الخـــــوف والرجـــــاء

[طريـق الحب] [نهايـة الحـــب بداية الفنـــاء]

* الثمرة الثانية للحرية : أحوال الفناء

انتهينا إلى أن أوائل الصـوفية وصـلوا إلى درجة فى الحب يغرق المـرء فيهـا فى بحـار ه

لوجـود الإيمـان بـالحق سـبحانه وتعـالى وفى المقابل نرى خمود البشرية وفنائها ، فالعبد قد يكون عالما بالتوحيد من خلال الاستدلال بالآثار ولا يكـون واجـدا لـه مستشـعرا لحلاوتـه فى القلب فوجـوده الحقيقى لا يبقى للعبـد معـه إحساس بنفسه فضلا عن علمه بـه واسـتدلاله عليـه ، فـترتيب أمـر الأحـوال للوصـول إلى المعرفـة بتوحيـد اللـه يفصـح عنـه القشـيرى بقوله :

وتـرتيب هـذا الأمر **قصـود ثم ورود ثم شـهود ثم جمـود ثم خمـود وبمقـدار الوجود يحصل الخمود .**

وصاحب الوجود لـه صـحو ومحـو فحـال صـحوه بقـاؤه بـالحق وحـال محـوه فنـاؤه بالحق ، وهاتان الحالتـان أبـدا متعاقبتـان عليـه فإذا غلب عليه الصحو بالحق ، فبه يصول وبــه يقــول قال صلى الله عليـه وسـلم فيمـا أخـبر عن الحق :

(فبـــى يسمـــع وبـــى يبصــــر) (1) .

وهــذا الكلام يعــنى أنــه بمقــدار تضــاؤل إحساس العبد بنفسه يكون الوجود الحق للعبد .

وفى ســبيل أن يوضــح القشــيرى موقــف المشايخ من تـدرج هـذا التضـاؤل شـيئا فشـيئا

عــرض لنــا نمــاذج من الأحــوال الــتى تتــآلف كـــأحوال الحب من أزواج تبـــدأ من الفنـــاء وتنتهى عند التحقق .
[1] - أولهـــا : الفنـــاء والبقـاء :
ويمكن القول أن أوائل الصوفية يميزون بين نوعين من الفناء :
1- أحدهما يمكن اكتسـابه بـالمران المنظم والتدريب الـروحى ويكـون ذلـــك بالجهـــد المســـتمر فى المقامات (2) .

1- السابق حـ 1 ص 219 .
2- السابق حـ 1 ص 218 .
2- والثانى لا ينال بمران بل يطرأ على القلب ويـأتى قـاهرا جبـارا يفقـد الإنسان إحساسه بالعالم من حوله (1) .
* فالأول : فناء فى امتثال الأمر التشريعى الذى يعرف به المحمود والمـذموم من الأفعـال يقول فيه القشيرى :
(أشار القــوم بالفنـاء إلى ســـقوط الأوصـــاف المذمومـــة وأشـــاروا بالبقـــــاء إلى قيــــام الأوصاف المحمــودة) (2) .

ومعلـوم أنـه إذا لم يكن أحـد القسـمين كان القسم الآخر لا محالة وهـذا يتوقـف أساسـا على دور الإرادة نحـو أى منهمـا ، فـالوجود الـذاتى للإنسـان كـائن من خلال اختياره الحر للتصرف المحمود فى أفعاله وبقائه دائما على الصفات الحميدة .

فمن ترك مذموم أفعاله بلسـان الشريعة يقال :

(إنه فـنى عن شـهواته ، فـإذا فـنى عن شـهواته بقى بنيتـه وإخلاصه فى عبوديته ومن زهد فى دنيـاه بقلبـه فـنى عن رغبتـه ، ومن فــنى عن رغبتــه فيهــا بقى بصـدق إنابتـه فيكـون بـذلك فانيـا بأفعالـه ، ومن عـالج أخلاقـه فنفى عن قلبـه الحسـد والحقـد والبخـل والشـح والكـبر والعجـب

1- التعريفات للجرجانى ص 185 .

2- الرسالة حـ 1 ص 229 .

وأمثـال هـذا مـن رعـونات النفـس فإنه بـذلك يكـون فانيـا بأخـلاقـه) (1) .

* أما الثـــانى : فهو فناء فى الأحوال ، وفلسفته أن من شـاهد الربوبيـة فى جربـان القـدر وتصـاريف الأحكـام فـنى عن أى حسـبان ، فإذا فـنى عن تـوهم الآثـار من الأغيـار بقى بصفات الحق ، فلا يشهد من الأغيار عينـا ولا أثـرا ولا رسـما ولا طللا لانعـدام أثرهـا عليه وعند ذلك يقـال فى عـرفهم : **(إنـه فنـى عـــن الخلــق وبقــى بالحــق)** (2) .

وهــذا الفنــاء لا يعتــبر مســلكا ســلبيا أو انمحاء مطلقا للذات الإنسانية فالصـوفى لا يصـل إلى النـوع الثـانى إلا إذا اجتـاز النـوع الأول من خلال المقامات السـابقة ومن ثم نبــه القشــيرى إلى أن الفنــاء الصــوفى لا يــؤدى إلى الحلــول أو إلى الاتحــاد بالــذات الإلهية ، **فإذا قيل :** فنى عن نفســه وعن الخلق فنفسه موجـودة والخلـق موجـودون ولكنه لا علم له بهم ولا به ولا إحســاس ولا خـــبر فتكـــون نفســـه موجـــودة والخلـــق موجــودين ولكنــه غافــل عن نفســه وعن الخلق أجمعين (3) .

1- الرسالة ص 229 بتصرف .
2- السابق ص 229 بتصرف ، وانظر التعـرف ص 152 ، 152 .

3- السابق حـ 1 ص 330 بتصرف .

وهذا وإن كان يحدث للبعض إذا دخـل على سـلطان من أهـل الـدنيا فيصـيبه الذهول وتهيمن عليـه الدهشـة حـتى يغفـل عن مجلسه وهيئته ، وإذا سئل بعد خروجـه عن شـئ كـان فى موقفـه لمـا تمكن من الجواب ، فإذا كان هذا تغافـل مخلـوق عن أحواله عند لقاء مخلوق ، فما الظن لو أنـه فنى عن كل شـئ فجـأة إذا كاشـفه شـهود الحق حال الذكر والطاعة (1) .

ويـرى سـهل بن عبدالله التسـترى أن الفنـاء نـوع من الاتصـال الـدائم باللـه لإحسـاس العبـد بمعيـة اللـه فى كـل وقت أخذا من قوله صـلى اللـه عليـه وسـلم فى الحديث الصحيح : **(أن تعبـد اللـه كأنك تـراه)** (2) .

فـالأقوال والأفعـال يحـددهما الشـعور المتصـل بمراقبـة اللـه فى كـل آن

1- السابق حـ 1ص 330 بتصرف .

2-الحديث أخرجه مسلم فى كتاب الإيمـان ، بـاب بيـان الإيمـان والإسـلام والإحسـان بـرقم (8) وأبـو داود فى كتاب السـنة ، بـاب فى القـدر بـرقم (4695) وأخرجـه الترمذى فى كتاب الإيمـان ، بـاب مـا جـاء فى وصـف جبريل للنبى الإسلام والإيمان برقم (2610) والنسـائى حـ 8 ص 97 وابن ماجه فى المقدمة ، باب فى الإيمان

برقم (63) وابن حبان فى كتاب الإيمان ، باب فرض الإيمان برقم (168) وأحمد فى المسند حـ 1 ص52 .
وانظر التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 311 .

من خلال التزامه بالعبودية على وجهها الأمثل ، يقول سهل بن عبد الله : **(من لم يكن يعبد الله كأنه يراه أو علم العبد بأن الله يراه فهو غافل)** (1) .

ومن ثم فإن العلاقة بين الفانى وبين ربه هى علاقة مشاهدة ومراقبة تدفعه إلى مزيد من الحرية والانضباط فى العبودية دون خلط بين العبد وربه .

ومن صفات الفانى عند سهل بن عبد الله ، أنه عبد لا يغفل عن ذكر حبيبه آنس نفسه بأن الله مشاهده فوقع بصره على مقامه من إيمانه حتى استمكن مقامه من القرب منه ، وأوصل أذنه بالاستماع إليه وصير لسانه رطبا من ذكره ، وطلب مرضاته وأقام عروقه وعصبه وأعضاءه وعظامه وجميع جوارحه وحركاته وسكونه بطاعتة حتى أدركه المدد بالمزيد من ربه فصار قلبه فى رحمة الله كما قال عز وجل :

{ إن الذين هم من خشية ربهم مشفقون } (2) .

فاستغراق العبد من ذكر محبوبه يجعله منصرفا عن كل لفظ يردده اللسان إلى

حضور قلبى ينسى الذاكر فيه نفسه ، ويتـأنس بحضوره مع

1- السابق ص 312 .
2- المؤمنون / 57 .
وانظر تفسير التسترى ص 10 .
ربه فيفـنى عن نفسـه ببقائـه مـع ربـه ، يقـول سـهل : **(حياة الـروح بالذكـــر ، وحيـاة الذكر بالذاكر ، وحياة الذاكر بالمذكور)** (1) .
ويلاحظ أن كلام التسترى فى الفنـاء يـدور فى فلـك المحبـة واقتطـاف الثمـرة الأولى للحرية من جهة واتباع السنة والارتقاء بالنفس البشرية إلى مكانها الصحيح من جهة أخرى .
فعنـد التسترى أن مـن اقتـدى بـالنبى صلى اللـه عليه وسلم لم يكـن فى قلبـه اختيـار لشئ من الأشـياء سـوى مـا أحب اللـه ورسوله (2) .
وإذا كـان الفنـاء عنـد التسـترى مرتبطـا بالمحبة وأثـره قـائم عليهـا ، يظهـر ذلـك مـن أفعال المحب ، وأثر المحبة على الجـوارح فى اتبـاع أوامـر المحبـوب واجتنـاب نواهيـه بحيث تتحد رغبـة المحب مـع رغبـة المحبـوب ، فـإن الفناء عند الجنيد يأخذ طريقا آخر حيث يرتبـط

الفناء بالتوحيد بصورة تتسق فى النهاية مع مفهوم التسترى .

فالفناء الذى دعا إليه لا علاقة له بفناء الحلول والاتحاد ، وإنما يحتفظ بالصحو ويرفض الشطح ويؤثر البقاء (3) .

وذلك لأنه دعا فى التوحيد إلى تطابق الإرادات ، **إردة العبد وفنائه**

1- حلية الأولياء حـ 10 ص 190 مرآة الجنان حـ 2 ص 148 .

2- من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب والسنة ص 19 .

3- الرسالة حـ 1 ص 584 .

مع إرداة الله الدينية الشرعية ، وذلك يدخل تحت إرادة الله الكونية وهو نهاية التوحيد الحقيقى الذى عبر عنه بقوله :

(أن يكون العبد شبحا بين يدى الله سبحانه وتعالى ، تجرى عليه تصاريف تدبيره فى مجارى أحكام قدرته ، فى لجج بحار توحيده بالفناء عن نفسه وعن دعوى الخلق له ، وعن استجابته بحقائق وجوده ووحدانيته فى حقيقة قربه بذهاب حسه وحركته لقيام الحق سبحانه فيما أراد منه) (1) .

وهو يشير بذلك إلى الحديث القدسى :
(فــإذا أحببتــه كنت ســمعه الــذى يسمع به ، وبصره الذى يبصر به ويــده التى يبطش بها ، ورجلـه الـتى يمشـى عليها) (2) .
وإذا أضفنـــا لقولـــه السابـــق قولـــه : **(التــوحيـد هـــو إفــراد القديــم عــن الحـدث)** (3) .
علمنا بأنه إنما يريد التحـرر من رق الأغيـار وشـــهودها لاســـتغراق القلب فى الـــذكر والمداومــة عليــه بغيــة الوصــول إلى نهايــة العبودية والتحقق .

1- الرسالة حـ 1 ص 584 .
2- سبق تخريجه .
3- انظر ص 87 .

وقد بين ذلك باستفاضة فى كتابه الفنـاء (1) .
ومن ثم فهو لا يعـنى إسـقاط الإرادة الدينيـة لرؤيتـة للإرادة الكونية وإنما يعنى تمام القيــام بالإرادة الدينية التى يخضع من خلالها للـه كمـا تخضع سائر الأشياء لإرادته الكونية .
وقد دافع الكلاباذى والسراج الطوسى عن مفهـوم الصـوفية للفنـاء حـتى القـرن الرابـع الهجرى ، وردوا أى خروج عن الحـد السـابق ،

بـل أعلنـوا بـراءتهم ممن قـال بفنـاء الحلـول والاتحاد ، ووصفوه بالجهل والضلال (2) .
وتجـدر الإشـارة إلى حقيقـة هامـة فى فهم السـبب الـذى أدى إلى القـول بـالحلول أو الاتحـاد ، ففى مرحلـة شـرح التجربـة الـتى خاضها الصوفى فى آدائه العبودية الله والتعبير عنهـا كنظريـة مطعمـة بالعناصـر الفلسـفية ، شـاع الاضـطراب والخلـط والتعقيـد ممـا نجم عنه أخطاء وانحرافات فكرية جمة .
فمثلا كان يقصـد بالصـفات الإنسـانية الـتى يجب أن تقتلع أو تهجـر ويجب على الصوفى أن يتحرر منها ويفنى عنها ، تلك الصفات الـتى تحـول بين الإنسـان وكمالـه الـروحى ، تلـك الصفات التى تشد الإنسان

1- كتاب الفناء للجنيد ص 350 ضمن نصـوص صـوفية إسـلامية نشـرها د. كمـال جعفـر فى كتابـه التصـوف طريقة وتجربة ومذهبا .
2- التعرف ص 151 واللمع ص 541 : 544 .

إلى الرغبة والشـهوة والطمـع ، وتجعلـه يخلـد إلى الأرض ويتبـع هـواه ، وإلى هـذا الحـد فالهـدف قرآنى محض لا اعتراض عليه ، ولكن سرعان ما فهم المقصـود بالصـفات الإنسـانية هنـا الطبيعـة البشـرية ، ومن ثم فقـد ادعى بعضـهم أن بالإمكـان الانسـلاخ من الطبيعـة

البشرية والتحقق بالصفات الإلهية ، وقد يـؤدى هذا إلى تأليه الإنسان وجعله إلها آخر (1) .

ويفرد السـراج الطوسـى بابـا فى ذكـر من غلــط فى فنــاء البشــرية بين فيــه أن الــذين غلطـــــوا فى فنـــاء البشـــرية ســـمعوا كلام المتحققين فى الفنـــاء فظنـــوا أنـــه فنـــاء البشرية ، فوقعـوا فى الوسوسـة ، فمنهم من ترك الطعام والشراب وتوهم أن البشـرية هى القــالب والجثــة إذا ضـعفت زالت بشـريتها ، فيجـوز أن يكـون موصـوفا بصفـــات الإلهيـة (2) .

يقــــول الســـراج : **(ولم تحس هـــذه الفرقـة الجاهلـة الضـالة أن تفـرق بين البشرية وأخلاق البشرية ، لأن البشرية لا تزول عن البشر كمـا أن السـواد لا يزول عن الأسـود ولا لـون البيـاض عن الأبيض ، وأخلاق البشرية تتبدل وتتغـير بمــا يــرد عليهــا من أنــوار الحقــائق ، وصـــفات البشـــرية ليســـت هى عين البشرية)** (3) .

1- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ص 231 .
2- اللمع ص 543 .
3- السابق ص 543 .

وتعد هذه النقطة من النقـاط الهامـة الـتى تفصل بين معنى إرادة الحرية وتنقية الأوصاف البشرية المذمومة بالفنـاء عنهـا وبين الجبريـة وانعـدام الإرادة الإنسـانية أو انمحـاء الطبيعـة البشريـة .

[2] - ثانيها : الجمـــــع والفـــــرق :

فـالجمع فى تعريـف أبى على الـدقاق مـا سلب عنك والفرق ما نسب إليـك (1) ومعـنى ذلــك أن مــا يكــون كســبا للعبــد من إقامــة العبودية وما يليق بأحـوال البشرية فهـــو فرق ، ومـا يكـون من قبـل الحـق من إبـداء معـان وإسداء لطف وإحسان فهو جمع ، فمن أشهده الحــق ســبحانه وتعــالى أفعالــه من طاعاتــه وانتقـاء مخالفاتـه فهـو عبـد بوصـف التفرقـة ، ومن أشـهده الحـق مـا يوليـه من أفعــال فهـو عبـد بشـاهد الجمـع ، فإثبـات الخلـق من بـاب التفرقـة ، وإثبـات الحــق نعت الجمـع ، ولا بـد للعبد من الجمع والفرق ، فإن من لا تفرقة له لا عبودية له ومن لا جمع له لا معرفـة له (2) .

ويطبق القشيرى فكرة الجمع والفرق فى تفســير قولــه تعــالى : **{ إيـــاك نعبـد وإيـــاك نستعيـــن }** حيث يقـول : **(إيـاك نعبد إشارة إلى الفرق وإياك نستعين إشارة إلى الجمع)** (3) .

1- الرسالة حـ 1 ص 218 . 2- السابق حـ 1 ص 222 بتصرف .
3- لطائف الإشارات ص 226 .

فـالفرق إبـراز لتوحيـد العبـادة على وجـه الكمـال ، والجمـع إبـراز لتوحيـد الربوبيـة على وجه الكمال ، يقول القشيرى :

(فالفرق صفة العبودية والجمع نعت الربوبية ، وكل فـرق لم يكن مضـمنا بجمع وكل جمع لم يكن فى صفة العبد مؤيدا بفرق فصاحبه غير سديد الوتيرة ، وإن الحق سبحانه وتعالى يكل الأغيار إلى ظنـونهم فيـتيهون فى أوديـة الحسـبان ويتوهمـون أنهم منفـردون بـإجراء مـا منهم وذلـك منـه سـبحانه وتعالى مكر بهم) (1) .

وهو يغمز الجبريـة والقدريـة ويـدعوا إلى السلفية وإلى إثبات الحرية الإنسانية ، وتعويـل المسئولية على أفعال الإنسان واعتقـاد خلقهـا لله من جانب آخر ، وقد تقدم جواب سـهل بن عبد الله لمـا سـئل عن الجمـع والفـرق فقيـل له :

ما تقول فى رجـل يقـول : أنـا مثـل الباب لا أتحرك إلا أن يحركونى ؟

فقـال سـهل : هـذا لا يقولـه إلا أحـد رجلين : إمـا رجـل صـديق وإمـا رجـل زنديق (2) .

ويذكر السراج الطوسـى أن المعـنى فيمـا قال سهل رحمـه اللـه أن الصـديق يـرى قـوام الأشياء باللـه ويـرى كـل شـئ من اللـه تعـالى ويرجع فى

1- السابق ص 226 .

2- اللمع ص 549 .

كل شئ إلى الله عــز وجل ، مع معرفــة مـا يحتـاج إليـه من الأصـول والفـروع والحقـوق والحظـــوظ والمعرفـــة بين الحـــق والباطـــل ومتابعة الأمر والنهى وحسن الطاعات والقيـام بشـــرط الأدب وســـلوك المنهج على حـــد الاستقامة .

وأمـا معـنى قـول الزنـديق بهـذه المقالـة فإنمـا يقـول ذلـك حـتى لا يزجـره شـئ عـن ركوب المعاصى ، وأنه أداه جهله إلى الجسارة والاعتـداء بإضـافة أفعالـه وجميـع حركاتـه إلى الله تعـالى ، حـتى زال اللائمـة عن نفسـه فى ركوب المآثم بغواية الشيطان وتسويله وتأويله الباطل (1) .

ولذلك عاب السراج الطوسى على جماعـة غلطوا فى عين الجمع فلم يضيفوا إلى الخلـق مـا أضـاف اللــه تعــالى إليهم ، ولم يصــفوا

أنفسهم بالحركة فيمـا تحركـوا فيـه وظنـوا أن ذلك منهم احتراز حتى لا يكـون مـع اللـه شـئ سوى الله عز وجل فـأداهم ذلـك إلى الخـروج من الملة وترك حـدود الشـريعة لقـولهم إنهم مجبورون على حركاتهم حتى أسقطوا اللائمــة عن أنفسـهم عنـد مجـاوزة الحــدود ومخالفـة الاتبـاع ومنهم من أخرجـه ذلـك إلى الجسـارة على التعدى والبطالة وطمعته نفسـه على أنـه معـذور فيمـا هـــو عليـه مجبـور ، وإنمـا غلـط هؤلاء لقلة معـرفتهم بالأصـول والفـروع ، ولم يعـرفوا الجمع والتفرقة ، فأضافوا إلى الأصــل ما هو

1- السابق ص 549 بتصرف .

مضاف إلى الفرع ، وأضافوا إلى الجمع ما هو مضــاف إلى التفـــرقة فلم يحســـنوا وضـــع الأشياء فى مواضعها فهلكوا (1) .

وهـذا الاتجـاه الصـوفى يكشـف عن تـأثير مصطلح الحرية فى التوفيق بين القـدر واتبـاع الشرع ، وفى حل المشـكلات الـتى اسـتمرت بين طوائف المتكلمين وأثقلت المسلمين دون جدوى أو طائل .

[3] - ثالثها : الغيبة والحضـــور :

حالان متقابلان أرقى نوعـا مـا ممـا سـبق ، فالغيبة هى غيبة القلب عن علم ما يجــرى من أحوال الخلق ، لاشتغال الحس بما ورد عليــه ،

ثم قد يغيب إحساسه بنفسه وغـيره بـوادر من تذكر ثواب أو تفكر عقاب والحضور قد يكـون حاضرا بالحق لأنـه إذا غـاب عن الخلـق حضـر بالحق على معنى أنه يكون كأنه حاضر ، وذلك لاسـتيلاء ذكـر الحـق على قلبـه فهـو حاضـر بقلبـه بين يدى ربه .

وعلى حســب غيبتــه عن الخلــق يكــون حضوره بالحق ، فإن غاب بالكلية كان الحضور على حسب الغيبة ويكون مكاشفا فى حضوره على حسب رتبته بمعان يخصه الحـق سـبحانه بها (2) .

1- السابق ص 549 ، 550 بتصرف .
2- الرسالة حـ 1 ص241 .

[4] - رابعها : المحـــــو والإثبـــــات

وهما على نوعين :

[1- محو وإثبات يتعلقـان بالمقـامـات :

فالمحــو رفـع أوصـاف العـادة ، والإثبـات إقامــة أحكــام العبــادة فمن نفى عن أحوالــه الخصال الذميمة وأتى بدلها بالأفعال والأحــوال الحميـدة فهـو صـاحب محـو وإثبـات ، وتـدخل ضــمن الخصــال الذميمــة الزلــة فى الظــاهر والغفلــة فى الضــمائر والعلــة فى الســرائر ،

وعلاجهـــا باثبـــات المعـــاملات والمنـــازلات والمواصلات فالمحو والإثبـات هنـا لهمـا صـبغة أخلاقية مكتسبه للعبد .

[2 - محو وإثبـات يتعلقـان بالأحـوال :

فحقيقـــة المحـــو والإثبـــات فى الأحـــوال صادرة عن القدرة ، فـالمحو مـا سـتره الحـق ونفـاه ، الإثبـات مـا أظهـره الحـق وأبـداه ، والمحو والإثبات مقصورات على المشـيئة (1) قال أبو الحسين النورى : **(الخـاص والعـام فى قميص العبوديـــة إلا مـــن يكـــون منهم أرفع ، جذبهم الحق ومحـاهم عن نفوسهـــم فى حركـاتهم وأثبتهم عنـد نفسه بنظرهـم الى قيام الله لهـم فى أفعالهـم وحركاتهـم)** (2) .

1- السابق حـ ص 242 .
2- اللمع ص 431 .

ومحو الحق لكـل أحـد وإثباتـه على مـا يليـق بحاله (1) .

[5] - خامسها : التلـــوين والتمكـين

وهمـــا حـــالان يلقيـــان الضـــوء على أربـــاب المرحلـــة الختاميـــة من مراحـــل الســـفر فى التجربـة الإيمانيـة لأوائـل الصـوفية ، فـالتلوين صـــفة أربـــاب الأحـــوال والتمكين صـــفة أهـــل الحقـــائق ، فمـــا دام العبـــد فى الطريـــق فهـــو

صاحب تلوين ، لأنه يـرتقى من حـال إلى حـال وينتقـل من وصـف إلى وصــف ، ويخـرج إلى مرحلـة أخـرى ، فـإذا وصـل تمكن ، وصـاحب التلــوين أبــدا فى الزيــادة ، وصــاحب التمكن وصل ثم اتصل ، وأمارة أنه اتصل ، أنه بالكلية عن كليته بطل (2) .

يقول القشيرى :

(العبد مادام فى الترقى ، فصاحب تلــوين يصـــح فى نعتـــه الزيـــادة فى الأحوال والنقصـان منهـا ، فـإذا وصـل إلىالحق بانخناس أحكام البشـرية مكنـه الحـق سـبحانه وتعـالى بـألا يـرده إلى معلولات النفس فهـو متمكن فى حالـه على حسب حاله واستحقاقه) (3) .

فـــالتمكين يـــدل على مقـــام الســـالك الروحـــــــانى فى أفــــق الكمــــــال وأعلى

1- الرسالة حـ 1 ص 242 .
2- السابق حـ1 ص 252 .
3- السابق حـ ص 255 .

الدرجات ، فمن كانوا فى مقامـاتهم وأحـوالهم أمكنهم الانتقال من مقـام إلى آخـر ومن حـال إلى آخر ، لكن صاحب التمكين ثـابت لا ينتقـل فالمقام رتبة أهل البداية ، والتمكين هو سـكن أهل النهاية (1) .

يقـول الهجـويرى مشـبها حـال التمكين ومـا قبلـه : **(المـاء يجـرى فى مجـرى النهـر حـتى يصـل إلى المحيـط ، فـإذا وصـل إلى المحيط وقف تياره وتغير طعمــه ، فمن طلب الماء لشربه ابتعد عنه ، أمـا فى طلب اللؤلــؤ فإنــه يجاهــد نفســه ويضع حبـل الطلب فى رأسـه ويغـوص تحت الماء برأسه مجدا فى نيـل اللؤلـؤ فإما يجده وإما يفقــد نفسه العزيـزة)** (2) .

ففى التمكين رفـع التلـوين (3) لأن العبـد انتقــل إلى درجــة النهايــة الــتى يتلقى فيهــا الأفضال الإلهية التى لا نهاية لها (4) .

* بين الفنـــــــاء والتحقـــــق :

يوضــح الهجــويرى موقــع مرحلــة الفنــاء بالنسبة للمراحل التى تسـبقه والـتى تليـه فى السلســـلة المتدرجـــة للتصـــوف فيقـــول : **(الفناء درجـة كمـال يبلغهـا العـارفون الـــذين تحـــرروا من آلام المجاهـــدات وخلصوا من سجن**

____

1- كشف المحجوب ص 450 بتصرف .
2- السابق ص 450 .
3- السابق ص 451 .
4- الرسالة حـ 1 ص 255 .

المقامـــــات والأحـــــوال وانتهى بهم الطلب إلى الكشـــــف والحقيقـــــة فرأوا كل مرئى وسمعوا كـل مسـموع وأدركـوا كـل أسـرار القلب وأعرضـوا عن كـل شـئ وفنـوا عن مقصـدهم ، فثبت فى هذا المقصد كل مقاصدهم) حتى ظهـر فيهم قولـه : **(كنــت لـه سـمعا وكنـت له بصـرا)** (1) .

فالفنـاء بدايتـه نهايـة طريـق الحب ويـزادد بالأحوال السابقة قوة حـتى تـذهب المحـدثات فى شـهود العبـد وتغيب فى أفـق العـدم كمـا كانت قبل أن توجد ويبقى الحق تعالى كمـا لم يزل (2) .

وقد نبـه الهجـويرى إلى الاحتفـاظ بالكينونـة الذاتيــة للإنســان دون تلاشــى أو اضــمحلال فقــال : **(إذا قــالوا إن إرادة العبــد قــد فنيت فى إرادة الله فليس معـنى ذلـك فناء وجود العبد فى وجود اللـه ، تمامـا كما يذوب الحديـد فى النـار ، لأن النـار قـد تـؤثر فى صـفات الحديـد ولكنهـا لا تمس جوهره أو تغيره)** (3) .

فهو ينفى عن الفناء كـل مـا من شـأنه أن يمس الذات الإلهية من قريب أو بعيد ، فالفناء فنـاء شـهودى ذوقى وليس فيـه أثـر لتـداخل البشرية ـــــــــــــــ

1- كشف المحجوب ص 243 .
2- مدارج السالكين حـ 1 ص 80 .
3- كشف المحجوب ص 243 .
فى الذات الإلهية على أية صـورة من الصـور ، ونهاية الفناء تؤدى إلى التحقق ، والتحقـق هـو المرحلـة النهائيـة فى الحيـاة الصـوفية ، ومـا كانت المرحلتان السـابقتان إلا مقـدمتين لهـذا التحقيق .
* فالمـــــرحلة الأولــــــى :
مرحلـــة المقامـــات الـــتى تنتهى بمقـــام الحريـة ، حيث يبـدأ الصـوفى اجتيـاز الطريـق بالرياضـيات والمجاهـدات وتصـفية النفس من كدورتهـا ومحو الأوصـاف الذميمـة عنهـا حـتى يتحرر من رقها .
* المرحلـــــــــة الثـانيـة :
مرحلة الأحـوال والتـذوق حيث يجـنى منهـا الصـــوفى ثمـــرة المرحلـــة الأولى فيستشـــعر حلاوة الإيمـــان من خلال الأذواق والمواجيـــد التى تظهر فى طريق الحب ثم طريق الفناء .
وبعـد مـا تهيـأ الأمـر إلى أن خضـعت حياتـه الروحيـة بأسـرها لحقيقـة واحـدة اسـتوعبته وأخضعته لسلطانها قلبا ولسانا وجوارحا أصـبح مستحقا لتلقى المعارف والحقـائق الـتى ينـور الله بهـا قلبـه ، فـيرى بنـور اللـه ويتحـرك فى ولايته .

* شكل تلخيصى للثمرة الثانية من ثمرات الحرية

[طـــريق الفناء]
[6] ــــــــــــــ الحقيقة والشريعة
[5] ــــــــــــــ التلوين والتمكين
[4] ــــــــــــــ المحـو والإثبـــات
[3] ــــــــــــــ الغيبة والحضور
[2] ــــــــــــــ الجمع والفــرق
[1] ــــــــــــــ الفنـاء والبقـاء

[بداية الطريق] [نهاية الفنــاء بداية الحقيقة]

* الحقيقــــــة والشريعـــــــة :

تتضـح ملامح الشخصـية النموذجيـة الـتى يسـعى أوائــل الصــوفية لتحقيقهــا من خلال الترابـط بين الحقيقـة والشـريعة ، فالشـريعة أمــر بــالتزام العبوديــة والحقيقــة مشــاهدة الربوبيـة ، والشـريعة أن تعبـده والحقيقـة أن تشـهده ، والشـريعة قيـام بمـا أمـر والحقيقـة شهود لما قصى وقدر (1) .

1- الرسالة حـ 1 ص 261 .

وليس معـنى هـذا أن الشـريعة فى جـانب والحقيقـة فى جـانب آخـر ولكنهمـا يلتقيـان ويرتبطان ويترتب أحدهما على الآخر ، فكلاهما واجب بأمر الله ، فلن يصل العبـد إلى مرضـاة اللــه إلا إذا سـلم بنـوعين من تـدبير اللــه فى ملكه ، وفيهما ملتقى سعى أوائل الصوفية :

1- أن يسلم بتدبيره الشرعى .

2 - أن يسلم بتدبيره الكونى .

ففى تـــدبيره الشـــرعى كـــانت محـــاولات الأوائل فى نفى تدبيرهم إلى تدبير اللــه ، ومن هنا يظهر الكمال فى تحقيـق الحريـة بإسـقاط التدبير واتباع الشريعة .

وفى تدبيره الكونى يظهر الرضا بقضاء الله وقـدره ، ليشـاهدوا الحقيقـة الربانيـة في فهم العلـة الغائيـة من خلقـه وخلـق العـالم بأسـره وليدرك إبداع الله فى صنعه فى تـرتيب الابتلاء وتدافعه وتلاحقه على العبد .

يقــول القشــيرى : **(كـل شــريعة غــير مؤيــدة بالحقيقــة فغــير مقبــول كــل حقيقــة غــير مقيــدة بالشــريعة فغــير محصــول ، والشــريعة جــاءت بتكليــف الخلق والحقيقة إنباء عن تصريف الحق ، وإذا علم أن الشريعة حقيقة من حيث أنهــا وجبت بــأمره ، فالحقيقــة أيضــا**

شـــريعة من حيث أن المعـــارف بـــه سبحانه وتعالـى وجبت بأمره) (1) .

1- السابق حـ 1 ص 261 .

فالحقيقـة والشـريعة ركنـان أساسـيان فى الحياة عند أوائـل الصـوفية يـدوران على فلـك الحريـــة ، حريـــة عقائديـــة فى فهمهم لخلقهم وتـركيبهم وإبـداعهم أحـرارا بوصـف الحريـة ، وحريـــة عمليـــة تطبيقيـــة فى الـــتزامهم بمنهج العبودية .

فالأمر إفراد للـه وتوحيد لـه فى العبوديـة ، وإفراد للـه وتوحيـد لـه فى الربوبيـــة والتزامـا بقولـه تعـالى : **{ إيـــاك نعبـــد وإيـــاك نستعـــين }** فإياك نعبد حفظ للشريعة وإياك نستعين إقرار بالحقيقة (1) .

وإذا كـانت الحقيقـــة الصـــوفية مبنيـــة على المشاهدة والمعرفة ، والمشاهدة فيهـا أحـوال ومعان صادقة ، والمعرفة فيها صفة من عرف الحق سبحانه وتعالى بأسمائه وصفاته وصـــدق فى معاملاته ، فالأمر كلـه لا يخـرج عن الغايـة السـابقة فـإذا صـار العبـد من الخلـق أجنبيـا ، ومن آفـــات النفس بريـــا ومن المســـاكنات والملاحظات نقيا ، وصار ملهما من قبل الحـــق سبحانه وتعـالى بمعرفـة أسـراره فيمـا يجريـه

من تصـاريف أقـداره فإنـه يسـمى عنـد ذلـك عارفا ، وتسمى حالته معرفة (2) .
وإلى هنا فيما أعتقد ينكشف مفهـوم القـدر والحريـــة عنـــد أوائـــل الصـــوفية فـــإن وفقت فالحمد لله وإن أخطأت فأسـتغفر اللـه لـذنبى وأدعـو اللـه أن يهئ الأسـباب لخدمـة الكتـاب والسنة .

1- السابق حـ 1 ص 261 . 2- السابق حـ 2 ص 600 .

الخـــاتمـــــة

قائمة المراجع

فهرس الموضوعات

*** الخـــاتمة ***

بعــد عرض مفهوم القدر والحرية عند أوائل الصوفية سـواء كـان من الناحيـة الاعتقاديـة أو الناحية العملية السلوكية ، فإن البحث جاء فى مقدمة وثلاثـة أبـواب ، كـل بـاب اشـتمل على فصــلين ، ففى المقدمــة بيــان ســبب اختيــار البحث وأهـــمية الموضـــوع ثم منهج الـبحـــث وخطـته .

وفى البـــاب الأول تعرفنـــا على مفهوم الحرية وواقـع أوائـل الصـوفية من خلال فصلين :

أولهما جـــاء فيـــه نســـبة التصــــوف ومعنــاه ودراسـة العوامـل الـتى أسـهمت فى ظهوره ثم موضوع التصــوف وأهـم قضاياه .

وثانيهما جاء فيـه معـنى الحريـة لغـة وشـرعا ثم الحريـة فى تـاريخ الفكرالإسـلامى وكيف تكون منهجا للحيـاة الإسـلامية الفاضـلة فى شتى المجالات 0

وفى البـــاب الثـــانى تعرفنـــا على الحريـة مــن الجـانب الاعتقـــادى عنـد الصـــوفية من خلال مفهـــوم القضـــاء والقدر وعلاقته بالحرية ، وقد جاء ذلـك فى فصلين :

أولهما عن موقــف أوائــل الصــوفية من صفـات الله وعلاقته بموضـوع القـدر والحريـة وجـاء فيـه منهج أوائـل الصـوفية فى فهـــم المســائل الاعتقــادية ومـوقفهم من صـفات الذات وصفات الفعـل وكيـف كـان إفـراد اللـه بالفاعليـة من خلال فهمهم لمــراتب الإيمــان بالقــدر هو أساس العقيـدة عندهم .

وثانيهما عن الحرية وأصـالتها فى الـذات الإنسـانية عنـد أوائـل الصـوفية من خلال ذكـر مفهــوم الـذات الإنسـانية عنـدهم ، وكيـف أن الإرادة الحرة أصيلة فى الإنسان ؟ ثم دوافـــع الإرادة وموضــوع الاختيــار البشــرى ومجالــه عندهم ، وكيف يفسرون العلاقـة بين المشـيئة الإلهية المطلقة والإرادة الإنسانيـة الحادثة ؟

وفى البـــاب الثـــالث تعرفنـــا على الحريـة من الجـانب العملى السـلوكى من خلال فصلين أيضا :

أولهما عن الاستطاعة البشرية والفاعلية الإلهيــة ، وقــد جــاء فيــه أن الاســتطاعة من مقومات الحرية عنـد أوائـل الصـوفية ، وكيـف فسروا علاقتها بالعلل والأسباب ؟ وكيف تكون العلاقة بين الفاعلية الإلهية والفاعلية الانسانية ؟ وما هى العلة من خلق الأواسط والأسباب ؟

وفى الفصــل الثـانى جـاء الحـديث عن الحـــرية ومنهــــج العبـــــودية من خلال

اعتبارهم للعقل ومـا يحصـله من علم ضـرورة لقيـام معـنى الحريـة ، ثم بيـان الحـــرية فى الاصــطلاح الخــاص الــذى قرنــوه وكيــف أن المقامات الصوفية فيها إرادة الحرية والأحوال الصوفية فيها ثمار الحرية ؟

***** نتائج البحث وأهم التوصيات :**

*أولا : نتـــائج البحــث

يمكن تقسيم النتائج التى توصلت إليها إلى نوعين :

* النـــــــــوع الأول : نتـــائج على مســـتوى موضوع البحث ، فمن خلال ما ورد فى أبــواب الرسالة وفصولها وما يتعلـق بموضـوع الحريـة يمكن أن نصل إلى النتائج الآتية :

[1] - اتفـاق المنهج الصـوفى لأوائـل الصـوفية مع المنهج السـلفى فى دراسـة موضـوعات العقيـدة ، فكلاهمـا أعطى نصـوص الـوحى الأولويــة والصــدارة فى تقريــر العقيـــدة ، وجعلــوا العقــل فى منزلـــة المتلقى الــذى يستوعب ما جاء فى النقــل دون اعــتراض ، لأنهم أيقنوا أن الله الـذى خلـق العقـــل من المحال أن يوحى إليه ما يصادمـه أو يعارضه ، كما أنهم جعلـوا العقل حارسـا على النقـل يســير معــه فى اتجــاه واحــد ، فلم يمنعــوا إعمـال العقـل فى خدمـة الكتـاب والسـنة ، ولكنهم منعــوا أن يستخـــدم النقـل للعقـــل

مطية يوجهها هوى الإنسان كما فعل كثير من المتكلمين والفلاسفة .
[2] - أن أوائل الصوفية أثبتوا القدم فى صفات الأفعال كما أثبتوا القدم فى صفات الذات ولم يفرقوا من حيث وحدة المنهج بين صفة هى صفة ذات أو صفة هى صفة فعل ، فالقول فى صفات الذات كالقول فى صفات الأفعال ، ولا يلزم من ذلك القول بقدم العالم أو القول بأبدية المفعولات ، فالمقاييس العقلية التى تخضع لها المخلوقات لا تحكم الخالق بحال من الأحوال .
[3] - أنهم أثبتوا معية الله لخلقه فى مجال الصفات وإن شذ بعضهم وقال بالحلول والاتحاد ، إلا أن أغلب أوائل الصوفية قبحوا هذا القول وفندوه بالردود المختلفة وبيان الحق .
[4] - أنهم أفردوا الله بالخلق والفعل وجعلوا ذلك أساسا لعقيدة التوحيد وركيزة للإيمان بقضاء الله وقدره ، ومن ثم أفردوا الله بخلق أفعال العباد سواء كانت طاعة أو معصية ، كما أنهم قالوا بالتدرج فى ظهور الأشياء من كونها معلومة فى علم الله فى الأزل إلى تدوينها فى اللوح المحفوظ ثم

انتقالهــا إلى القــدر فى الخلــق بالمشــيئة والقضاء .
[5] - أنهم أثبتوا الاختيار الإنسانى كمقـوم أول من مقومات الحريـة وذلـك من خلال وجـود الإرادة الحـرة وأصـالتها فى الإنسـان ، حيث تعمـــل فى مجـــال محـــدد بين طـــريقين معروضـين لحظــة الاختيــار أحــدهما يمثــل طريق الخير والآخر يمثل طريق الشر .
[6] - أنهم آمنــوا بوجــود زوجين متقــابلين من الخواطر والبواعث الداعيــة إلى حث الإرادة وحضــها على الحركــة والعمــل ، وأن هــذه الخـواطر مصـدرها وجـود نـازعين نفسـيين متقـــابلين ومتضـــادين ، وهمـــا النفس فى مقابــل الــروح ، ثم وجــود هــاتفين بلمــتين ودعوتين وهما الملك فى مقابل الشـيطان ، حيث يتشـــكل حـــديث النفس من متابعـــة العقل لهـذه الأركـان ، كمـا أنهم فرقـوا بين حـديث النفس وكسـب الإرادة بالنيـة وعقـد القلب ، كــل ذلــك إثباتــا لحريــة الإنســان ، وتوقيعا للمسؤلية على أفعاله .
[7] - أن أغلب أوائل الصوفية جعلـوا موضـوع الاختيار البشـرى الجنـة فى مقابـل النــار أو تفضيل الآخـرة على الـدنيا ، وجعلـوا مجـال الاختيار محصورا فى اتباع السنــة والالـتزام بأحكام التكليف ، وأن بعضهم جعل موضـوع

الاختيار البشرى ذات الله فى مقابل التخلى عن الـــدنيا والآخـــرة وأن تكـــون العبـــادة مقطوعة عن العوض وقد خطـاهم كثـير من أقرانهم .
[8] - أنهم فرقـوا بين مشـيئة اللـه وإرادتـه ، فالمشـيئة عنـدهم لا تكـون إلا كـونية ، أمـا الإرادة فهى على وجهين وجـه كـونى ووجـه تشـــريعى فالعلاقـــة بين الوجـــه الكـــونى والأفعـال الإنسـانية علاقـة إيجـاد وإنفـاذ فلا تتخلف فإذا أراد الله شـيئا أن يقـول لـه كن فيكون ، أمـا العلاقـة بين الوجـه التشـريعى والإرادة الإنسانية فهى علاقة تكليــف وابتلاء فقـــد تتخلـــف فـــالإرادة الكونيـــة والإرادة التشريعية تجتمعـان فى المـؤمن وتفترقـان فى الكافر .
[9] - أن أوائـــل الصـــوفية أثبتـــوا اســـتطاعة الإنسـان الذاتيـة على تنفيـذ الفعـل المختـار وجعلوا ذلك من مقومات الحرية وأنها تكون مع الفعل لا تتقدمه ولا تتأخر عنه ، وأن الله سخر الأشياء للإنسـان بحيث تسـمح بقبـول فعل الإنسان وتأثيره فيها واستعلائه عليهـا ، ليتحقق معنى الابتـلاء باستخلافه فى الأرض .
[10] - أن عقيدة الصوفية الأوائل فى التوكــل تنفى عنهم تهمـــة التواكـــل والاعتمـــاد على

الجبرية الإلهيـة ، فهم نظـروا للأسـباب على أنهـا أدوات بيـد القـدرة لتنفيـذ مـراد اللـه ، فليس لهـا فاعليـة مسـتقلة عن فعـل اللـه ولكن اللـه نظمهـا لإبـراز الحكمـة من خلـق السـماوات والأرض فجعـل فى الأشـياء أسـباب حـق وأواسـط صـدق تحتجب من خلالها صفاته الفاعله عن الخلق ليبتليهم .

فـالجوارح تتوجـه عنـدهم إلى الأسـباب والقلب يتوجـه إلى اللـه على الـدوام راضـيا بمـا سـيمنحه اللـه لـه من خـزائن القـدرة ، ومن ثم فإن نفوسهم تسـكن إلى اللـه قبـل كل شئ سواء كان الـرزق بأسـباب أو بغـير أسباب ، وهذا المفهوم يعد بحـق معـبرا عن عقيدة السلف الصـالح المبنيـة على القـرآن والسـنة فى إظهـار دقـائق التوحيـد ونفى الشـرك الجلى والخفى فى السـكون إلى الأسباب أو نسبة الإيجاد والامداد إليها .

وكما أنهم أثبتوا وجهين لإرادة الله كذلك أثبتوا وجهين للأفعال البشرية ، وجـه الفعـل فيه مخلـوق لله ، ووجه الفعل فيه مكتسب للعبـد يمثـل سـلوكا خلقيـا لـه ، **فبالوجـه الأول** يظهـر معـنى كـونهم مربـوبين للـه ، **وبالوجـه الثـانى** يظهـر معـنى كـونهم متعبدين بمنهج الله .

وكل ذلك موافقة لقوله تعـالى : **(فأمـا مـن أعطى واتقى وصـدق بالحسـنى فسنيسـره لليسـرى وأمـا من بخـــل واســـتغنى وكـــــذب بالحسنـــــى فسنيســره للعسـرى)** (1) .

[12] - أنهم أثبتوا العلم كمقوم ثالث للحريـة ، فالإنسـان معـذور بجهلـه عنـدهم حـتى يعلم الأحكـــام ويعقـــل مـــدلول الكلام ، وفى إيمانهم بتعليم الله لآدم الأسماء دعــوة إلى العلم والبحث والنظـر واستخــدام العقـول لخدمة دين الله وبمـا يعـود على العبـد مــن الوصــول إلى مرضاة الله .

[13] - أن أوائــل الصــوفية لهم الســبق فى إنشــاء اصــطلاح للحريــة يغــاير المفــاهيم الفلسفية والكلامية ويحمل فى طياته تكامل المـذهب فى إثبـات الحريـة بالعبوديـة للـه والتحرر مما سواه ، سواءا كانت الحرية فى القلب أو اللســان أو الجــوارح ، فمقــدار الحرية فى الإنسان يتحـدد بمقـدار العبوديـة لله والخروج من عبودية ما سواه .

[14] - أن أوائــل الصــوفية رســموا طريقــا للحرية من خلال المقامات

1- الليل / 5 : 10 .

والمجاهدات التى تزيد الإيمان شيئا فشيئا حتى يصل إلى الكمال فيه ويبدأ الطريق بمقام التوبة ثم الورع والزهد والصبر والتوكل والرضا وينتهى بالحرية ، فالحرية عندهم آخر مقام للعارف ، ثم جعلوا لحلاوة الإيمان مذاقا يتمثل فى طريق الحب وطريق الفناء إلى أن يصل العارف إلى التحقق ، وكل ذلك ليس نحتا من أذهانهم لخدمة قضايا الإيمان وفقط ولكن تعبيرا عن وجدانهم وتجربتهم التى خاضوها ، فأسفرت عن هذه المعانى والحقائق ، وعلى ذلك فإنهم وفقوا إلى التخلص من المتناقضات واللوازم فى العلاقة التى تربط بين الله وبين الإنسان من ناحية وبين الله والعالم من ناحية أخرى بحيث يمكن القول إن مذهب أوائل الصوفية يعبر بصدق عن حقيقة هذه العلاقة ، فهو لا يختلف إلى حد ما عن منهج الكتاب والسنة فى عرض الموضوع ، فالعلاقة بين الله وبين الإنسان هى علاقة عبودية يؤديها الإنسان لربه من خلال معنى الابتلاء فى الأرض والاستخلاف فيها ، والله سبحانه وتعالى كيفه بالصورة التى تمكنه من تحقيق هذه الغاية ووهبه كل مقومات الحرية السابقة ليعى دوره فى الحياة ، ويعقل الأشياء عن الله ويتحمل

المسئولية عن أفعاله الخلقية ، فيتحقق معنى العدل والجزاء .
كما أن العلاقة بين الله والعالم فى تصورهم هى علاقة ربوبية فالخلق كله مربوب لله انفرد الله بإيجاده وتسييره بقدرته وانفرد برعايته وعنياته ولطفه ، فلم يخلق الخلق وينعزل عنه كما هو الحال عند الفلاسفة أو خلقه وجعل عقولا فعالة تنفرد بتسييره وتدبير حاله من دونه كما هو الحال فى اعتقاد غلاة الصوفية فى الأقطاب التى تتحكم فى الكون بتفويض من الله ، أو أن الطبيعة هى التى تحكم قدرته سبحانه وتعالى فلا يفعل إلا من خلال قوانينها وكل هذه المنزلقات الفكرية ردها أوائل الصوفية وأمنوا بأن الأسباب الموضوعة فى الكون سواء كانت أسبابا غيبية أو أسبابا مشهودة ما هى إلا مجرد أدوات فى يد القدرة يفعل الله بها أو بغيرها .
فمن جانب ينصر بها أولياءه على أعدائه فيؤيدهم بالأسباب وغيرها فتظهر المعجزات للرسل والكرامات للأولياء ، ومن جانب ينظرون فى بديع الصنع فيزدادون إيمانا ، كل ذلك يضاف إلى أن الله خلق الدنيا وسيلة إلى الآخرة وليست غاية ، فإذا أدرك الإنسان ذلك جعل اهتمامه منصبا فى الغاية

من خلقه ، وتملكته عبودية ربـه فلا يحـزن لفوت لذة أو يفرح بتحصيل عاجل لعلمه أن الله يقلب الأمور ويصـرفها ابتلاءا واختبـارا ، فيعمــل للإعــداد لــدار البقــاء حيث النعيم المقيم والفرح الدائم الذى لا ينقطع .

إن الحريـة الحقيقيـة للـذات الإنسـانية لا تـؤتى ثمارهـا عنـد أوائـل الصـوفية إلا إذا أدرجت فى الحسبان موقفها من الموت وما بعده فالـذى يـرى المـوت عـدما يحـاول أن يغتنم الحيــاة كــدار للنعيم يلتهم منهــا على قـدر مـا يسـتطيع ويغفـل الجـانب الحقيقى لمعنى الحياة والحكمة الإلهية من إنشـائها ، فيتخبط فى سلوكه مرة بين الحسرة ومـرة بين التناســى ، ولا بـــد من حتميـــة اللقـــاء المـــرتقب الـــذى حـــاول أن يتملص منـــه بالهروب إلى هوى النفس والخضوع له .

ومن ثم يمكن القـول أن خلـق الإنسـان بـإرادة حـرة يمثـل عنـد أوائـل الصـوفية وسيلة لإبراز هذه الغاية الحقيقية فى ميدان العبودية والمجاهدات أو ميدان إرادة الحرية .

فالكمــال الإنســانى يكمن فـــى ارتقـــاء الانســان إلى مـا فـوق سـلطان الشـيطان والشـــر والنفس ، ودخـــول الانســـان فى عبودية الله بإرادته هو السـبيل الوحيـد عنـد

أوائـــل الصـــوفية للمحافظـــة على حريتـــه وتحقيق ذاته ، إذ أنه يضع نفسه فى موقعــه الصحيح بين الكائنات فينضم إليها ويشاهدها عابدة بحقيقة الربوبيـة فينخـرط معهـا بنفى تدبيره إلى تدبير الله ، وخضـوعه وإخضـاعه لمـا منحـه اللـه من نعم وفضـل ممـا يجعـل الإنسان كائنا على قمة الكائنات .

وإذا كانت المطالب الإنسـانية إمـا ماديـة تخــدم حاجـات الانســان الجســمية كالأكــل والشرب والملبس وغيرها أو مطالب روحية تخـدم حاجـة الـروح فى الاسـتقامة وراحـة الضـمير ، فإن أوائل الصوفية بينوا الموقـف الصــحيح من خلال رؤيتهم للخلاص من كــل الضروريات النفسية والطبيعية الــتى ابتلاهم اللــه بهــا وقــدموا رؤيــة ناجحــة لاســتعلاء الإنسان على الحياة وحفظ كرامته بين خلق اللــه ، وذلــك من خلال اختيــاره لربــه دون غيره ليسلم له نفسه وماله وكل ما يملك .

* النـــــوع الثـــانـــــى :

نتـائج على مسـتوى موضـوع التصـوف ، فمن خلال البحث عن مـــادة الموضـــوع فى تراث التصوف يمكن استخلاص النتائج التاليــة :

[1] - أن العلوم الموروثة عن أوائـل الصـوفية نتاج للتعبيرات الوجدانية الناشئة من دخــول

المسلم للمعامل الإيمانية ، فهو اجتهاد لطائفة من المسلمين الأوائل فى شرح طبيعة الحالة الإيمانية عند المرور بها أو الوصول إلى منتهاها ، فهو فكر قائم على خدمة العقل والوجدان لإبراز مصطلحات خاصة بالمراحل الإيمانية ممثلة فى المقامات والمذاقات الإيمانية ممثلة فى الأحوال ، وهذا الفكر قد يلتقى مع الوحى وقد يفترق عنه شأنه فى ذلك شأن العلوم الأخرى ، ومن الخطأ الكبير أن يتصور البعض أن فكر أوائل الصوفية هو الإسلام فالإسلام فاضت منه العلوم بغزارة كان التصوف واحدا من تلك العلوم .

ومن ثم فإن التصوف من حيث المبدأ أصيل المنشأ فى البيئة الإسلامية ، فلا مؤثرات أجنبية ملحوظة حتى القرن الثالث الهجرى على الأقل ، فالأمر طالما أنه اجتهاد لخدمة الدين وتجسيد لمذاقات العبودية فى صورة نظرية فمن المعقول أن يختلف الأمر من شخص إلى آخر ومن مذاق إلى آخر ، ومن ثم فسوف يأخذ منه ويرد وسوف يخضع لعوامل التطور واحتمال الخطأ والصواب والنقد والمخالفة .

[2] - أن التوحيد الصوفى عند أغلب أوائل الصوفية لا يجافى التوحيد

السـنى بـل يتـآزران فى التعبـير عن عقيــدة الكتــاب والســنة فالتوحيــد الصوفى لأوائل الصوفية شــدد على ضــرورة التخلص من خفايــا الشــرك والريـــاء والكـــبر وعبوديـــة الـــدرهم والـــدنيار والنفس والشـــيطان ، ولم يثبت عن واحد منهم أنه بنى مسـجدا على قـبر شـيخ من شـيوخه أو أقـام مولـدا أوفعـل مـا يفعلـه كثـير من أصحاب الطرق الصـوفية فى العصـر الحاضر من دعـاء الأمـوات والعكـوف على قبـــور المشـــايخ والنـــذر لهم والاســتعانة بهم والتوكــل عليهم أو شـد الرحـال إليهم بـل أقـوالهم فى التوحيد تدل على السمو فى تحقيقه وتجسيده .

[3] - مقاومــة أغلب أوائــل الصــوفية بصــورة شـــديدة للتقصـــير فى العبـــادات بـــدعوى الإنمحاء وسقوط أوصاف البشرية ، وكـذلك منعـوا النظـر إلى الأحـداث والإجتمـاع بهم ورأوا أن ذلك محرم وكل من أجاز ذلك

فهو مشرك على حد تعبـير الهجـويرى فى كشف المحجوب (1) .

وكـذلك قـاوموا بشـدة مرافقـة النسـوان والاختلاط بهم والاســتتار تحت المرقعـــات والتواكـل وسـؤال النـاس والـذكر بـالرقص المعهود على عكس ما هو قائم فى الطـرق الصـوفية حاليـا وأنـه لا أسـاس للـرقص فى الدين ولا فى طريق أوائل الصوفية ولا قـال به أحد من المشـايخ .

وكذلك قاوموا كل مـا يحـدث فى مجـالس السماع من حركات تحت اسم الانجــذاب أو الولايــة فالتصــوف كــان يحمــل المعــانى الإيجابية ويحض على الاتباع دون الإبتداع .

[4] - أن السلبيات الصوفية التى وجـدت عنـد الأوائــل وأثــرت على الزيــادة في زاويـــة الانحراف عبر القرون ثتمثل فيما يأتى :

ا - الغلــو فى الطاعــة والالــتزام بمــا ليس بلازم من الأحكـــام ، فكثـــير منهم نـــزل المندوب منزلة الوجوب وشق على نفسه فى كثير من النـواحى الـتي جعـل الشـرع فيهـــا مندوحـــة وســـعة فأصـــبحت هـــذه الالتزامات سنة عند المتـأخرين لا يسـعهم الخروج عنهـا وكـل طريقـة شـددت على المريدين فى الالتزام بمنهجها الخاص وإن لم ينسجم مع السنة فى كثير من النواحى .

ب ــ اتباع الكثير من العامة للتصوف عن جهل بحقيته فتشبهوا ـــــــــــــــــــــــ
1- كشف المحجوب ص 502 .
بالمشـــــايخ فى ظـــــاهر اللبـــــاس ومعظم الشـطحات والـزلات ثم اجتهـدوا فى نمـاء ذلك بجهلهم فضـلوا وأضلـــوا وحسـب ذلـك على التصوف .
وقد كان لهذا العامل مـن التأثير ما فتـــح البـــاب لـــدخول عوامـــل الهـــدم والمكيـــدة للإســلام والمسـلين تحت عبـاءة التصـوف فدخلت المؤثرات الأجنبية واختلطـت الأمور .
جـــ ـــ وجـود بعض الآراء المتطرفـة الـتى ألصقها الناس فى أذهـانهم بعامـة الصـوفية دون بعضـهم ، فـآراء الحلاج وشـطحات أبى يزيد البسطامى والشبلى والنـورى وغـيرهم جعلت النــــاس يرفعونهـــــا على حســـــاب التصـــوف من ناحيـــة ، وإهمـــال الموقـــف الإيجابى للمشايخ فى التـبرؤ منهـا وتقبيحهـا من ناحية أخرى وممـا زاد فى الصـاق هـذه الأفكار بهم أنها وجدت قوة لتثبيتهـا وإظهـار شـــوكتها عنـــد ابن عــــربى وابن الفـــارض وغيرهما فأثمرت هذه الآراء علقمـا وحنظلا ذاق المسلمون مرارته .

د ــ الاستغلال السيئ لبعض المصــطلحات الصوفية من قبـل المرتسـمين بالتصـوف أو المعــادين لــه ، فمن خلال عــرض أوائــل الصـوفية لأقـوال المخطـئين فى فهم هـذه المصطلــحات ، يسـتطيع البـاحث أن يـرى مدى الجهد المبـذول لكشـف المقصـود فى اســتعمال المصــطلح المعين من ناحيـــة ، وفهم الأثـــر الســيئ لهــذه المصــطلحات والجهد المطلوب لرده من ناحية أخرى .

* ثانيا أهـــــم التوصيـــات

[1] - أوصى المسلم أن يتبع الشـرع بمـيزان الاعتـدال ، لأن الغلـو ابتـداع فى دين اللـه وقدح فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسـلم ووصـف لأصـحابه بالتقصـير فى الالتزام ولـذلك قـال حذيفـة بن اليمــان : **(كل عبادة لــم يتعبـد بهـا أصـحاب رسول الله صلى الله عليه وســلم ، فلا تتعبدوا بهـا فـإن الأول لم يـدع للآخر مقالا ، فـاتقوا اللـه يامعشـر القــراء خــذوا طريــق من كــان قبلكم)** (1) .

كمـا أن الغلـو فى جـانب سـوف يـؤدى إلى التقصـير فى جـانب آخـر على وجــه الضـرورة ، فاسـتطاعة الإنسـان محـدودة وقدرتــه مهمــا بلغت تتــأثر بضــعفه فى

النــواحى الأخــرى ، واللــه ســبحانه كلفنــا بمنهج يتناسب مع فطرتنـا فقـال سـبحانه: **{ لا يكلـــــف اللـــــه نفســـــا إلا وســعهــــــا }** (2) فالمنهـــج الإســلامى فيــه الخير

1- انظـر شـرح أصـول اعتقـاد أهـل السـنة والجماعـة للالكائى حـ 1 ص90 ، وحلية الأوليـاء حـ 1 ص 280 ، وأخـرج البخارى نحوه عن حذيفة رضى الله عنـه انظـر كتاب الاعتصـام بالكتـاب والسنــة بـاب الاقتـداء بسـنن رسول الله صلى الله عليه وسلـم برقم (7282) .
2- البقرة / 286 .

ولا خير أفضل منه .

[2] - وجوب الاعتدال فى النظر إلى التصوف ورجــاله ، فكـل يأخـذ من كلامـه ويـرد ولا يصح التحامـل عليهم مطلقـا ولا الموافقـة لهم مطلقا صحيح أن الواقع الصــوفى فى العصـر الحاضـر يكـوِّن صـورة بغيضـة عن الصوفية وأبناء جنسهم مطلقــا ، لكن اللـه أمرنا بالعـدل فقـال سـبحانه : **{ يا أيهـا الــذين آمنــوا كونــوا قــوامين للــه شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قــوم على ألا تعــدلوا اعــدلوا هــو أقرب للتقوى واتقـوا اللـه إن اللـه خبير بما تعملون }** (1) .

فمشايخ الصـوفية الأوائـل لهم كلام بـديع يعبر عن حقيقة الدين ولبعضهم شـطحات فى بعض الأوقات تخرج عن حد الدين .
قد أحسن شيخ الإسلام ابن تيميـة حين قال : **(تنازع النـاس فى طريقتهم ، فطائفـة ذمت الصـوفية والتصـوف وقالوا : إنهم مبتدعون خارجون عن السنة ، وطائفة غالت فيهم وادعـو أنهم أفضــل الخلــق وأكملهم بعــد الأنبيـاء ، والصـواب أنهم مجتهـدون فى طاعة الله كما اجتهد غيرهم من أهــل طاعــة اللــه ففيهم الســابق المقرب بحسـب اجتهـاده ، وفيهــم المقتصـد الـذى هــو مــن أهــل اليمـين ، وفـى كـــل مـن الصنفـين مـن قـــد يجتهـد**

1- المائدة / 8 .

فيخطئ ، وفيهم من يـــــــذنب فيتـــوب أو لايتوب (1) .

[3] - ضـرورة إبـراز المعـانى الاسـلامية من خلال مصطلح الحرية للشباب المسلم فى العصـــر الحاضـــر حـــتى يتمكن من فهم الطريقــة الســليمة للتفكــير فى الحيــاة واجتيـاز عوائقهـا إلى السـعادة فى الـدنيا

والآخرة فقد نجح الصوفية الأوائل عندما ربطوا الحرية بالعبودية فى رفـع الضغوط النفســية والتحــرر منهــا ، ورفــع تــأثير الضـــروريات الماديـــة عن ســـلوكهم وحياتهم ، ومن جـانب آخـر حققـوا الغايـة من خلقهم ووضعوا أنفسـهم فى الموضـع الصحيح من هذا الكون حيث قال تعالى :

{ وما خلقت الجن والانس إلا ليعبدون } (2) .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين وصلى الله وسلم على نبينـا محمـد وعلى آله وصحبه وسلـم

** ** **

1- الصوفية والفقراء ص 6 ، 7 .

2- الذاريات / 56 .

*** مراجع الرسالة ***

163- الإبانة عن أصول الديانـة ، للإمـام أبى الحسـن الأشعرى تحقيق الدكتورة فوقية حسين محمـود ، طبعـة دار الأنصار ، القاهــــرة سنة 1397 هـ .

164- الإحسان فى تقريب صحيح ابن حبـان ، تـأليف الإمام ابن أبى حـاتم محمـد بن حبـان البسـتى ، تحقيـق شعيب الأرنؤوط ، طبعة مؤسسة الرسالة ، بيروت سنة 1988م .

165- إحياء علوم الدين ، للإمام أبى حامد الغــزالى ، طبعة دار إحياء الكتب العربية ، عيسى الحلبى ، القاهرة سنة 1377 هـ ، 1957م .

166- أخبــــار الحلاج ، جمــــع الأســـتاذين : لـــويس ماســينيون ، وبــول كــراوس طبــع فى بــاريس ســنة 1936م .

167- آداب المريدين ، تأليف أبى النجيب ضياء الدين السهروردى تحقيق فهيم محمد شلتوت ، طبعة دار الوطن العربى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

168- آداب المريدين وبيان الكسب ، للإمام الحكيم الترمذى ، تحقيق الدكتور عبد الفتاح عبدالله بركة ، طبعة مطبعة السعادة ، القاهرة بدون تاريخ .

169- أدب النفس ، للإمام الحكيم الترمذى ، تحقيق الأستاذ ج أربرى والدكتور على حسن عبد القادر ، طبعة مصطفى البابى الحلبى القاهرة سنة 1974 م

170- أستاذ السائرين الحارث بن أسد المحاسبى ، تأليف الدكتور عبد الحليم محمود ، طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة سنة 1973م .

171- الاستقامة ، لإبى العباس تقى الدين أحمد بن عبد الحليم بن تيمية تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، طبعة مؤسسة قرطبة الطبعة الثانية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

172- أصول الدين ، تأليف عبد القادر بن طاهر البغدادى ، طبعة استانبول ، تركيا سنة 1346 هـ ، 1928م .

173- أصول الملامتية وغلطات الصوفية ، تأليف الإمام أبى عبد الرحمن السلمى ، تحقيق الدكتور عبد الفتاح أحمد الفاوى محمد طبعة مطبعة الإرشاد ، القاهرة سنة 1405 هـ ، 1985م .

174- الاعتبار ببقاء الجنـة والنـار ، تـأليف الإمـام أبى الحســن تقى الــدين الســبكى ، تحقيــق الــدكتور طــه الدســوقى حبيشــى ، طبعــة مطبعــة الفجــر الجديــدة ، القاهرة سنة 1407 هـ ، 1987م .

175- الاعتصام ، لأبى اسحاق ابراهيم بن موســى بن محمد اللخمى الشاطبى ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

176- الاعتقــاد على مــذهب الســلف أهــل الســنة والجماعة ، للإمام أبى بكر أحمـد بن الحسـين الـبيهقى ، تحقيق أحمد عصام الطالب ، طبعة دار الأوقاف الجديدة ، بيروت بدون تاريخ .

177- الأعلام ، قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء والنســـاء من العـــرب والمســـتعربين فى الجاهليـــة والإسلام ، تأليف خيرى الدين الزركلى ، طبعـة المطبعـة العربية ، القاهرة ، سنة 1927م .

178- أعمــال القلــوب والجــوارح ، لأبى عبــد اللــه الحارث بن أسد المحاسـبى ، تحقيـق عبـد القـادر أحمـد عطــا ، طبعــة دار الــتراث العــربى القــاهرة ، ســنة 1400هـ ، 1980م .

179- الاقتصاد فى أصول الاعتقاد ، تأليف الإمام أبى حامد الغزالى طبعة دار الأمانة ، بيروت ، سنة 1969م .

180- اقتضـاء الصـراط المسـتقيم لمخالفـة أصـحاب الجحيم ، تأليف شيخ الإسـلام تقى الـدين أحمـد بن عبـد

الحليم بن تيمية ، تحقيق الـدكتور ناصـر بن عبـد الكـريم العقــل ، طبعــة مؤسســة العبيكــان ، الريــاض ســنة 1404هـ ، 1986م .

181- الأمـر بالاتبـاع والنهى عن الابتـداع ، للحافـظ جلال الدين السيوطى ، تحقيق مشهور حسن سـليمان ، طبعة دار الأرقم ، الدمام سنة 1410هـ ، 1990م .

182- الأم ، للإمام محمد بن إدريس الشافعى ، طبـع بعناية محمد زهرى النجار ، طبعة دار المعرفـة ، الطبعـة الثانية ،بيروت ، لبنان سنة 1393هـ .

183- الانتصار والرد على ابن الروندى الملحـد ، لأبى الحسين الخياط ، نشرة الدكتور نيـبرج ، طبعـة القـاهرة سنة 1344هـ ، 1925م

184- البدايــة والنهايــة ، لأبى الفــداء إســماعيل بن عمرو بن كثير القرشى الدمشـقى ، طبعـة المطبعـة السلفية ، القاهرة سنة 1351 هـ 1932م .

185- الـــبراهين الســـاطعة فى رد بعض البـــدع الشائعة ، تأليف الشيخ سـلامة العـــزامى تقـديم الشـيخ الكوثرى ونجم الدين الكردى ، طبعـة مطبعـة السـعادة ، القاهرة سنة 1366 هـ ، 1948م .

186- تـاريخ الإسـلام وطبقـات المشـاهير والأعلام ، لأبى عبـد اللـه محمـد بن أحمـد الـذهبى ، طبعـة مكتبـة القدس ، القاهرة سنة 1367 هـ .

187- تـاريخ بغـداد ، تـأليف أبى بكـر أحمـد بن على الخطيب البغـدادى ، طبعـة مطبعـة السـعادة ، القـاهرة 1349هـ ، 1931م .

188- تاريخ التصوف الإسلامى من البداية حتى نهايـة القرن الثانى للدكتور عبد الرحمن بـدوى ، طبعـة وكالـة المطبوعات ، الكويت ، سنة 1975 م .

189- تـاريخ التصـوف فى الإسـلام ، تـأليف قاسـم غـنى ، ترجمـه عن الفارسـية صـادق نشـأت ، طبعـة النهضة المصرية ، القاهرة سنة 1390هـ ، 1970م .

190- تاريخ الرسل والملوك ، لأبى جعفر محمـد بـن جرير الطبرى تحقيـق أبو الفضـل إبـراهيم ، طبعـة دار المعارف ، القاهرة سنة 1383هـ ، 1964م .

191- التـاريخ الكبـير ، لأبى عبـد اللـه محمـد بن إسـماعيل البخـارى طبعـة مطبعـة دائـرة المعـارف النظامية ، حيدر آباد ، الهند ، سنة 1360هـ .

192- تاريخ المذاهب الإسلامية فى السياسة والعقائد وتاريخ المذاهب الفقهية للإمام محمد أبـو زهـرة ، طبعـة دار الفكر العربى ، القاهرة بدون تاريخ .

193- تذكـرة الأوليـاء ، لفريـد الـدين العطـار ، القاهرة ، بدون تاريخ

194- التصوف طريقا وتجربة ومذهبا ، تأليف الدكتور محمد كمال إبراهيم جعفـر طبعـة دار الكتب الجامعيـة ، القاهرة سنة 1390هـ 1970م .

195- التصوف فى الإسلام وأهم الاعتراضات الواردة عليه تأليف الدكتور عبد اللطيف محمد العبد ، طبعـة دار الثقافة العربية ، القاهرة سنة 1407 هـ ، 1986م .

196- التصوف فى تراث ابن تيميـة ، تـأليف الـدكتور الطبلاوى محمود سـعد ، طبعـة الهيئـة المصـرية العامـة للكتاب ، القاهرة سنة 1405 ، 1984 م .

197- التعرف لمذهب أهل التصوف ، لأبى بكر محمد الكلاباذى تحقيق محمود أمين النــواوى ، طبعـة مكتبـة الكليات الأزهرية ، القاهرة سنـة 1400 هـ 1980م .

198- التعليقــات ، وهى رســالة ضــمن أحــد عشــر رسـالة للفـارابى طبعـة دائـرة المعـارف العثمانيــــة ، حيدر آباد الهند ، سنة 1354هـ .

199- تفسير القرآن العظيم ، لأبى الفـداء إسـماعيل بن كثـير القرشــى الدمشــقى ، طبعـة دار إحيـاء الكتب العربية ، القاهرة بدون تاريخ .

200- تفسير القـرآن العظيم ، لأبى محمـد سـهل بن عبد اللـه التسـترى طبعـة دار الكتب العربيـة الكـبرى ، القاهرة سنة 1329هـ .

201- تلـبيس إبليس ، لأبى الفـرج عبـد الـرحمن بن الجـوزى ، طبعـة مطبعـة القـاهرة الحديثـة للطباعــة ، القاهرة ، سنة 1391هـ ، 1971م .

202- التنوير فى إسـقاط التـدبير ، تـأليف ابن عطـاء السكندرى تحقيق موسى محمد على المــوشى ، وعبـد العال أحمد العرابى القاهرة بدون تاريخ .

203- تهافت الفلاسفة ، لأبى حامد الغزالى ، تحقيــق سـليمان دنيـا طبعــة دار المعــارف ، الطبعــة الثالثــة ، القاهرة ، سنة 1972م .

204- تهــذيب الكمــال فى أســماء الرجــال ، لأبى الحجاج يوسف بن عبد الـرحمن بن يوسـف الدمشـقى ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة بدون تاريخ .

205- توحيـد الربوبيـة ، ضـمن مجمـوع فتـاوى شـيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الــرحمن بن قاســم وابنــه محمــد طبعــة دار الإفتــاء بالمملكة العربية السعــودية ، الرياض ، سنة 1381هـ .

206- جــامع البيــان عن تأويــل القــرآن لأبى جعفــر محمد بن جرير الطبرى ، طبعة دار المعرفــة ، بـيروت ، لبنان ، سنة 1398هـ 1978م .

207- الجامع الصحيح ، للإمام أبى عبد الله محمد بن إسـماعيل البخــارى ، تحقيـق وتـرقيم محمـد فـؤاد عبـد البـاقى ، مـع فتح البـارى طبعـة دار الريـان للـتراث ، القاهرة سنة 1407 هـ ، 1986 م .

208- الجـامع الصـحيح ، للإمـام مسـلم بن الحجـاج القشيرى ، تحقيق وترقيم محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعة المكتبة السلفية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

209- جـــامع العلـــوم والحكم ، للإمـــام ابن رجب الحنبلى ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة ، سـنة 1369هـ ، 1948 م .

210- الحريـة فى الإسـلام ، تـأليف الشـيخ محمـد الخضر حسين طبعة دار الاعتصام للطباعـة الإسـلامية ، القاهرة ، سنة 1403 هـ 1982م .

211- الحريـة فى الإسـلام ، تـأليف الدكتـــور عبـد الواحـــد وافـى ضمن سلسلـــة كتاب اقرأ .

212- الحكيم الترمذى ونظريته فى الولاية ، للـدكتور عبد الفتاح عبدالله بركه طبعة مجمـع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف القاهرة سنـة 1391هـ ،1971م .

213- حليـة الأوليـاء وطبقـات الأصـفياء ، لأبى نعيم أحمد بن عبد الله الأصفهـانى ، طبعة مطبعـة السـعادة ، القاهرة سنة 1351هـ .

214- الحيـاة الروحيـة فى الإسـلام ، تـأليف الـدكتور محمد مصـطفى حلمى ، طبعـة الهيئـة المصـرية العامـة للكتاب ، القاهرة سنة 1984م .

215- ختم الأولياء ، تأليف الشيخ أبى عبد الله محمـد بن الحسن الحكيم الترمـذى ، تحقيـق عثمـان إسـماعيل يحى ، طبعة المطبعة الكاثوليكيـة ، بيروت ، 1965م .

216- خلق أفعال العباد ، للإمام محمد بن البخـارى ، تحقيـق على سـامى النشـار وعمـار الطـالبى ، طبعـة منشأة المعارف ، الإسكندرية سنة 1971م .

217- درء تعارض العقل والنقل ، لشـيخ الإسـلام ابن تيمية ، تحقيق الدكتور محمد رشاد سالم ، طبعة جامعــة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، السعودية سنة 1403 هـ 1983م .

218- دراســات فى الفلســفة الإســلامية ، تــأليف الدكتور محمود قاسم طبعـة مكتبـة القـاهرة الحديثـة ، القاهرة سنة 1972م .

219- الـدر المنثـور فى التفسـير بالمـأثور ، للحافـظ جلال الدين عبـد الـرحمن السـيوطى طبعـة دار الفكـر ، القاهرة ، بدون تاريخ .

220- الـرد على الجهميـة ، تـأليف عثمـان بن سـعيد الدارمى ، تحقيق على سامى النشار ، وعمار الطـالبى ، ضمن عقائد السلف ، القاهرة بدون تاريخ .

221- الرد على الزنادقة والجهمية ، للإمـام أحمـد بن حنبــل ، نشــرة قصــى محب الــدين الخطيب ، طبعــة المطبعة السلفية ، القاهرة ، سنة 1399هـ .

222- الــرزق الحلال وحقيقــة التوكــل على اللــه ، للحــارث بن أســد المحاســبى ، تحقيــق محمــد عثمــان الخشت ، طبعة مطبعة القرآن القاهرة سنة 1405هـ ، 1984م

223- الرسالة العرشية ، وهى رسالة ضمن مجموعة تسع رسائل لابن سينا ، طبعة مطبعة كردستان العلمية ، سنة 1328هـ .

224- رسالة فى سر القدر ، لابن سينا ، ضمن الرسائل السابقة .

225- الرسالة القشيرية ، للإمام أبى القاسم عبد الكريم القشيرى تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، ومحمود بن الشريف ، طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة سنة 1974م .

226- الرياضة وأدب النفس ، للحكيم الترمذى ، تحقيق الأستاذ ج أربرى والدكتور على حسن عبد القادر ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة سنة 1947م .

227- زاد المسير فى علم التفسير ، لأبى الفرج جمال الدين بن الجوزى ، تحقيق محمد عبد الرحمن عبد الله ، طبعة دار الفكر الإسلامى ، القاهرة سنة 1987 م

228- السلوك ، ضمن مجموع فتاوى شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية ، جمع وترتيب عبد الرحمن بن قاسم وابنه محمد ، طبعة دار الإفتاء ، المملكة العربية السعودية ، سنة 1381هـ .

229- سنن ابن ماجه لأبى عبد الله محمد بن يزيد القزوينى بن ماجه ، تحقيق الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى ، طبعة عيسى الحلبى ، القاهرة سنة 1372هـ ، 1952م .

230- سنن أبى داود ، لأبى داود سليمان بن الأشعث السجستانى ، تحقيـق محمـد محى الـدين عبـد الحميـد ، طبعة المكتبة التجارية ، القاهرة سنة 1369هـ .

231- سنن الترمذى ، لأبى عيسى محمـد بن عيسـى الترمـذى ، تحقيـق عبـد الوهـاب عبـد اللطيـف ، طبعـة مطبعة المدنى ، القاهرة سنة 1384هـ 1964م .

232- سنن الدارمى ، لأبى محمـد عبـد اللـه بن عبـد الرحمن بن الفضل الدارمى ، تحقيق محمد أحمد دهمان ، طبعة دار إحياء السنة النبوية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

233- السنن الكبرى ، لأحمـد بن الحسـين الـبيهقى ، طبعة دار الفكر العربى ، دمشق سوريا ، ومعـه الجـوهر النقى لابن التركمانى ، بدون تاريخ .

234- سنن النسـائى ، شـرح السيوطى ، لأبى عبـد الـرحمن بن شـعيب بن على النسـائى طبعـة المطبعـة المصرية ، مصطفى الحلبى القاهرة ، سنة 1383هـ ، 1964م

235- السياسة الشرعية ونظام الدولة الإسلامية فى الشـئون الدسـتورية والخارجيـة والماليـة للشـيخ عبـد الوهـاب خلاف ، طبعـة دار الأنصـار ، القـاهرة سـنة 1977م .

236- سـير أعلام النبلاء ، لأبى عبـد اللـه محمـد بن أحمـد بن عثمـان الـذهبى ، طبعـة دار الكتب المصـرية ، القاهرة ، بدون تاريخ .

237- سيرة الشيخ الكبير أبعبد الله محمد بن خفيف الشيرازى ، تأليف أبى الحسن على بن محمد الـديلمى ، تحقيـق الـدكتور إبـراهيم الدسـوقى شـتا ، طبعـة مجمـع البحـوث الإسـلامية بـالأزهر الشـريف ، القـاهرة سـنة 1397هـ ، 1977م

238- السـيرة النبويـة ، لأبى محمـد عبـد الملـك بن هشام ، تحقيق محمد محى الدين عبـد الحميـــد ، طبعـة مطبعة المدنى ، القاهرة سنة 1383هـ .

239- شـــذرات الـــذهب فى أخبـــار من ذهب ، لأبى الفلاح عبد الحى بن أحمد الصالحى المشهور بابن العماد الحنبلى ، طبعـــة مكتبـــة القدســـى ، القـــاهرة ، ســـنة 1350هـ .

240- شرح أصول اعتقاد أهـل السـنة والجماعـة من الكتاب والسنة وإجماع الصحابة ، تأليف أبى القاسم هبة اللـه بن الحسـن بن منصـور الطـبرى اللالكـائى ،تحقيـق الدكتور أحمد سعد حمدان طبعة دار طيبـة ، الريـاض سنة 1409هـ ، 1988م .

241- شـــرح الســـنة ، للإمـــام الحســـين بن مســـعود الفراء البغوى ، تحقيق زهـير الشـاويش وشـعيب الأرنـاؤوط ، طبعـة المكتب الإسـلامى ، القـاهرة 1396 هـ .

242- شرح العقيـدة الطحاويـة ، لابن أبى العـز على بن على الحنفى ، تحقيــق الشــيخ محمــد ناصــر الــدين

الألبانى ، طبعة المكتب الإسلامى القـاهرة سنــة 1392 هـ .

243- الشريعة ، لأبى محمد بن الحسين بن عبد اللـه البغدادى الأجـرى ، تحقيـق الشيـخ محمـد حامـد الفقى ، طبعة أنصار السنة المحمدية ، القاهرة 1369 هـ .

244- شــفاء العليــل فى مســائل القضــاء والقــدر والحكمـة والتعليـل ، تـأليف الإمـام شـمس الـدين محمد ابن القيم الجوزيـة ، طبعـة دار الفكـر ، القـاهرة ، سنة 1398 هـ ، 1978 م .

245- صحيح ابن حبـان ، لأبـى حـاتم محمـد بن حبـان بن أحمد بن حبان التميمى تحقيق الشيخ أحمـد شـاكر ، طبعة دار المعارف ، القاهرة ، سنة 1372 هـ .

246- صـحيح الجـامع ، للشـيخ محمـد ناصـر الـدين الألبـانى ، طبعــة المكتب الإســلامى ، الطبعــة الثانيــة ، دمشق ، سوريا ، سنة 1399هـ .

247- الصـفدية ، لأبى العبـاس تقى الـدين أحمـد بن عبــد الحليم بن تيميــة ، تحقيــق الــدكتور محمــد رشــاد سالم ، طبعـة دار الإفتـاء بالمملكـة العربيـة السـعودية ، الرياض ، سنة 1406 هـ .

248- صفة الصفوة ، للإمام جمال الـدين أبى الفــرج عبـد الـرحمن بن على بن الجـوزى ، طبعـة دار الصـفا ، القاهرة سنة 1411هـ .

249- الصلاه ومقاصدها ، لأبى عبد الله محمد بن الحسن الحكيم الترمذى ، تحقيق الأستاذ حسنى نصر زيدان ، طبعة القاهرة سنة 1965م .

250- الصوفية والفقراء ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تقديم الدكتور محمد جمسل غازى ، طبعة مكتبة المدنى ، جدة ، السعودية ، بدون تاريخ .

251- صيد الخاطر ، للإمام جمال الدين أبى الفرج عبد الرحمن بن على بن الجوزى ، طبعة دار الفكر العربى ، دمشق ، سوريا سنة 1380هـ .

252- طبقات الشافعية الكبرى ، لتاج الدين عبد الوهاب بن على السبكى ، تحقيق عبد الفتاح الحلو ومحمود الطناحى ، طبعة المطبعة الحسينية ، القاهرة ، 1324هـ .

253- طبقات الصوفية لأبى عبد الرحمن السلمى ، تحقيق نور الدين شريبه ، طبعة مكتبة الخانجى ، القاهرة سنة 1372 هـ .

254- الطبقات الكبرى ، لعبد الوهاب بن أحمد بن الشعرانى ، طبعة بولاق ، القاهرة سنة 1914م .

255- طبقات المعتزلة ، لأحمد بن يحى بن المرتضى ، تحقيق سوسنه ديفشلد فيلزر ، طبعة المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ، بدون تاريخ .

256- الطـرق الصـوفية فى مصـر نشـأتها ونظمهـا ، للـدكتور عـامر النجـار ، طبعـة مكتبـة الأنجلـو مصـرية ، القاهرة ، سنة 1987م .

257- طريـق الهجـرتين وبـاب السـعادتين ، تـأليف شـمس الـدين بن القيم الجوزيـة تحقيـق محب الـدين الخطيب ، طبعـة المكتبـة السـلفية ، سـنة 1407 هـ .

258- الطواسين ، لأبى المغيث الحسـين بن منصـور الحلاج ، نشره الأستاذ لويس ماسـينيون ، طبعـة بـاريس سنة 1913 م .

259- عـوارف المعـارف ، للإمـام شـهاب الـدين أبى حفص بن عمر السهروردى ، تحقيق الدكتور عبـد الحليم محمـود والـدكتور محمـود بن الشـريف طبعـة مطبعـة السعادة القاهرة سنة 1971 م .

260- العواصـم من القواسـم فى تحقيـق مواقـف الصحابة بعد وفاة النبى صلى اللـه عليـه وسـلم ، تـأليف القاضى أبى بكر بن العربى ، تحقيـق محب الـدين الخطيب ، طبعة المكتبـة السـلفية ، الطبعـة الخامسـة ، القاهرة ، سنة 1399 هـ .

261- العواصـم والقواسـم فى الـذب عن سـنة أبى القاسم ، لابن الوزير، تحقيق شـعيب الأرنـاؤوط ، طبعـة مؤسسة الرسالة ، بيروت لبنان ، بدون تاريخ .

262- عيـوب النفس ، لأبى عبـد الـرحمن السـلمى ، تحقيق مجدى فتحى السيد ، طبعة مكتـبى الصـحابة ، طنطا ، مصر ، سنة 1408هـ ، 1987م .

263- فتح البـارى شـرح صـحيح البخـارى ، للإمـام الحافـظ أحمـد بن على بن حجـر العسـقلانى ، تحقيـق محمـد فـؤاد عبـد البـاقى ، طبعـة دار الريـان للـتراث ، القاهــرة سنة 1407 هـ ، 1986م .

264- فتح القـدير الجـامع بين فـنى الروايـة والدرايـة من علم التفسـير ، للأمـام محمـد بن على بن محمـد الشوكانى ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة سنة 1383هـ .

265- الفتوحات المكية ، لأبى بكر محى الدين محمد بن على بن محمد الشـهير بـابن عـربى ، طبعـة بـولاق ، القاهرة ،سنة 1293 هـ .

266- الفتوى الحموية الكبرى ، تـأليف شـيخ الإسـلام ابن تيمية ، طبعة روضة الفسـطاط ، القـاهرة سـنة 1398هـ .

267- الفرق بين الفرق ، تأليف عبد القادر بن طـاهر بن محمد البغدادى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بـيروت ، لبنان ، سنة 1405هـ ، 1985م .

268- الفصـل فى الملـل والأهـواء والنحـل ، تـأليف الإمـام أبى محمـد على بن أحمـد بن حـزم الظـاهرى ، تحقيـق الـدكتور محمـد إبـراهيم نصـر والـدكتور عبـد

الرحمن عميرة ، طبعة دار الجبل ، بيروت ، لبنان سـنة 1405هـ ، 1985م

269- فصـول فى التصـوف ، تـأليف الـدكتور حسـن محمود عبد اللطيف الشافعى ، طبعة دار الثقافة للنشـر والتوزيع ، القاهرة سنة 1991هـ .

270- فضائح الباطنيـة ، للإمـام أبى حامـد الغـزالى ، تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى ، طبعة القاهرة ، سنة 1964م .

271- فـوات الوفيـات ، لابن شـاكر الكتـبى ، تحقيـق محمد بن محى الدين عبد الحميد طبعة بولاق ، القاهرة ، سنة 1951م .

272- الفهرســـت ، تـــأليف محمـــد بن اســـحاق بن النديم ، طبعة المكتبة التجارية الكبرى ، القـاهرة ، سـنة 1348هـ .

273- القصـد والرجــوع إلى اللــه ، لأبى عبــد اللــه الحارث بن أسد المحاسـبى ، تحقيـق عبـد القـادر أحمـد عطـا ، طبعـة دار الـتراث العـربى ، القـاهرة ، سـنة 1400هـ ، 1980م .

274- القضـاء والقـدر فى الإسـلام ، تـأليف الـدكتور فارق أحمد الدسوقى ، طبعة دار الدعوة ، الإسـكندرية ، سنة 1984هـ .

275- قضية التصوف المنقذ من الضلال ، للدكتور عبد الحليم محمود ، طبعة دار المعارف ، الطبعة الثانية ، القاهرة سنة 1985 م .

276- قوت القلوب فى معاملة المحبوب ، للشيخ أبى طالب محمد بن أبى الحسن على بن عباس المكى ، طبعة مكتبة المتنبى ، القاهرة سنة 1310هـ .

277- الكامل فى التاريخ ، لعلى بن محمد بن الأثير ، طبعة مصطفى البابى الحلبى ، القاهرة سنة 1303هـ .

278- كتاب التوهم ، لأبى عبد الله الحارث بن أسد المحاسبى طبعة دار التراث العربى القاهرة سنة 1400 هـ ، 1980 م .

279- كتاب الصدق لأبى سعيد أحمد بن عيسى الخراز ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة سنة 1975 م .

280- كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ، لإسماعيل بن محمد العجلونى ، طبعة دار إحياء التراث العربى ، بيروت ، لبنان سنة 1351 هـ .

281- كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، تأليف مصطفى بن عبد الله المشهور بحاجى خليفة ، نشرة المستشرق جوستاف فلويجل طبعة مكتبة المثنى بغداد ، بدون تاريخ .

282- كشـــف المحجـــوب ، لأبى الحســـن على بن عثمان الهجويرى ، تحقيـق الـدكتور إبـراهيم الدسـوقى شـتا ، طبعـة دار الـتراث العـربى ، القـاهرة 1394 هــ ، 1974 م

283- الكواكب الدرية فى تـراجم السـادة الصـوفية ، تـأليف عبـد الـرؤوف المنـاوى ، نشـر منـه جـزء واحـد ، القاهرة ، سنة 1357 هـ .

284- اللؤلؤ والمرجـان فيمـا اتفـق عليـه الشـيخان ، وضـعه محمـد فـؤاد عبـد البـاقى ، طبعـة دار الحـديث ، القاهرة سنة 1993 م .

285- اللبـاب فى تهـذيب الأنسـاب ، لعلى بن محمـد بن الأثير طبعة مكتبة القدسى ، القاهرة سنة 1375 هـ .

286- لسـان العـرب ، لمحمـد بن مكـرم بن منظـور الإفريقى طبعة دار المعارف ، القاهرة ، سنة 1307 هـ .

287- لطـائف الإشـارات ، للإمـام أبى القاسـم عبـد الكـــريم القشـــيرى ، طبعـــة دار الكتب الحديثـــة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

288- اللمـــع فى التصـــوف ، لأبى نصـــر الســـراج الطوسى ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، وطه عبد الباقى سرور ، طبعة دار الكتب الحديثـة ، القـاهرة سـنة 1960 م .

289- اللمـع فى الـرد على أهـل الزيـغ والبـدع ،لأبى الحسـن على بن اسـماعيل الأشـعرى ، تقـديم الـدكتور محمـود غرابـة ، طبعـة مطبعـة مصـر ، القـاهرة سـنة 1955 م .

290- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، لعلى بن أبى بكر الهيثمى طبعة مطبعة القدسى ، القاهرة ، بدون تاريخ .

291- المحيـــط بالتكـــاليف ، لقاضـــى القضـــاه أبى الحسن عبد الجبار الأسـد ابـادى تحقيـق عمـر عـزمى ، طبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة سنة 1965م .

292- مختصـــر الصـــواعق المرســـلة على الجهميـــة والمعطلـــة تـــأليف شـــمس الـــدين بن القيم الجوزيـــة ، طبعة مكتبة المتنبى ، القاهرة سنة 1981 م .

293- مختصـر العلـو للعلى الغفـار ، تـأليف الحافـظ شـمس الـدين الـذهبى ، تحقيـق محمـد ناصـر الألبـانى ، طبعة المكتب الإسلامى دمشق ، سـوريا ، سـنة 1401 هـ ، 1981 م .

294- مختصر منهاج القاصدين ، تأليف أحمد بن عبـد الرحمن بن قـدامى المقدسـى ، طبعـة مكتبـة الإيمـان ، المنصورة ، مصر ، سنة 1994 م .

295- مدارج السـالكين بين منـازل إيـاك نعبـد وإيـاك نستعين ، تأليف شمس الدين بن القيم الجـوزى ، طبعـة دار الفكر العربى ، القاهرة سنة 1375 هـ .

296- مدخل التصوف الإسلامى ، تـأليف الـدكتور أبـو الوفـا التفتـازانى ، طبعـة دار الثقافـة ، القـاهرة سـنة 1983م .

297- مرآة الجنان وعبرة اليقظان ، للإمـام أبى عبـد اللــه محمــد بن عبــد اللــه بن أســعد اليــافعى ، طبعــة حيدآباد ، الهند سنة 1338 هـ .

298- المســتدرك على الصــحيحين ، لأبى عبــد اللــه محمد بن عبد الله الحاكم النيسابورى ، طبعة حيدر آباد ، الهند سنة 1342 هـ .

299- المسند ، للإمام أحمد بن حنبل ، تحقيق الشيخ أحمد شاكر طبعة دار المعارف ، القاهرة ، سنة 1374 هـ ، 1955 م .

300- المسند ، للإمـام أبى يعلى الموصـلى ، تحقيـق حسين سليم أحمد ، طبعـة المكتب الإسـلامى ، القـاهرة سنة 1410 هـ ، 1989 م .

301- المصنف ، لعبـد الـرزاق بن همـام الصـنعانى ، تحقيـــق حـــبيب الـــرحمن الأعظمى ، الطبعـــة الأولى ، القاهرة سنة 1392 هـ .

302- معجم البلــدان فى معرفــة المــدن والقــرى والعمار والسهل والوعر من كل مكان ، لياقوت بن عبــد الله الرومى الحموى ، طبعة مطبعة السـعادة ، القـاهرة سنة 1323هـ .

303- معرفة السنن والآثار عن الإمام الشافعى ، تصنيف أحمد بن الحسين البيهقى ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .

304- المعارضة والرد على أهل الفرق وأهل الدعاوى فى الأحوال ، تأليف سهل بن عبد الله التسترى ، تحقيق الدكتور محمد كمال جعفر ، طبعة دار الإنسان سنة 1980م .

305- المغنى للإمام موفق الدين بن قدامة ، ومعه الشرح الكبير طبعة دار الكتاب العربى ، بيروت ، لبنان ، سنة 1393هـ 1973 م .

306- مفتاح دار السعادة ، للإمام شمس الدين بن القيم الجوزيه طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت ، لبنان ، بدون تاريخ .

307- مفتاح السعادة ومصباح السيادة ، لأحمد بن مصطفى طاش كبرى زاده ، طبعة دار الكتب الحديثة ، القاهرة ، بدون تاريخ .

308- المفردات فى غريب القرآن لأبى القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصفهانى ، تحقيق محمد سيد كيلانى ، طبعة مصطفى البابى الحلبى القاهرة سنة 1324هـ .

309- مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين ، لأبى الحسن الأشعرى ، تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد

، طبعة مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة سنة 1389 هـ ، 1969 م .

310- المقدمة ، لعبد الرحمن بن محمد بن خلدون ، تحقيق الدكتور على عبد الواحد وافى ، طبعة لجنة البيان العربى سنة 1960م .

311- الملل والنحل ، على هامش الفصل لابن حزم ، لأبى الفتح محمد بن عبد الكريم الشهرستانى ، تحقيق محمد السيد الكيلانى ، طبعة القاهرة سنة 1961م .

312- من التراث الصوفى لسهل بن عبد الله التسترى ، للدكتور محمد كمال إبراهيم جعفر طبعة دار المعارف ، القاهرة سنة 1974م .

313- المنتظم فى تاريخ الأمم والملوك لابن الجوزى ، تحقيق محمد عبد القادر عطا ، ومصطفى عبد القادر عطا ، طبعة دار الكتب العلمية ، بيروت لبنان ، سنة 1412هـ ، 1992م .

314- المنقذ من الضلال ، للإمام أبى حامد الغزالى ، تحقيق الدكتور عبد الحليم محمود ، طبعة دار الكتب الحديثة الطبعة الخامسة ، القاهرة سنة 1385هـ .

315- من قضايا التصوف فى ضوء الكتاب ، للدكتور محمد السيد الجليند ، طبعة مطبعة التقدم ، القاهرة سنة 1406 هـ ، 1985 م .

316- المنية والأمل فى شرح كتاب الملـل والنحـل ، لأحمد بن يحى بن المرتضى ، تحقيـق توماسـى آرتولـد ، طبعة حيدر آباد الهند سنة 1316 هـ .

317- ماهيـة العقـل ، للحـارث بن أسـد المحاسـبى ، تحقيق الدكتور حسين القوتلى ، طبعة بيــروت ، لبنــان ، سنة 1972هـ .

318- موقف الصوفية من العقـل حـتى نهايـة القـرن الرابع الهجـرى للـدكتور محمـد عبـد اللـه الشـرقاوى ، رسالة ماجسـتير ، مخطـوط بكليـة دار العلـوم ، جامعـة القاهرة .

319- ميزان الاعتدال ، لأبى عبد الله محمد بن أحمد الذهبى تحقيق على محمـد البجــاوى ، طبعـة دار إحيـاء الكتب العربية ، بيروت سنـة 1282هـ ، 1963م .

320- نشـأة الفكـر الفلسـفى فى الإسـلام ، للـدكتور على سامى النشار ، طبعة دار المعـارف ، القاهرة سنة 1969هـ .

321- نقد المنطق ، لشيخ الإسلام ابن تيمية ، تحقيق الشيخ محمد بن عبد الـرزاق حمــزه ، سـليمان بن عبـد الـرحمن الصـفع ، طبعـة دار الكتب العلميـة ، بـيروت ، لبنان ، سنة 1370 هـ ، 1951 م .

322- نهايــــة الإقــــدام فى علم الكلام ، لأبى الفتح محمــد بن عبــد الكــريم الشهرســتانى ، تحقيــق ألفردجيوم ، طبعة اكسفورد سنة 1934م .

323- نوادر الأصول فى معرفة أخبار الرسـول ، لأبى عبد الله محمـد بن الحسـن الحكيم الترمـذى ، طبعـة استانبول ، تركيا سنة 1293 هـ .

324- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، لابن خلكان تحقيق محمـد محى الـدين عبـد الحميــد ، طبعـة مكتبـة النهضة المصرية ، القاهرة سنة 1367هـ ، 1948م .

** ** **

الموضــــــــــــــــــــــــــوع	الصفحــة
- المقدمـــــــــــــة	2
- أهمية الموضـــوع	6
- منهج البحث	8
- خطة البحث	10
- الباب الأول :................................ دراسة فى مفهوم الحرية وواقع الصوفية	13
- الفصل الأول:................................ واقع التصوف والصوفية	14

تـــــم بحمــــــد اللـــــه

** ** **

الباب الأول

دراسة فى مفهوم الحرية وواقع الصوفية

ويشتمل على فصلين :

- الفصل الأول : واقع التصوف والصوفية فى القرنين الهجريين الثالث والرابع .

الفصل الثانى : دراسة فى مفهوم الحرية .

الفصل الأول

واقع التصوف والصوفية

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : التـصـــــــــــوف نسبتــــــــــه ومعنـــاه .
- المبحث الثـانى: دراسة العوامل التى أسهمت فى ظهـور التصوف والصوفية .
- المبحث الثالث : موضوع التصوف وأهم قضاياه .

الفصل الثانى

دراسة فى مفهوم الحرية

وقد اشتمل على ثلاثة مباحث :

- المبحث الأول : الحرية لغة وشرعا .
- المبحث الثـانى : الحرية فى تاريخ الفكرالإسلامى .
- المبحث الثالث : الحرية ومنهج الحياة الإسلامية .

الـمقــدمـــة